المركز القومى للترجمة

10.9.2015

ستيفين هوارث

فرسان الهيكل

القصة الأساسية

ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم

المشروع القومى للترجمة

1927

فرسان الهيكل

القصة الأساسية

تـــألـــيـــف : ســتـــيـــفين هوارث

ترجـــمـــة : إبراهيم محمد إبراهيم

2013

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1927
- فرسان الهيكل: القصة الأساسية
- ستيفين هوارث
- إبراهيم محمد إبراهيم
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

THE KNIGHTS TEMPLAR: The Essential History
By: Stephen Howarth

Published by arrangement with The Continuum International Publishing Group

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هوارث، ستيفين .

فرسان الهيكل: القصة الأساسية تأليف: ستيفين هوارث،

ترجمة : إبراهيم محمد إبراهيم

ط ١- القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣

٣٩٦ ص، ٢٤ سم

١- القصص الإنجليزية.

(أ) إبراهيم، إبراهيم محمد (مترجم).

(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٠٥٦٣
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 216 - 131 - 7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

الفهرس

قائمة الصور

زخرفة الجماعة.

تم اختيار بيجاسوس (الجواد المجنح) شعارا لفرسان الهيكل. تذهب الرواية إلى أن رجلين امتطيا جوادا واحدا على سبيل الاقتصاد؛ فأعطى هذا الجواد، من على بعد، انطباعا بأن الجواد له جناحان مرفوعان. والآن فإن بيجاسوس جواد بجناحين ممتدين هما ذراعا الهيكل الداخلي، لندن.

معلمو جماعة الهيكل في القدس.

هيو دى بيان

١١٣٦-١١١٨

روبير دى كرون (البيرجندى) يناير ١١٣٦ - ١١٤٥

افار دى بار، ١١٤٩

بيرنار دى ترمبلى، ١٦ اغسطس ١١٥٢ - ١١٥٣

أندرى دى مونبار، ١٧ يناير ١١٥٣ - ١١٥٦

بيرتراند دى بلانكفورت، ٢ يناير ١١٥٦ - ١١٦٩

فيليب دى ميلى من نبلس، ١١٦٩

ودو دى سان-امان، ٨ أكتوبر ١١٧١- ١١٧٩

أرنولد دى تورروج، ٣٠ سبتمبر ١١٨٠ - ١١٨٤

جيرار دى ريدفور، ٤ أكتوبر ١١٨٤ - ١١٨٩

روبير دى سابل ٢٨ أكتوبر ١١٩١ - ١١٩٤

جيلبير ايريل، ٢١ ديسمبر ١١٩٤ - ١٢٠١

فيليب دى بليزى، ١٢ فبراير ١٢٠١ - ١٢٠٩

ويليام دى شارتر، ٢٥ أغسطس ١٢١٠ - ١٢١٩

بيدرو دى مونتاجيو، ٢٨ يناير ١٢١٩ - ١٢٣٢

ارمان دى بيراجور، ١٧ أكتوبر ١٢٣٢ - ١٢٤٤

ريشار دى بور، ٩ مايو ١٢٤٤/٥ - ١٢٤٧

ويليام دى سوناج، ١١ فبراير ١٢٤٧ - ١٢٥٠

رينو دى فيشيى، ٢٠ يناير ١٢٥٠ - ١٢٥٦

توماس بيرار، ٢٥ مارس ١٢٥٦ - ١٢٧٣

ويليام دى بوجى، ١٨ مايو ١٢٧٣ - ١٢٩١

تيبالد جودان، ١٦ إبريل ١٢٩١ - ١٢٩٣

جاك دى مولى، ١٨ مارس ١٢٩٣ - ١٣١٤

تصدير

لقد مرت نحو سبعمائة سنة منذ أن حل البابا كليمينت الخامس جمعية فرسان هيكل سليمان. ومنذ ذلك الوقت رويت قصتهم عدة مرات، ومن المحتمل أنها سوف تروى مرات أكثر، ذلك لأنها حكاية تضم جميع عناصر التاريخ الرومانسية؛ إذ إنها وقعت فى أماكن غريبة، وأزمنة عجيبة، وبها شخصيات تملك أسمى المثل، كما أن بها أعمق أمثلة الفساد، وتتفشى فيها الأسرار.

وينبع الكثير من الغموض الذى يحيط بفرسان الهيكل من نقص المعلومات، ومن الكثير من الكتاب الذين أطلقوا العنان لخيالهم بالتصرف فى الحقائق المعلومة، وبذلك قدموا افتراضا تحت قناع التاريخ. ذلك أن جمعيات النخبة الغامضة السرية – كما كانت فرسان الهيكل – دائما ما كانت تفتن عقول أولئك الأشخاص الذين لم يكونوا من أعضائها: فالمرء يتخيل ما يحبه، دونما خوف من أن يعارضه أحد. وهذا شىء طيب عند كتابة الروايات، أما فى التاريخ فهو، فى أحسن الفروض، يعد مضيعة للوقت، وفى أسوأ الفروض يعد شيئًا مضللا على طول الخط. ولكن، لأن فرسان الهيكل كانوا ظاهرة تاريخية وليسوا ظاهرة أسطورية، فإن معلومات حقيقية تظهر فى دائرة الضوء باستمرار مبددة بعض الألغاز والأشياء غير المؤكدة، وإن لم تبددها جميعا. ومع البزوغ البطىء للمعلومات من غبار المحفوظات والمكتبات، تصبح دوافع فرسان الهيكل أولئك الرجال الغرباء، الذين كانوا فى وقت من الأوقات فرسانًا ورهبانًا، أمورا أكثر قابلية للفهم وتصبح القصة غير عادية أكثر من ذى قبل.

لقد مر جيل منذ أن كُتب آخر سرد كامل لتاريخ فرسان الهيكل. أما الموجز الذى فرضته على نفسى، فهو أن أقدم، فى حدود المساحة المتاحة، صورة تتسم بأكبر قدر

من الدقة لميلاد وحياة هذه الجماعة غير المسبوقة وموتها المفاجئ، إزاء قرنين من التغيرات فى مجتمع العصور الوسطى. وإذا ما استمر البحث فى فرسان الهيكل، فإن الجيل القادم سوف يجد أن الأشياء التى أعتقد أنها حقيقية مضللة. لذا فإنى أعد هذا الكتاب مرحلة انتقالية وهو يعبر عن حالة ما يعرف عن فرسان الهيكل فى الوقت الراهن. ذلك أن تاريخ الجمعية على درجة من التعقيد - وأحيانا من الغموض حتى أنك لا تكاد تجد مؤرخين يتفقان فى كل نقطة تتعلق بهم. لذا فحين كنت أقوم بالبحث من أجل كتابة هذا الكتاب شعرت بتعاطف عميق مع توماس فولر. ففى عام ١٦٣٩ نشر كتاب تاريخ الحرب المقدسة، وفى مرحلة معينة قال بياس، "يجب أن أقر بأنه ليس فى مقدورى أن أخلص بأى اتفاق من تضارب الكّتاب".

أما أنا فقد خرجت بأكبر قدر ممكن من الاتفاق من الكتاب والدارسين الآخرين فى هذا المجال؛ وسوف يظهر مقدار ما أدين لهم به فى ثبت المراجع، وعلى أن أقدم الشكر لهم جميعا.

كما يجب أن أعبر عن شكر خاص للآنسة مادلين كينسيلا وهيئة العاملين فى معهد دراسات العصور الوسطى بجامعة فيليب فى ماربورج، بألمانيا الغربية على مساعدتهم وتعاونهم فى تأليف هذا الكتاب؛ وأقدم الشكر لأصدقائى، بوب وهانا وأندرو موتز على ترجماتهم القيمة وكذلك لماريان، زوجتى، على ترجماتها وأيضًا على ما تحلت به من صبر وما قدمته من حب ومساندة.

والآن، كما كتب القديس بيرنارد، من حق قرائى أن يكون لهم الحكم على ما قدمت بما أنه من المستحيل على أن أنال رضا الجميع. وأتمنى أن يجده القراء قصة جيدة، تمت روايتها بدقة لأن هذا هو كل ما حاولت عمله.

ستيفين هوارث

المقدمة

رماد إلى رماد

باريس ١٨ مارس ١٣١٤

هكذا كانوا يسيرون، ويتحدثون فى كل شىء بجدية لكنهم لم يكونوا يجدون أملا فى أى شىء سوى الله.

الإخـــوة

كان مزاج المدينة متقلبا غير ثابت. وكان الناس يتكهنون بهدوء وحدة فى الشوارع والنزل، أو فى أأمن منازلهم فيما يأتى به الأصيل من أحداث. وكان فى الإمكان سماع صوت هنا أو هناك يرتفع للثناء على فضائل الملك، والقليلون يجادلون؛ ذلك أن كلمة تقال دون حذر تعد خيانة. كان فيليب شابا وسيما - يقول الناس إنه فى جمال التمثال، ولم يكن فى مقدور أحد أن يسبر كوامن ما يفكر فيه. لقد كان جده لويس التاسع قديسا وقد علق بعض من الرهبة والتوقير الذين كانا للويس بفيليب؛ ولكن حين كانت الرعية تفكر فى فيليب، كان الخوف يختلط بالرهبة. ذلك أن قبضته على شعب فرنسا لم تكن تلين، وفى عصر كان الترحال فيه بطيئا، ووسائل الانتقال ضعيفة، كان رجال شرطته ينبثون فى كل مكان ويتحلون بدرجة عالية من الكفاءة. فعن طريق عملائه، تم اختطاف أحد البابوات، وتم التنديد به فى فرنسا باعتباره يمارس السحر الأسود، وتم انتخاب بابا آخر كى يحكم ليس فى روما بل فى مدينة أفينيون. وقبل ما لا يزيد على ثمان

سنوات - وكانت الذاكرة ما زالت حية - تم القبض على كل يهودى فى فرنسا بأمر الملك فى ليلة واحدة. لقد كان فيليب صديقًا بارد المشاعر، وعدوا خبيثا يتسم بالشر ولا يهدأ.

ولم يكن سكان باريس على ثقة إلا من شيء واحد: فى ذلك الأصيل من مارس، حيث لم يكن الشتاء قد ولى، ولم يكن الربيع قد حل، إن حربا سوف يتم حسمها - وهى حرب امتدت معاركها عبر سنوات سبع من التعذيب والمحاكمات والمكائد. ولم يكن القبض على اليهود وطردهم سوى تدريب (بروفة) للاستعداد لحركة أكبر. ففى فرنسا فى بداية القرن الرابع عشر، كانت هناك جماعة تضاهى قوتها قوة الملك؛ جنود يسوع المسيح الرفاق الفقراء، فرسان هيكل سليمان. فعلى ما يقرب من مائتى عام كان فرسان الهيكل، بستراتهم البيضاء المربوطة بالأحزمة ويزينها صليب الاستشهاد، يمثلون أسمى مثل المسيحية؛ فكانوا أول جماعة مسيحية، وهى إخوة من الرهبان والفرسان المقاتلين الذين كرسوا حياتهم من أجل المسيح والإيمان بالمبادئ الثلاثة وهى الفقر، والعفة، والطاعة. فبعد أن أسست الجمعية فى القدس عام ١١١٨ (أو ١١١٩؛ فالتاريخ الدقيق غير مؤكد، أقسموا باسم الله أن يدافعوا عن الأراضى المقدسة ويحموا الحجاج فى رحلاتهم الطويلة. وقاتلوا باسم الرب فى كل جزء من أجزاء الأراضى المقدسة؛ وتحت قيادة القديس لويس، جد فيليب، حاربوا الهراطقة (يقترح المترجم استخدام اصطلاح المبتدعين، حيث إن ما يقول به الهراطقة هو الابتداع الذى يقال إنه ضلالة وكل ضلالة فى النار) فى فرنسا، والعرب المسلمون فى جنوب وشرق البحر المتوسط؛ وفى إسبانيا كانوا يدحرون المغاربة بتؤدة ويعيدون الأراضى لاسم المسيحية. وكانت منازلهم وقلاعهم من أقوى وأسلم المبانى التى عرفها ذلك الزمان؛ وكانت جيوشهم هى الوحدات الوحيدة المقاتلة التى تنعم بالانضباط والتنظيم فى العالم الغربى. وكثيرا ما عمل فرسان الهيكل بوصفهم مبعوثين يوثق بهم من جانب لويس نفسه؛ فكان أمين خزانة الفرسان هو المتلقى والوصى على العوائد الفرنسية الملكية؛ بل إنه فى إحدى المرات لجأ لويس إلى أحد معابدهم هربا من دهماء متمردة

وقضى ثلاثة أيام فى باريس. غير أن ذاكرة الملك يمكن أن تكون ضعيفة متى شاء.
وبعد خمسة عشر شهرا من القبض على اليهود، كان كل فرد من فرسان الهيكل فى فرنسا قد تم القبض عليه، ومرة أخرى فى ليلة واحدة. واتهم فرسان الهيكل، أتباع الفروسية المسيحية أفرادًا وجماعة، بارتكاب جرائم فظيعة؛ فندد فيليب بهم، باعتبارهم مبتدعين وكفارًا وخونة ومرابين ولوطيين، ووثنيين. لقد حدث القبض الجماعى عليهم فى عام ١٣٠٧، واستمرت المحاكمات لمدة سبع سنوات. وأخيرا بدا أن النهاية قريبة. ذلك أنه قبيل عيد الميلاد لعام ١٣١٣، كان البابا كليمينت الخامس قد خول ثلاثة من الكرادلة الفرنسيين بالذهاب إلى باريس نيابة عنه، لقبول الاعترافات الأخيرة لأكبر مسئولى الهيكل. وكان الكرادلة هم أرنولد نوفيلى، الذى كان فى وقت من الأوقات راهبا فى دير سيتو، ونيكولا دى فرينفى، وكان سابقا متلقى اعترافات الملك، ويعد أحد مستشاريه؛ وأرنولد دى فارج، ابن أخى الملك. إذن فقد كانت محسوبية كليمينت فاضحة.

ومع مقدم مارس من عام ١٣١٤ كان كل شىء جاهزًا، وفى صباح اليوم الثامن عشر، كان النجارون منشغلين بعملهم بجانب نوتر دام. وفى ظل الكتدرائية نفسه كان هناك مكان رهيب مرعب قد بنى من أجل ما سوف يجرى فى الأصيل: هناك منصة عالية للمقصلة؛ وبجانبها منبر أكثر ارتفاعًا؛ وعن كثب، هناك مجموعة من العربات الممتلئة بأعواد الحطب، وأفرع الأشجار.

وعند الظهر، كان الصمت يخيم على الجزيرة، وكان مسرح الأحداث خاليا، ولكن فى المدينة كان الجو معبأ بالتوجس. وبدا أن الجرائم التى نسبها الملك إلى فرسان الهيكل شىء لا يكاد يصدق. ويعلم الرب أن الملك من القسوة والرغبة فى الانتقام مما يجعله يتوسل بأى وسيلة كى يصل إلى غاياته؛ ولا يعلم إلا الله ماذا كان داخل عقله من تدابير. ومع ذلك، فقد أطلق عليه وزراؤه اسم المدافع عن العقيدة؛ ذلك أنه عن طريق نفوذه تم انتخاب بابا فرنسى. وأدلى الفرسان باعترافاتهم. كان كل شخص قد سمع من مصدر أو آخر، أما فى هذا المساء، فلفوف يسمعون عن هذا الأمر بأنفسهم؛

من شفتى المعلم جاك دى مولى. وبعد الظهيرة بوقت قصير، حضر أعضاء الجمهور على الجسور إلى الجزيرة ينظرون بحذر إلى الحرس المصتفين حول المقصلة. وجاء المزيد والمزيد إلى أن امتلأت الجزيرة الصغيرة. واضطر الحرس إلى أن يبعدوا الناس كى ، يفسحوا ممرا . وخيم الصمت على الجماهير فى هواء قارس البرودة، ثم حضر الكرادلة الثلاثة فى موكب مهيب، يتبعهم أسقف سان، وعدد من الأساقفة وعدد من رجال الدين من مراتب أدنى. واتخذوا جميعا مقاعدهم واثقين من السلطة التى يسبغها عليهم ما يرتدونه من مسوح. وواجه رجال الكنيسة ورجال المدينة بعضهم بعضا ، كانت إحدى الجماعتين تجلس هادئة واثقة من نفسها ، أما الأخرى، فكانت تقف متعبة تشعر بالبرد ويداخلها الشك وعدم اليقين. ثم سرت رعدة تكاد تكون مسموعة بين المشاهدين. إذ كان الموكب الثانى يقترب: كان محاطا بحرس من الخلف ومن الأمام، أما فى منتصف الموكب، فكان هناك أربعة أشخاص ملتحون فى ملابس بالية، مجرد أجساد هزيلة وضعت فى الأصفاد . هؤلاء هم: هيو دى بيررو، أمين خزانة الهيكل، وزائر دار فرنسا الدينية؛ وجيفرى دى جونفيل، معلم أكيتان؛ وجيفرى دى شارنى، معلم نورماندى؛ وجاك دى مولى، المعلم الأكبر للهيكل. قبل ذلك بسبع سنوات، وبأوامر من البابا كان دى مولى قد وصل إلى باريس يصحبه ستون من الفرسان. ولم يكن شخصا بارزا يمكن التعرف إليه بالنسبة لم رأوه. فجلجلت غمغمة سريعة من الصدمة والتعاطف بين المتجمعين من أهل باريس وهم يسألون بعضهم بعضا عما إذا كان أولئك هم الفرسان القدسيون الذين يتذكرونهم. وانطلقت أصوات أولئك الذين هم أكثر صلابة من غيرهم وصاحوا - خونة، مبتدعون، كفرة - ولكن حتى أولئك قد أسكتهم الصمت الرهيب الذى خيم على الجماهير التى تشاهد الحدث. وصعد السجناء سلالم المقصلة ببطء وألم وهم يحملون أصفادهم ووقفوا جنبا إلى جنب. وصعد المنبر واعظ ينطق باسم الوفد البابوى وبدأ خطبته. وتحدث أولا عن حماس البابا فى الدفاع عن الكنيسة فى مواجهة التدنيس الذى يمارسه المبتدعون؛ وذكر سامعيه بنزاهة بل وغيرية الملك؛ ثم أخذ يسرد القائمة البائسة من الجريمة والخطيئة. وبينما كانت القائمة البشعة تقرأ ، كان العمال بجانب المقصلة يعدون أربعة خوازيق للحرق ويكدسون

الحطب حولها. فإذا عاد السجناء عن اعترافاتهم، فهم يعرفون ثمن ذلك. واستمع هيو دى بيرو وجيفرو جونفيل بفتور وهما يشاهدان الركام المتزايد من الحطب. أما دى شارنى، فوقف بثبات تحت نير أغلاله. ومولى فقط هو الذى سدد نظرة ازدراء إلى الكرادلة والمتحدث باسمهم.

وأخيرا بلغ خطاب المتحدث ذروته. وأعلن أن السجناء اعترفوا بأنهم مبتدعون. إذ إنهم دنسوا الصليب المقدس ونكصوا عن يمينهم المقدس؛ وبدلاً من أن يقاتلوا من أجل المسيح، عملوا بكل طريقة خبيثة ماكرة يمكن تخيلها من أجل عدو المسيح. غير أن رحمة البابا كانت عظيمة وإذا ما أكد المخطئون فقط اعترافاتهم، فلسوف يتلقاهم أبونا المقدس فى الكنيسة مرة أخرى، وسوف يتعهد خادمه فيليب بأن يبقى الفرسان فى سجن دائم بقية حياتهم على الأرض. وختم الواعظ قوله، أما بالنسبة للمبتدعين المرتدين فلا يوجد سوى عقاب مناسب؛ وأشار إلى الخوازيق الموجودة أسفل.

واتجه كل انتباه الناس إلى المقصلة بينما كان السجناء يطلب منهم الاعتراف العلنى. وأكد دى بيرو ودى جينفيل على ذنبهما؛ ولما كانا يتحدثان بصوت خفيض فلم يكد أحد يسمعهما. ثم تقدم جيفرى دى شارنى وجاك دى مولى إلى الإمام نحو مقدمة المقصلة، وتكلم مولى. وقال: "صحيح إنه فى يوم فظيع كهذا وفى لحظات حياتى الأخيرة، أنى سوف أكشف عما فى الأكاذيب من شر، وسوف أنصر الحقيقة، لذا أعلن أمام السماء والأرض وأقسم حتى لو أدى ذلك إلى عارى الأبدى، أنى ارتكبت أكبر الجرائم".

فاشرأبت الأعناق كى يسمع الناس ما يقول، وحملق الكرادلة بدهشة وقلق، إلى بعضهم بعضا - فهذا أكثر من التأكيد البسيط الذى كانوا ينتظرونه. واستمر مولى فى الحديث بقوة وصوت مرتفع:

ولكن هذه هى جريمتى: أننى وافقت على الاتهامات التى ألصقت بكل الشر على جماعة يجبرنى الحق اليوم أن أعلن أنها بريئة. ولم أقر بالتصريح الذى طلب منى إلا

كى أنجو من التعذيب والمعاناة وكى أثير شفقة من جعلونى أعانى. ذلك أنى أعلم صنوف العذاب التى كابدها أولئك الذين وانتهم الشجاعة كى يتراجعوا عن مثل هذه الاعترافات، غير أن المنظر البشع الذى أراه أمامى لا يمكن أن يجعلنى أؤكد كذبة أولى بكذبة أخرى. لذا ففى هذه الحالة البائسة أتخلى عن الحياة عن طيب خاطر؛ فهى صارت بالفعل كريهة لدى. فما جدوى هذه الأيام الحزينة بالنسبة لى، إذا كان الكذب هو ما جعلنى أفوز بها ".

فاندفع زحام الناس نحو المقصلة بصيحة عظيمة؛ وقفز الحراس كى يصدوهم إلى الخلف. وقفز الكرادلة إلى أعلى فى فزع واضطراب وأمسك مدير السجن ورجاله بالسجناء المحطمين البائسين ودفعوا بهم إلى أسفل درجات المقصلة كأنهم كوم من الأجساد. وتشكلت جماعة جديدة من السجناء ورجال الكنيسة داخل دائرة من الحراس، واندفعت من خلال الدهماء التى تزأر وعادوا إلى الجسر ثم إلى المدينة. وكان رد الملك مباشرا: أحرقوهم. ولم يكن فى سلطة أحد التصديق على حرق المبتدعين سوى البابا. أما مندوبوه فلم تكن لديهم السلطة. لكن البابا كان بعيدا فى أفينيون، وفى كل الأحوال، فإن فيليب لم يكن خادمه - بل إن البابا هو الذى كان ألعوبة الملك. فانتحى الكرادلة وهم يشعرون بالمهانة. وفى ذلك المساء نفسه تم جر دى مولى ودى شارنى مرة أخرى إلى نهر السين. وأحاط زحام شديد بكل خطوة من خطوات الطريق؛ وبدا أن باريس جاءت عن بكرة أبيها كى تشهد المشهد الأخير. وعلى جزيرة فى السين بالقرب من نوتر دام، نصبت محرقتان على عجل. وتم تقييد السجينين بالخوازيق، وهما يصرخان ببراءتهما وبراءة الجماعة بأكملها. ولم يكن شىء معهم، إذ لم تستطع توسلات أصدقائهم أو تهديدات رجال الملك زحزحتهما عن موقفهما، بل هما الذان طلبا الإسراع بالنهاية. ولكن حتى آخر لحظة، ظل وزراء الملك يحاولون الحصول على اعتراف: وقبل إيقاد النار فى الخشب، تم تكديس الفحم الحى حول الرجلين. وأمام الآلاف من المتفرجين تم سلقهما وهما على قيد الحياة - ومع ذلك ثابرا وهما يهتفان ويصرخان ضد الظلم، ويعلنان براءتهما ويلعنان البابا والملك باعتبارهما أدوات

وحين لف الدخان الخانق فيليب، حملق بلا مبالاة فى الجسدين اللذين كانا يتلويان وأصغى إليهما وهما يصبان كراهيتهما له، ويزاران بمحبة المسيح ومحبة الصدق. وأخذ يتفرج، وهو ثابت لا يتغير كالحجر، حين كان الخشب يشتعل واللهب يتجمع؛ وبقى إلى أن لم يبق شىء سوى كومين من الفحم المحترق المتزايد مع هبوط الليل على باريس. عندئذ فقط، غادر المكان؛، عائدا إلى قصره، ربما كى ينام. ووضع الحراس على الجسر المؤدى إلى الجزيرة.

ولكن إذا كان فيليب قد نام، فإن آخرين كانوا يقظين. ذلك أنه فى أثناء الليل، انسل بعض الرهبان إلى النهر، وسبحوا حتى الجزيرة. وهناك تحت جنح الظلام فتشوا فى الرماد والفحم الساخن، وعادوا سباحة وهم يمسكون فى أفواههم العظام المرة اللاذعة لمعلم نورماندى ومعلم آخر أكبر.

الجزء الأول

الحرب الصليبية الأولى وميلاد الهيكل ١٠٩٥-١١١٨

الفصل الأول

الجنود المباركون

هل ستكافح من أجل الرب

سفر أيوب ٨١٣

فى الأسبوع الأخير من نوفمبر عام ١٠٩٥ بدأ عصر جديد فى أوربا: عصر الحروب الصليبية. فلمدة سبع سنوات منذ انتخاب البابا إيربان الثانى على الكرسى المقدس عام ١٠٨٨ عمل بصبر من أجل إعادة توحيد المسيحية الغربية. ولم يكن الصبر وحده هو الأمر الضرورى، بل اللباقة أيضًا، لأن جريجورى السابع - ألمع أسلاف إيربان المباشرين - ادعى مرارا السيادة الزمنية على جميع ملوك المسيحية، واعترض الكثيرون منهم على ذلك. كما لم تكن وراثة إيربان أكثر سهولة بوجود منافس - هو جيلبيرت، المعادى للبابا، الذى كان يحكم فى روما، حكما غير شرعى منتخبا من جانب أعداء جريجورى الميت. لكن نفوذ جيلبيرت كان محدودا؛ وتمكن إيربان ببطء عن طريق المثابرة والدبلوماسية والجهد والتنظيم والاستخدام المستمر للحكمة من الفوز بالولاء الروحى لجميع مسيحيى الغرب تقريبا. وبعد أن فاز بهذا الولاء كان له أن يستخدمه. لقد كانت المسيحية الغربية لقرون، منفصلة عن مصدرها أى مدينة القدس المقدسة. ففى عام ٦٣٨ ميلادية استولى جيش مسلم على المدينة، وظلت منذ ذلك الوقت خاضعة للإسلام. وفوق ذلك، لم يكن مسيحيو الشرق الأرثوذكس يتطلعون إلى البابا للزعامة الروحية وإنما لإمبراطور بيزنطة فى القسطنطينية؛ بل حتى قبل فتح القدس، كانت طوائف غير أرثوذكسية مختلفة مبتدعة قد نشأت لم تعترف بالبابا أو الإمبراطور. وكان

من أهمها النسطوريون، واليعاقبة والأقباط. والنسطوريون كان مقرهم سوريا، ولديهم بعثات تبشيرية امتدت شرقا حتى الهند، والصين وفصلوا طبيعة المسيح الروحية عن الإنسانية؛ أما اليعاقبة والأقباط، فقد أكدوا على طبيعتها الروحية إلى الحد الذى أنكروا معه إنسانيته تقريبا. وقد نشأ كل من اليعاقبة والأقباط عن طائفة مبتدعة، هى التوحيديون التى أسست فى القرن الخامس؛ وكان الفرق الرئيسى بين الاثنين هو أن اليعاقبة، مثلهم مثل النسطوريين، مقرهم سوريا، أما الأقباط فكان مقرهم مصر. وكان هناك آخرون، المانويون، والغنوصية، والأرمن، - فمع مزيج الكنيسة الشرقية، وجماعات المبتدعين والأعداد الغفيرة من المسلمين، لم يكن هناك أى جزء فى شرق المتوسط يمكن للبابا فيه أن يزعم السلطة لنفسه.

ووجد معظم المسيحيين الشرقيين هذا الترتيب ترتيبًا مرضيًا تمامًا. ذلك أن الأرثوذكس كان لهم مدافع من غير رجال الدين متمثل فى الإمبراطور البيزنطى؛ الذى كان يمثل بالنسبة لهم رمز الوحدة المسيحية؛ وبعد سقوط القدس وجدوا هم والمبتدعون مما كان مبعث دهشتهم إلى حد ما، أن الحكام المسلمين الكفار يتصفون بالعدل والتعقل. إذ كانت الضرائب أخف بكثير مما كانت عليه تحت السيطرة المسيحية، وطبقا لشريعة النبى محمد أعطى أهل الكتاب - المسيحيين واليهود - حرية العبادة. ولمدة ثلاثة قرون ونصف قرن، على الرغم من نوبات من الحرب وأحيانا الاضطهاد المتبادل، وجدت الشعوب التى تتبع الديانات المختلفة أسلوب حياة محتمل؛ ثم بدأت الإمبراطورية البيزنطية تنمو مع فتح جيوش الأباطرة لتالماتيا، وجنوب إيطاليا، وسوريا، بل ووصلت جنوبًا حتى قيسارية.

ولم تكن مثل هذه التطورات لتعنى الكثير لمعظم الناس فى أوربا. إذ كانت المواسم هى التى تتحكم فى الحياة، وكانت الحياة بالنسبة لغالبية الناس كفاحًا دائمًا مريرًا. ذلك أن العبودية كانت ما تزال موجودة فى عام ١٠٠٠ وكان الفلاحون، أى الأحرار، حالهم أفضل قليلا من عبيد الأرض؛ وحتى الأغنياء، الذين لم تكن ثروتهم مالا وإنما أشياء عينية تقريبا كانت حياتهم بالنسبة لنا، حياة صعبة قاسية خشنة غير

مستقرة. فكانت المستوطنات صغيرة تفصلها مساحات شاسعة من الغابات؛ وكان السفر خطرا بالغ البطء شديد الصعوبة. فكان الشخص يعيش ويموت فى القرية التى ولد فيها. وكانت ثلاث قوى كبرى هى التى تتحكم فى حياته: الحاجة إلى الطعام، الذى يقتل فى الغابة، أو يجلب بطريقة غير كفأة وخشنة من التربة؛ وواجبه نحو السيد المحلى مالك الأرض؛ والحاجة إلى سلامة نفسه. ذلك أن المسيحية بالنسبة للكثيرين من الناس، قبل الألفية كانت ديانة تتعلق بالذنب، والإله المسيحى كان إله غاضب رهيب. وكان هناك أناس أمثال القديس أوغسطين يفهمون جمال محبة المسيح؛ ولكن فى عام ١٠٠٠ كانت غالبية الناس من البسطاء القساة يعتقدون أن المسيح فى لحظة يمكن أن ينزل وينتقم من هذا العالم الخاطئ. ولكن حين مرت الألفية دون أية كوارث واضحة، جلب القرن الحادى عشر المزيد من الشعور بالراحة. ففى النصف الأول من القرن جاء التنظيم الاجتماعى أكثر رسمية وأقل ارتكازا على الجهل، والغريزة والحاجة المباشرة. ومنذ إنشاء بلدة كلونى عام ٩١٠ ميلادية، حاول الرجال فى الكنائس والأديرة تحرير أنفسهم من تدخل العلمانيين وعرف المجتمع الإقطاعى فى القرن الحادى عشر على أقل من ثلاثة نظم أو طبقات اجتماعية متمايزة – الفلاحين والنبلاء ورجال الدين. ومع مقدم ١٠٥٠ تقريبا كان من الممكن إشباع واحدة من الاحتياجات الأساسية: ذلك أن كل شخص تقريبًا كان لديه ما يكفى كى يأكل. لكن السلام كان ما يزال وضعا لا يمكن تخيله. فكلما زاد الطعام زاد الناس، وبينما كان الفلاحون يعملون ورجال الدين يصلون، كان النبلاء والفرسان يتقاتلون.

وبعد دخول الفارس بشكل رسمى وطقسى إلى طور الرجولة والانتماء إلى طبقة الفرسان كان الواجب الوحيد الذى يعترف به هو الصراع والقتال. وكان معنى ذلك، نظريا، أن يحمى السكان العزل ويدافع عنهم فى مواجهة أى جيش أجنبى معادٍ. أما من الناحية العملية فبما أن الغزوات لم تكن حدثا يوميا يكون معنى ذلك عمليا مقاتلة أى شخصٍ يطاله السيف. فالفارس لم يكن يتدرب إلا من أجل الحرب، وكان فى كل خطوة يتعلم أن كل شىء دون مستواه. إذ إن السلاح والدرع والجواد وضعته بشكل

باد للعيان فوق الناس العاديين، وتدريبه يتطلب متنفساً. ومع أن الصيد أو القنص يمكن أن يوفر ظروف المعركة فإنه مجرد محاكاة؛ ومن الضرورى وجود مناوئين من البشر. وفوق ذلك، فإن نمو توريث الابن الأول أعطى كل جيل من الأجيال المتعاقبة من نبلاء القرن الحادى عشر عدداً متزايداً من الأبناء الأصغر سنًا، المعدمين، وبالتالى المفلسين، الذين لا يملكون سوى حرفة واحدة: الحرب. وفى محاولة الكنيسة الحفاظ على قدر ولو ضئيل من النظام، أدخلت "سلام الرب" الذى أعطى حصانة من الهجوم للفلاحين، ورجال الدين، والأماكن المقدسة؛ و "معاهدة الرب" التى منعت أى قتال فى أيام العطلات الدينية (يوم الأحد) وفى أثناء الصوم الذى يسبق عيد القيامة. ولكن، للأسف لم يكن كل شخص مستعداً للقتال حسب جدول، فسقطت نظرية السلام أمام ممارسة العنف. فوجد الكثير من الناس من جميع الطبقات مهربا من أسلوب الحياة المقيد بأن يصبحوا حجاجا ويزوروا واحداً أو أكثر من المراكز الخمسة التى توجد بها أضرحة مسيحية - القديس جيمز فى كومبوستيلا، والقديس ميكل فى مونتى جارجانو، وروما والقدس، والقسطنطينية. وكانت الرحلة إلى أى من هذه الأماكن تستغرق أشهرا، أما الجولة إلى جميع هذه الأماكن من الممكن أن تستغرق سنوات؛ ولهذا السبب جزئيا أصبح القيام بحج طويل حكما مقبولا على الأشرار الخارجين على القانون. إذ لم يكن الخارج على القانون يكفر عن خطيئته فحسب، وإنما أيضا يتخلص المجتمع الذى حكم عليه منه لمدة طويلة. بل كانت هناك فرصة جيدة بالاً يعود مطلقا على قيد الحياة. وكانت الكنيسة تبارك وتشجع على رحلات الحج سواء منها الطوعية أو الإجبارية؛ لكن هذه الرحلات كانت أيضا تقوم بمهمة التذكير بمشكلتين غير سارتين. أولا، كان السبب فى قداسة القسطنطينية هو أن بهذه المدينة، وهى أكبر من أى عاصمة أوربية عشر مرات، الآثار الرئيسية للمسيح من تاج الأشواك وقطعة قماش يقال إنها تحمل آثار وجه المسيح. ولا بد أن الكثيرين من البابوات حلموا باليوم الذى تأتى فيه هذه الآثار إلى روما، لأن وجودها فى القسطنطينية يؤكد على الخلاف بين الكنائس الشرقية والكنائس الغربية. وفى منتصف القرن الحادى عشر أصبح الشجار بين الاثنين أكثر سوءاً من المعتاد، وحرمت كل من روما والقسطنطينية هى الأخرى من الكنيسة.

وكانت المشكلة الثانية توجد خلف القسطنطينية. إذ كان في وسع الحجاج المسيحيين الذين يصلون إلى القدس زيارة الأضرحة المقدسة، لكن ذلك يتم بعد دفع ضريبة للمسلمين. لقد كان السفر الدولي في القرن الحادي عشر مسألة سهلة محددة بمقاييس الماضي. وفي عام ١٠٨٨، حين انتخب البابا إيربان الثاني كان الإسلام قد حكم القدس لأربعمائة وخمسين سنة. وأولئك المسيحيون الغربيون الذين كان هذا الأمر يهمهم تحملوا ذلك الانفصال لأنهم لم يكن في إمكانهم فعل الكثير. لكن، مع اقتراب القرن من نهايته، بدا أنهم يمكنهم فعل شيء ما؛ واستعد إيربان كي يعلن خطته ولم تكن الفكرة القائلة بأن القدس يجب أن تخص المسيحية دون غيرها فكرة جديدة. ففي عام ٦١٤ استولى جيش فارسي على المدينة، كي يطردهم الإمبراطور البيزنطي هرقل الأول بعد ذلك بخمس عشرة سنة، وفي النصف الثاني من ذلك القرن، حاول إمبراطوران آخران، هما نيسفوراس فوكاس، عام ٩٦٤ وجون تزيمسيس عام ٩٧٤ تكرار ما أنجزه هرقل. واستخدم كلاهما خطا دقيقًا من الكلام الرنان: إذ قال نيسفوراس: "احذروا يا من تعيشون في رمال الصحراء! سوف أتحرك ضد مكة وأقود جماعات هائلة من المحاربين كظلام الليل. وسوف استولى على هذه المدينة كي أشيد هناك عرش الرب. ثم سأتجه إلى القدس، وسوف أفتح الشرق والغرب وسوف أشيد في كل مكان رمز الصليب". وبعد ذلك بعشر سنوات قال جون تزيمسيس: "إن رغبتنا هي تحرير الضريح المقدس من فظاعات المسلمين." ولكن على الرغم من أن كليهما حققا نجاحًا كبيرًا - إذ كان نيسفوراس قائدا بارزا - لم يحقق أيهما الهدف النهائي، وظلت القدس في يد المسلمين. وبعد ذلك بأقل من خمسين سنة في عام ١٠١٨، بدأت المسيحية الغربية استعراض عضلاتها، حين ضم النبلاء والمغامرون الفرنسيون والإسبان قواتهم ضد المسلمين في إسبانيا. وسرعان ما اكتسب الصراع مكانة الحرب المقدسة، وشعر الجنود بالإغراء في الاتجاه جنوبا أملا في أراضي جديدة والوعد بصكوك غفران من البابا.

واستمرت الحرب في إسبانيا على مدى القرن الحادي عشر. ومع نهاية القرن لم تكن الجيوش المسيحية أبعد من بلدتي خويسكا وبارباسترو في أرجون على بعد ما

يقرب من خمسين ميلا من حدود فرنسا الحالية. ولم يكن ذلك مسافة كبيرة لكنها كانت تكفى كى تجعل المزيد من التقدم يبدو أمراً ممكنًا؛ وتظهر أن المسلمين يمكن أن يهزموا. وبمجيء عام ١٠٧٥ كان البابا جريجورى السابع يحلم بالسيادة التامة على الشرق والغرب. وداخل عقله نهضت روما جديدة، كى يحكم العالم من خلال الدين. عندها ستعود القسطنطينية إلى الحظيرة؛ وتصبح القدس مسيحية مرة أخرى؛ وينحنى كل ملك من ملوك البلاد المسيحية للحبر الأعظم فى روما. غير أن جريجورى لم يكن دكتاتوراً محتملا؛ لم يكن طموحه حكم الجسم السياسى - وكان دائما يقول هذا عمل الملوك والوزراء. وكان يمتلك اعتقادا لا يتزعزع بأن الأمور الروحية يجب أن ترشد حياة كل إنسان، وأن وحدة المسيحية يجب أن تكون واقعا، وليس مجرد مثال. لقد أظهر بهذا نزاهة تامة، نزاهة اعترف بها أعداؤه. ولكن حين توفى عام ١٠٨٥، كان له أعداء كثيرون، لأن الحماس الحار والبساطة اللذين كانا يتحلى بهما جعلا منه سياسيًا سيئًا.

وربما كان من حسن حظ الكرسى المقدس أن من خلف جريجورى شخص ضعيف لا لون له، هو فيكتور الثالث. ولم تدم مدة فيكتور أكثر من عامين - فقد مات فى سبتمبر عام ١٠٨٧ - لكنها أتاحت وقتا للكثير من الغضب والحنق اللذين نجما عن اتجاهات جريجورى التى لا تلين كى تخبو. ومع ذلك، ظل أعداء جريجورى يؤيدون "البابا" الخاص بهم، وكان على من خلف فيكتور أن يواجه الكثير من المشاكل.

لم ينعقد مجمع خاص فى شتاء عام ١٠٨٧، ولم ينتخب إيربان الثانى إلا فى مارس من عام ١٠٨٨ فى البداية لم تكن لديه أية فكرة فى أن يحقق حلم جريجورى؛ إذ كانت الأولوية يجب أن تولى للمسيحية الغربية، التى ما زالت تمزقها ردود الفعل المضطربة على مطالب جريجورى بأن يخضع الجميع للبابا. وكان إيربان، مثل جريجورى، بعيد النظر، لكن التشابه بينهما يقف عند هذا الحد.

كانت طبيعة إيربان تتسم بالتأمل والصبر؛ ولم يكن يسعى إلى تحقيق أهدافه عن طريق الإجبار الروحى وإنما عن طريق الإقناع. كان طويلا وسيما مهذبا، ولطيفا، مع

أنه كان قاسيًا ولا يتزعزع بطريقته الخاصة. وكان يوحى بالاحترام ولا يطلب الإخلاص، وهكذا، فحسب الطبيعة البشرية، فاز أخيرا بإخلاص الكثيرين واحترام الجميع.

إن تاريخ مولده غير مؤكد لكنه حوالى عام ١٠٤٢ وهو ينحدر من عائلة دى لاجيرى النبيلة فى شاتيون- سير- مارن وتلقى تعليمه فى سان برونو. وبعد أن وصل إلى منصب مساعد الأسقف فى كاتدرائية ريمز وهو بعد شاب انضم إلى الدير فى كلونى. فى ذلك الوقت، كان هذا الدير قد أصبح أحد أعظم الأديرة فى الغرب، إذ كان يدعم ويشجع على رحلات الحج إلى جميع الأماكن المقدسة ويعارض أى تدخل من السلطة الزمنية فى الحياة الدينية. وظل كلا هذين التأثيرين مع إيربان، وكلاهما ظهرا بشكل درامى مثير عام ١٠٩٥ ، كان الأول فى مارس، فى بياتشينزا فى شمال إيطاليا. تماما بعد سبع سنوات من انتخابه كان هذا أول مجلس كبير دعا إليه إيربان. وقد شكل هذا التأخير قدرًا من الصعوبات التى كان عليه أن يواجهها؛ وكان تصرفه يعبر عن قدر من القوة التى كان يستشعرها لأنه فى ذلك المجلس حرم هو ورجال الدين المجتمعون رسميا البابا المزعوم وأتباعه من الكنيسة. عدا عن المنافسة والانقسام فى البلدان المسيحية كان هنرى الرابع فى ألمانيا يتبنى انتخاب جيلبيرت وكان جيلبيرت أكبر أعداء جريجورى؛ ولم يكن لأى أحد من كلونى ليقبل مثل هذا التدخل فترة أطول مما ينبغى.

فى أثناء مجلس بياتشينزا، تم وضع الأساس لثانى إنجازات إيربان العظيمة - وما كان سيقوم به سيكون له أثر مباشر فى حياة الملايين من البشر لما لا يقل عن مائتى عام.

لقد حضر مبعوثون من الشرق، إلى المجلس - ممثلون للإمبراطور البيزنطى إليكسيوس كومنوس. ذلك أن أحد أعمال إيربان الأولى فى منصبه كبابا هو أن يحل الإمبراطور من الحرمان الذى فرضه عليه جريجورى؛ والآن يمكن للبلاد المسيحية جميعا أن تستفيد من العلاقة الناتجة عن ذلك، قبل ذلك بعقد، فى عام ١٠٨٥،

كان إليكسيوس قد شن حربا على السلاجقة الأتراك. وكانت تسير بشكل جيد وإن كان بطيئا، فكانت هناك حاجة إلى مزيد من الدعم إذا كان لجيوش الكنيسة الشرقية أن تنجح. لذا تحدث مبعوثو الإمبراطور بطريقة مؤثرة عن الإخطار والصعوبات التى يواجهها المسيحيون فى الشرق، وطلبوا المساعدة من الغرب باسم الوحدة المسيحية.

كان إيربان وإليكسيوس يزن كل منهما الآخر من حيث البراعة الروحية. وكان كل منهما على وعى بقدرة الآخر، وكل منهما يدرك قيمة التعاون. واستطاع إيربان على وجه الخصوص أن يرى ميزة عملية مباشرة تتحقق من وراء الدعم العسكرى، أو السلام، أو درجة من السلام لأوربا. وبدلا من محاولة كبح جماح الفرسان الغربيين الميالين للحرب، يمكنه تشجيعهم بنشاط ويتخلص منهم وبدلا من تمزيق الغرب، يمكنهم القتال - فى الشرق، - من أجل الغرب؛ من أجل وحدة المسيحية؛ من أجل خلاص أرواحهم؛ كما توجد فرص الكسب المادى.

لقد كانت فكرة ذكية. وبعد مجلس بياتشينزا، فى صيف ١٠٩٥، كان من المقرر أن يذهب إلى فرنسا؛ وهناك قرر فى مسقط رأسه، أن يوجه دعوته العظيمة إلى المؤمنين. ومن بداية أغسطس حتى نهاية أكتوبر، قام بجولة فى جنوب وغرب فرنسا. فانتقل من فالين إلى لى بوى إلى افينيون وسان جيل، ثم شمالا إلى ليون وبرجاندى. وحين كان فى بوى أعلن أن مجلسا كبيرا آخر سوف ينعقد فى كليرمون فى الجبل الأوسط الكبير ابتداء من منتصف نوفمبر. ومع تقدم الجولة، أخذت شائعات غريبة تسرى - لقد رأى الناس ألوانا متلألئة فى السماء، أعداداً هائلة من النجوم بل النيازك. وحتى ذلك الوقت، لم يكن أحد يعلم ماذا سوف يخرج من المجلس؛ ولكن فى كل أنحاء فرنسا فى ذلك الصيف أخذت حالة الترقب تنمو أكثر فأكثر.

وفى الأسبوع الأخير من أكتوبر زار إيربان كلونى مرة أخرى كى يرى مرة أخرى رئيس الدير المسن هيو، - لقد كان رئيسا للدير منذ عام ١٠٤٩ - ولكى يجمع المزيد من المعلومات عن الأراضى المقدسة من حجاج كلونى. ثم، بعد الصلاة عند مقبرة

القديس مالو، أقدس رؤساء دير كلونى، ذهب أخيرا إلى كليرمون؛ وفى ١٨ نوفمبر بدأ المجلس. من المؤكد أن البابا إيربان كان لديه حس مسرحى. فى الأيام التسعة الأولى ناقش رجال الدين ثلاثمائة قضية مختلفة واتخذوا قرارات رسمية. وتمت تلاوة القسم العظيم ضد الإتجار فى المناصب الدينية، وزواج رجال الكنيسة، وعدم استحواز غير رجال الكنيسة على المزايا الكنسية. تجددت المهلة التى منحها الرب وامتدت، ووصلوا إلى نقطة كبيرة الأهمية، حين تم حرمان الملك فيليب الأول من الكنيسة بسبب زواجه الذى كان يعد بمثابة الزنا من كونتيسة انجو. لكن إيربان لم يقم بحركته حتى اليوم الأخير يوم الثلاثاء ٢٨ نوفمبر. فى ذلك الوقت كانت الجموع فى كليرمون هائلة جدا حتى أنه لم يكن هناك مكان واحد يتسع لهم جميعا. فانتقل المجلس من الكتدرائية إلى كنيسة نوتر دام دى بور فى الطرف الشرقى من المدينة. فى خارج الكنيسة، كانت هناك مساحة كبيرة مفتوحة فتجمع الجمع هناك.

وكان بين الجموع راهب يدعى روبير. وبعد ذلك ببضع سنوات، دون ما رأه وسمعه هناك فى ذلك اليوم الخريفى فى كليرمون بتحريض من رئيس الدير الذى يقيم فيه. وكان يكتب من الذاكرة، لذا فإن ما قاله عن حديث إيربان لم يكن ربما دقيقا دقة مطلقة، لكنه يتفق اتفاقا كبيرا مع الروايات الثلاث المعاصرة له فى جميع النقاط الرئيسية. إذ يقول إن البابا حدث الناس: "بفصاحة مقنعة." ذلك أن إيربان أوضح أنه لم يكن يتحدث فقط إلى المجتمعين، ولم يكن يتحدث فقط إلى فرنسا، بل إلى جميع أمم الغرب المسيحية. وتحدث عما لهم من قداسة خاصة، وعن التهديد الكبير الذى يتعرض له إخوتهم وأخواتهم فى الشرق. وكان وصفه لسلوك العرب المسلمين يقصد من ورائه إثارة اشمئزاز وغضب حتى أكثر الناس تخليا عن المبادئ: إنهم يعبثون بمذابحنا ويدنسونها؛ ويختنون المسيحيين ويسكبون دم المختونين على المذابح أو فى جرن المعمودية. إنهم يأخذون المسيحى ويبقرون معدته، ويربطون أمعاءه فى خازوق؛ ثم يطعنونه برمح ويجعلونه يجرى، إلى أن تخرج أحشاؤه ويسقط على الأرض ميتا.

لقد كان هناك المزيد على هذا النحو، وأكد إيربان على أن هذه لم تكن أحداثا منعزلة. ففى كل أنحاء الشرق، من القدس حتى بيزنطة، تقع مثل هذه الأحداث، ولا يبدو أن أحدا يكترث. ووضع أمامه مثال شارلمان، ورجاهم أن يتذكروا فضائل أجدادهم. واقتبس كلمات المسيح: "إن من يتخلى باسمى عن منزله وإخوته وأبيه أو أمه وزوجته أو أبنائه وأرضه، سوف يتلقاها مضاعفة مائة مرة وسوف يحيا حياة أبدية". وتوسل إلى الناس أن يتناسوا ما بينهم من شجار - فمدينة القدس الملكية المقدسة تستصرخهم طالبة الإنقاذ. وصاح قالا: "خذوا طريقكم إلى الأراضى المقدسة وانتزعوا التابوت المقدس، وانتزعوا الأراضى من هؤلاء القوم البشعين".

لم يكد ينتهى حتى صاح الجميع صيحة رجل واحد، "هذه إرادة الرب، هذه إرادة الرب".

ويبدو من رواية روبير أن البابا نفسه أخذ مما بالاستجابة من قوة ووحدة. غير أنه كان خطيبا حقيقيا، واستخدم الإجابة على الفور. فقال: "كيف لهذا العدد الكبير أن يتحدث كشخص واحد، ما لم تكن الروح القدس حاضرة فى قلوبهم" ودعا جميع الراغبين فى أن ياخذوا الصليب ويتقدموا على الفور ويفعلوا ذلك. غير أن عقله النشط أمكنه التنبؤ بوقوع مشكلة فى هذا الحماس الشعبى الشديد فعاجل بالقول إن أصحاب الأجساد القوية يمكنهم التطوع. أما كبار السن والضعفاء فعليهم أن يحجموا ولا يجب أن تذهب النساء دون أزواجهن أو إخوتهن؛ وعلى القساوسة أن يطلبوا الإذن من أساقفتهم، أما غير رجال الدين فيجب أن يطلبوا مباركة القساوسة. وعلى الرغم من هذه القيود فإن رد الفعل على كلماته كان أكبر بكثير مما توقع هو نفسه. فتم إعداد مخزون من صلبان القماش كى تحاك فى ملابس المتطوعين، وقبل الغروب كان المخزون قد استخدم بالكامل. وبدا أن الحديث جاء كالوحى؛ واستعرت كل كلمة منه فى أنحاء فرنسا.

وجاء الناس من كل فج عميق كى يقاتلوا. ذلك أن نجاح نداء إيربان يعد مثالا بارزا على قوة اتفاق الأحداث فى تاريخ العالم. كل شىء كان مناسبًا: حالة الناس

المزاجية، والظروف التى عاشوا فى ظلها، وكذلك احتياجاتهم ومعتقداتهم. فلم يكن إيربان إلا العامل المساعد. لقد تغير التاريخ فى مجرى ذاك الأصيل الخريفى البعيد. ومع ذلك، فبعد النشوة الأولية، أصبح من الواضح أن هناك حاجة إلى قدر كبير من التنظيم. لقد تقرر أن رحيل الجيش سيكون فى ١٥ أغسطس عام ١٠٩٦، بعد الحصاد. ولكن بعد كل هذا الفوران والغليان، كان هناك الكثيرون الذين لا يرغبون فى الانتظار كل هذا الوقت. كان على الفرسان واللوردات الذين أخذوا الصليب أن ينتظروا، إذا كان لهم أن ينظموا شئونهم لكن بالنسبة للفقراء والمعدمين، والجهلة فإن تاريخا يبعد بتسعة أشهر كان بعيدا كالموت - أو أبعد، لأن الموت يمكن أن يأتى فى كل لحظة فى حياتهم غير الآمنة ومع الموت، تضيع إلى الأبد فرصة الحج ومعها فرصة الخلاص. لذا، فحين بدأ رجل يرتدى قبعة الناسك يسافر فى أنحاء أوربا يعظ بالصليب من فوق ظهر حمار، وينادى بالقيام بعمل مباشر وجد آلافا عديدة من الأتباع. وشعر عدد لا حصر له من الفلاحين الأوربيين الذين أنهكهم الكدح عبر الأجيال، مع عدم قدرتهم على تغيير حياتهم، إنه إذا كان للحرية والوفرة وجود فى هذه الدنيا، فمن المؤكد أن ذلك فى بلاد أخرى - وكان الجميع يعلمون أن القدس توجد فى أراض يتدفق فيها المن والسلوى. وكل ما كان الناس يفتقرون إليه، وجدوه فى شخص بيتر الناسك.

لقد كتب أحد أتباعه - أحد القليلين جدا جدا الذين لم يكونوا أميين كتب عن بيتر: " أن أى شىء قاله أو فعله بدا كأنه يصدر عن نصف إله" ولا غرو فى ذلك؛ فحين يكون هناك وعد بالحرية، والوعد يصدق، فإن من يقدم الوعد دائمًا ما يجذب نوعًا من أنواع العبادة. وبيتر كان راهبا بحق. فهو أيضا كان يركب حمارا، كما كان يفعل المسيح مع أن تابعه غير ألامى، جيلبير دى نوجان، علق قائلا، بدا إلى حد كبير أشبه بالحمار، وكانت رائحته إلى حد كبير أشد سوءا من رائحة الحمار. وعلى الرغم من هذه الأشياء، أو بسببها، جاء هذا الرجل القبيح كريه الرائحة صاحب الراية تقريبا كمسيح منتظر لجميع أولئك الذين كانوا يطلبون حياة جديدة. فتبعوه بنفاد صبر يفوق

نفاد صبر الأطفال. لا بد أن بيتر كان لديه إيمان عظيم، وإلا، فلا بد أنه كان بالغ البلاهة. فى إحدى المرات، قبل ذلك بسنوات، حاول الحج إلى القدس، فأساء إليه الأتراك (يخلط الناس فى ذلك الوقت وبعده بقرنين بين كلمة مسلم وتركى حتى فى المسرح: المترجم) لدرجة جعلته يقفل عائدا قبل الوصول إلى المدينة المقدسة بمسافة طويلة. فهو قد عرف صعوبات الرحلة؛ ربما يكون قد نسى، وربما كان يتصور أن خمسة عشر ألفا يمكن أن يسافروا بيسر أكثر من فرد واحد. أيا كانت أسبابه - إن كانت لديه أية أسباب - فقد جعل حماره يولى وجهه إلى الشرق، وفى نهاية مايو من عام ١٠٩٦، حين كان غيره فى الوطن يرحبون بالصيف الجديد، وصلت أولى مجموعات بيترّ عند حدود بيزنطة.

فى ذلك الوقت ظهرت حماقة الحملة. فعند المرور من خلال ألمانيا، كان وعظ بيتر قد اجتذب الكثير من الاتباع؛ وبينما تباطأ تَقَدَم إلى الأمام جزء من الدهماء الذين يتبعونه. وحين وصل هؤلاء الزوار الثقلاء غير المتوقعين إلى بيلجراد ولما لم يجدوا أى طعام متوفر، بدأوا ينهبون الريف. ولم يكن ذلك سوى نذير بما سوف يأتى؛ لقد كانت هذه المجموعة الأولى صغيرة إلى حد مكن من إرسالها فى صحبة حراسة إلى القسطنطينية. ولكن من مايو حتى أوائل يونية فبيتر وأتباعه - الذين أصبحوا الآن عشرين ألفا - تقدموا كالجراد إلى المجر. وفى نهاية يونيه كانوا قد قتلوا أربعة آلاف مجريا، وكانت بيلجراد (وهى فى ذلك الحين مدينة حدودية مع الإمبراطورية البيزنطية) قد نهبت واحترقت. وحين توغلوا مسافة أبعد فى الإمبراطورية، فى نيك، فى يوغسلافيا الحالية، وقعت معركة شديدة قتل فيها ربع مجموعة بيتر. ومع ذلك، عند الوصول إلى سوريا حيث التقى بهم ممثلون عن إليكسيوس، قوبلوا بالترحاب. وسامحهم الناس على سلوكهم المثير للغضب ؛ وزودوهم بكل ما يحتاجون إليه؛ ونقلوا فى صحبة مرشدين وحراس بسرعة إلى القسطنطينية. لقد كانت رأفة الإمبراطور سياسية أكثر من كونها إنسانية؛ إذ إنه عن طريق فرض بعض النظام على الحجاج الفوضويين غير المنضبطين، تمكن من حماية أراضيه على الوجه الأفضل. ونصح بيتر بألا يعبر مضيق

الدردنيل قبل وصول الصليبيين الفعليين؛ لكن أى أمل فى النظام كان قد تبخر منذ وقت طويل. ذلك أن الفرقة الهائلة كانت أفضل قليلا من جيش من قطاع الطرق. إذ إن سلوك أولئك المسيحيين كان بشعًا، فقد خربوا وأحرقوا قصور المدينة، وسرقوا الرصاص من أسطح الكنائس وباعوه للإغريق، مما أغضب الإمبراطور، فأمرهم بعبور الدردنيل. كاتب هذا التعليق المختصر كان واحدًا آخر من الحجاج، ربما من أبوليا فى جنوب إيطاليا. إن اسمه مجهول، غير أنه ترك كتابا صغيرا يسمى أفعال الفرنجة، واصفا عن تجربة مباشرة عادة أحداث الحرب الصليبية الأولى. وكان جنديا محترفا، وإن لم يكن مرتزقًا، وكان ينظر باحتقار إلى حرب الشعب الصليبية. بعد أن عبروا لم يكفوا عن أفعالهم الشريرة؛ فحرقوا وخربوا المنازل والكنائس ... ولم يتمكن بيتر الناسك من التحكم فى هذه الجماعة المختلطة إذ لم يصغوا إليه ولم يطيعوه. وبذلك، كانت حرب الشعب الصليبية تحرق نفسها. إذ كان هناك طاقة زائدة عن الحد وتوجيه أقل من المطلوب، أمل يفوق الحد ومعرفة أقل مما ينبغى وبعد أن عبر جيش الفلاحين الدردنيل فقد أى ترابط: فعسكر بعض الأتباع فى مكان يعرف باسم كيفيتوس، على الساحل الجنوبى لخليج نيكوميديا؛ وأغار آخرون على منطقة نيقيا؛ وقتلوا كل من استطاعوا قتله، بما فى ذلك أبناء البلاد من المسيحيين؛ وذهبت بضعة آلاف إلى ما وراء نيقيا، واستولوا على إحدى القلاع. ولم يدركوا أن إمدادها من المياه خارج الأسوار؛ وأن الأتراك يحاصرون القلعة. وبعد أسبوعين، هد العطش الفلاحين، مما جعلهم يقتلون خيولهم وحميرهم ويشربون الدم؛ وآخرون أنزلوا الأحزمة والملابس فى بالوعة واعتصروا السائل فى أفواههم؛ وآخرون كانوا يمررون الماء لبعضهم بعضا بالأكف، ويشربون؛ وآخرون يحفرون الأرض اللينة ويرقدون على ظهورهم مكومين الطين على صدورهم. فى اليوم الثامن لم يعودوا يطيقون، فاستسلموا. وارتد بعضهم وأخذوا عبيدا؛ أما الباقون فقتلوا. ثم نجح الأتراك فى نصب كمين وذبحوا المجموعة بالقرب من نيقيا، وأخيرا انقضوا على المعسكر فى كيفيتوس. ونجت قلة من الأوربيين، حيث أنقذهم أسطول بيزنطى.

وجردهم إليكسيوس من السلاح وأعادهم إلى بلادهم. ولا بد أنهم أسعدهم الرحيل.

ومع ذلك فمع أن الفلاحين كانوا قساة، لم يكونوا هم الأسوأ بين معاصريهم؛ وثمة نوع من البراءة فى حماسهم الساذج يثير الشفقة. وحتى مؤلف كتاب الأفعال المجهول الذى عادة ما يحتقرهم علق قائلا: "هؤلاء الرجال كانوا أول من يتحمل الشهادة من أجل اسم سيدنا يسوع". لكن كان من الواضح أن الإيمان لم يكن وحده كافيا.

منذ أول انشقاق فى ألمانيا حتى الكارثة الأخيرة فى كيفيتوس، لم تستغرق حرب الشعب الصليبية أكثر من ستة أشهر. أما فرسان ولوردات الحرب الصليبية الأولى فقد عملوا ببطء، وبمزيد المثابرة. فمن شواطئ أوربا إلى أسوار القدس، استغرقت رحلتهم بالكامل ما يقرب من عامين. ولم يغادروا جميعا معا، ومرة واحدة، وإنما على أربعة جيوش كبيرة منفصلة. ذلك أن إيربان، ودون مشورة إليكسيوس أصدر مرسوما بأن يكون موعد اللقاء الأول فى القسطنطينية؛ وحين وصلت أنباء هذا المرسوم وأنباء الاستجابة العظيمة لدعوة البابا، أدرك فجأة أن حركة أكبر بكثير مما رغب وتوقع قد تم إطلاقها. كان هو يرغب فى بضعة آلاف من المرتزقة؛ لكنَّ جيوشا أكبر كانت قادمة، لا يقودها فرسان بل نبلاء. كلهم فى حاجة إلى الطعام والإقامة، وما إن يصلوا إلى الأراضى المقدسة فلا شك أنهم سوف يتوقعون دعمه. فقرر أنه سوف يقدم هذا الدعم.

ولكن بشروط معينة. وحتى ذلك الحين كان يعد لوصول المحاربين الصليبيين. إذ إن بيتر الناسك ومجموعته غير المتجانسة أخذوا إليكسيوس على حين غرة. من حسن الحظ أن المحاربين الصليبيين الفعليين التزموا ببرنامج إيربان بشكل أوثق؛ فلو أنهم جميعا وصلوا فى وقت مبكر هكذا، لم تكن حتى القسطنطينية بقادرة على دعمهم ومساندتهم. كانت أول مجموعة بعد بيتر عبارة عن جيش صغير يقوده هيو لى مين، وجاءوا من فرنسا إلى بارى، فى جنوب إيطاليا وعبر الإدرياتيكى إلى ديراكيوم، – دور

حاليًا فى ألبانيا - ومن هناك عن طريق سالونيك. ولم يمثلوا أية مشكلة بالنسبة لإليكسيوس؛ فها هو الابن الأصغر لنسب عريق وهو قليل الإمكانيات، وكان يبهجه تكريم إمبراطور بيزنطة. لكن الآخرين لم يكونوا بمثل هذه السهولة؛ ومعهم احتاج إليكسيوس إلى كل ما لديه من قوة حنكة. ذلك أن كل جيش من جيوش الفرنجة الأربعة كان من بين أفراده أشخاص مميزون. فكان الجيش الأول يقوده جودفرى دى بويون، دوق لورين السفلى، وهو على ما يبدو تجسيد للفارس فى العالم المسيحى. كان طويلا قوى البنية، أشقر وملتحيًا، رجلاً تقيًا يكاد يكون زاهدا قليل المطالب، وهو دائما يسلك سلوكا رائعا. لقد عزت إليه الحكايات شخصية ومظهر الكمال المسيحى فى العصور الوسطى؛ أما الحقيقة التاريخية فتظهره باعتباره أقل من المثالية إلى حد ما.

وكان جودفرى يصحبه أخوه، بولدوين. وحين غادرا أوربا عام ١٠٩٦، كان جودفرى يبلغ نحو ست وثلاثين سنة، أما بولدوين، فكان أصغر قليلا. ومع أن جودفرى كان طويلا فإن بولدوين كان أطول منه، ولا يشبه أخاه تقريبا فى أى شىء. إذ إن بولدوين كان أسود الشعر، حليق اللحية، وشاحب الجلد؛ وكان رجلا صلبا قاسيا باردا، ينعم ويستمتع بما فى حياة النبلاء من روعة ومع ذلك يمكنه أن يتحمل بسهولة مشقة الحرب.

وجاء الجيش الثانى بقيادة بوهيموند، الأمير النورماندى لتارانتو فى إيطاليا. وكان معه تانكريد ابن أخيه. لقد كانت سلطة النورمنديين قد استتبت فى إيطاليا فى عام ١٠٤٠؛ وكان بوهيموند وتانكريد يتحليان بروح المغامرة التى تمتع بها أجدادهما، ويطمحان إلى ممالك منفصلة لهما أو على الأقل إمارات أكبر من اترانتو. وقبل الدعوة إلى الحروب الصليبية بما لا يزيد على ثلاث عشرة سنة، كان بوهيموند يقاتل إليكسيوس فى اليونان ومقدونيا، أما الآن فإن العم وابن الأخ ينطلقان كحلفاء للإمبراطور أملا فى الثراء الدنيوى.

أما الجيش الثالث فكان له قائدان، أحدهما روحى والآخر دنيوى. وكان الرجلان ناضجين، يتمتعان باحترام الجميع. وكان القائد الروحى هو إديمار، أسقف لى بوى،

وهو يبلغ من العمر نحو خمسين سنة؛ والقائد ألدنوى، هو ريموند كونت تولوز، وسان جيل، وكان فى حوالى الستين من عمره. وكان إديمار هو مندوب البابا إلى الحروب الصليبية، أى ممثل إيربان الرسمى. أما زعامة ريموند فقد اتخذها هو بنفسه دون إذن من أحد: إذ إنه كان أول نبيل يأخذ الصليب، تمامًا كما كان إديمار أول المتطوعين فى ذلك الأصيل من نوفمبر فى كليرمون.

وأخيرا على رأس الجيش الرابع كان روبيرت النورماندى، ابن ويليام الفاتح؛ وروبرت الفلاندرى، وهو حاج محارب بالوراثة وبالطبيعة، وستيفين من بلوا، زوج ابنة الفاتح. ويظل الشخصان اللذان يدعيان روبرت شخصين غامضين، أما شخصية ستيفين، على الرغم من أنه لم يلعب دورا رئيسيا فى المعارك المتأخرة، فيمكن رؤية شخصيته بوضوح. لقد كان رجلا عطوفا محببا؛ وكان شديد الثراء، يمتلك عدة إقطاعيات فى فرنسا، وكان يستمتع بالعناية بها. ولم يكن فى الواقع لديه أية رغبة فى أن يشارك فى الحروب الصليبية على الإطلاق؛ غير أن زوجته، ابنة الفاتح طلبت منه أن يذهب فلم يرغب فى المجادلة. فذهب.

وسافرت الجيوش منفصلة انفصالا تاما. واتخذ جودفرى وبولدوين الطريق البرى خلال المجر، على نهج بيتر الناسك. وتروى الحكايات أن شارلمان استخدم الطريق نفسه. وبعد أن غادروا اللورين فى أغسطس بعد وصول بيتر إلى القسطنطينية ببضع أسابيع، وصلا إلى العاصمة البيزنطية فى ٢٣ ديسمبر. واتخذ بوهيموند وتانكريد الممر ذاته الذى اتخذه هيو لى مين، عبر الأدرياتيك من خلال سالونيكا، مغادرين إيطاليا فى أكتوبر ١٠٩٦، واصلين إلى القسطنطينية فى ٩ أبريل، ١٠٩٧ وغادر إديمار وريموند فرنسا فى حوالى نفس الوقت. واتجها جنوب شرق إلى ساحل دالمياتا إلى ديراكيوم؛ وبعد ذلك تبعا بوهيمون، ووصلا بعده بوقت قصير فى ٢١ أبريل، وغادر الجيش الرابع مع روبيرت وستيفين فرنسا، فى أكتوبر عام ١٠٩٦، واتخذوا الطريق الجنوبى عبر إيطاليا بحرا. وكان ستيفن يفكر فى العودة، إلى إقطاعياته الفرنسية وفى حين تقدم بقية الجيش، استراح هو طيلة الشتاء فى إيطاليا.

ويبدو أنه حين فكر فى زوجته قرر الاستمرار فى التقدم؛ لكنه تمكن من تأخير الرحيل الفعلى من أوربا قليلا عن طريق الذهاب إلى بريينديزى. وأخيرا غادرا فى أوائل أبريل عام ١٠٩٧ ووصل إلى القسطنطينية بعد شهر.

كثيرا ما يتحدث مدونو الأحداث فى العصور الوسطى عن مئات الآلاف بل الملايين من الجنود عند تحديد حجم الجيوش. لكن أحد أبرز المؤرخين المحدثين، ستيفن رانسيمان، أعطى تقديرات محتملة للأعداد المشاركة فى الحرب الصليبية الأولى، وعلى الرغم من أنها أقل بكثير من الادعاءات المبالغ فيها التى اعتدنا سماعها، فإنها تظل مع ذلك مبهرة: هناك ما إجماله أربعة آلاف وثلاثمائة فارس، وثلاثون ألفا من المشاة، هذا عدا النساء والطفيليين. قد يكون ذلك جيشا صغيرا بالمقاييس الحديثة، غير أن مجرد القيام بتنظيمه يعد عملا هائلا.

وكان شيئا جيدا بالنسبة لإليكسيوس أن الجيوش المنفصلة وصلت على فترات. ذلك أنه جعلها تمر واحدا واحدا عبر الدردنيل، وتمكن من جعل الأعداد المقيمة على أراضيه فى حدود يمكن التحكم فيها. غير أن هذه لم تكن مهمة بسيطة: فجودفر، الذى كان يظهر نفسه كمسيحى أقرب إلى الكمال، قاتل قوات الإمبراطور فى أثناء الأسبوع المقدس؛ وبهيموند كان يتصرف بصلاح واستقامة تثير الشك؛ ورفض ريموند مراراً أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور؛ وكان الأوربيون، بصفة عامة، يشعرون بالرهبة من المجتمع الراقى الرائع الذى وجدوا أنفسهم فيه فأحسوا بالقلق. فجعلهم شعورهم بالحرج يبدون خشنين أجلافًا مما زاد من تعالى البيزنطيين، فجعل ذلك المحاربين الصليبيين يتصرفون على نحو أكثر سوءاً.

لقد كان قسم الولاء هو الشرط الذى بموجبه أعطى إليكسيوس دعمه فى الأراضى المقدسة. وكان ينوى بواسطته أن يستعيد السيطرة على الأراضى البيزنطية التى خسرها أمام المسلمين؛ وإذا ما شكل النبلاء الصليبيون ممالكهم أو إماراتهم، فسوف يتحكمون فيها باعتبارهم أتباعًا للإمبراطور. لقد تسبب الاقتراح فى بعض الصعوبات، لأنه، مع علم الجميع أن مثل هذا القسم تقريبا عديم المعنى من

الناحية العملية، فهو نظريا يمكن أن يعطى إليكسيوس سلطات لا يستهان بها على اللوردات الغربيين. لقد أقسم معظمهم القسم باعتباره مسألة شكلية؛ ومع ذلك، فإن بوهيموند، بما يتمتع به من حرص وتملق، حاول استعماله كي يقوى من مكانته فى الحرب الصليبية؛ وشعر ريموند بأن القسم يتعارض مع ولاءاته فى الغرب، ولم يقتنع سوى بإعطاء قسم متحفظ؛ وانسل تانكريد من خلال القسطنطينية ليلا، دون أن يقسم اليمين مطلقا.

وفى الوقت الذى وصل فيه ستيفين دى بلوا، كان الجميع قد تحركوا. وأقسم ستيفن اليمين بمجرد وصوله، وبهره الاستقبال الذى أعده إليكسيوس. وشجعه بعد المسافة بينه وبين زوجته المسيطرة، فكتب لها مقارنا بين إليكسيوس وبين ويليام الفاتح - وكانت المقارنة فى صالح الإمبراطور؛ "إن أباك، يا حبيبتى، قام بالكثير من الأعمال العظيمة لكنه لا يكاد يكون شيئا بالمقارنة بهذا الرجل". وواصل الصليبيون التقدم. وانضم إليهم قليل من الناجين من جيش بيتر الممزق بما فى ذلك بيتر نفسه. وفى نفس الوقت مع وصول ستيفن إلى القسطنطينية وصلت القوة الرئيسية إلى أسوار نيقيا، وعلى الفور حاصرت البلدة. وحدثت معركة كبرى هزم فيها الأتراك الذين كانوا مفرطى الثقة بسبب ما حققوه من انتصارات سهلة على حرب الشعب الصليبية - هزيمة ساحقة. وترك مؤلف كتاب الأفعال المجهول، وهو يتحدث عن آلاف المحاربين الصليبيين المجهولين، وصفا جافا لما حققوه من نجاح: وكتب يقول، جاءوا بروح معنوية عالية، منتشين من يقين النصر، محضرين حبالاً يقيدوننا بها ويقودوننا فى خراسان. وتقدموا فرحين وبدءوا يهبطون قليلا من قمة الجبل، غير أن رجالنا قطعوا رءوس كل من جاءوا، وألقوا برءوس من ذبحوا فى المدينة بواسطة أحد الرماح، كى يسببوا مزيدا من الرعب فى الحامية التركية." ومع ذلك، ظل الحصار فترة طويلة؛ إذ دام سبعة أسابيع وثلاثة أيام. فتوفر وقت لستيفن دى بلوا كى يلحق بالجيوش، إذ وصل فى ٣ يونية؛ وكان وصوله يعنى أن الجيش بأكمله قد أصبح مجتمعا. وابتداء من القسطنطينية، بدأ ستيفن يستمتع بالحرب الصليبية التى فرضت

عليه فرضا، وحين استسلمت نيقيا فى ١٩ يونية، كان يشعر بما يشعر به الجميع من حبور. ولو أن الأمور استمرت على هذا المنوال، فمن الممكن أنه سيعود إلى الوطن بأسرع مما توقع. فكتب لزوجته يقول: "سوف نكون عند القدس فى خلال خمسة أسابيع؛ ما لم نحتجز عند أنطاكيا". واحتجزوا هناك. بل حتى قبل أن يصلوا إلى هناك، كان التحرك صعبا. ذلك أن الأتراك الذين أربكهم فقدهم لنيقيا، كانوا مع ذلك يتسمون بالعزم، فشنوا معركة ثانية، هذه المرة عند دوريليوم. وكانت صيحات المعركة التى أطلقوها مثيرة للأعصاب، "بدءوا جميعا على الفور يزأرون ويصيحون ويصرخون، ويقولون بأصوات عالية بلغتهم كلمة شيطانية لم أفهمها" "كان هناك أتراك عديدون يصيحون ويزأرون كالشياطين". لكن الصليبيين شجعوا أنفسهم بصلاة كانت شعارا لجميع الدوافع المختلطة التى جاءت بهم إلى هذا المكان البعيد جدا: "اصمدوا جميعا معا، واثقين فى المسيح وانتصار الصليب المقدس. نرجوك يا رب، أن نفوز اليوم بالكثير من الغنائم".

وفى النهاية كان النصر فى دوريليوم من نصيب الفرنجة مع الكثير من الغنائم؛ ولكن فى هذا الوقت تعلموا احترام الكفار الأتراك. فكتب مؤلف كتاب الأفعال "أن ما مر به الإنسان وتعلمه لا يمكن أن يعبر عما يتمتع به الأتراك من شجاعة ومهارة وجسارة. ولا يمكن لأحد أن ينكر أنهم، لو صمدوا بالإيمان بالمسيح لم يكن ليوجد جنود أكثر شجاعة ومهارة. لكن رجالنا دحروهم برحمة الله ".

وبعد دوريليوم، كان لا بد من عبور صحراء الأناضول "هى أرض مهجورة لا ماء فيها ولا سكان، خرجنا ونجونا بأعجوبة لأننا عانينا معاناة كبيرة من الجوع والعطش، ولم نجد ما نأكله سوى نباتات تغطيها الأشواك جمعناها وأخذنا نفركها بين أيدينا. وماتت معظم الخيول واضطر راكبوها للمشى، أو ركوب الثيران؛ وحين ماتت الدواب، تم وضع الأثقال وجر العربات بواسطة الماعز والكلاب." وبعد الصحراء كانت هناك بضعة أيام من الراحة؛ ثم جاءت عقبة جبال تورس. وكانت المحاولة الأخيرة قبل أنطاكيا، وإحدى أشق الصعاب. "جبل لعين، شديد الارتفاع والانحدار حتى أن أحدا من رجالنا لم يجر أعلى للحاق بالآخر، على الممر الجبلى. وسقطت الجياد على الجرف،

وكان كل منهم يجر الآخر إلى أسفل". بالنسبة للفرسان الذين كانوا يكدون كى يصعدوا الممرات غير الآمنة كان الأمر صعبا بصفة خاصة؛ وحاول الكثيرون بيع دروعهم الثقيلة، ولما لم يجدوا من يشترى، ألقوا بأسلحتهم بعيدا للتخلص منها. ولكن أخيرا كافحوا لصعود ذلك "الجبل اللعين" ووصلوا إلى سهل أنطاكيا. كان ذلك فى ٢٠ أكتوبر عام ١٠٩٧؛ لقد استغرقت الرحلة من القسطنطينية بواسطة طريق ملتف طوله ثمان مائة ميل ستة أشهر.

لقد تم تحمل حرب الشعب الصليبية بإحساس يزيد قليلا على الإيمان والحماس؛ وعلى الرغم من أن الحرب الصليبية الأولى نظمت بقدر أكبر من الدقة، وقدر أكبر من الصبر والتبصر، فإنه يبدو من المحتمل جدا أن الصليبيين لو كانوا قد فهموا بوضوح المهمة التى تحملوا القيام بها ربما كانت الاستجابة لنداء إيربان أقل بكثير. ذلك أن الأتراك برهنوا على أنهم محاربون أشد من المتوقع؛ وأصبح لدى الصليبيين وعى متزايد بما يمكن أن يواجهوا من محن؛ وهى محن كانت تتزايد منذ نيقيا، حين عبر ستيفن دى بلوا المحب لوطنه عن الأمل فى ألا يحتجزوا فى أنطاكيا.

كان الجميع يسمعون عن أنطاكيا: فهى المكان الذى أقام فيه القديس بطرس وهو أسقفيته الأولى. وقد جعلها ذلك وحده بالنسبة للصليبيين ملكية مسيحية لا جدال فيها بحكم الحق. ولكن مع تجمعهم على السهول أمام أسوارها حولت المدينة خيالهم وجعلته مجرد خيال هزيل قزم. إذ غطت المدينة ثلاثة أميال مربعة؛ وخلف المدينة، ولكن داخل أسوارها، ارتفعت منحدرات جبل سيلبيوس، تزينه القلعة وكأنها تاج على رأسه وهى ترتفع ألف ميل على السهل. وكانت الأسوار "مرتفعة جدا، وعريضة بشكل مذهل" وبها أربعمائة وخمسون برجا. وحين حملق الصليبيون فى الأسوار والأبراج توقعوا حصارا طويلا.

لم تكن جميع الجيوش المسيحية موجودة فى البداية. ذلك أنه قبل عبور جبال تورس كان كل من بولدوين وتانكريد قد انطلق بقواته جنوبا نحو صقلية حيث حاول كل منهما إقامة ممالك خاصة. ولم ينجح أيهما فى ذلك، واستمر تانكريد حول ساحل

المتوسط، يستهدف أنطاكيا. أما بولدوين فانضم مرة أخرى إلى القوة الرئيسية جنوب سلسلة جبال تورس، ثم بناء على حكايته استمر شرقا إلى أدسا. وهناك نجح بسرعة فى تحقيق الحكم الشخصى الذى سعى إليه. وفى ١٠ مارس ١٠٩٨، أصبح أمير أدسا؛ وبقى هناك لما يقرب من عامين. لقد غادر أوربا وهو ابن صغير بلا أمل فى سلطة حقيقية فى الوطن ولكن فى السنة الأولى فى أدسا أصبح أعظم أمراء الفرنجة فى الشرق.

فى أثناء ذلك، كان حصار أنطاكيا يمر بظروف سيئة. بل إنه لم يكن بالفعل حصارا حقيقيا، ذلك لأنه حتى حينه انضم تانكريد ورجاله مرة أخرى إلى الجيش الرئيسى لم يتمكنوا من الإحاطة بالمدينة، كما كانت أشد وأقوى من أن تأخذ بهجوم مباغت. وتمكن الأتراك من الإبقاء على خطوط إمداد مفتوحة، وشنوا هجمات متكررة على القوات المسيحية. غير أن مشاق الطقس والمجاعة كانت أشد من أية هجمات تركية: إذ مات سُبع الصليبيين خارج أنطاكيا.

وامتدت المحنة واستطالت، وبدأ الرجال يفرون من الجيش. وبعد عشرة أسابيع من الحصار، وفى أوائل يناير عام ١٠٩٨، تلاشى بيتر الناسك إلى أن ألقى رجال تانكريد القبض عليه وأحضروه. لكن أنطاكيا بدت منيعة، وبدا أن الحصار لا نهاية له. وأخيرا فى مارس تمكن الفرنجة من حصار المدينة وذلك عن طريق بناء حصون فى نقاط رئيسية حول الأسوار، وتوزيع قواتهم المتناقصة حولها. ولفترة من الزمن ارتفعت الروح المعنوية بسبب الاعتقاد بأنه من الممكن تجويع أنطاكيا إلى حد الاستسلام؛ ولكن عندئذ بدأت الشائعات التى تقول إن جيشا تركيا ضخما يتجمع فى الشمال. ففر الكثير من الصليبيين فزعا. وكان من بينهم "ذلك الجبان ستيفن دى بلوا كونت شارتر، الذى ادعى المرض الشديد". حين أطلق المؤلف المجهول لكتاب أفعال الفرنجة لقب الجبان على ستيفن إنما كان يردد صدى الرأى العام. غير أن جبن ستيفن، إن جاز أن يكون كذلك، كان أمرا مفهوما؛ فهو لم يرغب أبدا فى الانضمام إلى الحرب الصليبية أصلا، ولم يكن يتمنى الشهادة. وبدا له البقاء ضربا من الجنون،

والانسحاب من حسن الفطن، وربما يقاتل مرة أخرى. ولسوء الحظ بالنسبة له، لم يكد يوجد من يتفق معه، على الأخص زوجته المشاكسة. لذا حين عاد أخيرا إلى الوطن، بعد رحلة بطيئة ومخيفة كان العار والغضب يغمرانها حتى أن الرجل التعس أجبر على الانطلاق مرة أخرى. حين كان أمام ستيفن بديل القيام بمناوشات مع العرب المسلمين، أو مواجهة معركة مستمرة مع زوجته، اختار ستيفن بديل المناوشة مع المسلمين. ومما زاد الأمر سوءاً، أنه لو كان قد انتظر نصف يوم أكثر فى أنطاكيا لكان قد اشترك فى فتحها، ذلك لأن المدينة تم الاستيلاء عليها فى صباح اليوم الذى غادر فيه. ولم يتم الاستيلاء عليها بالقوة أو الحصار، وإنما عن طريق الغدر.

لقد عقد الفرنجة صفقة مع أحد الرجال المسئولين عن الأبراج. كان صانع دروع يدعى فيروز، وقد رشوه بثروة كبيرة من المال والأراضى. كان يعمل فى البرج الذى يقف فى حوض النهر، حيث يتدفق النهر من المدينة إلى الوادى. "أبرم الفرنجة حلفهم مع صانع الدروع ليلعنه الله: وشقوا طريقهم إلى البوابة المائية". هكذا كتب ابن الأثير، أحد أهم مؤرخى الإسلام. ويستمر مؤلف كتاب الأفعال، الذى كان بين المجموعة الأولى من المتسللين:

كانت البوابة مغلقة، وكان بعضنا لا يعرف أين توجد، لأن الظلام كان ما يزال مخيما. ولكن عن طريق التحسس بأيدينا، وتحريك العصى حول المكان، تمكنا من العثور عليها، واندفع الجميع نحوها، حتى أننا كسرناها ودخلنا".

ويكتب ابن الأثير: "صعدت عصبة أخرى منهم البرج بالحبال".

"صعد ما يقرب من ستين من رجالنا واحتلوا الأبراج التى كان فيروز يحرسها ... ثم بدأ عدد مذهل يصعد ثم جروا بسرعة إلى الأبراج الأخرى. وقتلوا كل من وجدوه على الفور.

"عند الفجر، حين كان أكثر من خمسمائة منهم فى المدينة، وكان المدافعون قد تعبوا من الحراسة الليلية، أطلقوا البروجيات، ....

فى هذه اللحظة ارتفعت صرخات أعداد لا تحصى من البشر، - كل من بالمدينة كانوا يصرخون دفعة واحدة.

واستولى الرعب على حاكم المدينة، وفر مذعورا ... لو أنه صمد لمدة ساعة لتم سحق الفرنجة. لقد دخلوا المدينة عن طريق البوابات وخربوها وذبحوا كل من وجدوه هناك من المسلمين...

كل هذا وقع فى الثالث من يونية. كانت جميع الشوارع على الجانبين تغص بالجثث، حتى أن أحدا لم يطق البقاء هناك بسبب الرائحة الكريهة كما لم يستطع أحد أن يسير فى الممرات الضيقة فى المدينة إلا فوق جثث الموتى".

لم يكن أحد ليتخيل أنهم سوف يتعطلون كل هذا الوقت: فحصار المدينة، بذروته الدامية استغرق ثمانية أشهر ويوماً.

لقد صحب فتح المدينة رؤى ونذر؛ إذ سقط نيزك على الأتراك؛ وعثر على رأس حربة، يزعم أنه الرمح المقدس الذى اخترق جنب المسيح، مدفونا فى إحدى الكتدرائيات؛ وفى المعركة الأخيرة ضد محاولة القوات التركية إنقاذ المدينة كانت الملائكة تساعد المسيحيين. وظهر القديس جورج وآخرون - يرتدون ملابس مثل فرسان الهيكل بعد ذلك ببضع سنوات - ملابس بيضاء، ويحملون رايات بيضاء ويمتطون خيولا بيضاء. وبينما صدق القليلون لمسألة الرمح، حتى فى ذلك الوقت، كان جميع الحاضرين يقتنعون اقتناعا تاماً بالفرسان الملائكيين - تماما كما كان جنود مون يصدقون، بعد ذلك بتسعة قرون، بأن ملائكة هم من أنقذوهم.

واستغرقت بقية الرحلة إلى القدس أكثر قليلا من عام. ذلك أن الصليبيين استراحوا فى أنطاكيا لمدة خمسة أشهر، وبعد أن استجمعوا قوتهم؛ كان هناك لا يزال قتال طويل فى انتظارهم.

فبين أنطاكيا والقدس كان هناك المزيد من المعارك، وكان الصليبيون يوشكون على الموت جوعا؛ وفى إحدى المرات، على الأقل، اضطروا إلى اللجوء إلى أكل لحوم

البشر، فأكلوا أعداءهم من الموتى. لقد وصف أحد الحجاج يدعى ريتشارد، في جيش روبرت من فلاندر كيف أن بيتر الناسك شجع على ذلك، قائلا: "ألا توجد وفرة من جثث الأتراك؟ إذا ما طهيت وملحت ستكون صالحة للأكل". ويبدو أنها كانت كذلك، وكان طعمها إلى حد ما أشبه بلحم الخنزير.

تم الوصول إلى أسوار القدس في ٧ يونية عام ١٠٩٩، ومرة أخرى كانت تكتيكات الحصار تعمل. كان أقل من ثلث القوة المقاتلة ما يزال متوفرا - نحو اثنى عشر ألفا من المشاة، وألف وثلاثمائة من الفرسان. ولكن، في ذلك الوقت، كانوا جميعا مقاتلين أشداء، وكان هدفهم أمامهم [المدينة المقدسة]؛ فلم يستطيعوا الانتظار طويلا.

وبعد ما لا يزيد على خمسة أسابيع، في يوم الجمعة ١٥ يولية، تم اختراق الأسوار - يقول التراث إن ذلك كان في منتصف النهار، ساعة الصلب. وانهمك الصليبيون في حفل شرير من التدمير - ويخبرنا مؤلف كتاب أفعال الفرنجة: "كان هناك من المذابح ما جعل جنودنا يغوصون حتى الكاحلين في دماء الأعداء" ويسجل ابن الأثير موت أكثر من سبعين ألفًا من المسلمين. ونهبت المدينة، وسلبت قبة الصخرة؛ ثم ذهب الصليبيون ليصلوا عند التابوت المقدس "بعد أن فرحوا وبكوا من شدة السرور".

لم يدر إيربان قط بنجاح فكرته البشعة نجاحا لا ينازع؛ إذ مات بعد سقوط القدس بأسبوعين، بحيث لم يكن من الممكن أن تصله الأنباء. كما مات أديمار مندوب البابا، لقد قتل كغيره في أنطاكيا، ولم يقتله الأتراك بل التيفود. ونجا جميع القادة العسكريين للجيوش الأربعة. بولدوين الأمن فيما تحقق له حديثا من عظمة، أصبح أميرا على أديسا؛ وبوهيموند الذي ترك ليكون مسئولا عن أنطاكيا بعد الكثير من الدسائس، صار أميرا عليها؛ وتنكريد أصبح أميرا على الجليل. وعاد ريموند إلى القسطنطينية، أما روبرت وروبرت فقد عادا إلى أوربا؛ وجودفري دي بويون، دوق لورين السفلى، ذلك الزاهد الطويل الأشقر الملتحي فقد انتخب انتخابا شعبيا ليكون مدافعا عن الضريح المقدس. ورفض لقب ملك القدس، وقال لن يكون من

الصواب أن ارتدى تاجا ملكيا في المدينة التي ارتدى فيها المسيح الأشواك. لقد نبعت شعبيته من هذه التقوى؛ غير أن التقوى لا تصنع حاكما قويا بالضرورة. ذلك أن جودفرى كان زعيما عديم التأثير؛ ومن زاوية رفاهية الدولة، ربما كان من الخير أنه توفى خلال عام من تلقيه اللقب. لكن الجميع كانوا يحبونه ويحترمونه، وأقام الكثيرون الحداد عليه.

وما إن سمع بولدوين عن وفاة أخيه حتى انطلق من أديسا. من الناحية السياسية، كان أبعد أمراء الفرنجة نظرا، ولم يضع الكثير من الوقت في الحزن على جودفرى؛ فجاء "وهو يشعر بالقليل من الحزن، على موت أخيه، لكنه أسعد ما يكون بخلافته في إرثه". إنه هو ذلك الشخص الذي كان في وقت من الأوقات أخا أصغر لا سلطة لديه، لم يكن لديه من المبادئ ما يمنعه عن تلقي لقب ملك؛ وفي الحادي عشر من نوفمبر ١١٠٠ توج بولدوين الأول، ملك القدس. وفيه وجدت المملكة اللاتينية في الأراضي المقدسة مهندسها. وحين جلس على العرش كان معظم فلسطين تحت السيطرة اللاتينية، ومعها إمارات أنطاكيا، وأدسا، والجليل، غير أن هذه السيطرة في أفضل أحوالها مهتزة. فأخذ بولدوين على مدى ما بقي من حياته يوسع ويدعم السلطة التي ورثها بكل طاقته وهمته. فدانت له صيدة وارسوف وقيسارية وازوتوس وعكا. وكانت هذه الموانئ لا تقدر بثمن بالنسبة للمسيحيين؛ فهم محصورون في دولهم المصتنعة، بعيدا عن أوطانهم، مما جعل الطرق البحرية تقدم أسلم وسيلة للاتصال مع أوربا. لذا كانت جوهرية؛ إذ لم يكن هناك ما يكفي من الفرنجة في الأراضي المقدسة كي يدافعوا عما فتحوه من أراضٍ فكانت هناك حاجة دائمة إلى المزيد من الرجال. كان الحجاج يأتون ومعهم المال والقوة الجسدية، كانوا كثيرين، لم يكونوا قط يكفون لسد الحاجة إلى الرجال. وإذا خدموا في جيش بولدوين، فإنما ذلك كان عادة لموسم معين، لأن غالبيتهم لم تكن ترغب في الاستقرار في الشرق؛ وهكذا لم يكن هناك مطلقا جيش دائم يعول عليه، سواء للأحوال الطارئة أو للدفاع اليومي. غير أن الطرق البحرية كانت مكلفة، وكان معظم الحجاج يأتون برا، مع أن الطرق كانت أكثر خطرا عن تلك الأيام

التى كان فيها الإسلام يمسك بالمدينة المقدسة. كان المسلمون فى كل مكان، وهم إذ يعيشون خارج الأراضى اللاتينية، كانوا يعتبرون الفرنجة أعداء ألداء لدينهم، فكانوا يغيرون على الغزاة وينهبونهم كلما أمكن ذلك. لذا، "بسبب هذه الإهانات، وحين سمع بضعة فرسان عن قطع الطرق، وكانوا مفعمين بالشعور بالشفقة ويحدوهم الأمل فى حياة كاملة، وضعوا خطة كى يكرسوا أنفسهم أساسا للدفاع عن الرحالة، ولسلامة الطرق، ولحماية الضريح المقدس".

لقد كان الفرسان جميعا من الفرنجة، فهم محاربون قدماء من الحرب الصليبية الأولى. لقد مات بولدوين فى ٢ أبريل عام ١١١٨؛ وربما كان موته هو الذى عجل بقرارهم، لأنهم اتحدوا معا فى ذلك العام نفسه. وكانوا قد قضوا نصف عمرهم تقريبا فى الشرق؛ فأصبح وطنهم. وشعر كاهن بولدوين الخاص، المؤرخ فولشى دى شارتر، بالانتشاء بسبب هذا التحول.

وقال: "تدبروا، وتأملوا، كيف صرنا شرقيين، نحن من كنا غربيين: إن من كانوا إيطاليين أو فرنسيين أصبحوا جليليين أو فلسطينيين؛ وأولئك الذين عاشوا فى ريمز أو شارتر هم الآن مواطنون فى صور أو أنطاكيا. لقد نسينا مسقط رأسنا... والبعض متزوجون من سورية، أو أرمينية، أو حتى مسلمة تلقت رحمة التعميد، ولديهم أولاد وأحفاد... وهناك من يزرع كرومه، ومن يفلح حقوله؛ ومن كانوا فقراء فى أوطانهم أغناهم الرب. فلم يعودوا إلى الغرب، إذا كان الشرق مواتيا إلى هذا الحد".

لقد أصبح الصليبيون يحبون الأرض التى اتخذوها لأنفسهم؛ ويريدون ويحتاجون إلى غربيين آخرين إذا كانوا سيبقون، لأن أرضهم الجديدة ودينهم فى حاجة إلى الحماية. ولكن كى يأتى آخرون، يجب أن تكون الطرق سالمة. منذ عام ١٠٤٨، وجدت المستشفى فى القدس، حيث يمكن للحجاج الفقراء والمرضى الإسعاف؛ ولكن لم يكن من واجب أحد حماية الحجاج المسافرين من القدس وإليها. فتحمل الفرسان الذين اتحدوا معا بعد وفاة بولدوين هذا الواجب. وكان أولهم هيو دى بيان، من

مواطنى شامبنى. كان يبلغ من العمر ثمانى وأربعين سنة، وقد عاش شرق القسطنطينية لما يقرب من اثنين وعشرين سنة. لقد كانت الجماعة التى تحلقت حوله صغيرة جدا، ربما لا تزيد على أربعة أشخاص فى البداية؛ بل إن أسماء بعض هؤلاء السبعة غير مؤكدة. كان هناك جيفرى دى سان-اومر، وهو فارس فلمنكى؛ وبيان دى مونتديفيى، وارشامبو دى سانانيان؛ وأندرى دى مونتبار؛ وبيزول أو بيزوت؛ وأخيرا رجلان لم تسجل سوى أسمائهما الأولى؛ روسال أو رولاند وجوندمار. وتقول كتب التراث إنه كان هناك تسعة فى الجماعة الأصلية، لكّن هذه الكتب لا تذكر اسم الرجل التاسع.

ثمانية أو تسعة كى يقوموا بعمل الشرطة فى إمبراطورية: هذا ليس عددا كبيرا. لكن كل واحد منهم كان فارسا وزعيما وفى حين كان رجال المستشفى رهباناً أنقياء وبسطاء، فإن هذه الحفنة من الرجال عزمت على أن تعطى نفسها للمسيح وتقاتل فى نفس الوقت.

لقد كان الملك الجديد هو بولدوين الثانى، ابن عم الأول، وأدرك على الفور قيمة المجموعة الصغيرة. ذلك أنهم أقسموا اليمين الثلاثى، الفقر، والعفة والطاعة. وأقسموا أن يدافعوا عن المملكة؛ ولا بد من مساعدتهم. وعلى الفور منح الفرسان إقامة فى منزل بالقرب من قبة الصخرة، وهو الموقع المفترض لهيكل سليمان. وكانوا هم بالفعل قد أعطوا لأنفسهم اسما: جنود يسوع المسيح الفقراء. ويشير ما بهذا الاسم من ضخامة وغرابة إلى ما يتسمون به من بساطة، كما يدل على تقواهم الصادقة. ولكن قبل أن يمر وقت طويل تغير هذا اللقب الثقيل، وأصبحوا فرسان هيكل سليمان - أو أبسط من ذلك، فرسان الهيكل. ومن الدم والغضب ولدت جماعة فرسان الهيكل.

الجزء الثانى

المعبد فى أوربا، ١١٢٨-١١٥٣

الفصل الثانى

غرباء وحجاج

فرنسا ، ١١٢٨

"اسمع؛ وسوف أتكلم عن أشياء ممتازة"

سفر الأمثال، الآية الثامنة، الإصحاح السادس.

فى وقت ما من عام ١١٢٦ - ربما فى أواخر الصيف أو أوائل الربيع - استقبل دير صغير فى شمال فرنسا ضيفين مهمين. ولم يكن المظهر الخارجى للرجلين اللذين اتجها إلى بوابة الدير، ولم يكن الدير نفسه، مميزًا بأى حال. إذ كان الرجلان ملتحيين، يرتديان ملابس عادية قديمة جدا؛ وكان الدير قد أنشئ منذ إحدى عشرة سنة فحسب؛ وكان بناء صغيرا من الخشب، فى أرض أزيلت عنها الغابة العذراء. غير أنه كان معروفا فى البلاد المسيحية بسبب رئيسه؛ وكذلك كان زائروه. كان الرجلان وهما أندرى دى مونتبا، ورفيقه جوندمير، اثنين من الأعضاء المؤسسين لفرسان الهيكل. لقد ارتحلا من الأراضى المقدسة عائدين إلى بلادهما وليس لديهما سوى غرض وحيد، هو زيارة هذا الدير الصغير والالتقاء برئيسه الشهير لأنه، فى السنوات القليلة الماضية، أصبح أكثر الزعماء الروحيين نفوذا فى العالم المسيحى؛ وتصادف أنه ابن أخ أندرى دى مونتبار. كان اسمه بيرنار دى كليرفو. وكان بيرنار رجلا ضئيل البنية، له لحية بنية قليلة الشعر، وحلاّقة الشعر التى تبين مهنته. وكان حينذاك، عمره ستًا وثلاثين سنة، لكن جسده كان هزيلا كما لو كان رجلا عجوزا، لأنه كان يعانى من

اضطراب مزمن فى المعدة أضعفه بشكل فظيع؛ ومع ذلك، فمن خلال الهزال الجسمى ظهر بريق من القوة الروحية أثرت فى جميع من اقتربوا منه. إنه أحد أهم الرجال فى تاريخ الهيكل، وهو رجل كان من الممكن أن يكون غير عادى فى أى عصر من العصور. وكان أحد الأبناء السبعة لعائلة نبيلة فى فونتين، بالقرب من ديجون. وكان أبوه تيسلان سوريل، سينيور فونتين يشتهر بما كان يتمتع به من رقة وكرم، وكانت أمه إليت تعرف بما لها من تقوى غير عادية. غير أن شهرتهما كانت محلية؛ أما شهرة بيرنار فكان مقدر لها أن تكون دولية. قبل مولده حلمت أمه بأنها تحمل داخلها كلبا ينبح، وقال أحد الرهبان تفسيرا للحلم أن ابنها سوف يشفى الأمراض وسيكون حارسا للكنيسة. وسواء كانت هذه القصة مشكوكًا فى صحتها أم لم تكن كذلك، فإن بيرنار حقق ما جاء فيها. وقرر الانضمام إلى دير كليرفو فى سن الواحدة والعشرين؛ وحين ذهب إلى هناك فى العام التالى أقنع تسعًا وعشرين شخصا آخر بالذهاب معه، من بينهم أربعة من إخوته الخمسة. أما الخامس الذى كان صغيرا جدا فالتحق بهم فيما بعد. وكانت الحياة فى كليرفو من شدة التقشف حتى أن الدير توقف عن القيام بوظيفته، والكثيرين من رهبانه غادروه للالتحاق بأديرة أقل قسوة. أما بيرنار وجماعته فكانوا مستعدين لتقبل التقشف؛ فأنقذ وصولهم الدير من الانتهاء، وأطلق عصر النهضة التى قامت منها الجمعية المسيحية الراهنة. وقوت الجماعة إلى الحد الذى مكن من إنشاء دار مماثلة لها بعد عام؛ وأنشئت دار أخرى فى العام التالى، وثالث فى العام الذى يليه. وأصبح بيرنار وهو فى الخامسة والعشرين من عمره رئيسا للدار الثالثة.

لقد بدأ ديره فى حالة من الفقر المدقع. وقدم كونت شامبانى، هيو، أرضا كى تكون موقعا له؛ ومن كل أراضى المقاطعة الواسعة، اختار بيرنار واديًا كثيف الغابات موحشًا يسمى وادى ابسينث. لم يكن به سوى الغابات وأحد الأنهار - فأزال بيرنار ورهبانه الغابات عن الأرض وقاموا ببناء مساكنهم بأنفسهم دون أية مساعدة، وكانوا يعيشون على الحب والجذور وأوراق الشجر. فى البداية، لم يكن هناك سوى مبنى واحد فكانت الكنيسة، وقاعة الطعام، والمطبخ وعنبر النوم جميعا تحت سقف واحد.

وكانت الأرضية من التربة؛ ولم تكن النوافذ سوى مجرد ثقوب لا تزيد على بضعة بوصات؛ وكان الرهبان ينامون على أوراق الشجر والقش. أما صومعة بيرنار فلم تزد على خزانة تحت درجات السلم المؤدى إلى العنبر.

ومما يثير العجب أن المشروع نجح؛ لكن هذا ليس هو ما حدث بل نجح نجاحا رائعًا. كان الرهبان يصلون وهم يعملون، ويقودهم فى كل شىء ذلك الرئيس ضئيل الحجم، وهو بدوره يقوده خضوعه التام لله. ذلك أن إيمانه كان بسيطا ومباشرا لا تفريط فيه؛ وهذه الصفات، التى عدلت وخففت منها المحبة والرحمة جعلت من بيرنار رجلا يفهم الجميع، ولا يقاومه سوى القليلين. إذ كان فصيحًا يملك رأيًا. وقد انتشرت بسرعة سمعته بصفته معلمًا ورائدًا بسبب مواعظه، وخطاباته ونصائحه وما كان يلقيه من مديح وتحذير. مما كان يغضبه إلى حد ما، لأن الخير لا ينظر كثيرا إلى ذاته. ولكن إذا كانت الرحمة منحة من الله، فقد كان بيرنار يعتقد أنها يجب أن تستخدم من أجل عمل الله، وهو لم يكن يتخلى عن العمل أبدا. وكان لا يكاد يذوق النوم، وكان يأكل أقل القليل؛ وأى شىء أقل من العبادة التامة كان فى نظره مضيعة للوقت.

كانت هذه هى قوة إيمانه حتى أنه قبل أن تمر عشر سنوات من رئاسته للدير كان قد صار ضمير البلدان المسيحية يحسم الخصومات، ويؤنب الملوك، ويسدى النصح لمن يطلبه، ويلهم كل من يصغى.

فى أثناء ذلك، كانت الجيوش المسيحية تواصل القتال فى الأرض المقدسة، وازدادت شهرة فرسان الهيكل. ذلك أنه فى عام ١١٢٠، كان كونت فولك من انجو قد انضم إليهم باعتباره عضواً مشاركًا؛ وبهذه الصفة لم يكن ملزما بالبقاء مع الجماعة طوال حياته، ولكن حتى بعد أن توقف عن العضوية الفعالة كان يعطى الهيكل هبة سنوية من ثلاثين جنيها فضة. وسار على مثاله، عدد من اللوردات الفرنسيين، كما جاءت الهبات من الشرق، من بطريارك القدس، والكنيسة السورية، وقساوسة الضريح المقدس. ولكن على الرغم من احتمال وجود أعضاء مشاركين آخرين، فلا تبين السجلات المزيد من الأعضاء كاملى العضوية حتى عام ١١٢٦، ففى ذلك العام انضم

رجل من أبرز الرجال إلى الثمانية (أو التسعة): هو هيو، كونت شامبنى، الذى كان قد منح بيرنار الأرض التى شيد عليها ديره.

لقد كتب بيرنار بأسلوبه المميز، مظهرا فى نفس الوقت إنسانيته وقيمته الروحية: "إذا كنت قد غيرت نفسك، من أجل عمل الرب، من كونت إلى فارس ومن شخص ثرى إلى شخص فقير، فإنى أهنئوك على تقدمك العادل، وأمجد الرب فيك ومع ذلك فإنى أقسم أنه مما يؤلمنى أن أحرم من حضورك المبهج بسبب طرق الرب الغامضة؛ ولكن على الأقل قد نراك من حين لآخر، إذا كان ذلك ممكنا. فكيف لنا أن ننسى الصداقة التى أبديتها نحو دارنا؟ ومقدار الفرح الذى كنا سنحس به ونحن نعنى بك، جسما ونفسا وروحا، إذا جئت كى تعيش معنا! ولكن ما دام الأمر ليس كذلك، فنحن نصلى دائما من أجل الغائب الذى لا يمكننا أن يكون بين ظهرانينا".

ولا بد أن وصول كونت هيو قد أثار الكثير من الذكريات القديمة لدى فرسان الهيكل. فهو قادم جديد من أرض الوطن التى تركوها منذ ثلاثين سنة؛ وهو سيد بلاد هيو دى بيان؛ كما أن صديقه، رئيس الدير العظيم، ابن أحد الفرسان الآخرين. وعلى الفور كان هناك مطلبان مختلفان جعلا من الأهمية بمكان أن يتم الاعتراف الرسمى بالجماعة والموافقة عليها من جانب البابا. أولا، فى العام السابق، ١١٢٥، كان الملك بولدوين ملك القدس قد منح لقب سيد الهيكل لهيو دى بيان؛ وكانت ممتلكات الهيكل المادية تنمو، فكانت هناك حاجة إلى بعض التنظيم. وثانيا، سنحت الفرصة لبولدوين لمهاجمة دمشق وكان فى حاجة إلى المزيد من الرجال. فإذا تمكنت الجماعة الوليدة من نيل موافقة بيرنار، فمن المؤكد أن تتبعها موافقة البابا؛ ومعها لن يكون هناك مستحيل. لذا كتب بولدوين رسالة محكمة الصياغة إلى بيرنار، وتم انتقاء فارسين لتسليمها. كان الاختيار الأول واضحا: أندرى دى مونتبار، خاله، وذهب معه رفيق للرحلة، جولديمار.

ولا بد أنها كانت تجربة غريبة حين دخل أندرى مع جوندمار إلى باب كليرفو: وعلى الرغم مما بينهما من علاقة الخال وابن الأخت، فمن المحتمل أنهما كانا تقريبا

فى نفس السن. ومن المؤكد تقريبا أن أحدهما لم ير الآخر منذ عشر سنوات، وفى ذلك الوقت، كان بيرنار قد أصبح أكثر رجال الدين احتراما فى العالم المسيحى. إن حوارهما، حين التقيا مرة أخرى كرجال غير مسجل، ولكن من المؤكد أنها كانت مناسبة مفرحة. من الممكن للمرء أن يتخيلهما يتبدلان الأخبار بلهفة عن العائلة، وكونت هيو، وعن جماعة الهيكل الجديدة. ذلك أن بيرنار، شأنه شأن غيره فى أوربا، كان قد سمع شيئا عن الفرسان المقدسين؛ والآن قدر له أن يعلم بشكل مباشر عن أفعالهم وآمالهم. ثم انتقل أندرى إلى موضوع رحلته فقدم رسالة بولدوين.

"إخوة الهيكل الذين خلقهم الله للدفاع عن منطقتنا ونطاقنا والذين أسند إليهم حماية خاصة، يرغبون فى تلقى موافقة رسولية وكذلك حكم الحياة.... ولما كنا نعرف معرفة جيدة توسطكم مع الرب وكذلك مع ممثله، ومع غيره من أمراء أوربا، فنحن نسند إلى عنايتكم هذه المهمة المزدوجة، التى نرحب بنجاحها. وليكن دستور الفرسان مناسبا لمن يحيون فى ظل صدام الحرب وما بها من اضطراب، ومع ذلك، يكون مقبولا لدى الأمراء المسيحيين، الذين كان الفرسان عونا لهم. وقد قيض لكم، بإرادة الرب، أن تصلوا بهذا الأمر إلى نتيجة ناجحة سريعة".

ربما لم يكن هيو دى بيان يدرك هذا الأمر، ولكن الجمع بين فضائل العبادة وفضائل الحرب كان فى العصور الوسطى ضربة خيالية من أرفع المراتب. أما بيرنار فقد أدرك ذلك على الفور. إذ إنه استشعر ذلك بفضل إرثه العسكرى الدينى، من أبيه النبيل، وأمه التقية: من خلال فرسان الهيكل - يمكن توسيع نطاق المسيحية وتقويتها، - ويمكن التعبير عن الروح القتالية لدى الأوربيين الشباب، ويمكن مباركتها. فأعطى موافقته الفورية، ووعد بأن يبذل كل ما فى وسعه للمساعدة. وبالنظر إلى صعوبات التواصل عبر مسافات بعيدة، يمكن القول بأن الأحداث تحركت بسرعة. فتم تقديم نداء للبابا أونوريوس الثاني؛ فوافق من حيث المبدأ ودعا إلى عقد مجلس لتدارس الأمر. وبينما كان بيرنار يشغل نفسه فى أوربا، أرسلت الأنباء السارة إلى القدس وانطلق هيو، السيد نفسه، بحراً إلى إيطاليا. ورافقه العديد من الإخوة - والسجلات

المختلفة تقدم أعدادا مختلفة، خمسة، أو ستة، أو حتى سبعة. أما كونت هيو فلم يذهب؛ إذ إنه، فى حقيقة الأمر، لم يعد إلى أوربا مطلقا. ومن المؤكد أن عضوا كامل العضوية على الأقل كان يجب أن يبقى كى يدبر شئون الهيكل فى غياب المعلم.

قد يكون هيو وإخوته من الفرسان قد وصلوا إلى إيطاليا فى أواخر عام ١١٢٧. وأتيح لهم لقاء مع البابا، ثم فى نهاية السنة، اتجهوا شمالا إلى فرنسا؛ لأنه كان من المقرر أن ينعقد المجلس فى تروا، على بعد مسافة قصيرة شمال غرب كليرفو. ولم تكن بلدة هيو بيان أو بان كما تسمى الآن تبعد سوى بضعة أميال، على الضفة الشمالية من نهر السين، قبل التقائه مع نهر أوب. وكان قد غادر البلدة الصغيرة فى السادسة والعشرين من عمره؛ وحين عاد كان عمره ثمانى وخمسين سنة.

لقد كانت جمعية عظيمة مقدسة تلك التى تجمعت فى الكتدرائية فى تروا، فى عيد القديس هيلارى فى ذلك العام، أى فى يناير عام ١١٢٨- كان يوما باردا، وكان البرد شديداً فى الكتدرائية، خاصة بالنسبة لأصحاب المنزلة الأقل الذين اضطروا إلى الجلوس على الأرض.

وكان من بين الأشخاص الأكثر حظًا رجل يسمى جون ميكل. بل أنه عد نفسه أكثر الأشخاص حظا: إذ إنه لم يستطع فقط أن يجلس على مقعد بدلا من الجلوس على الأرض الباردة بل كانت أمامه منضدة كتابة - لأن بيرنار قد اختاره كى يكون الكاتب أو المدون الرسمى للجمعية وبدأ عمله فى التسجيل وهو يشعر بالابتهاج بما أسبغ عليه من تشريف.

وكتب: "أنا جون ميكل قد اعتبرت جديرا بعناية الرب أن أكتب الوثيقة الحالية بأمر المجلس وأمر بيرنار، الرئيس الموقر لكليرفو، الذى أوكل إليه هذا العمل عن استحقاق".

وكان ذلك "العمل" هو ميثاق الهيكل، مرشد الفرسان الجديد للسلوك. وهى وثيقة طويلة ومفصلة، تتكون من اثنين وسبعين مادة، تغطى كل جانب من جوانب الحياة

اليومية. وكان مثل هذا العمل يتطلب معرفة بالحياة الروحية والحياة فى الشرق، وهى معرفة لا يتمكن منها رجل واحد؛ أما بيرنار فكان محرر الوثيقة وليس واضعها. فلم يكد يحضر المجلس حتى اعتلت صحته بعد دعوته إلى تروا بفترة وجيزة كتب يرد: "إن ما لديكم من سبب لاقتحام ما أنا فيه من سكينة يتعلق بأمور إما سهلة أو صعبة. فإذا كانت سهلة فلا ضرورة لمساعدتى. وإذا كانت صعبة فلست فى حالة تسمح بالاهتمام بها - على الأقل، لا أستطيع عمل شيء يستعصى على غيرى". حتى القديسون يمكنهم أن يستثاروا حين يكونون مرضى؛ غير أنه فى النهاية أمكن إقناعه بالمجيء ونقش جون ميكل برقعة الجلد والريشة أسماء من حضر. من بين الحشد الذى ملأ الكتدرائية كان هناك الكثيرون من المغمورين مجهولى الذكر وكان عددهم كبيراً بحيث "يصعب التحدث عنهم جميعا" لقد رأى الكاتب المشاهير". كان هناك الكاردينال ماتيو من أولبانى، والمندوب البابوى، وهو الذى يترأس المناسبة المهيبة. وكان بجانبه أساقفة ريمز، وسان، وكان هناك عشرة أساقفة وسبعة من رؤساء الأديرة يجلسون فى نصف دائرة حول هؤلاء الثلاثة. اثنان من رؤساء الأديرة، هما بيرنار، رئيس دير كليرفو، وستيفن هاردينج، رئيس دير سيتو سوف يعترف بهما كقديسين فيما بعد؛ وعلى الرغم من أن كاردينال ماتيو كان يترأس المجلس اسمًا، كان الجميع يعرفون أن بيرنار هو الزعيم الحقيقى للمجلس. وكان معظم أعضاء المجلس يعرفونه معرفة شخصية، أما القلة التى لم تكن تعرفه، فكانت تحترمه وتعجب به.

وكان هناك لوردات علمانيون يحضرون المجلس أيضا: "آخرون من أنصاف المتعلمين لكننا نحضرهم كشهود على هذا الشيء لأنهم يحبون الحق". - ولأنه إذا ما تم الاعتراف بهذه الجماعة الجديدة فأمثال هؤلاء الرجال هم من سيقدمون الدعم المادى. وكان أهم شخص من غير رجال الكنيسة كونت تيبو من شامبانيى، وهو صديق آخر من أصدقاء بيرنار. ومنذ البداية كان يميل إلى فرسان الهيكل، لأنه حصل على لقبه حين انضم عمه كونت هيو إلى الجماعة. ولا بد أن هيو دى بيان ورفاقه قد شعروا بأنهم خُشنون غير متحضرين فى حضور هذا العدد من الرجال البارزين، كما كانوا يشعرون بالعصبية لدى التفكير فى القرار الذى كانوا ينتظرونه.

لم يكن فرسان الهيكل يشبهون أى فرسان آخرين رآهم أعضاء المجلس من قبل. فبدلا من الحرير والفراء المزركش الفخم الذى يحبه الفرسان العاديون كان هؤلاء الرجال يرتدون ملابس قديمة مهترئة وممزقة. ولم تكن ملابسهم مرصعة بالحلى أو الذهب أو أشكال معقدة على أسلحتهم ودروعهم: بل كانت جميعا باللون الأسود. وبدلا من قصات الشعر الأنيقة، واللحى المهندمة كان شعرهم قصيراً بشكل صارم، ولحاهم كثيفة ثقيلة. حين كان أعضاء المجلس ينظرون بفضول إلى من يتوسلون إليهم، استمعوا إلى كاردينال ماتيو وهو يفتتح الأعمال بشكل رسمى، ثم نهض هيو دى بيان كى يتكلم بناء على دعوة من الكاردينال. فتحدث عما مضى من أيام، حين اكتسح الصليبيون الأراضى المقدسة، وأخذوا القدس من المسلمين؛ وتحدث عن الأخطار التى واجهها الحجاج، والتهديدات المتكررة على الدول اللاتينية. وشرح كيف تشكلت مجموعته الصغيرة، وكيف رحب بها ملوك القدس؛ ووصف طريقة جماعته فى الحياة، بما فيها من مزيج غريب من الصلاة والقتال. ولم يستخف بالصعوبات؛ ومع ذلك قال إن أسوأها أنه يقاتل وحده هو وإخوانه، دونما عون من مسيحيى الغرب. وبدا أحيانا أنه يسمع الشيطان يهمس قائلا: "لم تكدح بلا جدوى؟ ولم تبذل كل هذا الجهد بلا طائل؟ إن من تخدمونهم يعترفون بكم كشركاء فى الكفاح لكنهم غير راغبين فى المشاركة فى الجماعة. فمتى تأتى تبرعات المؤمنين الخيرية إلى فرسان الهيكل؟ ومتى تصل الصلوات لفرسان الهيكل من المؤمنين فى أنحاء العالم".

وأخيرا كرر الاحتياجات الثلاثة الماسة التى تطلبها الجماعة، إذا كان لها أن تستمر فى أداء عملها: مباركة الكنيسة واعترافها، ومرشد أو ميثاق يحكم حياتهم اليومية، ومساعدة عملية على شكل مال ورجال.

ولم يكن فى حاجة إلى القلق؛ لأنها قبلت جميعا بحماس هادئ مناسب. بل حتى دون توسله الحار كانت توصية بيرنار وحدها كافية بالنسبة للجميع أو للجميع تقريبا. لقد كان فى تلك المجموعة من الرجال المخلصين شخص لا يحبه أحد: ذلك الشخص هو جان، أسقف أورليان. ولم يلقبه جون ميكل الكاتب بالأسقف بل لقبه بازدراء

الراقص العمومي. وقد وصفه أحد زملائه بأنه "شيطانة مسافحة وبأنه لواطي" إذ كانت أخلاقه العامة عبارة عن فضيحة، حتى أن اسم شهرته الشائع كان "فلورا" وكان السبب الوحيد لحضوره هو أنه كان مفضلا لدى الملك. ولم يكن يحب بيرنار، كما لم يكن بيرنار يحبه؛ غير أن استبعاده كان من شأنه أغضاب الملك؛ وعلى الرغم من أن بيرنار لم يكن يخشى غضب أحد، فإنه كان إنسانا عمليا، ولم يكن يرغب في تعريض "الفرسان" للخطر. كما لم يرغب أعضاء المجلس في أن ينظر إليهم باعتبارهم أدوات الشيطان. وكان هيو قد لمس وترا حساسا مما جعلهم يسبغون عليه، بركته وكذلك على جماعته بالشكل المناسب؛ ثم أخرجوا بكل عناية وضمير ميثاق الهيكل.

وكانت الوثيقة التي أخرجوها شديدة التفصيل والتعقيد بشكل ممض، وكانت شاملة إلى أكبر حد تمكنوا من تحقيقه. ذلك أن الاثنين والسبعين مادة التي توجد في نسختها اللاتينية الأصلية غطت كل ما أمكن لأعضاء المجلس التفكير فيه، ابتداء من التحذيرات الدينية العامة إلى النظام اليومي الذي يجب أن يتبعه الفرسان. فكانت جوانبه الدينية مشابهة لتلك التي توجد في أي دير، وكانت عموما ذات نبرة خيرة: إذ كان على الإخوة أن يصلوا معا في أوقات معينة في كل يوم، وإذا كانوا غائبين عن الدار، عليهم ترتيل أعداد مختلفة من الصلاة الربانية (أبانا الذي في السماء). ولا يجب أن يتناولوا اللحم إلا ثلاث مرات في الأسبوع؛ ويجب أن تنعقد الوجبات في صمت، مع قراءة من الكتاب المقدس، ويجب مراعاة الصمت ليلا. ويؤمر الإخوة بالعناية بأي عضو مريض أو مسن وأن يقيموا القداس لأرواح موتاهم؛ وعليهم بعد وفاة أي أخ منهم إطعام فقير لمدة أربعين يوما. ويجب عليهم تجنب التواصل مع من حرموا من الكنيسة، مع أنهم يمكنهم قبول الصدقات والهبات من أمثال هؤلاء، وعلى الرغم من أن نصب الفخاخ مسموح به، لكن ليس مسموحًا لهم قنص أي مخلوق عدا الأسد. ذلك أن القنص وثيق الصلة بحياة الفارس العادي؛ مما جعل أعضاء المجلس يظنون، وربما عن حق، أن الإثارة والكد في المطاردة من شأنه إيقاظ المسرات الخاطئة القديمة في نفوس جنود المسيح. ولكن إذا كان القنص شرا، فالنساء شر لا حد له. إن رعدة الرعب

(وربما الابتهاج) تكاد تكون مسموعة فى كلمات هذا الميثاق: "إن صحبة النساء شىء خطير، فمن خلالهن أنكر علينا الشيطان القديم الحق فى العيش فى الفردوس؛ لذا لا يمكن استقبال النساء كأخوات فى الجماعة، ... ونحن نعتقد أنه من الخطر على أى متدين أن ينظر أكثر مما ينبغى فى وجوه النساء. "ولذا، لا يجب على أى واحد منكم أن يجترئ على تقبيل امرأة سواء كانت أرملة أو عذراء أو أمًا أو أختًا أو عمة أو خالة، أو أى امرأة أخرى؛ لذا يجب على فرسان المسيح أن يفروا دائما من قبلات النساء." لم يكن هذا معاداة خالصة للمرأة كما يبدو، لأن الإخوة كانوا أيضًا ممنوعين من أن يكونوا آباء روحيين؛ ذلك أن أعضاء المجلس كانوا يخشون من أن هذه العلاقة قد تثير فى نفوس الفرسان الشوق إلى الحياة الأسرية العادية. ولهذا السبب جزئيا كان محظورا على الأطفال دخول الجماعة أو أن يوعدوا بذلك، كما كان العهد فى الدور الدينية الأخرى، ذلك أن فرسان الهيكل، منذ البداية، كانوا عازمين على أن يقبلوا فقط الرجال الناضجين الذين يحضرون بناء على رغبتهم وقناعتهم. وكان ملبسهم شأنه شأن أى شىء آخر فى حياتهم ينظمه ميثاقهم. ولم يعودوا يرتدون ملابس قديمة غير مميزة ومستعملة؛ وبدلا من ذلك، وكما يليق بمحاربين تخلوا عن "الثراء البهيج فى ذلك القرن" من أجل حياة جديدة فى الرب، يجب على الإخوة الفرسان أن يرتدوا زيا أبيض، شعارا على العفة والنقاء. "لكن ملابسهم لا يجب أن يكون بها بهرجة أو زهو ويحظر على أى أخ أن يرتدى أى فراء، غير جلد الأغنام... حتى لا تجد عين الحاسد المترثر ما تنتقده، ولا ينبغى أن تكون الأردية شديدة الطول أو شديدة القصر؛ وإذا ما اشتهى أى أخ، بسبب الزهو أو التكبر، رداء أفضل أو أجمل، يعطى أشر الأشياء".

وكذلك كان فراشهم محددا مصمما: مرتبة، وملاءة، وبطانيتان؛ وعليهم النوم وهم يرتدون ملابسهم الداخلية القطنية، التى يضمها حزام، ويجب أن يشتعل ضوء فى العنبر طوال الليل. وليس من حق الأخ امتلاك أية ممتلكات شخصية؛ فكل شىء مشاع. والهدية التى تقدم لأى من الإخوة تعد هدية للجميع؛ بل إن الخطاب

الشخصى لا يمكن قراءته بشكل شخصى أو خاص، وإنما يقرأ بصوت مرتفع أمام المعلم.

لقد كان كل ما فى الميثاق يقصد منه إقامة أو الإجبار على إقامة حياة جماعية، إن كان ذلك ضروريا - إنكار لما هو فردى فى صالح ما هو جماعى. إذ كان أعضاء المجلس يرون التفاخر الشخصى باعتباره أحد الأسباب الجذرية للغيرة والصراع فسعوا إلى منع ظهوره فى أى مكان فى الجماعة - حتى ذلك التفاخر المقلوب الذى يتمثل فى الحديث عن مدى فساد الفرد قبل التحول. فلا أعلام بطولة على الرماح، ولا حلى على الدروع ولا أحذية مدببة، ولا إفراط فى الحديث، أو ضحك؛ وبدلا من ذلك، يطلب الفقر والعفة والتواضع. ولكن فوق هذه الصفات - وهى التزام مدى الحياة - طلب الميثاق الطاعة.

"على كل أخ التزم بالخدمة المقدسة، أن يطيع المعلم طاعة كلية، من خلال الخوف من لهيب الجحيم؛ لأن ما من شىء أحب إلى يسوع المسيح مثل الطاعة، وإذا أمر المعلم بأى شىء، أو أى شخص أسند إليه هذه السلطة، يجب عمله دونما تردد وكأنه أمر من الرب... لأنك يجب أن تتخلى عن إرادتك الحرة ".

قد يأتى مثل هذا الإنكار للذات بيسر للقديسين؛ ولكن فرسان الهيكل ليسوا بقديسين مهما بلغ إقتناعهم؛ وقد تبصر أعضاء المجلس الأكثر دنيوية الأوقات التى لن يستطيع فيها حتى التهديد بالحرق الأبدى، أو التفكير فى المسيح كنوع من الدكتاتور الروحى، يمكن أن تمنع خرق الميثاق. لذا تم وضع نظام من العقوبات العملية، تتراوح من أعمال الكفارة الصغيرة من خلال الأعمال المذلة كان يأكل الشخص طعامه من على الأرض، استمرارا إلى حد الطرد من الجماعة مع السجن الدائم أو دونه. كانت المخالفات تؤخذ على محمل الجد فى الجماعة، منذ بدايتها حتى نهايتها الشنيعة؛ هناك فارس، على الأقل، تم سجنه فى هيكل لندن بعد ذلك لسنوات عدة قد مات جوعا.

هكذا أقر ميثاق الهيكل - أنه صارم، ومتقشف، وعلى ما يبدو لا تنازل فيه. ولكن توجد جملة واحدة فى نهاية الوثيقة:

جميع الوصايا والأوامر التى قيلت وكتبت أعلاه تخضع لحصافة وحكمة المعلم. بعبارة أخرى، لا يوجد شىء فى الميثاق نهائى؛ إذ يمكن إضافة أو تغيير أية مادة، ويمكن إضافة مواد جديدة. حين انتهى مجلس تروا، قد يكون أعضاء المجلس قد ذهبوا وهم يشعرون بأنهم قد أنجزوا عملا طيبا، وأن اثنين وسبعين من القواعد تكفى تمامًا لأى شخص. غير أن فرسان الهيكل كان رأيهم خلاف ذلك. فعلى الرغم من أن الميثاق الأصلى كان يشتمل على مواد عسكرية دقيقة، مثل عدد الجياد التى يمتلكها الفارس، فإنه من الناحية الجوهرية مرشد للواجبات الدينية. فلم يعر كثير اهتمام للتنظيم والإدارة والتدرج الهرمى الذى يمكن أن يكون ضروريا؛ إذ لم يستغرق دخول إخوة جدد سوى فقرة واحدة؛ ولم يذكر أى شىء على الإطلاق عن تعيين معلم جديد بعد وفاة هيو. تلقى الميثاق بحالته هذه موافقة البابا؛ ثم بدأ الفرسان على الفور إضافة أشياء إليه. وحين رضوا عنه، بعد ذلك بمائة وتسع وثلاثين سنة، كانوا قد أضافوا ما يزيد على ستمائة مادة إضافية. لقد كان الكثير من هذه القائمة الضخمة أمورا تافهة أى مواد وضعت - أحيانا على عجل - لمعالجة ظروف عابرة. ولكن كل مادة من هذه المواد كانت تؤثر فى كل فارس، وكانت للكثير منها أهمية عظيمة. وأول هذه المواد، كانت مسألة التدرج الهرمى، وتوصيف واجبات كل رجل ومسئولياته، ذلك أنه على الرغم من أن المبدأ الذى يكمن وراء الجماعة وهو فكرة عدم وجود جيش دائم مرتزق كانت فكرة غريبة على الإقطاع وكانت إشارة إلى نهايته، فإن الجماعة كانت منظمة على خطوط مماثلة للمجتمع الإقطاعى، الذى نبعت منه.

فعلى رأس الجماعة كان هناك المعلم؛ ولم يعرف قط فى أثناء حياة الجماعة بالمعلم الأكبر: وبدلا من ذلك، يسمى "معلم الهيكل فى القدس". وكان رجلا قويًا جدًا، لكنه لم يكن دكتاتورا، ولكن فى حين كان كل أخ مسئولا أمامه، كان هو بدوره مسئولا أمام الجماعة ككل. لقد كان منصبه، الذى يقارن بمنصب رئيس الدير، يعطيه سلطات معينة

وامتيازات، ولكنها جميعًا كانت محدودة. إذ يمكنه توزيع أو الاستغناء عن بعض ممتلكات الجماعة؛ ويمكنه منح الهبات باسم الجماعة؛ ويمكنه اختيار خيله ودرعه؛ وكان هو الحارس على خزانة مغلقة من المجوهرات تخص الجماعة. ومع ذلك، فى جميع القرارات المهمة، مثلا، فى إعطاء أو التخلى عن إحدى ممتلكات الجماعة، أو فى التخطيط لحملة أو تنظيم هجوم خاص، أو فى تغيير أى جزء من الميثاق أو الإضافة إليه أو إلغائه، أو فى استقبال أخ جديد، أو فى إعلان الحرب أو عقد السلام - فى جميع هذه القرارات، عليه أن يستشير جماعة من الفرسان، وعلى الرغم من أن صوته قد يكون مؤثرا، فهو لا يملك سوى صوت واحد. ومع نمو الجماعة، كان المحيط به شخصيا يشتمل على أحد عشر رجلا: رفيقان من الفرسان؛ مستشاراه؛ وكاهن خاص، وكاتب، ومترجم، وطاه، وحداد، وحارس شخصى، وخادمان، ورقيب. وكان لديه أربعة جياد للاستخدام العادى؛ أما فى الحملات فكان لديه ما يقرب من عشرة، أكثر من الآخرين؛ وكانت راية الجماعة فى المعركة تسير فى ركابه. وهى عبارة عن صليب أسود على أرضية بيضاء؛ لقد أصبح هذا، أى الجونفالون بوسينت، مصدر بلبلة معهودة بين المؤرخين حين كانوا يكتبون عن الهيكل فى بدايته. وكلمة بوسينت تعنى تقريبا ذا مظهر حسن، لكنها كانت اسما للراية. فى واقع الأمر فإن كلمة بوسينت كما تظهر فى الميثاق، كلمة شائعة جدا فى حكايات العصور الوسطى، ولها معنيان: بيبالد، شبيه الحصان، أو بصورة أكثر بساطة راية. وهكذا فإن الاسم لم يكن أصلا قاصرا على فرسان الهيكل؛ ذلك أن الكثير من الجيوش كان يمكنها أن تشير إلى راياتها باعتبارها بوسينت، والكثير من تلك الجيوش فعلت ذلك. كما لم يكن الصليب الأسود والأرضية البيضاء الجونفالون "الرمز الأصلى لفرسان الهيكل. فقد صودق عليه عام ١١٤٥، وفى ذلك الوقت كان هيو دى بيان قد مات. ولكن المعنى المزدوج كان غريبا على فرسان الهيكل، لأن الراية التى ركبها هيو ورفاقه فى تلك الأيام الأول كانت أسود وأبيض: من حيث الشعار، كان ذلك ملحا مع اللون الأسود الداكن أو الأدهم - أن يكون هناك أبيض ناصع، يعلوه شريط أسود عريض.

وكان عدد قليل من فرسان الهيكل الحق راكبين مباشرة بجانب الراية: وهم ناظر الإقطاعية، والمرشال، وأمراء مدينة القدس ومدن طرابلس وأنطاكيا، وأخيرا معلمو الأقاليم، مثل إنجلترا والبرتغال، وأرجون، والمجر وفرنسا. كان هؤلاء هم جميعا أهم المسئولين فى الجماعة.

وكان ناظر الإقطاعية هو من يلى المعلم فى القيادة. وكان لديه، بالإضافة إلى الراية، خيمة وختم مطابق لختم المعلم، وينوب عن المعلم فى غيابه. أما المرشال، فلم يكن الثالث فى القيادة فحسب لكنه كان أيضا قائدا عسكريا أعلى، ويتحكم فى تخصيص الأسلحة، والخيول، ويقرر التكتيكات والاستراتيجية، ويقود الهجمات ضد العدو. وكان قائد مدينة القدس مسئولا عن صحة الإخوان ورعايتهم، وكان يصحبه عشرة فرسان دائمين، وبمرور الوقت، ومع نمو النشاط العسكرى للهيكل، أسند إليه واجبان إضافيان: الواجب الأول المتعلق بحماية الحجاج، وتأمين ونقل أحد أقدس الآثار المسيحية، وهو عبارة عن قطعة من الخشب يعتقد أنها قطعة من الصليب الحقيقى. وأخيرا قيادة مقاطعات طرابلس وأنطاكيا، ومعلمى الأقاليم: كان هؤلاء الرجال فى أراضيهم يتمتعون بسلطات مكافئة لسلطات المعلم، ولم يكونوا يتخلون عنها إلا إذا كان المعلم معهم. وثمة رجل آخر يمكن إدراجه مع هؤلاء المسئولين الأكثر عظمة: مسئول الأقمشة والملابس. واجباته لم تكن عسكرية، لكنه كان شديد الأهمية بالنسبة للجماعة، لأنه هو من كان مسئولا عن كل ما يتعلق بملبس الإخوان وفراشهم. ويمكن قياس حجم أهميته من حقه - المطابق لحق القائد فى امتلاك أربعة من الخيول وثلاث خيام، للملازمين له، وهم يتكونون من ثلاثة سكوير (أفندى) وحارس شخصى، ومجموعة من الحائكين بطبيعة الحال. وجميع الممتلكات الخاصة بالجماعة، سواء كانت قلاعًا أو مزارع، كانت تسمى "بالدور". ومن بين المسئولين الأقل درجة كان هناك مجموعتان مهمتان هما قادة الدور، المسئولون أمام قائد الإقليم؛ وقادة الفرسان الذين كانوا يقومون مقام المرشال.

ثم يأتى الفرسان. فدونهم لم تكن الجماعة لتوجد؛ وعلى الرغم من أن سادتهم كانوا أشخاصا مميزين، يمكن معرفة حياتهم وشخصياتهم بوضوح، فمن المناسب أن تظل صورة الفارس على صهوة الجواد، مرتديا درع الزرد والجلباب الأبيض القصير الملفوف حول الخصر هى الصورة المميزة للفرسان؛ لأن الإخوان الفرسان، بصحيتهم "بوسينت" هم الطليعة والإخرة لكل قوة من قوى فرسان الهيكل. ومع ذلك حتى هم لم يكونوا أكثر المجموعات عددا فى الجماعة - كانوا يجندون من بين طبقة النبلاء، وكانوا رأس حربة الجماعة والدفاع عنه، وعن الأراضى المقدسة، غير أنهم كانوا فى حاجة إلى نظام دعم كبير كى يتمكنوا من العمل بشكل فعال. فقدم هذا الدعم الإخوة الرقباء. وكانوا أعضاء من البرجوازية الثرية؛ وكان زيهم أسود أو بنى اللون، وكانت واجباتهم تتراوح من الطهى إلى القتال. وعادة ما كان عددهم يفوق عدد الفرسان بنحو تسعة إلى واحد، وإذا كان الفارس هو العمود الفقرى للجماعة، فإن هؤلاء الرقباء يشكلون الجسد. لم يكن الرقيب يملك سوى حصان واحد، فى حين أن الفارس يملك ثلاثة جياد، ولكن ثمة امتيازات مفتوحة أمام الرقيب لم يكن للفارس أن يصبو إليها. على سبيل المثال، كان قائد ميناء عكا دائما من الرقباء؛ وكان هؤلاء الرقباء هم الحرس الشخصى للمسئولين الأكبر درجة؛ كما كان حامل الراية أيضًا من بينهم.

فى البداية، لم يكن للجماعة رجال دين خاصون بها؛ وكان يقوم بخدمة أعضائها من الناحية الدينية كهنة وقساوسة خاصون من كنيسة روما، وكانوا يتلقون الإقامة والطعام؛ ولا شىء أكثر من ذلك، ويرتدون ملابسهم العادية. وقبل مرور وقت طويل، كل هذا سوف يتغير؛ كذلك كانت طريقة استقبال أعضاء جدد تتغير، وكذلك القبول فى الجماعة. ذلك أن الميثاق الأصلى قفز بخفة على ما كان مقدر له أن يشكل مشكلة رئيسية:

لم تكن مؤهلات الدخول أقل تعقيدا. "إذا رغب أى فارس علمانى، أو أى رجل آخر أن يترك جماعة الضياع ويتخلى عن هذا القرن، لا تنكروا دخوله. لأن القديس بولس قال: "وافقوا على الروح إذا أتت من الرب". حين يكون أمام الإخوة، ضعوا

الميثاق أمامه، وإذا رغب فى أن يطيع أوامره بكل دقة، وكان المعلم والإخوة راضين عن استقباله، اجمعوا الإخوة فى اجتماع، ودعوه بيين رغبته وإرادته أمام الجميع".

كان أعضاء المجلس فى تروا رجال كنيسة لديهم تجربة وخبرة، ولا بد أنهم شعروا أن هذا يكفى. غير أن فرسان الهيكل، لم يكونوا كذلك؛ فهم بوصفهم عسكريين، لم يكونوا معتادين على مفهوم السلطة الروحية. وكانوا يريدون أن يكونوا على صواب، لذا فهم فى حاجة إلى المزيد من التفاصيل. فوضعوا مراسم طويلة، وسجلوها؛ وكانت مصممة بحيث تردع أى شخص غير ملتزم التزاما تاما. وتبدأ بأن يقف المرشح للعضوية أمام الفرسان المجتمعين، يستمع إلى حديث يذكر بالعرس بشكل غريب :

"أيها الإخوة الطيبون، ها أنتم ترون جيدا أن معظمكم وافق على جعل هذا (الرجل) أخا؛ فإذا كان منكم من يعرف سببا يمنعه من أن يكون أخا بحكم القانون، فليقل ذلك، لأن مثل هذا الشىء يحسن أن يقال قبل أن يصير هذا الرجل بيننا وليس بعد ذلك".

وإذا لم يقل أحد أى شىء يؤخذ المرشح للعضوية إلى حجرة ملحقة، ويسأله أكبر أعضاء الجماعة. إنهم يسألونه رسميًا إذا كان يرغب فى أن ينضم إلى الجماعة، وإذا رد بالإيجاب، أظهروه على "الوصايا الخيرة والصعوبة الكبيرة فى الدار". إذ عليه أن يفهم بوضوح ويوافق على أنه لدى دخوله الجماعة، "سوف يتحمل عن طيب خاطر كل شىء من أجل الله، وأن يكون خادم الدار وعبده للأبد وجميع أيام حياته". ثم يتمْ سؤاله عن وضعه: هل هو متزوج أو خطب كى يتزوج؟ هل أقسم أو قدم وعدا قبل ذلك لأية جماعة أخرى؟ هل عليه أية ديون لم يستطع دفعها؟ (إذا كان الأمر كذلك، فسيكون هذا مانعا مطلقا للدخول) هل صحته جيدة؟ هل يعانى من أى مرض خفى؟ هل هو عبد فى أرض أى شخص؟

إذا قنع الكبار بإجاباته، يوصون الاجتماع بقبول المرشح، وتعاد أجوبته على المجتمعين. ثم يطلب المعلم، أو الشخص المسئول، المجتمعين إذا كانوا يرغبون، باسم الله أن ينضم هذا الرجل، فكانوا يجيبون: "باسم الله، فلينضم". عندها فقط يتم إحضار المرشح. ويقدم طلبه الرسمي وهو جاث وواضع يديه في اتجاه المنصة:

"سيدى، لقد أتيت أمام الله، وأمامكم وأمام الإخوة، وأتوسل إليكم وأطلب منكم باسم الرب وباسم سيدتنا أن تهبوني صحبتكم وفوائد الدار باعتبارى شخصاً سيكون من الآن فصاعدا خادمه وعبده".

ثم يأتى نصح وتحذير المعلم للمرشح:

"أيها الأخ الطيب، إنك تطلب شيئا كبيرا، لأنك لا ترى سوى القشرة الخارجية لديانتنا؛ وترى أن لدينا جياداً جيدة وأجمة جيدة وطعاماً وشراباً، وقد يبدو لك أنك سوف تكون فى راحة هنا. غير أنك لا تدرى الأوامر والمتطلبات القوية بالداخل؛ لأنه من الصعب عليك، أنت يا من كنت سيدا لنفسك، أن تجعل من نفسك خادماً لآخر. إنك بالكاد ستفعل أى شيء تريده: إذا أردت أن تكون فى أوربا، ربما يتم إرسالك إلى ما وراء البحار. وإذا ما رغبت فى أن تكون فى عكا؛ قد يتم إرسالك إلى طرابلس، أو أنطاكيا أو أرمينيا. وإذا أردت أن تنام، قد يتم إيقاظك، وإذا كنت يقظا فقد تؤمر بأن ترقد. أيها الأخ الطيب، هل يمكنك تحمل كل هذه المشاق".

وعلى المرشح للعضوية أن يجيب قائلا: "نعم، سوف أتحمل كل ما يرضى الرب" فيجيب المعلم: "أيها الأخ الطيب، فى صحبتنا لا يجب أن تسعى إلى سيادة أو ثروة، لا ولا راحة جسدية. وعليك أن تسعى إلى أشياء ثلاثة: أن تنبذ وترفض آثام هذا العالم؛ وأن تقوم بخدمة سيدنا؛ وأن تكون فقيرا تائبا. فهل تعد إلهنا وسيدتنا أنك من الآن فصاعدا فى جميع أيام حياتك، سوف تطيع معلم الهيكل، وأى قائد أعلى منك؟ وأنك ستعيش حياة العفة بلا أية ملكية شخصية؟ وأنك ستلتزم بالعادات فى دارنا؟ وأنك سوف تساعد بكل ما تستطيع على فتح أرض القدس المقدسة؟ وأنك لن تغادر هذه الجماعة أبدا، لا فى القوة ولا فى الضعف، ولا فى الضراء ولا فى السراء".

فإذا كان المرشح للعضوية مصرا على الانضمام، وإذا كان المجتمعون لا يزالون موافقين، إذن ينطق السيد بكلمات القبول:

"باسم إلهنا وسيدتنا، والقديس بطرس وأبينا البابا، نمنحهك ونمنح أباك وأمك وكل من تشاء من سلالتك، فوائد الدار، كما كانت منذ بدايته وستكون حتى النهاية. وأنت ستمنحنا جميع ما لديك من فوائد وسيكون لديك منها؛ ونعدك بالخبز والماء، والمشقة والعمل، ورداء الدار الفقير".

الفصل الثالث

أوربا والأراضى المقدسة، ١١٢٦ - ١١٢٨

يأتى الحلم من كثرة الشغل....

سفر الجامعة، الإصحاح الخامس، الآية ٣

كان عام ١١٢٧ عاما يخلو من الأحداث فى الدول اللاتينية فى الأراضى المقدسة.

إذ لم يقم بولدوين الثانى، ملك القدس، سوى بحملة صغيرة، ولم يقم بها حتى شهر أغسطس. وكانت علاقته ببطريارك القدس، جومبارد، علاقة طيبة؛ إذ أدار الرجلان المدينة المقدسة بينهما بيسر؛ أما فيما وراء الحدود المسيحية، فى عسقلان، ودمشق وحوران، وحلب، والموصل، فكان المسلمون هادئين. وكذلك تمكن بولدوين من الإقلال من مسئولياته الشخصية: ففى العام السابق، تخلى عن وصايته على عرش أنطاكيا حين بلغ بوهيموند الثانى سن الرشد. كان الأمير الجديد قد وصل بحرا، فى أكتوبر عام ١١٢٦؛ كان طويلا، أنيقا أشقر، يبلغ من العمر ثمانى عشرة سنة. كما كان أحد أبناء أخى ملك صقلية، وحفيد ملك فرنسا، وما إن وصل إلى أنطاكيا حتى تزوج ابنة بولدوين الثانية، أليس. فابتهج بولدوين؛ فعدا أى شىء آخر، كانت أليس فتاة متعبة صلبة الإرادة، وكانت أنطاكيا تبعد عن القدس ثلاثمائة ميل.

ومع ما ساد من سلام غير معتاد عام ١١٢٧، - سلام فى داره، وسلام فى المدينة، وسلام فى البلاد، - تمكن بولدوين من التأمل فى المستقبل. لقد كان فرسان

الهيكل أناسًا مبشرين، جديرين بالثقة ومطيعين. ولم يكن هناك من يشبههم في الأراضى المقدسة بأكملها. فإذا كانوا أكثر عددا، فإن مشروعاته الأثيرة إلى قلبه - فتح دمشق وعسقلان تصبح ممكنة. وبدا أن بيرنار دى كليرفو يحمل مشاعر جيدة نحو الفرسان؛ وبدا أن الوقت مناسب للخطة التالية. لذا، فحين سافر هيو دى بيان وإخوته إلى أوربا، فى ذلك الخريف، سافروا على خلفية من الاستقرار النسبى. ولكن فى حوالى الوقت الذى كانوا يقفون فيه أمام مجلس تروا، بدأت الأمور تتغير فى القدس. إذ مات البطريارك جومبارد، وحل محله ستيفن، رئيس أحد الأديرة فى شارتر، وتصادف أنه أحد أقارب بولدوين. غير أن هذه القرابة لم تكن تعنى الكثير لدى ستيفن، الذى كانت لديه أفكار محددة تتعلق بمنصبه فى القدس. وحيث كان جومبارد سهلا لينا، كان ستيفن متشددا متصلبا، ويشعر أن السيادة على المدينة المقدسة يجب أن تكون للبطريارك وليس للملك. لذا فسد ميزان السلام الدقيق، وقبل وقت طويل بدأ صراع طويل بين الرجلين. ذلك أن بولدوين كان عازما على الاحتفاظ بسلطته؛ وكان يدرك أن هناك سببًا وجيهًا يجعل أحد رجال الله يحكم مدينة الرب، غير أن القدس أصبحت دولة زمنية بقدر ما هى دولة روحية. وكان سياسيا؛ لذا حين كان ستيفن يجادل، كان بولدوين يضع الخطط.

كانت الملكية على القدس ملكية انتخابية بشكل صارم: إذ يختار الملك الفرسان والبارونات، كرجل أول بين متساوين، وليس ملكا. وكانت لهذا النظام ميزة عظيمة - هى أن الملك المنتخب بحرية تتم خدمته بحرية. ومع ذلك، فهى عملية تتسم بالمجازفة؛ ذلك أنه إذا لم يتفق المنتخبون، يكون الملك ضعيفا وتتعرض المملكة للخطر. لذا كان بولدوين مقتنعا بأن الملكية الوراثية يمكن أن تكون أكثر استقرارا من الناحية السياسية. وكانت هناك سوابق بالفعل فى القدس المسيحية - فجودفرى دى بويون، حاكمها الأول، كان منتخبا، لكن بولدوين الأول كان أخاه، وكان بولدوين الثانى ابن أخى كليهما. وكانت لديه، للأسف، إعاقة واحدة كبيرة: إذا أراد تأسيس أسرة حاكمة مالكة فليس لديه سوى بنات. وكانت أليس الثانية متزوجة؛ أما الاثنتان الصغريان،

فكانتا طفلتين؛ لكن ميليساند الأخت الكبرى، كانت شابة جميلة. فقرر بولدوين أن الوقت قد حان كي تمنح زوجًا. فتم إرسال وفد ثانٍ إلى فرنسا فى أعقاب فرسان الهيكل. وفى ذلك الوقت كان المجلس فى تروا قد انتهى. وبعد أن نال وفد الفرسان الصغير بالموافقة الروحية، بدأ المرحلة الثانية من عمله، وكانوا يسعون لنيل المساعدة المادية. ولم تتأخر فى المجيء.

فى الواقع، لقد تم أول تبرع قبل أن يبدأ المجلس: إذ إنه فى أواخر عام ١١٢٧ قدم كونت تيبو دى شامبانى للجماعة ملكية فى باربون- فييل، على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً شمال غرب تروا. كانت تحتوى على مزرعة ما زالت موجودة، وما تزال تسمى لا كوماندرى.

ومنحت على الأقل ثلاث ملكيات أخرى زمن انعقاد المجلس. وضرب هيو دى بيان المثل بأن تبرع بأرضه فى بيان؛ وقدم عضوا المجلس اللذان حذيا حذوه أراضى ومبانى فى بويسيى، ولانو، فى شمال شرق وشمال غرب باريس.

ثم افترق الفرسان، مرتحلين بمباركات البابا والقديس بيرنار لجمع المساعدة فى أنحاء فرنسا. وما زالت هناك بعض الملحوظات عن جولة هيو؛ إنها موجزة وكانت محل تجاذبات من حين لآخر بين العلماء، ولكن إذا ما أخذنا الأكثر تأكيدا من بينها، يمكن تتبع صورة عامة عن الرحلة.

يبدو أنه اتجه إلى الغرب أولا، وفى إبريل ومايو من عام ١١٢٨ كان ضيفا على أحد رفاق السلاح القدامى، فولك، كونت أنجو، الذى كان قد انضم إلى الجماعة باعتباره عضواً مشاركًا عام ١١٢٠، وكان بلاط فولك، شأنه شأن غيره فى العصور الوسطى، متنقلا، وتم جمعه فى هذين الشهرين فى تور ولامان. ومن هناك اتجه هيو شمالا إلى القنال، مارا بأراض تخص هنرى الأول ملك إنجلترا. فالتقى هيو وهنرى فى نورماندى، وحسب ما جاء فى السجل الأنجلوساكسون، "استقبله الملك بحفاوة كبيرة، وإعطاه كنوزا كبيرة، تتكون من الذهب والفضة؛ ثم أرسله إلى إنجلترا، وهناك

استقبله جميع الرجال الأخيار وقدم له الجميع الثروات - وفى سكوتلاندا أيضا - وأرسلت بواسطته إلى القدس وبها ممتلكات كلها من الذهب والفضة" ولا توجد تفاصيل عن عبور هيو للقنال، ولا عن رحلته فى بريطانيا، ولكن من المؤكد أنه وجد دعما فى بريطانيا - وتقول السجلات إنه دعا الناس للخروج إلى القدس، وذهب معه وتبعه عدد كبير من الناس لم يذهب مثله منذ أيام البابا إيربان، - ومن المحتمل أن يكون هيكل لندن الأصلى فى تشانسرى لين، قد تأسس حينئذ. وكانت جولة فى بريطانيا جولة طويلة، إذ يبدو أنها شغلت هيو طوال يونية، ويولية، وأغسطس من عام ١١٢٨ وعاد فى سبتمبر عبر القنال، هذه المرة فى فلاندر، فى منزل أخيه فى الهيكل جوفرى دى سان أومر. إذ كان جوفرى قد أعطى ممتلكاته هناك للجماعة، بما فى ذلك دار كبيرة فى أيبر، وتلقى باسم الجماعة من كونت ويليام الفلاندرى مخالصة فلاندر - وهى هبة كبيرة عبارة عن مستحقات تدفع للكونت لدى مبادلة أو بيع ممتلكات فى مقاطعته.

ولسوء الحظ أن الكونت كان قد مات بعد أن قدم الهبة بوقت قصير، غير أن خلفه جددها فى ١٣ سبتمبر مع توقيع هيو؛ وبعد ذلك بيومين، فى ١٥ سبتمبر أعطى والد جوفرى للجماعة مخالصة أرضه فى سان أومر.

بعد ذلك، يختفى أثر هيو، ولكن من المؤكد أنه كان ما يزال مشغولا. إذ توجد على الأقل أربع ملكيات أخرى يعتقد أن تاريخها يرجع إلى عام ١١٢٨: كولوميى شرق باريس - وهى هبة أخرى من كونت تيبو دى شامبنى؛ وانسيني، وشالان، فى شرق وشمال غرب روشيل؛ وفال - دى - لا - هى شمال غرب روان. وتكتسب فال - دى - هى، أهمية خاصة لأنه يقال إنها منحت من قبل هنرى الأول ملك إنجلترا؛ وكان فى كنيستها زجاج نافذة مبقع يصور أحد فرسان الهيكل وهو يصلى. بعد ذلك تم نقل هذه النافذة، أولا إلى سان دنى، ثم إلى الإنكور، على بعد ثلاثة وعشرين كيلومتراً جنوب شرق باريس، حيث ما زالت توجد ويظهر هيو بعد ذلك فى تروا، بعد عام من التقاء المجلس هناك. وفى الأشهر الواقعة بين زيارته إلى فلاندر وعودته إلى تروا، وقعت

حادثة لا بد أنها قد جلبت السرور إلى قلبه، شخصيا وباعتباره معلم الهيكل. ذلك أن وفد بولدوين، الذى يطلب صهرا مناسبا من ملك فرنسا، قد أنجز مهمته، ولم يكن الخطيب الموصى به سوى فولك دى أنجو.

من الواضح أنه كان مناسبا. فهو بالفعل يعرف الأرض المقدسة وفرسان الهيكل؛ وهو إنسان ناضج، ومحارب مجرب، وواسع الثراء، ولديه صلات جيدة، - ابنه هو صهر هنرى الأول. أما كونه قصيراً، ولا يتمتع بحسن المنظر بشكل خاص، ومتصلب الرأى فهذه لم يبد أنها ذات صلة؛ فقبله بولدوين نيابة عن ميليساند، وقبل فولك ميليساند.

وغادر فرنسا على ما يبدو مع هيو، فى ربيع ١١٢٩، عندئذ كان فرسان الهيكل قد أقاموا حصنا جيدا قويا فى أوربا - ليس فى فرنسا، وإنجلترا، وإسكوتلاندا ولكن فى البرتغال أيضا، حيث منحتهم الملكة تريزا قلعة وفوائد مدينة صور، على نهر مونديجو. وكانت هذه إحدى أوائل الهبات فى ١٩ مارس عام ١١٢٨، وفى ما يزيد قليلا على عام، وجدت شبكة من الدور والقلاع فى معظم غرب أوربا، ووهب عدد غير معروف من الرجال للجماعة. وذهب الكثير منهم مع هيو وفولك إلى الأرض المقدسة مباشرة والحروب مع العرب المسلمين، لكن بعضهم اضطروا للبقاء لإدارة الممتلكات الجديدة، وجمع حاصلاتها وعشورها، والاستمرار فى الترويج للجماعة فى أوربا، ولإرسال المزيد من الدعم إلى القدس. لقد كان هؤلاء هم الأبطال الهادون للمسيحية، لأنه إذا كان فرسان الهيكل هم المدافعون الرئيسيون عن القدس، فإن الفرسان عولوا بدورهم بشكل رئيسى على الأعضاء الأوربيين كى يزودوهم بأفضل ما لديهم من خيول ودروع ورجال والكثير مما يملكون من مال. لقد أصبح خدم الهيكل فى أوربا، من رجال لم يحملوا سيفا قط فى حرب مقدسة، ولم يروا قط عربيا مسلما فى حياتهم، جنود الإمداد للحروب الصليبية ولا يجب نسيانهم. وفى عام ١١٢٩، أصبحوا قوة متناثرة فى غرب أوربا من اسكوتلاندا إلى البرتغال؛ وكانت جماعة الهيكل تتغير بالفعل. فمن جمعية من تسعة أشخاص أخذت تنمو إلى أن صارت إمبراطورية

مصغرة، عاصمتها في القدس، ومستعمراتها في أوربا، وكان ينبغي تنظيم الممتلكات النابتة، التي بذرت ونثرت في العالم القديم. وفوق هذه جميعا، عين رجل واحد معلما للهيكل في فرنسا. وكان هذا الرجل هو بيان دي مونتفيي، أحد الأعضاء المؤسسين للجماعة. وفجأة كان التنظيم السليم يبدأ.

بعد نجاحات هيو الهائلة في الوطن غادر أوربا لآخر مرة. وبقي مونتفيي في فرنسا، حيث يفترض أنه قضى بقية حياته في الإدارة الوليدة، يتلقى هبات للجماعة، ويقوم بتدريب إخوة جدد على القيام بواجباتهم، وزار إنجلترا مرة على الأقل. إذ ذهب إلى هناك عام ١١٣٩ أو نحو ذلك، حيث تسلم هبة من ٤٠ سوليدي من ويليام، إيرل وارين، وأراضي في هوك نورتون في أوكسفوردشير من مالكها، روبرت دويل. وأبحر هيو دي بيان وفولك، وفي صحبتهما أتباعهما من علمانيين (الدنيويين) والإخوة الجدد إلى عكا، ووصلوا إلى هناك في مايو من عام ١١٢٩، وتقدموا نحو القدس، حيث تزوج فولك وميليساند في نهاية مايو. وكان هناك اتفاق عام على أن فولك هو أفضل اختيار، ذلك أنه رجل يمكن أن يخدم تحت لوائه البارونات الصليبيون عن طيب خاطر. ويبدو أن الشخص الوحيد الذي كان معترضا هي ميليساند، التي على ما يبدو كانت الشخص الوحيد الذي لم يستشر؛ غير أن بولدوين الذي سره عدد الفرسان الجدد، وصهره الجديد، وجميع التحصينات الأخرى، تجاهل ابنته بكل سرور، وجلس مع فولك ليناقش فتح دمشق. وكانت نتيجة المعركة في أكتوبر هزيمة واضحة للفرنجة. ذلك أن أي معركة، وحتى اليوم، هي إلى حد ما، مسألة مصادفة؛ وفي القرن الثاني عشر، ودون جيش دائم، يتشكل بالتدريب والانضباط كان الأمر هكذا بدرجة أكبر. بل أن قرار القيام بمعركة كان على نفس أهمية المعركة ذاتها إذ ما إن تشن المعركة، تكون إلى حد كبير خارج سيطرة القائد، طالما كان من المستحيل عليه إعادة ترتيب قواته تقريبا. وما لم يتمتع الجيش المهاجم بميزة المفاجأة، فإن القتال كان يتوقف تقريبا على الروح المعنوية، لدى الأفراد المتحاربين وما يتمتعون به من شجاعة ومهارة وحظ؛ ولم يشكل وجود بولدوين أية مفاجأة على الإطلاق للدمشقيين. وكان أكثر الأجزاء تنظيماً

فى الفشل الزريع بأكمله هو الانسحاب إلى بنياس. إذ ربما كان بولدوين يأمل فى البداية أن يقدم فرسان الهيكل الجوهر الضرورى للانضباط. ولا يوجد أى سجل عن أداء فرسان الهيكل فى دمشق، على الرغم من أنهم كانوا هناك بالتأكيد؛ ولكن إذا كان بولدوين قد وضع آماله فيهم، فذلك ليس من الواقعية. ذلك أنه مع ما لدى هيو وغيره من مؤسسى الإخوة من معرفة ومقدرة، فإن مفهوم المعركة المنظمة الموحدة كان غريبا بالنسبة لهم. فهم تدربوا بوصفهم فرسانًا أوربيين؛ ولم يصبحوا فريقا مقاتلا بعد.

أضف إلى ذلك، أنهم كانوا فى بلاد غريبة، يقاتلون على أرض غير مألوفة، وفى مناخ وظروف ما زالت جديدة بالنسبة لهم؛ فكان فرسان الهيكل الجدد يرغبون فى قطع رقاب العرب المسلمين، بأسرع ما يمكن، غير أن الهجوم على دمشق كان أمرا متسرعا جدا.

ولكن على الرغم مما حدث فى دمشق، فقد بهر فرسان الهيكل مواطنيهم فى الأراضى المقدسة. إذ وصف أحد أوائل المؤرخين، جاك دى فيرى كيف كانوا دائما مستعدين ومسلحين "فى أى وقت من النهار أو الليل، قد يطلبون فيه، سواء للقتال أو لمصاحبة المسافرين؛ وحين يطاردون العدو، لا يسألون "كم عددهم" ولكن فقط "أين هم".

مثل هذه الأخبار وجدت طريقها إلى أوربا، عن طريق الحجاج والفرسان الدنيويين. فاستحوذت على خيال الناس، مما أضاف إضافة كبيرة إلى نجاح فرسان الهيكل الذين بقوا فى أوربا؛ وفى عام ١١٣٠ انعقد مؤتمر فى تولوز كان غرضه الوحيد المحدد هو إعطاء الهبات لجماعة الهيكل. وما يزال المخطوط فى تولوز اليوم، وهو عبارة عن وثيقة طويلة بها أسماء خمسة وأربعين متبرعا سجلت بها. وتراوحت هباتهم من كميات صغيرة من المال - بنس الآن وستة بنسات حين أموت، إلى ذهب وفوائد للكنائس، وبين ذلك بعض التبرعات العملية والحيوية: مثل أفضل حصان لدى هذا الشخص، ودرع وحصان ودرع من ذاك، "حين أموت، لو كانت لدىَّ، أما إذا لم يكن، إذن فعشرون قطعة ذهبا" وأفضل ملاءة لدى هذه المرأة، وكثيرات من النساء كن

يتبرعن بقميص كل عام، وبنطلون قصير (سروال)، وأفضل ما لديهن من عباءات، حين يتوفين.

لم يكن هذا هو كل ما تلقاه فرسان الهيكل. إذ كان الإخوة فى أوربا يطلبون؛ والناس فى أوربا يداومون العطاء. ففى إنجلترا كانت هناك ممتلكات فى بكينجهامشير، ولينكولنشير، وهيرتفوردشير، واسيكس؛ وفى فرنسا أراضٍ ومبان، فى دول، وبوديمون، وكارلا، وسواسون، ولون، ونيس، وفوا، وريشيرش، ولا روشيل؛ وفى ألمانيا قلعة سوبلينجبورج؛ وفى قطلونيا، قلعتا جرانيريا، وبربيرا؛ وفى أرجون ونافار، المملكتين التوأمين، سمى فرسان الهيكل ورثة ثلث المملكتين. وكذلك تقاطر الناس فى كل مكان للانضمام إلى الجماعة. حتى أنه من غير المتصور اليوم أن تجذب جمعية دينية مثل هذه الاستجابة الشعبية الواسعة؛ غير أن أسباب جاذبيتها فى ذلك الوقت واضحة. أحيانا كانت أسبابًا خاصة معينة كما هو الحال فى مثال الفارس الذى توفيت زوجته وأبناؤه الثلاثة فى تعاقب سريع، أو الفارس الذى دهم الجذام زوجته بعد أن حملت له ابنة، واضطرت إلى أن تعيش بعيدا عنه إلى الأبد. وأحيانا كان هناك رجال سئموا حياة الانغماس فى الملذات والعبودية للحرية، والحاجة المستمرة للتفكير فى الغد؛ بالنسبة لهؤلاء وبالنسبة للكثيرين غيرهم، فى ذلك الوقت والآن، لم تكن حرية الإرادة الشخصية هى أكبر الحريات، وإنما هى أثقل المسئوليات. ولكن بصفة عامة، فإن الجاذبية الفريدة التى تمتع بها الفرسان كانت الجمع بين الحرب والعبادة، فهما غرام ذلك العصر. إذ كان نفوذ الكنيسة فى المجتمع أكبر مما هو اليوم؛ إذ لم يكن سوى الشخص الاستثنائى هو الذى يسير عكس تعاليم الكنيسة دون أن يحس إحساسا صادقا بأنه يعرض روحه للخطر. بالطبع، كان هناك الكثير من الناس الذين تحدوا كاهنهم أو أسقفهم وانحدروا فى إدمان الخمر ولعب القمار، والزنا، ولكن حين كانوا يفعلون ذلك، كان ضميرهم يعذبهم. ذلك أنه كان هناك تمييز بين أثر المسيح على عقل الإنسان الواعى وقلبه غير الواعى، وبين واجباته ورغباته؛ إذ كانت الكنيسة تقول للناس ماذا يفعلون، وكثيرا ما كان ذلك يختلف عما يريدون.

ووجد الفرسان الدنيويون أنه من الصعب حسم هذه الفجوة؛ فكانت طريقتهم فى الحياة موضع شك فى أعين الكنيسة. بالنسبة لهؤلاء الناس جميعا - لمن فقدوا أراضيهم أو أسرهم، أو من كانوا يتطلعون إلى هدف صالح فى الحياة، أو من أرادوا القيام بواجبهم المسيحى دون التخلى عن مهاراتهم الحربية - قدم الفرسان فرصة مثالية. لقد كانت هناك الكثير من جماعات الرهبنة التى تقدم الخلاص عن طريق الصلاة، أو الأعمال الخيرية؛ ولكن فى ذلك الوقت، كان فرسان الهيكل وحدهم هم من وعدوا بالحياة الأبدية عن طريق القتال.

أما بالنسبة لأولئك الذين لا قبل لهم بالقتال - النساء، والعجائز، والمرضى، أو من لم يستطيعوا ترك منازلهم لسبب أو آخر - يمكن للخلاص أن يأتى عن طريق الهيكل أيضًا. وكثيرا ما كانت تمنح الهبات "لمحو خطاياى" "لصحة نفسى" "لفداء نفسى ونفس أخى" بل كان من الممكن ضم الموتى: "أنا وإخوتى وأخواتى وأزواجهن، نعطى هذا لفرسان هيكل سليمان الفقراء للعفو عن ذنوبنا جميعا وخطايا والدينا..." وحين كان الفرسان يسمحون بدخول أخ جديد ويطالبون بجميع ما يملك، كانوا يعقدون صفقة صعبة؛ لكن الفوائد كانت جمة.

وبالنسبة لبعض من لم يكن مسموحًا لهم الانضمام، قد تكون حياة الهيكل بدت لهم بالغة التقشف، لما بها من انضباط وإنكار للذات، وطبيعتها المنظمة تنظيما تاما، لا شك فى قسوتها. ولكن كانت هناك أقسام لهؤلاء الناس أيضا: فيمكن أن يكونوا إخوة مشاركين مثل فولك من أنجو، أو من الممكن أن ينضموا لفترة معينة. وكثير من هؤلاء كانوا أسريين لا يرغبون فى ترك أسرهم للأبد؛ وآخرون كان أبناؤهم كبارا. عمومًا، فإنه مهما كانت لدى المرء من وشائج مع الحياة الدنيوية، يمكن العثور على طريق لجزء من الجماعة. فهيو دى بيان نفسه كان متزوجا - وهذه إحدى التفاصيل القليلة التى تعرف عن حياته. وكانت زوجته قد توفيت، وإن لم يكن من المعروف متى كان ذلك؛ وربما كانت وفاتها هى التى دفعته إلى أن يذهب ليكون محاربا صليبيا. وكان لديهما ابن، أصبح فيما بعد رئيس دير سان كولومب فى سان، وكان، مثل أبيه، عضوا فى

المرتبة الوسطى من النبلاء. لقد كانت هذه الطبقة هى السبب الأخير وإن لم يكن أقل أسباب شعبية الجماعة، لأن الناس كانوا عندئذ متعجرفين كما هم الآن. أما مصداقية هيو فكانت متأصلة فى مرتبته الاجتماعية تقريبا كما كانت راجعة إلى توصية القديس بيرنار وحين تكون فكرة من الأفكار مقبولة اجتماعيا وتلقى إعجابا روحيا وتكون مرغوبة من الداخل، فلا حد لما يمكن أن تحققه من نجاح.

وصار النبع شلالا. يقال إن هيو أعاد معه مائة أخ جديد إلى الأرض المقدسة، والمزيد من الرجال، والمال، والخيول والدروع تبعوه بلا انقطاع. وبقدر ما كان الأمر يتعلق ببولدوين، كلما زادت هذه الأشياء كلما كان أفضل؛ فالدفاع عن الأرض المقدسة يحتاج إلى كل ما يمكن لأوربا أن تقدمه. ففى القدس فى عام ١١٣٠ كان سلام عام ١١٢٧ قد طواه النسيان منذ وقت طويل؛ إذ رفض ستيفن البطريارك المساومة؛ وفى الشمال كان المسلمون قد وجدوا قائدا جديدا. كان اسمه زنكى؛ وكان قد وصل إلى السلطة بهدوء حين عين حاكما على حلب فى ٢٨ يونيه ١١٢٨، ولكن على الرغم من بدايته الهادئة، كان عازما عن رد الغزاة الفرنجة عن الأراضى المقدسة، ومع مقدم عام ١١٣٠ كان قد صار سيدا على شمال سوريا.

وفى فبراير عام ١١٣٠ قتل الأمير الشاب، بوهيموند الثانى أمير أنطاكيا .

صهر بولدوين عن طريق أليس ابنته الثانية، فى ميدان القتال وهو فى الثانية والعشرين من عمره. وخلف ابنة، لكنه لم ينجب ابنا، وسرعان ما أعلنت أليس، تلك الفتاة صلبة الإرادة الطموحة كثيرة الجدل نفسها وصية على العرش - وأعلنت ولاءها لزنكى. فكانت هذه خيانة بكل المعانى: خيانة لدينها، وثقافتها، ومجتمعها، ومليكها الذى هو أبوها أيضا. فى هذه الإيماءة فخامة معينة؛ لكن لم تكن لتنجح. إذ ذهب بولدوين وفولك إلى أنطاكيا على عجل، حيث أغلقت أليس البوابات دونهما؛ غير أن بارونات المدينة اتخذوا جانب الملك، كما حتمت عليهم طبيعتهم. لقد كانت أليس محظوظة؛ إذ كان مصيرها فى يد بولدوين، لكنها ابنته، فلم تعدم بل نفيت.

ومرة أخرى أصبح بولدوين وصيا على أنطاكيا، وهو منصب كان يسره لو تحاشاه. ومع ذلك، ففي ذلك العام كان هناك شيء واحد أراحه: لقد مات ستيفن البطريارك، البعض يقولون بالسم. من الممكن أن يكون ذلك هو ما حدث؛ وفي كل الأحوال، لم تكن تخامر ستيفن أية أوهام تتعلق بمشاعر الملك نحوه، ذلك أنه حين زاره بولدوين للاستفسار عن صحته، رد ستيفن: "سيدى، إنى أسير كما ترغب".

وفى أوربا أيضا لم تكن الكنيسة فى صحة جيدة. ففى ليلة ١٣ فبراير عام ١١٣٠ مات البابا هورونيوس؛ وحسب السجلات الأنجلوسكسونية: "لقد نما ابتداع كما لم يوجد من قبل. ليرشد المسيح شعبه البائس!" انشقاق فى الكنيسة، واثنان يطالبان بالعرش البابوى؛ فكان ذلك أسوأ ما يمكن أن يقع بالنسبة للإمبراطورية المسيحية المترهلة وهى تحاول أن تتحد.

ومع ذلك، فإن أثرها المباشر على البلاد المسيحية فى الشرق، كان مكتوما؛ إذ كانت هناك كمية هائلة من المشاكل الضاغطة التى يجب التعامل معها. بالنسبة لبولدوين على وجه الخصوص، كانت أوربا تقع على مسافة بعيدة، وتنتمى إلى زمن بعيد. فإذا لم يستطع المسيحيون فى الغرب تنظيم بيتهم من الداخل، فهذا ليس شأنه، بشرط الاستمرار فى تقديم الدعم. إذ إنه فى ذلك الوقت كان يتقدم فى السن - إذ كان فى قرابة الستين حين توج فى عام ١١١٨، - وكان قد تعب من الصراع. ولم يكن يريد سوى تأمين السلام فى مملكته بعد موته، لذا ففى صيف عام ١١٣١، حين شعر بدنو الأجل، جمع نبلاءه معا واقترح أن يكون فولك وميليساند ملكين معا. فوافق اللوردات والنبلاء عن طيب خاطر؛ وكان ويليام، البطريارك الجديد على عكس ستيفن، رجلا مسالما فجعل من بولدوين راهبا، وعينه مسئولا دينيا عن الضريح المقدس. بعد ذلك مباشرة تقريبا، مات الملك. كان ذلك فى يوم الجمعة، ٢١، أغسطس ١١٣١.

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع، تم تتويج فولك وميليساند، فى ١٤ سبتمبر. وكان لديهما ابن، يدعى بولدوين، على اسم جده، وكانا محبوبين. وبدأ زواجهما زواجا مثاليا،

إلى الحد الذى يمكن أن تكون به مثل هذه الأشياء. غير أن عهد فولك بدأ بالمتاعب: تمثلت فى أليس. ذلك أنها عند وفاة أبيها أعادت تأكيد موقعها كوصية على عرش أنطاكيا، وفى هذه المرة كانت المسألة أقل وضوحا. إذ إن لوردات الأراضى المقدسة الشمالية لم يكونوا قد أقسموا قسم الولاء لفولك؛ كما لم تفعل هى. والأكثر من ذلك، كانت هناك سوابق كثيرة فى أوربا كانت فيها الملكة وصية على العرش نيابة عن ابنها، وفتحت مسألة السيادة الأوتوماتيكية على أنطاكيا. تمكن فولك من قمع التمرد، بشىء من الصعوبة؛ وطالب لنفسه بالوصاية على العرش، فتراجعت أليس، وأسندت السلطة إلى قائد شرطة أنطاكيا. غير أن هذا الحل لم يكن مرضيا ولا نهائيا؛ وكشف عن ضعف فى شخصية فولك: فهو يفتقر إلى قسوة بولدوين. إذ كان يحب أن يحبه الناس، وفى الأرض المقدسة العسكرية يعد هذا ضعفا، خاصة حين يتسم به ملك.

لقد كان الانشقاق البابوى فى الغرب ما يزال دون حسم، وكأنه انعكاس لمتاعب السلطة الزمنية فى الشرق. ولكن فى الغرب تم العثور على محكم، إنه رجل يحترمه الجميع لذا يمكن لقراره أن يكون نهائيا: لقد طلب من بيرنار من كليرفو أن يحكم فى الأمر: إنه رجل واحد، رجل صغير هزيل، رجل غير عادى: أمسك بالبلاد المسيحية شرقا وغربا، فى كفه، وصار رسول الوحدة الدولى.

لقد كان كل بابا من المتنافسين لديه مزاعم تتعلق بالبابوية (فالأول الذى اتخذ لنفسه اسم أنوسينت الثانى، أوصى الكرادلة به البابا المحتضر هونوريوس وقبله أربعة؛ أما الثانى، الذى أطلق على نفسه اسم أناكليتوس الثانى، فلم يقبله سوى اثنين. وكان معلوما قبل وفاة هونوريوس بوقت طويل أن أناكليتوس يريد أن يكون بابا؛ إذ كان رومانيا ثريا طموحا، يتمتع بنفوذ فى أجزاء من المدينة عن طريق ماله، ومكانته الاجتماعية. وقد اتهمه الكثيرون بالجشع، وتدنيس المقدسات، والمتاجرة فى المناصب الكنيسية وشهادة الزور؛ وكانت هذه الاتهامات واسعة الانتشار، ومن الواضح أن هذه السمات لا تليق بمنصب البابا. ولكن من كانوا يخشون أناكليتوس كانوا أيضا يخشون نفوذه فحاولوا عرقلة انتخابه بحيلة غير متوافقة مع القواعد على الإطلاق. لم

يكن من الممكن انتخاب بابا جديد إلا بعد ثلاثة أيام من وفاة البابا القديم؛ وأنصار أنوسينت قد انتخبوه حين كان هونوريوس ما يزال على قيد الحياة. غير أن هذا لم يؤثر فى أناكليتوس بأى حال، وواصل عملية انتخابه، ثم قرر شن حرب أهلية، فى روما كى يوضح موقفه. فهاجم المبنى الذى كان أنوسينت يقيم فيه، غير أنه رد على أعقابه؛ ثم استولى بالقوة وبمساعدة مؤيديه على كنيسة القديس بطرس. وسرق ما فى الكنيسة من كنوز، بما فى ذلك الصليب الذهبى، وبعد أن كرر هذه العملية فى كنائس أخرى مختلفة، تمكن من شراء دعم معظم بقية روما.

وبعد ذلك بأيام قليلة، تم تعيين الرجلين فى أجزاء مختلفة من المدينة. ولم يقبل أيهما التخلى عن موقعه للآخر، وفر أنوسينت إلى فرنسا حين وجد أن روما ليست آمنة. والتقى هناك بلويس السادس - لويس السمين، - وهنرى ملك إنجلترا وطلب منهما المساعدة. وبعد بعض الوقت، قرر لويس مساعدة أنوسينت، واستدعى بيرنار من كليرفو كى يقدم المساعدة. ولكن لم يتمكن أيهم، سواء الملك السمين، أو الطامح إلى البابوية أو قديس المستقبل من التنبؤ بعواقب تصرفهم لأنه فتح الطريق أمام أكبر جائزة منفردة يفوز بها فرسان الهيكل.

فى عام ١١٣٠، تقريبا بمجرد أن بدأ الانشقاق، كتب أناكليتوس رسالة إلى شخص مجهول زاعما "أن الكنيسة الشرقية بأكملها، كنائس القدس وأنطاكيا والقسطنطينية معنا، وتزورنا، وتقيم علاقات ودية معنا" وفى عام ١١٣٢، بعد أن طلب من بيرنار التدخل، كتب أنوسينت للملك لويس يقول: "تلقينا خطابات تعبر عن الطاعة والخضوع من أخينا، ويليام، بطريارك القدس." وواقع الأمر، أن المسيحيين فى الشرق لم يكونوا مهتمين بالمشكلة، ومن المحتمل أن فولك كان أقلهم اهتماما: ذلك أن أزمة داخلية فظيعة أقحمت نفسها عليه.

كانت ميليساند فى نصف عمره تقريبا، وكانت جميلة؛ وعلى الرغم من شعبية فولك بين نبلاء القدس، كانت هى قليلة الاهتمام به، فهو قصير القامة عادى المنظر أحمر الشعر. ولكن كان هناك من تهتم به؛ وهذا الشخص، هو ابن عمها، هيو دى لا

بويسيت، لورد أو سيد يافا. ذلك أنه قد نشأ فى بلاط بولدوين، وكان تقريبا فى نفس سن ميليساند. وشأنه شأن ميليساند كان قد تزوج؛ ومثله مثل ميليساند كانت شريكة حياته تكبره كثيرا؛ وظل الشابان بعد زواجهما على صلة وثيقة كما كانا من قبل. فانتشرت الأقاويل الفاضحة؛ وشعر فولك، الذى كان يحب زوجته حبا كبيرا بالغيرة؛ وانقسم البلاط إلى فريقين، هؤلاء مع الملك، وأولئك مع الكونت؛ ثم اتهم هيو بالخيانة. إذ قيل إنه تآمر على حياة الملك. ولم يظهر فى يوم محاكمته، وتم الحكم بأنه مذنب. فطلبت ميليساند والبطريارك له الرأفة من الملك، الذى كان دائما يسعى إلى إسعاد زوجته، فاكتفى بنفى هيو لمدة ثلاث سنوات. ولكن قبيل ذهاب هيو للمنفى، تلقى طعنة وكاد أن يقتل. وعلى الفور، كما هو واضح شك الجميع فى فولك. وتم القبض على المهاجم؛ واعترف بأن الهجوم كان فكرته هو، وحكم عليه بالموت بقطع أعضائه. وكرر اعترافه، مبرئا الملك، بعد قطع ساقيه ويديه. وعموما، فقد مات هيو بعد ذلك بوقت قصير؛ ولم تغفر ميليساند لفولك أبدا مع أن الأمر لم يكن خطأه.

إن سجلات فرسان الهيكل صامتة تقريبا فى هذه السنوات، ولكن يمكن استنتاج بعض الأشياء مما تبقى. إذ كان هيو دى بيان، معلم الهيكل يجرى مراسلات مع بيرنار من كليرفو. وما زالت هناك إحدى رسائل بيرنار إليه. لقد كتبت تقريبا فى نفس وقت انشغال بيرنار فى الانشقاق البابوى - لا بد أن الراهب الصغير كان منشغلا للغاية. إنها رسالة طويلة موجهة إلى هيو دى بيان، ولكن كان المقصود منها أن تكون معلنة للجميع. وتعرف باسم ثناء على الفروسية الجديدة. قال فيها بيرنار "مرة ومرتين وثلاث مرات، طلبت منى، أيها العزيز هيو، أن أكتب مذكرة تشجيع لك ولإخوتك، وبما إنى ممنوع من كتابة أى شيء ضد الطغاة المعادين؛ وأنت أكدت لى أنى سأكون مفيدا جدا لك ... انتظرت لوقت معين، قبل أن أجيبك، وليس هذا لأنى لا أقدر طلبك، ولكن كى أكون أكثر قدرة على الوفاء به. وحقيقة الأمر أنى جعلتك تنتظر وقتا طويلا." وفعلت الرسالة ما هو أكثر من التعويض عن الانتظار: إذ كان بها ثلاثة عشر فصلا من الثناء على فرسان الهيكل ممزوجة بنقد لاذع للفرسان الدنيويين.

"لقد ظهرت فروسية جديدة فى أرض التجسيد، إنها فروسية تقاتل معركة مزدوجة، ضد أعداء اللحم والدم، وضد روح الشر. ولا أظن أنه شيء مدهش أن هؤلاء الفرسان يقاومون الأعداء المجسدين بقوة الجسد، لأنى أعلم أن ذلك ليس بالشيء النادر. لكنهم يرفعون السلاح مع قوى الروح فى مواجهة الرذائل والشياطين، وهذا لا أسميه رائعا فحسب، ولكنه جدير بكل ثناء يعطى لرجال الرب... فالفارس الذى يحمى نفسه بدرع الإيمان، كما يدثر جسده بالدرع، هو حقا لا يخاف، ويسمو على التوبيخ. فبدرعه المزدوج، لا يخشى البشر أو الشياطين ".

كان من بين من عرفوا عن فرسان الهيكل، أناس لم يستطيعوا التوفيق بين أفكار الرجل المتدين والحرب؛ فالاثنان لا يتفقان فى قانون الكهنوت ولا فى الشعور العادى. فالقتل، حتى فى ميدان المعركة، هو من المؤكد قتل للبشر؛ لكن بيرنار، عن طريق السفسطة أو المغالطة الدبلوماسية، أمكنه التمييز بين قتل البشر الذى يقوم به الفرسان الدنيويون، وما أطلق عليه قتل الشر الذى يقوم به فارس مقدس، الذى اضطر إلى قتل البشر كى يقتل الشر. إن رؤية العدو باعتباره تجسيداً للشر - كان إرهاصا بجميع الدعاية العسكرية منذ ذلك الوقت، وكان هذا مؤثرا وفعالا فى القرن الذى عاش فيه بيرنار تماما كما هو مؤثر فى القرن الذى نعيش فيه.

لم يكن احتقار بيرنار للفرسان العاديين يعرف حدودا؛ فهم تافهون مغرورون تماما كما أن فرسان الهيكل جادون وجديرون بالثناء.

"إنكم تثقلون خيولكم بالحرير، وتغطون دروعكم ببهرجة لا توصف. وتدهنون رماحكم، ودروعكم وسروجكم. وألجمتكم مرصعة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. تزينون أنفسكم بالفخار من أجل الموت، ولا تركبون خيولكم إلا للدمار... فهل هذه الحلى فخاخ للفوارس، أم هى زينة رخيصة للنساء؟ أو ربما تظنون أن سلاح عدوكم سوف ينحيه الذهب؟ وأن المجوهرات سوف تنجو؟ وأن الحرير لا يخترق؟ هناك أشياء

ثلاثة جوهرية للفارس فى المعركة: يجب أن يكون متاهبا للدفاع عن نفسه، مسرعا إلى سرجه، عجولا فى هجومه. ولكن أنتم، أنتم على العكس كالنساء، شعوركم طويلة حتى لا تكادون ترون؛ وملابسكم طويلة حتى أنها تمسح أرجلكم؛ وتخفون أيديكم الرقيقة الناعمة فى أكمام كبيرة وبملابسكم هذه تذهبون لتقاتلوا من أجل أكثر الأشياء تفاهة وسخفا!".

ولا ينجح الغرور والتفاهة إلا حين يؤخذ على محمل الجد. لقد كان رأى بيرنار فى الفرسان الدنيويين واضحا بريئا وكذلك محرجا مثل رأى الطفل الذى رأى ما بداخل "ملابس الإمبراطور". لم يكن من الممكن للتناقض مع فرسان الهيكل ليكون أكثر حيوية وتعبيرا؛ وانهارت أواخر الحواجز وتزاحم الناس فى كل مكان لمساعدة الفرسان المقدسين.

كانت الدول اللاتينية فى الشرق ما تزال فى حالة من الاضطراب؛ وكانت هناك حاجة إلى كل رجل. وكان فولك دائم السفر تقريبا، يقمع التمرد، ويدافع عن المدن، ويستولى من حين لآخر على قطعة أرض. من بين سنوات حكمه الأولى لم تكن هناك سوى سنة واحدة ساد فيها سلام نسبى، هى سنة ١١٣٤، ولكن فى عام ١١٣٦، تم حسم مشكلة واحدة دائمة حسما نهائيا: هى مسألة أليس وأنطاكيا؛ وجاء الحل من خلال مكيدة مبهجة.

لقد اضطر فولك، بالطبع، إلى تولى الوصاية على عرش أنطاكيا بعد تمرد أليس الثانى. وكان قد أسند السلطة لرجل آخر، وكان هذا المندوب قد مات. أما خلفه فكان رجلاً يتسم بالسوء بصفة خاصة، إنه أسقف رادولف من ماميسترا، الذى كان، مثل أليس، يريد أكبر قدر ممكن من السلطة الشخصية. فدخل فى مفاوضات مع أليس المنفية؛ وطلبت أليس من ميليساند أن تتدخل مع فولك نيابة عنها؛ وفولك، الذى كان ما يزال راغبا فى إرضاء زوجته، سمح لأليس بالعودة إلى أنطاكيا. وما إن صارت هناك، حتى تخلصت من رادولف ولكى تدعم السلطة التى أوشكت أن تتمتع بها، قررت تزويج ابنتها كونستانس من ابن الإمبراطور البيزنطى. فأفزعت هذه الفكرة نبلاء وبارونات

الفرنجة وبعثوا برسالة يائسة إلى فولك، يخبرونه فيها أن يجد زوجا آخر لكونستانس بأسرع ما يمكن. فوجد فولك فجأة طريقة للتخلص من أليس المشاكسة إلى الأبد، واستدعى نبيلا فرنسيا على عجل هو ريمون من بواتيى، إلى الأراضى المقدسة ذلك أنه كان يسابق الزمن، لأن القسطنطينية أقرب كثيرا من أوربا، وكان الإمبراطور البيزنطى مهتما باقتراح أليس. غير أن ريمون، الذى كان يسافر على عجل وصل إلى أنطاكيا فى أبريل عام ١١٣٦، ولدى وصوله، واتباعا لتعليمات فولك، أرسل لأليس يبلغها بأنه جاء يطلب يدها للزواج. وكان هذا أمرا مقبولا تماما: فهو رجل نبيل يبلغ من العمر سبعًا وثلاثين سنة؛ وكانت أليس تبلغ التاسعة والعشرين؛ ولم تتجاوز كونستانس الصغيرة التاسعة. لقد كانت أليس فى حالة من الإثارة والترقب - وظلت فى قصرها تستعد لاستقبال الخطيب البارز. وهنا ينبغى على المرء أن يحس ببعض الشفقة نحوها إذ تم استغفالها تماما. فبينما كانت تعد نفسها نقلت ابنتها من القصر، وأخذت إلى ريمون، وتزوج الرجل بالفتاة الصغيرة.

ولم يكن فى مقدور إليس فعل أى شىء على الإطلاق. ذلك أن ريمون، باعتباره زوج كونستانس، لديه أسبقية قانونية على أليس؛ وكنبيل ومحارب، نال على الفور دعم نبلاء وبارونات المدينة؛ وكان يدين بالولاء لفولك. ولما شعرت أليس بالعجز والغضب، غادرت أنطاكيا؛ بلا رجعة.

وعلى هذه الخلفية، من الانشقاق البابوى فى أوربا، والصراع الأهلى فى الأراضى المقدسة، والحرب والدسائس، والثناء، والخداع واصل فرسان الهيكل عملهم، وشهدوا جماعتهم وهى تنمو. ثم فى ٢٤ مايو، ١١٣٦، مات هيو دى بيان. كان يبلغ من العمر ستًا وستين سنة، وهى سن متقدمة بالنسبة لتلك الأيام، وفى عمره الطويل، حقق شيئا نادرا جدا: كان لديه حلم، وعاش كى يراه يتحقق. لقد كان رجلا غير عادى، ومحظوظا، وقد نأمل فى أنه كان سعيدا.

الفصل الرابع

كل موهبة تامة هى من فوق

فرنسا والأراضى المقدسة ١١٣٩- ١١٥٣

"انظر، أنا واضع أمامكم اليوم بركة ولعنة"

سفر التسمية. الإصحاح الحادى عشر. الآية ٢٦.

لقد تم حرمان البابا أناكليتوس الثانى الذى عين نفسه فى الكنيسة عام ١١٣٥ فى مجلس بيزا عن طريق أنوسينت الثانى وست وخمسين من الأساقفة من فرنسا وإيطاليا، من بينهم القديس بيرنار.

وكان بيرنار قد منح أنوسينت دعمه الكامل، ويبدو أنه تمكن من حسم الانشقاق، على الرغم من أن ذلك استغرق منه أكثر من عامين. وفعل ذلك تقريبا وحده دون مساعدة من أحد، وفى أثناء هذين العامين كان نفوذه يزداد مع كل يوم؛ وكان مجلس بيزا هو ذروة حياته العملية. وكان صديقًا ثابتًا أكيدا لفرسان الهيكل، وما يزال ناشطا نيابة عنهم. ومع انتشار رسالته إلى هيو فى أنحاء أوربا، استمر سيل الهبات: وتمتعت الجماعة بحظوة خاصة فى إسبانيا، والبرتغال، ولانجويدوك، وإنجلترا حيث قدم الملك المتوج حديثا ستيفن أرضه فى كولى، بالقرب من أوكسفورد هبة أولى من سلسلة من الهبات. وحقق مجلس بيزا هدفه الثانى فى أثناء أيامه الثمانية من بين ٣٠ مايو، و ٦ يونية: إذ تم تعديل ميثاق الهيكل وتوسيعه بإرشاد من بيرنار وموافقة أنوسينت. فى ارتباط أنوسينت الأول الرسمى بالجماعة. وكان حتما، قبل أن يمر وقت طويل، أن

يضم أنوسين فرسان الهيكل إلى قلبه؛ وكان من الممكن أن تكون مساعدة بيرنار المتحمسة لكليهما رباطا كافيا. غير أن أنوسينت كان قد تعلم، مما حدث فى انتخابه من اضطراب، شيئا واحدا: الكنيسة فى حاجة إلى عضلات زمنية دنيوية، كى تدعم كيانها الروحى. ذلك أن انشقاقًا آخر مثل ذلك الذى مضى يمكن أن يكون كارثة؛ وقد لا يوجد قديس آخر يلملم الجرح. بالإضافة إلى ذلك، هناك مسيحيون فى الشرق والغرب، يشكون من أن الكنيسة الأم المقدسة لم تفعل ما يكفى لحماية أبنائها فى الشرق. وبوفاة هيو دى بيان، وملك القدس العجوز، بولدوين الثانى، انتهى الجيل الأول من الصليبيين؛ وخبت جذوة الحماس الأولى، وتطلبت الصعوبات التى يواجهها فولك عونا منظمًا. وكان المعلم الجديد للهيكل رجلاً فرنسيًا آخر، هو روبير دى كريون، الذى يعرف أيضا بروبير البيرجاندى. وقد يكون هو العضو المؤسس التاسع الغامض الذى لا يعرف اسمه، وإلا، قد يكون قد انضم إلى الجماعة مباشرة بعد تكوينها، ذلك أن لائحة بتاريخ ١١٢٥ من الناصرة شهد عليها "روبير فارس الهيكل" غير أن هذا يستحيل تأكيده. لم يكن فى وسع الهيكل، فى سنوات التكوين، سوى أن يعكس شخصيات من قاموا برئاسته وقد تغير تغيرا مثيرًا تحت رئاسة روبير. ذلك أن هيو خلف جماعة تتمتع بشهرة دولية وثروة واسعة؛ أما تحت رئاسة روبير فقد نمت كى تصبح كيانا يتمتع بسلطة سياسية فى أنحاء العالم القديم. لقد كان روبير، شأنه شأن هيو رجلا نبيلا، لكنه كان ينتمى إلى عائلة أكثر عظمة من حيث الأجداد - إذ كان من بين أجداده ملوك لفرنسا، وتذكر كتب التراث اسم انسيلم، مطران كنتبرى، باعتباره صهره. لقد كان هيو يتمع بقناعات أخلاقية وهدوء مدمر تقريبا مثل ذلك الذى كان يتمتع به بيرنار؛ أما روبير، فعلى النقيض من ذلك، فعلي الرغم من أنه رجل ورع، فإنه دبلوماسى، فهو يعرف الرجال ويحركهم نحو الغايات التى يعتقد أنها الصواب. وكان لديه أخوان أكبر منه سنا وبالنسبة للابن الأصغر لرجل من النبلاء كانت عندئذ الطريقة الوحيدة لتحقيق حياة تتمشى مع مرتبته الاجتماعية هى الزواج الموفق. وحاول روبير فعل ذلك بشىء من النجاح - وأنجب ابنا يدعى انسيلم، على اسم المطران الشهير،

الذى أصبح بمرور الوقت أسقف لندن. وحين توفيت زوجة روبير، منحه وجود الهيكل بديلا جديدا.

ربما كان قد بلغ من العمر سبعا وثلاثين سنة حين ذهب إلى الأراضى المقدسة، لأن البابا إيربان كان قد وعظ الناس بالحرب الصليبية الأولى فى منطقة روبير، وسمعه روبير وهو صبى. وبدأ أن الرجل النبيل والرجل العسكرى قد صنع كل منهما للآخر: فبعد وصول روبير إلى الأراضى المقدسة أصبح ناظر إقطاعية الهيكل، ويلى هيو فى القيادة، وعاد إلى أوربا بصفته هذه، عام ١١٣٢، يجمع الدعم ويقبل الهبات. وتلت ذلك خمس سنوات أخرى فى البلد المقدسة؛ وحين عاد مرة أخرى إلى الغرب، عام ١١٣٨، كان معلم الهيكل. ومات أناكليتوس البابا المعادى فى ٢٥ يناير، ١١٣٨؛ وكتب القديس بيرنار "لقد قطع الفرع المكسور، والطرف المتعفن. أنه، ذلك الشخص الشرير، الذى جعل إسرائيل تخطئ (يقصد أبناء إسرائيل: المترجم) قد ابتلعه الموت، ونزل فى جوف الجحيم." لم يتقبل أناكليتوس أنوسينت مطلقا كبابا وسيطر على روما حتى وفاته. ولكن تمكن أنوسينت أخيرا من دخول المدينة، وهناك التقى بروبير. كان فرسان الهيكل يمتلكون منزلا فى روما حيث كان من الممكن لروبير أن يقيم؛ ومع ذلك، فإن اجتماعات البابا والمعلم ربما تكون قد حدثت فى كنيسة القديس لاتيران. وكان روبير قد أظهر قدرته باعتباره رجلاً إدارياً؛ وفى أحاديثه مع أنوسينت، أظهر مهارته فى الإقناع. وكما كان أنوسينت يعلم جيدا، فإن جماعة روبير تتحمل واجبا خاصا؛ وجادل روبير بأنها كى تؤدى هذا الواجب، فإن فرسان الهيكل فى حاجة إلى حقوق خاصة. فى الشرق المسيحى لا يتمتع بالاكتفاء الذاتى؛ وكل ما يحتاجه تقريبا ينبغى استيراده من الغرب. وقد أصبح الحج عملا رابحا فى موانئ إيطاليا؛ إذ كان تدفق المصلين لا ينتهى، ومع أن فرسان الهيكل كانوا يبذلون أقصى ما لديهم، فقد كانوا يقدمون آخر ما لديهم، يضنيهم الافتقار إلى المال، وواجب دفع العشور وخضوعهم للك القدس والبطريارك. وحين كان الملك والبطريارك يختلفان، كان ولاء فرسان الهيكل يمزق؛ وعلى الرغم من الهبات الكبيرة التى تلقوها، من أنحاء البلاد المسيحية، فإن العشور

والضرائب على أراضيهم المتناثرة شكلت عبئًا أكثر من كونها نعمة. ذلك أن مسئوليات الجماعة نمت نموا هائلا منذ أن أقسموا على جعل الطرق المؤدية إلى القدس آمنة للحجاج، إذ كانت هناك طرق كثيرة والمزيد من الحجاج؛ وهناك إدارة منازلهم المتباعدة وقلاعهم ومزارعهم؛ وفوق هذا كله، هناك الدفاع عن المملكة المقدسة. ومع أن ولاء الإخوة الأول والأخير كان للمسيحيين والكنيسة، فإنهم كانوا فى حاجة أكبر إلى المزيد من حرية التصرف.

إن التواريخ لتلك الاجتماعات غير معروفة، ولكن من المؤكد أن أنوسينت لم يستغرق الكثير من الوقت كي يعطى موافقته. إذ أدرك الفرصة المتاحة أمامه، وقبل أن ينتهى العام كان قد حسم استراتيجيته العظيمة. إذ قدم له جيش جاهز تام الولاء وبحركة لا خطأ فيها، بأن يظهر بما لا يدع مجالا للشك استعداد الكنيسة إلى أن تسعف أبناءها، أمكنه إسكات نقادها وتأمين الدفاع عنها.

ولم تكن هناك سابقة للتحرك الذى قام به، ويظل لا مثيل له فى تاريخ الكنيسة بأكمله. وتم الإعلان عنها فى ٢٩ من مارس عام ١١٣٩.

"الأسقف أنوسينت إلى ابننا العزيز روبير، معلم فرسان الهيكل المقدسين الكائن فى القدس، ولمن يخلفونه وإخوته حاضرا ومستقبلا وإلى الأبد: كل موهبة من فوق"... – كان من الممكن ألا تعنى هذه العبارة الرنانة شيئا، أكثر من البلاغة؛ لكن أنوسينت كان يعنى بالضبط ما قال. أولا، أعطى فرسان الهيكل الحق فى تعيين قساوستهم، الذين يكونون مسئولين أمام المعلم وليس أمام أى أسقف محلى؛ ومنحهم حق بناء كنائسهم. وكان من الممكن أن تبدو هاتان المادتان ثوريتين بالقدر الكافى، ذلك أنه حتى الآن كان الهيكل يعتمد على الأساقفة كي يزودوه بالقساوسة والكنائس؛ ومع ذلك كان هناك المزيد. على الكنيسة أن تدعم المدافعين عن الكنيسة؛ لذا فإن كل رجل دين فى البلاد المسيحية يحظر عليه بصفة خاصة مطالبة فرسان الهيكل بالعشور – ولكن فى وسع فرسان الهيكل مطالبة الآخرين بالعشور. ثم، فى نغمة آمرة أخيرة، حرر أنوسينت فرسان الهيكل من كل سلطة عدا سلطته. ويعد إداريوهم الزمنيون مسئولين فقط أمام

الجماعة، وليس أمام أى أمير أو ملك أو إمبراطور؛ وليس في وسع أى أسقف، أو مطران، أو بطريارك أن يطالبهم بالولاء الروحى. فهذا حق البابا وحده. ولا يسمح لأحد أن ينتزع قسما أو يطلب توقيرا من أحد فرسان الهيكل؛ وليس فى وسع أى شخص، مدنيا كان أو دينيا، أن يغير لوائح ميثاق فرسان الهيكل. فقانونهم خاص بهم، ولا يغيره سوى المعلم واجتماع عام من الفرسان.

لقد بلغت الجماعة الرشد بعد إحدى وعشرين سنة من تأسيسها. إذ أعطى أنوسينت الفرسان مفاتيح الكنيسة ومفاتيح المملكة؛ ولو كان بيده، لأعطاهم مفاتيح السماء ذاتها.

حرية تامة على الأرض، واستقلال تام - كل هبة من فوق. ولا بد أن القديس بيرنار، راعيهم الروحي السابق، قد فرح فرحا عظيما بهذا النبأ. فى حقيقة الأمر، من الممكن أنه كان له أثر مباشر على قرار أنوسينت فى إعطائهم مكانتهم العالمية الفريدة، لأنه كان فى روما فى صيف عام ١١٣٨، وأقام فى دار فرسان الهيكل هناك. وثمة قصة تروى أنه حين رحل خلف، ربما صدفة، وربما عن عمد، أحد ملابسه الكتانية، وأن أحد فرسان الهيكل كان مريضًا فشفى ببساطة عن طريق مس الرداء. وسواء كانت هذه القصة حقيقية أم لم تكن كذلك، فمن المؤكد أنه كان فى روما حينئذ ولا شك فى أنه كان من الممكن أن يلتقى بأنوسينت مرة أخرى. ولم يكن ينقصهم سوى ملك فرنسا السمين، لويس السادس حتى يكونوا الثلاثى الأصلى الذى مهد الأرض من أجل حرية فرسان الهيكل؛ لكن فى ذلك الوقت، كان لويس السمين قد مات منذ عام.

وخلفه لويس السابع، المعروف "بالشاب" - إذ إن الملك الجديد لم يكن قد تعدى السادسة عشرة حين اعتلى العرش. وكان لويس هذا يتسم بورع استثنائى، ولكنه كانت به مسحة دنيوية معينة. ولدى سماعه ب"هبة" أنونسينت لفرسان الهيكل، أصدر مرسوما يحد من أية هبات أخرى: يمكن لرعاياه أن يتبرعوا بما يشاءون للجماعة، باستثناء القلاع، والمدن، وبشرط ألا تتعدى الهبة على حقوق التاج بأى حال. لقد كان

هذا عملا سريعا وحاذقا يندر حدوثه من لويس الشاب - يفترض أنه تصرف بناء على نصيحة وزيره. إذ كان تصرفه هو طبق الأصل سلوك من فقد فجأة السلطة على فرسان الهيكل. وكبرت مسألة التحرر من دفع العشور حتى صارت معركة امتدت لعقود كثيرة، شرقا وغربا؛ وفى الشرق على وجه الخصوص، علق المؤرخ ويليام، أسقف صور بأن "بطريارك القدس هو من يمسك بمؤسسة الجماعة وفوائدها." وبدا من غير العادى، بل من الفاضح، أن يحرم من أية حقوق على الجماعة.

ولا يبدو أن روبير سمح لهذا الانتقاد أن يقلقه دون داع ففى أعين الناس العاديين، جعلت الحرية التى حصل فرسان الهيكل عليها حديثا، الجماعة أكثر جاذبية، إذا كان ذلك ممكنا. واستغل روبير هذه الحالة المزاجية وذلك بالترتيب لعمل ترجمة للميثاق من اللاتينية غير المفهومة تقريبا إلى الفرنسية العادية.

وهنا حدث شىء أدهش الناس وأذهلهم منذ ذلك الوقت؛ إذ يمكن للمرء أن يفترض أن ترجمة مثل هذا الميثاق يمكن أن تكون سليمة مستقيمة، ومن غير المحتمل أن تطرأ أخطاء؛ ولكن هناك اختلافان بين الميثاقين؛ - اختلافان لهما أهمية جوهرية فى حياة الجماعة. يتعلق الاختلاف الأول والأقل أهمية بفترة اختبار الأخ الجديد. ففى الميثاق الأصلى، يعد الأخ الجديد سالكا أو تلميذا لفترة يحددها تفكير المعلم وحكمته حسب إخلاص من يرغب فى الدخول، وهو شرط بسيط، شائع فى أية جماعة دينية. ولكن فى الميثاق الفرنسى هذه المادة محذوفة تماما. وقد يكون من المغرى إرجاع ذلك إلى خطأ من الناسخ، لولا الفرق الثانى، والتغيير الأكبر.

كان الحرمان من الكنيسة هو أقوى سلاح روحى لدى البابا، ويمنع بموجبه الشخص الحى من دخول أية كنيسة، ومن المشاركة فى قداس، بل ونظريا، يحرم من الاتصال بالمسيحيين العاديين. بالطبع، بالنسبة للكثيرين ممن كانوا يحرمون لم يكن للحظرين الأولين كبير أثر، أما الحظر الثالث فكان يتم انتهاكه؛ غير أن الحظر كان يمتد إلى ما بعد الموت ويقطع نفس الإنسان من الاتصال بالرب. وكان الحرمان، بالنسبة للمؤمنين، يشكل تهديدا مخيفا وعقابا رهيبا؛ ومن يتصل بشخص

طبق عليه الحرمان يتم حرمانه هو نفسه. ولهذا السبب منع الميثاق اللاتينى للهيكل الاتصال بين فرسان الهيكل ومن عوقبوا بالحرمان، إذ يقول، "فى تلك الأماكن، التى يجتمع بها فرسان غير محرومين، يجب أن تذهب" ولكن الميثاق الفرنسى قلب هذه اللائحة المنطقية رأسا على عقب، وبذلك، قوى من الانقلاب: "فى الأماكن التى تعرف أن فرسانًا محرومين يجتمعون فيها، نأمرك أن تذهب؛ وإذا كان من بينهم من يرغب فى الالتحاق بالجماعة، فلا يجب أن تنظر فى الربح الدنيوى كما تنظر إلى سلامة روحه الأبدية ".

يمكن أن يقول قائل، حتى ذلك كان مجرد خطأ آخر ارتكبه نساخ غير منتبهين؛ وإذا كانت حالة بسيطة تتمثل فى حذف كلمة، حتى ولو كانت كلمة حساسة مثل "غير" فى غير المحرومين، يمكن قبول الحجة. لكنها سرعان ما تفقد وزنها: فالأمر بالذهاب بين من حرموا تمت صياغته بشكل مختلف وتم التعبير عنه بشكل أقوى من الحظر السابق؛ بل ويذهب الأمر أبعد من ذلك فى العبارة التالية. إذ يذكر النص اللاتينى أن على الإخوة "أن يهتموا اهتماما كبيرا ويمنعوا أى أخ من أن يكون مع أى رجل تم منعه علنا" أما النص الفرنسى، فيغير ذلك تغييرا تامًا إذ يقول: لا توجد طريقة أخرى يجب أن يكون للإخوة فى الهيكل أى اتصال بمن حرم بشكل ظاهر".

إن هذا التغيير الأخير، بما فيه من نبرة تشجيع محدودة وإن كانت محددة، هو ما يعطى إحساسا بالصدق - الشعور بأن الميثاق قد تم تغييره عن عمد.

بالطبع، لم يكن هناك ما يمنع تغيير الميثاق، حتى إلى هذا الحد الجذرى. ولكن من جميع النواحى الأخرى يتطابق الميثاق الفرنسى مع الميثاق اللاتينى، ويبقى السؤال: لم قرر روبير إجراء هذا التغيير الخاص بعيد المدى، ولماذا وافق الإخوة؟ فلو أن القديس بيرنار أو أنوسينت عرفا بهذا التغيير، لم يكونا ليوافقا، ولكن فى ذلك الوقت اعتبر الميثاق سرا لا يقرأ إلا أمام عضو جديد لدى دخوله الجماعة. إن أفضل رد - وأبسط الردود، والذى يعبر عن شخصية روبير - يكمن فى الاستقلال الذى فاز به من أجل جماعته. فحين يمد فرسان الهيكل إخوتهم لمن رفضتهم

الكنيسة هم يؤكدون على استقلالهم عن رجال الدين العاديين، ويفسحون صفوفهم أمام كثرة من المجندين المحتملين، الذين يحتمل أن يكون بعضهم من الأغنياء. وثمة إجابة أخرى ممكنة هى أن التغيير يرجع إلى درجة مبالغ فيها من الإحسان المسيحى من جانب فرسان الهيكل - وأنهم يرغبون فى إنقاذ نفوس المسيحيين الذين حجبوا عن المسيح.

ولكن بشكل ما، لا يوجد أى من هذين التفسيرين أو أى تفسير آخر تم اقتراحه، يعد مقنعا بشكل تام. ذلك أن الإخوة أنفسهم لم يلتزموا دائما بميثاقهم الجديد؛ وبدأ أنهم لا يتذكرونه إلا حين يناسبهم ذلك، ويتناسونه حين لا يتلاءم معهم. ولكن أيا كانت الإجابة، فإن فرسان الهيكل استفادوا بسرعة من التغيير: ففى عام ١١٤٣ مات جيفرى دى ماندلفى، كونت أسيكس، وهو محروم من الكنيسة وتم دفنه عن طريق فرسان الهيكل فى أرض جعلت لأغراض مقدسة وألبس رداء الجماعة الأبيض.

وتوفى أنوسينت فى ذلك العام، كى يخلفه سيليستين الثانى، الذى كان يفضل فرسان الهيكل مثله. وعلى الرغم من جهود بيرنار، لم يتم حسم الشقاق حسما تامًا؛ إذ حل فيكتور البابا غير المنتخب كهنوتيا محل أناكليتوس. ولم يكن فيكتور ظلا لذلك الشخص الذى كان عليه أناكليتوس، وفى خلال بضعة أشهر خضع شخصيا لبيرنار.

ومع ذلك، سيطرت حالة التوتر على سيليستين مما حمله على إصدار مرسوم عنوانه جنود الهيكل، وهو تقريبا تكرار دقيق لما أصدره أنوسينت. ولم يكن أمام سيليستين من الوقت ما يكفى لفعل المزيد - إذ مات فى العام التالى، وحل محله لوسيوس الثانى، الذى أصدر تكرارا آخر، يسمى أيضا جنود الهيكل، ثم مات فى العام التالى.

واتباعا لهذا النمط، أصدر البابا التالى، يوجينيوس الثالث، تكرارا رابعا؛ يسمى هذه المرة جنود الرب. وكان هو، على أى حال، يتمتع ببنية أكثر صلابة، لحسن الحظ؛

ذلك أن رجلا ضعيفا كان يمكن أن يقتل بسبب الصدمة التى لحقت إرثه. ففى ليلة عيد الميلاد من عام ١١٤٤، أعاد المسلمون الاستيلاء على أديسا، الحصن المسيحى على الحدود الشمالية الشرقية للأراضى المقدسة. وكانت هذه أول خسارة مهمة يتكبدها المسيحيون في الشرق، وكانت هذه الهزيمة للمسيحيين ككل صفعة نفسية كبيرة. فمنذ أن استولى بولدوين الأول على أديسا عام ١٠٥٨ فى طريقه إلى عرش القدس ظلت آمنة، ورمزا وهمياً على أبدية الفرنجة، إذ كانت بعيدة ومنيعة. فكان فقد المدينة بمثابة انفجار أيقظ المسيحيين الغربيين من سباتهم. فنظروا إلى أنفسهم وكرهوا ما رأوه؛ فاستداروا إلى ضميرهم المجسد، بيرنار، من كليرفو طلبا للنصح.

وجاء الرد واضحا: حرب صليبية جديدة. وكان لويس، الملك الشاب قد بدأ بالفعل في وضع خطة؛ وكان يوجينيوس، البابا، قد وافق عليها بالفعل، من حيث المبدأ. غير أن الناس فى فرنسا ترددوا إلى أن سمعوا قديسهم. وفى فيزلى، فى منتصف الطريق بين ديجان وباريس، فى أحد القيامة ٣١ مارس ١١٤٦، تكلم القديس.

لم يحدث مشهد مثل هذا منذ أيام البابا إيربان. ومثله مثل إيربان، كان بيرنار يعظ من فوق منبر خارج الأبواب، إذ لم يوجد مبنى يتسع لهذا الزحام. وكما حدث مع إيربان، كانت الاستجابة مذهلة: إذ تقدم الكثير من المتطوعين، ونفد القماش المعد لعمل الصلبان، فاضطر بيرنار إلى تمزيق ملابسه الخارجية لعمل المزيد. ثم بعد ذلك، مثل بيتر الناسك "رئيس الدير الذى كان يحمل روحا صلبة فى جسده الهزيل الذى يكاد يخلو من الحياة، اتجه إلى كل مكان، وأخذ يعظ وسرعان ما ازداد عدد من يحملون الصلبان زيادة تفوق الحصر".

هذا التعليق من شاهد عيان على المراسم فى فيلزلى، وهو راهب يدعى أودو دى دوى، وهو القس الخاص الجديد للملك لويس. وكان أودو من نواح عدة رجلا مهما. ولا يبدو أن الأوصاف المعاصرة له مفيدة فى البداية، إذ تعدد فضائل تقليدية كان الناس يعجبون بها في ذلك الزمان - مثل الكرم، والكرامة، واللياقة فى السلوك، والجدية، وأعمال الفكر، والرحمة والشفقة. ومع ذلك، فإن نظرة إلى حياته تبين أن هذا الوصف

ربما كان وصفا دقيقا، وليس مجرد صورة نمطية لرجل له منزلة شريفة. وكان رئيس ديره هو سوجى، الذى يمكن قياس مكانته عن طريق اقتراح القديس بيرنار وقبول لويس له وصيا على عرش فرنسا فى أثناء غياب الملك فى الحرب الصليبية. من هنا، يمكن تقييم أودو؛ لأن سوجى دربه كى يخلفه فى رئاسة الدير، واقترح اسمه على لويس كى يكون كاهن الملك الخاص فى الحرب الصليبية. وعلى الفور أخذ لويس يشير إلى أودو علنا باعتباره صديقه ومعلمه. غير أن أوضح تصوير لشخصية أودو هو العمل الذى تركه – وصف للحرب الصليبية الأولى، من بدايتها المفعمة بالأمل حتى نهايتها المأساوية. قبل أن تبدأ الحرب الصليبية، قرأ أودو روايات عن الحملة الأولى كى يقيم الصعوبات والأخطار الماثلة أمام المحاربين الصليبيين؛ ثم حين انتهت العملية الكارثية، سجل روايته – "لأنه لن يخفق حجاج إلى الأضرحة المقدسة؛ وآمل فى أنهم سيكونون أكثر حذرا بسبب ما مر بنا من تجارب." لا يكاد يكون هناك أحد كتب على الإطلاق عن الحرب الصليبية، إذ فضلوا جميعا نسيانها باسرع ما يمكن؛ فكان أودو وحده هو من كتب رواية حية مسلية، فنية، ومليئة بالمعلومات.

فى فيزيلى عام ١١٤٦، اتفق على أن يغادر الصليبيون الجدد فرنسا بعد عام. والتقوا حسب الميعاد فى باريس فى مقر إقامة سان دينى؛ وكان لويس، وبيرنار، والبابا يوجينيوس حاضرين، يصحبهم ثلاثمائة من فرسان الهيكل، "جميعا يرتدون ثيابهم البيضاء." كان احتفالا مليئا بالرمزية: إذ قدم سوجى، كرئيس دير للويس علم ملك فرنسا، وهو عبارة عن راية قرمزية مزينة بأشرطة ذهبية على رمح ذهبى – راية معركة سان دينى؛ ومنح يوجينيوس حقا جديدا للفرسان. من الآن فصاعدا هم وحدهم ولا أحد غيرهم، يمكنهم ارتداء صليب أحمر على الجانب الأيسر من الصدر وكتف عباءاتهم بحيث يرى الجميع فيهم شعارا مزدوجا – اللون الأبيض المعبر عن النقاء، واللون 'الأحمر المعبر عن الاستشهاد.

لا أحد يعلم على وجه الدقة عدد الرجال الذين غادروا أوربا فى ذلك العام. لقد كتب بيرنار، "كانت المدن والبلدان فارغة. ويندر أن تجد رجلا بين سبع نساء؛ إلى الحد

الذى كانت هناك أرامل فى كل مكان أزواجهن ما زالوا على قيد الحياة." ولقد عبر عن رأى النساء رجل لم يذهب - وهو شاعر من العصور الوسطى، يدعى ماركبرين ففى إحدى أغنياته تبكى إحدى النساء على حبيبها المفقود:

"اللعنة على الملك لويس الذى أرسل جميع الرجال كى يدافعوا عن قبر المسيح وبذلك ملأ صدرى بالحزن". هناك شىء واحد مؤكد، ذهب رجال أكثر مما كانت إليه حاجة. وتعلم يوجينيوس، شأنه شأن أودو تعلم شيئا من التاريخ، وفهم صعوبة الحرب الصليبية متعددة الجنسيات. لقد كان فرسان الهيكل، جيش البابا الرئيسى، فى معظمه فرنسيًا؛ إذ كان لويس عنوان الورع؛ وكان يوجينيوس يشعر أن هذه ستكون حربا صليبية فرنسية. ويمكن للمنافسات الزمنية أن تعيق تحقيق الأهداف الروحية بكل سهولة. ولسوء الحظ، فإن بيرنار، ناسيا الغيرة بين الدول أجبر تقريبا الألمان على الذهاب أيضا. وكونراد ملك الألمان والإمبراطور غير المتوج لم يكن يرغب فى الذهاب مطلقا؛ لكن بيرنار، بما يتمتع به من خطابة وبلاغة قال له: "أيها الرجل، ما هو الذى لم أفعله من أجلك؟ وماذا كان يجب أن أفعل من أجلك ولم أفعله". وكونراد، الذى رأى فى بيرنار صورة المسيح يوم القيامة، وافق على الذهاب. كان الوضع سيكون أفضل لو لم يذهب.

لقد انطلق الصليبيون عام ١١٤٧، متبعين طريق الحرب الصليبية الأولى، برا خلال المجر نحو القسطنطينية، حيث كان الألمان يتقدمونهم؛ وأصبحت القسطنطينية، البؤرة الخرافية للإمبراطورية البيزنطية، هى المجازفة المحدقة. وعبر أودو عن هذا باقتضاب: "القسطنطينية متعجرفة بثرائها، وغادرة فى أساليبها، وفاسدة فى عقيدتها؛ وتماما كما تخشى الجميع بسبب ثرائها، يرتعد منها الجميع بسبب غدرها وانعدام إيمانها." قد يبدو هذا الحكم قاسيا، وإنصافا للإغريق يجب ملاحظة أن الألمان الذين سبقوا التجربة الفرنسية، تصرفوا ببشاعة، حتى أنه حين وصل الفرنسيون - وتذكرت القسطنطينية المشكلات التى سببتها لها الحرب الصليبية الأولى توقعت ما هو أسوأ. ومع ذلك، فمن السهل اليسير العودة إلى الوراء فى القرون وتقديم تحليل جاف

للأسباب والنتائج؛ إن الأحداث الجارية خاصة تلك التى لها طبيعة عسكرية أو دينية، تكون مليئة بالعاطفة، ولكى نفهم الرأى المعاصر لها، يجب أن ترى من هذا المنظور. لذا لم يكن بلا داع أن يقتبس أودو فيرجيل ويقول: "إنى أخشى الإغريق، حتى حين يحملون الهدايا".

منذ البداية كان لويس يشعر بالحرج الشديد من الدبلوماسيين البيزنطيين، الذين كانت كلماتهم بها من الإطراء ليس فقط ما يخجل إمبراطور، بل والمغفل." ولكن، على ما يبدو كانت المداهنة يسيرة هينة بالنسبة لهم، إذ قال أودو: "المداهنون الفرنسيون، لا يمكنهم مجاراة الإغريق حتى إذا رغبوا فى ذلك".

من الناحية الاسمية، يؤمن الألمان والإغريق والفرنسيون بنفس العقيدة، لذا فهم يعتبرون الحرب الصليبية هدفًا مشتركا. ولكن من الناحية العملية، احتفظت كل أمة بمصالحها المادية فى صميم فؤادها، وأخذت تسعى بكل جهد لاحتلال المواقع على مدى الحرب الصليبية. إذن، بالنسبة لأودو "كان الإغريق يقسمون باستخفاف على كل ما كانوا يعتقدون أنه سوف يسرنا، لكنهم لم يؤمنوا بما نؤمن به، ولم يحترموا أنفسهم. فهم عموما يؤمنون بالرأى القائل بأن أى شىء يتم من أجل الإمبراطورية المقدسة لا يعد شهادة زور". لكن الإغريق، فى رأى الفرنسيين والألمان شاهدو زور، بل أسوأ من ذلك. ذلك أنهم كانوا يزودون الجيشين بالمرشدين؛ وفى كل حالة، بدا للأجانب أن المرشدين خونة يقودونهم كى يقعوا فى أيادى المسلمين. ذلك أن الألمان، فى الطليعة فاجأهم الأتراك وذبحوهم، واقتيد الفرنسيون إلى أماكن "ما زالت ملطخة بدماء الألمان". حيث هوجموا هم أيضًا وهزموا.

لقد أدى انعدام الثقة والخداع إلى الكارثة. ولم تر غالبية المحاربين فى الحرب الصليبية الثانية الأراضى المقدسة أبدا. وكتب أودو، "وا حسرتاه، يا له من حظ يثير الشفقة ذلك الذى جعل الساكسون الأشداء والباتافيون وغيرهم من الألمان يفنون بشكل بائس بسبب غدر الإغريق الكسالى! وبسقوط الفرنجة، يكون الحزن المضاعف لا يطاق؛ سيكون لدى الأمتين شىء ينتحبون من أجله ما لم ينتقم أبناء هؤلاء الرجال لموت

أبائهم". صحيح أن الإغريق كانوا يستحقون اللوم، لكنهم أيضا كانوا كباش فداء لسوء حظ الصليبيين وافتقارهم إلى حسن التدبير والتفكير. ومع ذلك، فإن الفرنسيين والألمان على حد سواء انتقموا في الوقت المناسب انتقامًا بشعًا من القسطنطينية؛ ومن بين حطام جميع كوارث الحرب الصليبية الثانية كان فرسان الهيكل هم وحدهم الذين خرجوا بشرف.

لم يقد كتيبة فرسان الهيكل روبير ألبيرجندى، ولكن قادهم أفرار دى بار، الذى كان حينئذ معلم الهيكل فى فرنسا. وفى القسطنطينية أظهر بار مهارة دبلوماسية فى المحادثات التى أجريت مع الإمبراطور؛ غير أن القيمة الحقيقية لفرسان الهيكل وما يتحلون به من انضباط لم تظهر حتى مرور بعض الوقت بعد القسطنطينية، حين كان الجيش الصليبى يحاول اجتياز أحد الجبال، فأحاط به المسلمين.

"إن فرسان الهيكل ولورد أفرار دى بار الذى يجب أن يوقر بسبب ورعه، والذى قدم مثلا شريفا يحتذيه الجيش، أنقذ ممتلكاتهم بحكمة ونشاط وحمى ممتلكات الآخرين بشجاعة بقدر الإمكان. فى ذلك الوقت أحب الملك المثل الذى ضربوه وسره أن يحاكيه ... لذا تقرر أنه فى أثناء هذه الفترة الخطرة يجب على الجميع أن يقيموا إخوة مع فرسان الهيكل، الفقراء والأغنياء ويقسموا على ألا يفروا من ميدان القتال وأن يطيعوا فى كل جانب الضباط الذين يعينهم لهم فرسان الهيكل".

لقد كانت أوامر فرسان الهيكل للصليبيين أوامر بسيطة، وأساسية؛ وتبين بساطتها ما كان عليه الجيش من فوضى. "لأن الأتراك يسرون بالفرار ورجالنا يؤمرون بالتحمل، إلى أن يتلقوا أمرا، هجمات العدو؛ وينسحبون مباشرة حين تتم دعوتهم، مع أنهم يجب أن يصمدوا كما أمروا أصلا. وحين يتعلموا هذا، يتعلمون أيضا نظام المسير، بحيث أن الشخص الموجود فى المقدمة لا يندفع إلى المؤخرة والطليعة على الأجنحة لا يجب أن يقعوا فى الفوضى. وفوق ذلك، فإن من جعلتهم الطبيعة أو الظروف جنوداً راجلة (لأنه فقدوا أو باعوا معداتهم، كان الكثيرون من

النبلاء يسيرون بين الزحام بطريقة غير معتادة بالنسبة لهم) قد سحبوا إلى المؤخرة كى يعترضوا الأعداء بأقواسهم".

إن وصف أودو المفصل لهذه الترتيبات الأولية ينم عن دهشته لها، ويكشف عما كان يعانيه المحاربون الصليبيون من تشتت فيما مضى ومن انعدام فى الانضباط. ومع ذلك، فحتى هذا القدر من التنظيم كانت له السيادة، مؤقتا، فى مواجهة حرب العصابات التركية فى الجبل؛ إذ شق المحاربون الصليبيون طريقهم إلى سطح الأرض، حيث "عند الوصول إلى المسطحات الطينية وجد الكثير من الأتراك حتفا ولحدا فى مكان مناسب لطبائعهم القذرة. فى حين دمر هجومنا العارم وملاحقتنا الطويلة من فر منهم، وكان جوع الجميع ضئيلا، وكان يوم كل شخص أكثر إشراقا".

لكن قدرة الصليبيين على القتال معا التى عثروا عليها حديثا لم يكتب لها العمر الطويل؛ - إذ إن الأتراك استخدموا سياسة الأرض المحروقة، "وبجمع الأغنام والماشية من كل مكان، وتركها ترعى أمامنا، دمروا المنتجات التى لم يتمكنوا من حرقها." وحين انعدم الطعام، بدأ البشر والخيول فى الجيش المسيحى يموتون جوعا؛ فأكلت الجياد؛ وتم التخلى عن الملابس والأسلحة والخيام. وكانت هناك أربع معارك، تم الانتصار فيها تحت قيادة فرسان الهيكل؛ واستطاع الفرسان، بواسطة حيلة، تأخير النهاية إلى حين. فعلى الرغم من أنهم هم أنفسهم كانوا على وشك الموت جوعا، فإنهم تمكنوا من الاحتفاظ بجيادهم، عن طريق القيام بعمل جبهة شجاعة مما أقنع الأتراك بأن الجيش ما يزال قويا. غير أن ذلك لم يكن سوى قشرة، ولم يستطع تحمل خيانة الإغريق وما فعله الأتراك. حين وصل لويس إلى أداليا على الساحل الشمالى الشرقى للبحر المتوسط، أقنع بأن يذهب بحرا. وذهب أودو معه. ومات جزء كبير من الجيش بسبب المرض والمجاعة والهجمات فى الميناء وحوله؛ واستسلم جزء كبير من بين من بقوا، واستداروا للعودة إلى بلادهم. ولم يتشتت سوى عدد قليل، برا إلى أنطاكيا.

وظل الملك الشاب فى الأراضى المقدسة لمدة خمسة عشر شهرا، حتى أوائل صيف عام ١١٤٩، غير أن أودو الذى يعد عمله ثناء على الملك بقدر ما هو تاريخ للحرب الصليبية، لا تأتى على ذكر تلك الفترة، ويقول مدون معاصر آخر للأحداث، باستنكار "لم يكن فى وسعه فعل أى شىء مفيد، أى شىء جدير بالذكر، أو، فى الواقع، أى شىء جدير بفرنسا".

بل إن أمواله نفدت، وفى أول موقف مسجل لموقف ستكون له أهمية كبرى بالنسبة للجماعة، اضطر إلى الاقتراض من فرسان الهيكل. وتحمل أحد أتباعه من اللوردات ٣٠٠٠٠ سو، من الدين؛ ومن أجل الباقى، كتب لويس لوصى عرشه، سوجى بمزيج غريب من انعدام الثقة والسلطة.

وقال: "لا يمكننى أن أفهم كيف كان يمكننا أن نبقى لحظة فى هذه البلاد، بدون العون الذى استمروا فى تقديمه لنا حتى الوقت الحاضر؛ لهذا أرجوك أن تعطيهم المزيد من آيات الاعتراف، وتبين لهم مدى ارتباطى بهم. وأشعر أنه من الضرورى أن أحذرك من أنهم أقرضونى توا مبلغا كبيرا من المال، يجب دفعه فى أقرب وقت ممكن، للحفاظ على كلمتى ولمنع أى ضرر لهم. لذا يجب أن تهتم بتسليمهم دون تأخير ألفى مارك من الفضة".. .. لقد استغرقت الرحلة برا من أوربا من لويس عاما؛ أما عودته بحرا، فاستغرقت نحو سبعة أسابيع. وكان الملك كونراد، ملك ألمانيا قد سبقه؛ وكذلك سبقته أنباء سلسلة الهزائم. وحين نزل لويس وحاشيته فى إيطاليا، بدء وا على الفور حملة دعائية ضد البيزنطيين منحية باللائمة فى معظم الفشل على خيانتهم المفترضة. وعلى الفور نودى بحرب صليبية أخرى، هذه المرة ضد البيزنطويين. أما القديس بيرنار الذى أدهشه وأهاله فشل لويس الزريع، فقد تبنى الفكرة الجديدة بكل ترحاب. وإذا ما اعتبرنا أن الإغريق جزء من المسيحيين، مهما كانت نقاط فشلهم، فأقل ما يقال عن هذا التصرف إنه غير مقدس. ولا يمكن للمرء إلا أن يشعر، بأنه على الرغم من غضب بيرنار من طبيعة الصليبيين الخاطئة، وما تبعها من عقاب من لدن الله، فإنه اعتبر الهزيمة شيئا شخصيا. وعلى الرغم من أن التفسير البيزنطى كان مقبولا على

نطاق واسـع، فإن الرأى العـام لم يكن يـميل إلى تـصديق التـفسيـر القائل بـالخطيئـة العـامـة. وبدا أن الكفـاح بكل هذه الطاقة فى أعقاب الكارثة أمر يشتم منه الذنب، أو الخطأ على الأقل، فلحق ضـرر بالغ بمكانة بيـرنار. وعلى الرغم من أن سـوجى ولويس وافقا مع بيرنار، فإن يوجينيوس كان مترددا جدا فى المحاولة مرة أخرى؛ إذ إنه كان يرى أن مـزج الفرنسـيين والألمان عرض الحـملة للخطر منذ البداية. وأخـيرا فـإن أية محاولة جديدة يجب أن تلقى دعما ألمانيا، على الرغم من المشكلات الدولية؛ وكونراد قد رفض أى تورط أكثر من ذلك، حتى بعد أن أخضعه بيرنار شخصيا إلى حديث طويل من التوبيخ الشديد.

وفى أعقاب سلسلة الصدمات التى ميزت الحرب الصليبية الثانية جاءت صدمة أخيرة، ضئيلة نسبيا فى أعين العامة، لكنها كانت جسيمة بالنسبة لفرسان الهيكل. ذلك أن روبير البيرجندى، معلم الهيكل، مات، فى ١٣ يناير عـام ١١٤٩، وحل محله المعلم الفرنسى الإقليمى، أفرار دى بار. ولكن على الرغم من المثـال الذى ضربه فى أثناء الحرب الصليبية الثـانية، فإن قيادة الجماعة كانت مهمة عظيمة بالنسبة له. فاستقال بعد ثلاث سنوات فقط كمعلم. ولم يقدم دى بار الكثير من التفسير، سوى التعبير عن الرغبة فى أن يكرس نفسه فقط لعبادة الله بسلام والتدبر فيه؛ لكن الإخوة - على ما يفترض أدركوا أن المعلم غير الراغب فى المنصب لن يكون نافعا، فلم يقفوا فى سبيله. واضطر إلى الانضمام إلى جماعة أخرى؛ وأصبح راهبًا فى كليرفو، تحت بيرنار، وظل هناك حتى وفاته، بعد أربع وعشرين سنة، فى عام ١١٦٧.

وتم انتخاب معلم جديد، فى الوقت المناسب، هو بيرنار دى تريميلى؛ وفى قرابة هذا الوقت جاءت أنباء إلى بيرنار ربما جلبت إليه قدرا من الراحة: لقد تم تعيين عمه أندرى دى مونبار ناظرا لأراضى الهيكل. وظل العم وابن الأخ يتراسلان بكل حب، وكثيرا ما كان بيرنار يرجو أندرى أن يزور أوربا مرة أخرى. ويعد خطاب بيرنار الأخير إلى أندرى الذى كتب فى ربيع ١١٥٣، خطابا مؤثرا بشكل خاص. إذ إن رئيس الدير فى ذلك الوقت كان فى قرابة الثالثة والستين، وكان اعتلال جسمه المزمن قد بدأ

يحدث أثره. "الخطابات التى أرسلت بها إلى الفتى راقدا فى الفراش". واستمر يقول: "تلقيتها بكل اشتياق؛ وقرأتها وأعدت قراءتها كثيرا؛ غير أنى أتمنى أكثر من ذى قبل أن أراك. وأحس بالرغبة نفسها فى خطاباتك، لكنى أيضا أحس بمخاوفك على الأرض التى كرمها إلهنا بحضوره وباركها بدمه. وما وقع من مصائب لأمرائنا... ولكن دعنا نصعد فوق الشمس، وليستمر ما بيننا من حوار فى السماء. فهناك، يا عزيزى أندرو، توجد ثمار عملك وهناك مكافآتك... أنت ترغب فى رؤيتى، لكنك تقول إن الأمر يتوقف على، لأنك تكتب انتظارا لقرارى. وماذا فى وسعى أن أقول لك: إنى أتوق إلى رؤيتك، غير أنى أخشى أنك لن تأتى؛ هكذا فأنا معلق بين نعم ولا، أجرى من جانب لآخر، ولا أريد أن أختار. لكنى أنحنى أمام ما تقوله عن الأحزان الكبيرة للأراضى المقدسة، ويبدو لى أن أحوالها ستكون أكثر سوءًا بغيابك. لذا لا أجرؤ وعلى أن أطلب منك أن تعود - ولكن شدما اشتاق إلى رؤيتك قبل أن أموت! سوف تحسن التفكير أفضل منى، ... وقد لا تكون رحلتك عديمة الفائدة، لأنه، برحمة الرب، قد يكون هناك فرسان يرغبون فى أن يتبعوك لأنك مشهور ومحبوب فى كل مكان. لكنى أقول هذا لك: إذا أتيت، فلا تتأخر، وإلا فلن تجدنى هنا! لأنى بالفعل عليل جدا، ولا أتوقع أن أبقى أطول من ذلك على هذه الأرض ".

لم يتمكن أندرو من العودة؛ وتوفى بيرنار، عجوزًا، ومريضًا، وخائب الرجاء، وحيدا فى ديره المتواضع وحوله رهبانه. كانت الساعة التاسعة صباحا فى ٢٠ أغسطس ١١٥٣.

وفى ذلك العام نفسه توفى شخصان أخران فى هذه القصة: البابا يوجينيوس، والمعلم الرابع للهيكل، بيرنار دى تيمبلى. إذ قتل وهو يحارب فى عسقلان فى أواخر يوليه. ومن المحتمل أن أندرى لم يتسلم خطاب القديس بيرنار الأخير حينئذ؛ ولكن لا بد أنه كان يفكر كثيرا فى ابن أخيه؛ وفى ذلك اليوم قبل ذلك بسبع وعشرين سنة حين التقى الاثنان فى كليرفو. لقد وقع الكثير من الأحداث فى هذا الوقت القصير؛ ولم يعد أندرى طالبًا جديدا لعضوية الفرسان؛ يسعى إلى الموافقة المقدسة لإخوته. إنه الآن أكثر بركة من الأساقفة، وأقوى من الأمراء، فهو المعلم الخامس للهيكل.

الجزء الثالث

المملكة فيما وراء البحر ١١٣١-١٣٠٢

الفصل الخامس

مياه حية

الأراضى المقدسة، ١١٣١-١١٦٨

ينبوع جنات، بئر مياه حية، سيول من لبنان....

نشيد سليمان

للأراضى المقدسة اسم فخم ضخم، لكنها من الناحية الجغرافية ضئيلة الحجم. إذ يمكن للمرء أن يطير فوق الدول الصليبية كلها طولا وعرضا فى ساعة أو ساعتين. لقد كان أكثر أسمائها شيوعا فى أوربا ما وراء البحر - وهذا الاسم يضم دفعة واحدة صفات الغربة والقداسة والمجد الزائف التى ميزت فرسان الهيكل بنفس القدر الذى ميزت به التربة المقدسة التى دافعوا عنها. أما بالنسبة لسكان الأراضى المقدسة، فإن "ما وراء البحر" كان يعنى، بالطبع، أوربا؛ ولكن فى هذا الكتاب - الذى ينظر جنوبا بأعين أوربية - فإن ما وراء البحر هو تلك المجموعة من الممالك والإمارات التى أسسها الصليبيون وقام فرسان الهيكل بدور الشرطة فيها. ولقد رتبت مملكة القدس القديمة، وإمارة أنطاكيا ومدينتا طربلس وأديسا على شكل حرف ت باللغة الإنجليزية. وفى أعلى منطقة النفوذ اللاتينية فى الشرق، كانت الدول الأربع معا عبارة عن ستمائة ميل، تقريبا إلى الشمال، وحوالى ثلاثمائة من الغرب إلى الشرق، - عبارة عن شريط طويل ضيق من القرن الشرقى للبحر الأحمر على طول ساحل شرق البحر المتوسط، يعبره

حاجز ثقيل من سيلوسيا شمال قبرص إلى أديسا. وكانت طربلس أصغر هذه الدول: وحتى حين كان الصليبيون فى قمة قوتهم، كان أكبر طول لها هو خمس وثمانين ميلا، ولم يكن أكبر عرض لها يزيد على أربعين. وعلى حدودها الجنوبية مع القدس، كان هذا يتقلص إلى مجرد ممر ساحلى: وبين بيروت ومدينة طربلس الفعلية، لم يتقدم احتلال الفرنجة سوى عشرين ميلا فى الداخل.

إنها إمبراطورية، وإمبراطورية مقدسة؛ ولكن بالمعنى المعاصر كانت إمبراطورية مصغرة - منطقة كلية تزيد قليلا على أحد عشر ألف ميلا مربعا. ومع ذلك، فى كثير من الأحيان كانت مساحة أكبر كثيرا من قدرة الفرنجة الغزاة على الدفاع عنها. على الخريطة يمكن قياسها بإصبع؛ ومن الجو يمكن مسحها فى خلال ساعة. ولكن على الأرض، حين كانت أسرع وسيلة نقل هى الخيل، وآمن اتصال كان عن طريق الحمام، كانت تلك الأميال الإحدى عشر ألف ميل مربع شيئا ممتدا، وتشكل تهديدا؛ لأن الأعداء كانوا يحيطون بالفرنجة.

وكان الخوف رفيقهم الدائم. ذلك أن الكهوف التى كانت تنتشر فى المكان كان من الممكن أن تخفى كمينا مميتا؛ ويمكن للجبل أن يخفى جيشا؛ وكان من المستحيل القيام بعمليات الدورية فى جميع الحدود الطويلة المترامية. يمكن فهم الحالة النفسية للسكان الأوربيين فى الدول اللاتينية مجتمعة فهما أفضل حين نعلم أن عددهم لم يكن يزيد على عشرين ألفًا؛ ولم يكونوا جميعا، بالطبع، مقاتلين. وفى مملكة القدس بكاملها كان هناك أقل من ألف من الفرسان من غير رجال الدين والبارونات وما يزيد قليلا على خمسة آلاف رقيب، هم المشاة كاملو التسليح. بالإضافة إلى ذلك قد يكون هناك ألف أخرى من المدنيين المسيحيين، الأوربيين وبضع مئات من رجال الدين؛ وقد انعكست هذه الأرقام فى الإجمالى الكلى للدول الثلاث الأخرى. وفى المدن، وأنحاء الريف، كان السكان المسيحيون من أهل البلاد يفوقون الأوربيين عددا، وهؤلاء المسيحيون كانوا موجودين هناك قبل الحرب الصليبية الأولى، وسوف يظلون هناك حين تطهر الأرض من الأوربيين. ولكن على الرغم من أن المسيحيين من سكان البلاد كانوا يدفعون

الضرائب للأوربيين ويفترض أن يقاتلوا من أجل الفرنجة، فإنه لم يكن من الممكن الاعتماد عليهم؛ فكثيرا جدا ما كان الفرنجة لا يبدون لهم كإخوة مسيحيين وإنما كغزاة ظلمة. وكان من السهل عليهم خيانة الفرنجة لصالح المسلمين، وقد فعلوا ذلك في مناسبات عدة. ومع ذلك، فقد كان لدى الدول اللاتينية ذراعان مقاتلان، نصف طائفة اجتماعية من المرتزقة أبناء الأتراك، (اسم محلي يطلق على مرتزقة من الرماة كان الصليبيون يستأجرونهم في منطقة البحر المتوسط: المترجم.) لا يعول عليهم، مثلهم مثل أي مرتزقة؛ ثم الجماعات العسكرية. وكان من المتوقع أنه يمكن الاعتماد عليهم اعتمادًا تامًا.

وكان فرسان الهيكل أولهم. إذ إنهم، منذ بدايتهم، كانوا عسكريين؛ وقبل الاعتراف بهم في تروا بوقت غير طويل انضمت جماعة أخرى، هي الإسبتاليون، هذا هو الاسم الشائع وبدلا من أن نطلق عليهم المستشفيين، سوف نستخدم هذا الاسم لشيوعه (المترجم). لقد أسست مستشفى القديس حنا في القدس عام ١٠٤٨، وظلت كذلك تماما لمدة قرن: أي مستشفى لنجدة ورعاية الحجاج. ولكن عند رؤية نجاح فرسان الهيكل الذي يعد ظاهرة تم الاعتراف بالمستشفى على أسس عسكرية، محاكاة للفرسان، ومما يثير الدهشة أيضا أنها بدأت تجتذب من الدعم والتأييد ما تحقق لجماعة الهيكل. إذ على الرغم من نجاح فرسان الهيكل، كان هناك ما يزال مجالاً للمنافسة.

وكانت الجماعتان عادة قادرتين على تقديم ما بين ستمائة إلى ألف فارس، مقسمين تقريبا بالتساوي؛ وإذا ما قسنا هذا الرقم بالأرقام السكانية التي سقناها سابقا، تتبين أهميتهم في الحياة المدنية والعسكرية على نحو أوضح من أي شيء آخر. إذ أمكن أن يمثلوا ما يصل إلى ستة في المائة من السكان الإفرنجة المقيمين؛ وكانوا هم الجيش الدائم الوحيد.

فإذا ما أخذنا هذا في الاعتبار، فمن المؤسف أن نضطر إلى التسليم بأن أول اشتباك عسكري مسجل قام به فرسان الهيكل بأنفسهم كان هزيمة في حقيقة الأمر.

لقد وقع ذلك عام ١١٣٨، بالقرب من بلدة تسمى تقوا، على بعد تسعة أميال فقط من جنوب القدس. كان المسلمون قد استولوا على البلدة؛ ويبين قربها من المدينة المقدسة مدى ضعف المسيحيين فى دفاعاتهم ومدى قابلية أى شىء للتعرض للهجوم عدا المدينة المحاطة بالأسوار أو الحصون. لدى سماع هذا النبأ، انطلقت تجريدة من فرسان الهيكل بقيادة روبير، ألبير جندى المعلم الثانى. ولكن على الرغم من قدراته الدبلوماسية والإدارية، بدأ روبير، فى تلك المناسبة على الأقل، أقل قدرة كقائد فى الميدان. وكان مطران صور، ويليام، المؤرخ، يحمل ضغينة دائمة ضد فرسان الهيكل، وضد روبير بصفة خاصة، بسبب الامتيازات الكنسية التى منحت لهم فى مؤتمر الهبة العليا. ولم يضع فرصة لم ينتقد فيها الجماعة، ورأى فى تقوا قصاصا عادلا. وهو يقول إن روبير والإخوة أعادوا الاستيلاء على البلدة بسهولة؛ لكنهم ارتكبوا "خطأ عدم ملاحقة المسلمين وهم يفرون". إذ ظل فرسان الهيكل فى البلدة؛ وتجمع المسلمون مرة أخرى فى خارج البلدة، وشنوا هجوما مضادا، وقال ويليام باكتئاب ورضا "كانت المساحة كلها ما بين الخليل وتقوا مفروشة بجثث فرسان الهيكل". (هذه المساحة كانت عشرة أميال). من المحتمل أن ويليام كان مبالغا؛ ولكن حتى إذا كان وصفه هو الحقيقة الحرفية، يجب النظر إلى تقوا فى سياقها، - إذ كانت معركة صغيرة بين عشرات المعارك الصغيرة، وعدداً كبيراً من المعارك الكبيرة؛ إنها هزيمة صغيرة بين كم من الهزائم الكبيرة، والانتصارات الكبيرة. إذ كانت هناك ثلاثة تهديدات أكثر سوءاً من تقوا بشكل لا يوصف فهى تهديدات قوية على الأمن المسيحى فى الأراضى المقدسة.

كان التهديد الأول تهديدا مباشرا: هو زنكى، القائد المسلم الجديد. فمع مقدم عام ١١٣٠ كان شمال سوريا بأكمله تحت إمرته. وفى عام ١١٣١ كان قد هاجم بغداد مرتين، وحين هزم مرتين، وجه اهتمامه إلى الغرب. وهاجم رجال من قيادته أنطاكيا عام ١١٣٣؛ وفى عام ١١٣٥ دخل هو نفسه الإمارة، بعد أن حاول دخول دمشق؛ وفى ١١٣٨ اقترب من دمشق مرة أخرى؛ لكنه قنع بمدينة حوران الإسلامية أيضًا؛ وفى عام ١١٣٩ حاصر بعلبك واستولى عليها. وما بين ذلك، كان يغير على الحصون الحدودية، فأصبح تهديدا مجربا، وقوة يعتد بها.

وكان التهديد الثانى أكثر دقة وحساسية، وأكثر خطرا: وهم الحشاشون، تحت قيادة زعيمهم الأسطورى، رجل الجبال العجوز. ومن الغريب، أن الحشاشين كانوا، من بعض النواحى، مكافئين إسلاميين لفرسان الهيكل، لأنهم أيضا كانوا جماعة من المجاهدين. غير أنهم لم يقاتلوا علنا فى ميدان المعركة ولم يكن مبدأهم ببساطة التعارض بين المسلمين والمسيحيين والصليب والهلال. إذ كان مصدر إلهامهم هو الإسلام العربى، وليس الإسلام التركى، والمذهب الشيعى وليس المذهب السنى. بعبارة أخرى كانوا يعتقدون أن الزعامة الروحية للعالم الإسلامى يجب أن تكون من خلال النسل المباشر للنبى محمد، وليس من خلال خلفاء بغداد؛ وبالتالى، كانوا يرون معظم المسلمين حولهم وكذلك المسيحيين بمثابة كفار.

بهذا العدد الكبير من الأعداء، قد يبدو أنهم ليسوا تهديداً كبيراً؛ لكنهم كانوا قتلة سريين، ومهرة فى حرفة القتل القاسى الكفء. وكانت طاعتهم للرجل العجوز قائدهم لا يداخلها أى شك، وكان الحشيش يزيد من شجاعتهم. ومن هنا جاء اسمهم. وقد حرفت الكلمة عن طريق الفرنجة بحيث تصبح المغتالين. ومنذ ذلك الوقت احتفظت بمعناها أى القتل السياسى. وهذا العامل على وجه الدقة، أى دافعهم السياسى المعقد، هو الذى جعل المسلمين والمسيحيين على حد سواء يرهبونهم؛ لأنهم لم يكن من الممكن التعرف عليهم، لذا كانوا يستطيعون قتل من يشاءون، - ويستطيعون التحالف مع أى من الجانبين، حسب ما يلائمهم.

أما التهديد الأخير فكان أكثرها إنهاكا، وهو التهديد الذى أسهم أكثر من غيره فى السقوط النهائى للدول اللاتينية، فى الشرق: وهو انهيار التحالف بين الفرنجة والبيزنطيين. لقد وعد الإمبراطور الفرنجة بالدعم بشرط أن يعيدوا إليه أية أراضٍ يفتحونها كانت قد أخذت منه فى السابق من جانب المسلمين. وكانت إمارة أنطاكيا من بين هذه الأراضى، التى تمسك بها الفرنجة بقوة منذ استولوا عليها عام ١٠٥٨؛ وفى عام ١١٣٧ كان الفرنجة قد قرروا أيضا بقوة أنهم يريدون استرجاع أنطاكيا. فعبر الإمبراطور جون زينس الدردنيل بجيش كبير، وحاصر المدينة.

وهكذا فإن مسيحيين حاصروا مدينة مسيحية. وكانت هذه سخرية بلاد ما وراء البحر القاتلة. ولم يقدم الملك الجديد فولك أى دعم لريمون أمير أنطاكيا، على الرغم من الدور الذى لعبه الأمير فى التخلص من أليس المزعجة؛ وفى عام ١١٣٨ عبر ريمون عن احترامه لجون زينوس، ورفرف العلم البيزنطى فوق أنطاكيا.

ومع ذلك كان هناك مزيد من التعقيد فى السخرية؛ إذ كان للسياسة المزيد من الالتواء. ذلك أنه حين حاصر زينوس أنطاكيا، هاجم مسلمو دمشق، المستقلون عن زنكى تماما، طربلس. وتم دحرهم؛ ثم بعد ذلك بعامين، أى فى عام ١١٣٩، صار الدمشقيون والملك فولك حلفاء، ضد زنكى. وأعيدت بنياس إلى فولك، ضمن الصفقة. كانت هذه إذن هى صورة ما وراء البحر، فى الجيل الأول من حكم الفرنجة: عبارة عن شبكة معقدة بشكل لا يكاد يصدق من العداءات والتحالفات، حيث يمكن أن ينحاز جانب مع الآخر ضد أخيه فى العقيدة، وحيث تذبذبت الحدود باستمرار مع خسارة واسترجاع المدن والبلدان والحصون. وهى صورة ظلت حقيقية على مدى المائتى سنة من وجود ما وراء البحر: إذن، لا عجب فى أنه حين بدت القدس مسيحية آمنة وجد مسيحيو الغرب أنه من السهل عليهم تجاهل هذه الأحداث البعيدة المعقدة، وفضلوا التفكير فى مشكلاتهم. غير أن زنكى، ذلك عدو المسيحية الطموح الميال للقتال، كان جاهزا لتذكيرهم.

أين التاج الذى بوركت به، وأين الإكليل الرائع؟

أين زينات الملكة، زوجة الأمير الملكية، وروائع قصر العرس، وأنسجة الذهب المطرزة؟ لم غاب الزوج عن حجرة العرس، ولم غاب أصدقاؤه عن الكنيسة؟ ماذا جرى لرفاقه؟ إذ لم يعودوا يشدون بأغنية داود.

١١٤٤: ضاعت أديسا، فتحها زنكى، وسط مشاهد من سفك الدماء والرعب. اختنق خمسة آلاف فى الزحام المذعور؛ وذبح آلاف آخرون؛ وبكى كاهن من أديسا.

كل ما أخذ منك فجأة، كل ما تلاشى وأنطفأ؛ لم يكن سوى أحلام، وأشباح بددتها اليقظة.

رأى المسلمون فى زنكى يد الله الرحيم، وقالوا إن الصحراء أزهرت أينما حل. وقال المسيحيون عنه "وعاء الشيطان، وصانع الشر" لكن كل من الجانبين وافق على أنه أحسن اختيار اللحظة، ذلك أنه فى العام السابق، مات معارضاه الكبيران، الملك فولك، وجون زينوس، ماتا مصادفة فى حادثي قنص. وبدون جون أصبح الإنطاكيون والبيزنطيون فى حالة صدام مرة أخرى: ولا يوجد ما يهدد زنكى من الغرب. ودون فولك، انتهى التحالف بين الدمشقيين والفرنجة: فلا تهديد من الجنوب. وشكلت أديسا البداية الحقيقية للهجوم الإسلامى المضاد: وفى ما تلا ذلك من سنوات، وبينما كانت الدول اللاتينية تقاتل يوميا من أجل وجودها ذاته، ظهر فرسان الهيكل فى المقدمة.

الناس فى حالة اليأس يتشبسون بأى أمل، مهما كان واهيا. حين وصلت أنباء أديسا إلى الغرب، صحبتها شائعة عن ملك مسيحى فى الشرق، يحارب المسلمين ويحقق انتصارا. يسمى جون، بريستر جون. وكثير من الناس، فى ذلك الوقت، وكثيرون آخرون على مدى قرن بعد ذلك آمنوا به إيمانًا تامًا، وعلقوا عليه آمالهم فى النجاح. وبعد الحملة التى تلت ذلك من الحرب الصليبية الثانية، حين اعتبره فرسان الهيكل مثلا يحتذى وقادة للجيش الملكى، أقسم الكثيرون أن فارسا كان يرتدى ملابس بيضاء ظهر من المجهول كى يساعدهم فى أوقات شدتهم، ويختفى حين يكون كل شىء آمن، بشكل غامض كما ظهر. وكانت تحيط بفرسان الهيكل هالة من الغموض - إذ إن ميثاقهم أصبح الآن سريا، ولم يكن مسموحا لأى أخ أن يكشف عنه لأى إنسان؛ وكانت اجتماعاتهم العامة تتم بأقصى درجات السرية، خلف أبواب مغلقة وعليها حراسة مشددة ونوافذ أيضا مغلقة. وكل ممنوع جذاب ومرهوب، وبعض الناس، الذين ربطوا بين صمت الجماعة بحكاية الفارس الأبيض الغريب، رأوا أن فرسان الهيكل مصدر حيرة وإغراء. وسبب الجاذبية واضح: فهى فرقة من النخبة، وقاعدتها فى

أقدس أنحاء البلاد المسيحية، ولديها صلات دولية، وثروات دولية، وتنظيم دولى سرى، وتحرر من جميع القيود الزمنية والروحية المعتادة. لذا يمكن النظر إليهم من جميع النواحى كجماعة ذات مكانة مميزة بحق.

غير أن هناك آخرين ممن فسروا العناصر نفسها تفسيرا مختلفا؛ ذلك أن السرية، والثراء، والسلطة والحرية جعلت الجماعة موضع شك وتوجس. ففى وسع المدافعين عن فرسان الهيكل الثناء على ما يتسمون به من تقشف وإخلاص ووحدة. ويمكن لمنتقديهم الإشارة إلى التناقضات: فالفرسان الذين أقسموا قسم فرسان الهيكل بالفقر قد انضموا إلى أغنى جماعة فى العالم؛ وقسم الطاعة معناه أن الشخص لم يعد فى حاجة إلى طاعة مليكه؛ والقسم بالدفاع عن البلاد المسيحية معناه أن الشخص فى وسعه تجاهل مطرانه. بالنسبة للمدافعين عنهم، تعد سلسلة القلاع الخاصة بفرسان الهيكل فى البلد المقدسة هى دفاع المسيحيين الأول، وممتلكاتهم فى أوربا نظام منطقى للدعم. أما النقاد فراوا هذه الأشياء باعتبارها تهديدا محتملا، أولا على أمن البلد المقدسة نفسها، بما أن فرسان الهيكل غير ملزمين بالوقوف إلى جانب الملك أو البطريارك؛ وثانيا تهديدا لأمن كل بلد فى أوربا، حيث إن الجماعة هى الجيش الوحيد النظامى المنضبط.

لا يمكن اعتبار أى من هذين الرأيين صحيحًا تماما؛ كما لا يمكن اعتبار أيهما على خطأ تام. فعلى مدى الخمس والأربعين سنة الأولى من حياة الجماعة، لا يوجد دليل مباشر على أن فرسان الهيكل أساءوا استخدام حقوقهم، بل هناك قرائن متكررة فى صالحهم: على سبيل المثال، رسائل لويس السابع إلى سوجى، وهذا التعليق فى ميثاق سابق:

"لا نعتقد أن المؤمنين يمكنهم نسيان ما قدمه فرسان الهيكل من عزاء وعون للسكان، والحجاج، والفقراء وجميع من أرادوا زيارة ضريح الرب." ولكن أنصافا لمنتقدى فرسان الهيكل، نجد أن السجلات المباشرة وغير المباشرة لنفس تلك الفترة لا تشهد بأى امتياز عسكرى بارز. فمن المؤكد أنه مع مقدم عام ١١٥٢، كان فرسان

الهيكل يمتلكون قلاعا من غزة حتى أرمينيا؛ ولكن فى إحدى المرات - فى تقوا - انهزموا، وفى معركتين أكثر أهمية، بدا أن سلوكهم أدنى من أن يكون مشرفا. هاتان هما معركة دمشق عام ١١٤٨، وعسقلان عام ١١٥٣.

فدمشق، التى كانت تعتز باستقلالها عن المسلمين الآخرين، وعن الفرنجة، كانت مغرية للجانبين، لعقود. إذ حاول زنكى فتحها مرارا وتكرارا، بل إنه مات خارج أسوار دمشق عام ١١٤٦، إذ قتله فى أثناء نومه عبد خصى أوربى. ثم حين تقاطر لويس السابع وكونراد ملك ألمانيا إلى الأراضى المقدسة مع من تبقى من الحرب الصليبية الثانية، قرر الفرنجة أن يأخذوا دورهم. وكان الاستيلاء على دمشق المعروف فى الكتاب المقدس فى أنحاء البلاد المسيحية، من شأنه أن يكون أكثر من تعويض عن خسارة أديسا: إذ كان من الممكن أن يجعل الكوارث فى أنحاء بيزنطة جديرة بالحدوث. ولكن لأسباب بدت غير مفهومة حينئذ كما هى كذلك الآن، لم يفوزوا بالمدينة، وأنحى الكثيرون باللائمة على فرسان الهيكل.

من السهل علينا أن نفهم السبب الذى جعل الفرنجة والمسلمين على حد سواء يشيرون إلى دمشق باعتبارها "لؤلؤة الصحراء". فهى من حيث المنظر كانت مذهلة، واليوم عند النظر من الجو إلى المدينة، تأخذ النظر ثلاثة ألوان - بياض المبانى، التى تلمع فى شروق الشمس؛ والواحة الخضراء، "الحدائق" حول المدينة؛ واللون الأصفر الذى يشبه الشفق فى الصحراء المحيطة بكل مكان. إنها زمرد ولؤلؤة وضعا فى ذهب.

من المؤكد أن دمشق شأنها شأن أية مدينة، بها أجزاء قبيحة قذرة، ككتلها السكنية المرتفعة، ومعمارها الذى يعد من الطراز العاشر؛ غير أن هذه العيوب لا تسيء إلى الانطباع العام، وهو أن هذه المدينة ذات قيمة مرتفعة؛ ومنذ ثمانى قرون، حين كانت جيوش الغرب الصليبية تناضل كى تستقر فى الشرق، لا بد أن أثرها على من رأوها، أو حتى سمعوا عنها كان بالغ الجاذبية. وفى حياة الفرنجة الصعبة غير المستقرة، تجذر حلم دمشق وازدهر بسهولة.

وطبيعة هذا الحلم، والحقائق والأساطير التى تغذى عليها تروى ببساطة: فدمشق فريدة بحق. بالنسبة لمعظم الصليبيين، كانت أراضى شرق المتوسط لها حظوة خاصة، ذلك أن جميع أحداث الكتاب المقدس وقعت هناك؛ ولكن حتى بالمقارنة بالقدس، كان هناك اعتقاد بأن دمشق تتمتع ببركة خاصة. فهى أقدم مدينة على وجه الأرض ظلت مسكونة باستمرار - إذ أنها وجدت قبل ميلاد إبراهيم بألف سنة. لكن قيمتها بالنسبة للفرنجة كانت أكبر من مجرد القدم، أو حتى من الفائدة الاستراتيجية. إذ إن امتلاك الفرنجة للمدينة من شأنه دق إسفين مجسد بين مسلمى الشمال ومسلمى الجنوب، أكثر من أى تحالف بين الدمشقيين والفرنجة، وكان لهذا حسابه. ولكن ما كانت له أهميته بالنسبة للجنود العاديين والحجاج هو أنه بالقرب من دمشق كانت توجد مقبرة هبيل وفى اتجاه آخر ولكن قريبا أيضا كان دير راهبات به أيقونة يقال إنها تشبه العذراء والطفل، رسمها القديس لوقا وهى الأولى من نوعها؛ وفى جنوب المدينة هناك مقبرة للقديس جورج، (جرجرس)؛ وفى المدينة نفسها هناك مقبرة لحنا المعمدان؛ والموقع كله هو موقع جنة عدن. ومن طين نهر بردا، الذى تقوم عليه دمشق، صنع آدم، - على أى حال، كان المسلمون يقولون باعتزاز إن هذا صحيح، وتلهف الفرنجة إلى قبول هذه المعلومات.

كانت هناك غرائب، وأخطاء، أيضا تحيط بهذه المعلموات المنقولة عبر الأجيال. إن مقبرة هبيل طولها نحو عشرين قدما وهى أضيق من أن تتسع لأى إنسان؛ ولكن حراس لبنان، وهو قبر مشابه، الذى يقال إن به ست، ابن آدم الثالث، فى حين يرقد النمرود فى ضريح بالقرب من حرمون - عبارة عن قبر طوله ثلاثون قدما، وطبقا لسفر التكوين، "كان هناك مردة فى الأرض، فى تلك الأيام" وعذراء سيدنا يا المرسومة (وهى تعنى شيئين، "سيدتنا" "ومكان صيد") كان وما زال يعتقد أنها تبكى. لقد قبل فرسان الهيكل هذا الاعتقاد، وبمزيج الإيمان والدعاية الماهرة التى تميز أيامهم الأولى، عبأوا بعض الدموع فى زجاجة وأرسلوا بها إلى أوربا.

لو صدقنا كل مكان يقول إن بها رأس حنا المعمدان، فلا بد أنه كانت له ثلاثة أو أربعة رءوس على الأقل. وبالمثل، تذهب عدة ادعاءات متنافسة تطالب بالتكريم إلى أن جنات عدن كانت موجودة؛ ولكن ربما كان الخطأ الذى يثير أكبر قدر من الشفقة هو ذلك المتعلق بالقديس جورج. إذ لا بد أن الفكرة القائلة بأن القديس الحامى لإنجلترا مدفون هنا قد أثارت وفتنت الكثيرين من الأوربيين؛ لكنه ليس مدفونا فى هذا المكان. ذلك أن جورج المدفون بالقرب من دمشق لم يكن ضابطا رومانيا، وإنما هو حمال حبشى، قد تم إعدامه بسبب دوره فى هرب القديس بولس من المدينة. وعلى الرغم من ذلك، بمعنى ما، لا تعد هذه الأخطاء والغرائب مهمة. الأمر المهم هو أن هذه الأشياء عن الأرض المقدسة بشكل عام ودمشق بشكل خاص كان يعتقد على نطاق واسع أنها حقيقية. ودون هذه المعتقدات، لما حاول أحد القيام بالحروب الصليبية، ولما كان هناك وجود لفرسان الهيكل. وفى هذا القرن العلمانى، حين ننظر إلى الوراء إلى هؤلاء الناس، من الضرورى أن نتذكر أنهم حينما رأوا القدس - أو دمشق، لم يروا مجرد أسوار وأبراج ومبانٍ؛ ولم يفكروا فقط فى احتلال الأراضى. بل رأوا أماكن بعثت أناجيلهم إلى الحياة. إذ لم تعد الأسماء المألوفة من الطفولة الأولى والتى يوقرها الناس مجرد كلمات يقولها الوالدان، أو القساوسة، وإنما هى حقائق مجسدة ذات أبعاد ثلاثة، وفتحها عمل من أعمال العبادة. والعبادة تمشى فى دمشق الآن، كما كانت تمشى فى ذلك الحين، - عبادة الله، ويهوه، والمسيح والتجارة. فهى النشاط الأساسى فى المدينة؛ وهى تستمر طوال الوقت، بشكل أو آخر، وعادة بقدر كبير من الجلبة، والكثير من الألوان. فصيحات المؤذن ترتفع خمس مرات فى اليوم، تدعو المؤمنين للصلاة - وبما أن الترتيل يأتى فى هذه الأيام من جهاز تسجيل فلا بد أن يكون مرتفعا بحق. ولا بد من ذلك، إذا كان له أن يسمع ويعلو على الأجراس التى تدق فرحًا، أو تئن فى أداء حزين؛ وفوق صخب السيرات والناقلات؛ وفوق زمجرة الجمال؛ واصتكاك الدرجات الحاد، وتوسلات الشحاذين، وصيحات التجار، وغمغمة الحوار، وضجيج المقاهى. إنه خليط كبير لمدينة كبيرة حيث الصخب والحيوية والمرح؛ وإذا كانت دمشق كذلك، تصبح شبيهة بغيرها من المدن الكبرى فى العالم، فهناك

أشياء مع ذلك، تجعلها مختلفة عن أى مدينة أخرى. هناك الشارع المسمى سوق المنصور وهو مغطى بسقف مقوس على طوله الذى لا يتعرج، وأشعة الشمس من خلال النوافذ، صانعة خطوطا من الغبار؛ - وهناك شيء لا هو بالخطأ ولا هو بالغريب، - إنه موقع تعميد القديس بطرس. وبالنسبة لمن يميلون إلى الحج التاريخى، يوجد قبر صلاح الدين، وهو عبارة عن مبنى بسيط نظيف، يحتوى على ضريح حجرى ألمانى ينتمى للقرن التاسع عشر، قبر نور الدين، وقبر بيبرس وسوف يظهرا فى هذه الحكاية فيما بعد؛ وعلى المرء أن يقر: هناك عدد كبير من القبور فى هذه المدينة.

وهناك أيضًا أماكن وأناس يتمتعون بقدر كبير من الجمال؛ فالناس فى كل مكان، راهبات، وكهنة، ومؤذنون، وباعة شربات؛ معظمهم شديدو الكرم، ومستعدون للدردشة، خاصة فى السياسة؛ ولديهم طريقة أخاذة فى تسخيف سياسة أى شخص؛ (وذاكرتهم السياسية طويلة جدا)، فهم فى نفس الوقت يدافعون بصدق عن إعجاب صادق بالأفراد الذين يصنعون ويديرون ويعانون السياسات. ولا بد أنه من أوائل أماكن الجمال المسجد الأموى الكبير، الذى كان موقعه مقدسًا على مدى ثلاثة آلاف سنة، والذى ضمت جدرانه عناصر من أضرحة ما قبل الرومانية، والرومانية والمسيحية والإغريقية والآرامية. وقد بنى فى شكله الحالى فى أوائل القرن الثامن؛ وقد أنفق فى تشييده ما يعادل سبع سنوات من دخل البلدة، وأضيء بستمائة مصباح معلقة بسلاسل من الذهب الصلب. وقد اختفت هذه وغيرها الكثير من الزينات الذهبية منذ وقت طويل، نتيجة للحرائق والمعارك - وكان من الممكن أن تضيع قبل ذلك لو أن الصليبيين فازوا. ومع ذلك، يظل مكانا بارزا للجمال البصرى، والهدوء العميق، بأعمدته الرائعة، وأرضيته القرميدية، وجدرانه المنقوشة. وهذه الأشياء غير معتادة فى الإسلام، لأنها تمثيلية، (أى تمثل أشكالاً لأشياء) إذ تصور الأنهار، والمنازل والبساتين، فى زمن رعوى ومكان رعوى مجهول. ويقول البعض إن الصور تسجل دمشق كما كانت فى وقت من الأوقات - حدائق الجنة، ومكان البراءة العذرية، وأن

هزيمة الصليبيين عام ١١٤٨ تنبع من عدم استحقاقهم لجائزة كهذه. أما بالنسبة للفرنجة، فإن الطريق الذى أدى إلى ذلك الفشل الزريع بدأ فى أنطاكيا فى ربيع ١١٤٨، حين كان لويس السابع وزوجته إلينور من أكيتان هناك. إذ كانت سمعة إلينور دائما فى مكانة منخفضة، لأن شخصيتها لم تكن منسجمة مع الفضائل التى كان الناس يقدرونها فى ذلك الوقت، ولم تكن منسجمة مع الصفات المطلوبة من ملكة. لقد كان لويس جادا تقيا، إلى حد البلادة؛ أما إلينور فكانت تتدفق بالحيوية، وخفة الروح، والذكاء والأناقة. لذا كان رجال الكنيسة والسياسيون فى بلاط زوجها يصدمون من سلوكها الغزلى؛ أما الرجال الأقل قتامة فكانوا يبتهجون بسلوكها. وكان أحد هؤلاء هو ريمون، أمير أنطاكيا، وكان عم إلينور: وكانت زوجته الطفلة كونستانس لم تتعدى العشرين، لكنهما كانا متزوجين منذ إحدى عشرة سنة، وقبل وقت قصير من وصول إلينور إلى أنطاكيا، بدا للجميع أن ريمون وابنة أخيه بينهما ما يزيد على العاطفة العادية. وشعر لويس بالإهانة لشرفه، وقاد جيشه إلى القدس بعد أن أخذ زوجته معه بالقوة.

وفى ٢٤ يونية، انعقد مجلس حرب فى المدينة المقدسة. وكان هناك الإمبراطور كونراد، ولويس، ومعلمو الهيكل، والمستشفى، وابن فولك وخليفته، بولدوين الثالث. وبشكل ما توصلوا إلى قرار بأن تكون دمشق هى هدفهم - على الرغم من أنها كانت المدينة الإسلامية الوحيدة التى لديها أقل درجة من الصداقة مع الفرنجة. وانطلق الجيش فى منتصف يولية، وهو أكبر جيش تمكن الفرنجة من جمعه، عن طريق بنياس. ووصلوا إلى دمشق فى ٢٤ يولية ونصبوا المعسكرات جنوب المدينة، فى منطقة تمتلئ بالحدائق والبساتين. وكانت هذه قاعدة ممتازة، وكان الهجوم فى البداية مبشرا. ذلك أنه خلال يومين، كان أهل دمشق يضعون المتاريس فى شوارعهم فى حين كان الفرنجة يواصلون ضرب أسوار المدينة. ثم فى ٢٧ يولية، نقل الفرنجة المعسكر وانتقلوا إلى الجانب الشرقى من المدينة.

من الناحية السطحية، كان السبب هو تقدم التعزيزات الإسلامية؛ لكن الجنود العاديين كان يداخلهم الشك، لأن قادتهم أخذوهم من أفضل قاعدة إلى أسوأ قاعدة. إذ كانت مكشوفة، بلا ماء، وتواجه أقوى جزء من أسوار المدينة. فما إن تحرك الفرنجة حتى وجدوا أنفسهم فى وضع الدفاع. وكانت تعزيزات المسلمين وشيكة الوصول؛ ولم يكن فى وسع الفرنجة توقع أية تعزيزات. ولم يكن فى وسعهم فعل أى شىء، بلا ماء أو طعام، ولا دفاعات طبيعية، وفى اليوم التالى أخذوا فى التقهقر.

وتبعهم الرماة المسلمون وقتلوهم، وفى هذه المرة كان السهل بالمعنى الحرفى مغطى بأجسام الخيل، والبشر، والجيف، التى كانت ملقاة تتعفن دون دفن لأشهر، وقال ابن القلايسى: إن رائحتها كانت قوية حتى أن الطيور كانت تسقط من السماء ... فحمدا لله على ذلك».

لم تكن هذه ببساطة هزيمة، بل كانت كارثة: إذ تم القضاء على الجيش العرمرم فى أيام خمسة، وزالت تماما أسطورة منعة الفرنجة. ومن الطبيعى أن الجميع بحثوا عن سبب وعن كبش فداء. بالنسبة للجنود العاديين، والمدنيين الذين بقوا فى بلادهم، (يقصد الأرض المحتلة: المترجم) لم يكن هناك أى شك فى السبب: لا بد أنها الخيانة. وكان السؤال الوحيد، إذن، من الخائن.

وكان عدد البدائل تقريبا كعدد القادة. ذلك أن لويس وكونراد قاما باللوم الشديد على جميع البارونات الفلسطينيين، كما فعل الكثيرون من الجنود، وقالوا إن البارونات كانوا يشعرون بالغيرة مما حققه الفرنسيون والألمان من نجاح فى الجزء الأول من المعركة. أما البارونات فقد أنحوا باللائمة بدورهم على الملكين، قائلين إنهما لم يفهما الموقف السياسى فى الأراضى المقدسة؛ وأن المسلمين ليسوا جميعا متشابهين بالضرورة؛ وأن الدمشقيين الأصدقاء لم يكن من الواجب مهاجمتهم على الإطلاق. وذهب آخرون بخبس إلى أن لويس كان يرغب فقط فى إثبات نفسه أمام إلينور بشن الهجوم، وأنه بعد ذلك فقد حماسه. لكن أكثر القصص شيوعا كانت تروى

أن المسلمين قدموا رشوة هائلة لواحد أو أكثر من القادة ذوى النفوذ، إما البارونات الفلسطينيين، أو فرسان الهيكل.

من الممكن أن يكون البارونات قد تلقوا الرشى؛ ليس فى وسع أحد أن يؤكد ذلك، ولا يمكن لأحد أن ينفيه. وسواء رغبنا فى قبول ذلك أم لا، يبقى من الممكن، أن فرسان الهيكل، مع علمهم بالمضامين السياسية لفقد التحالف الفرنجى الإسلامى الوحيد، قد يكونوا قد وضعوا مصلحة جماعتهم أولا، وقد يكونون متهمين بالفساد. وعلى الرغم من المثل العليا لدى فرسان الهيكل، يصبح هذا الاتهام أكثر قابلية للتصديق فى ضوء تصرفاتهم فى عسقلان، بعد ذلك بخمس سنوات فقط.

ومهما يكن من أمر، فعند هذه النقطة تدخل شخصياتان جديدتان هذه الحكاية، شخصية مسلمة، وأخرى إفرنجية - نور الدين، ابن زنكى، وخليفته؛ ورينلد دى شاتيون. كان نور الدين فى الواقع هو الابن الثانى لزنكى وعند وفاة زنكى كان الفرنجة يأملون فى أن يتقاتل الإخوان فيما بينهما. غير أنهما قسما أراضى والدهما بشكل سلمى؛ فأخذ الأخ الأكبر العراق، وأخذ نور الدين سوريا. وانطلق من هناك كى يفوق والده: وكان جيشه هو الذى دعم دمشق، وكان هو التهديد الذى استخدمه الدمشقيون للحفاظ على معاهدتهم الواهية مع الفرنجة.

وكان رينولد دى شاتيون أيضا الابن الأصغر لكنه أقل حظا فى أسرته. ذلك أنه جاء من شاتيون - سير - لوان، على بعد مائة ميل جنوب باريس، وكان عضوا من أعضاء طبقة النبلاء الصغرى. وهى قصة طبق الأصل من قصص الكثيرين من الصليبيين: إذ ليس فى وسعه توقع أى ميراث ذى قيمة فى فرنسا، فغادرها ربما مع جيش لويس السابع كى يبحث عن حظه فى الأراضى المقدسة.

ولكن باستثناء ظروف مغادرته، لم يكن يشبه غالبية الصليبيين من أى ناحية. إذ لم يلعب الدافع الدينى أى دور فى تركيبه؛ فهو ببساطة ووضوح مجرد شخص يتصيد حظه، وفاز فى الأراضى المقدسة، وخسر عدة ثروات، كل ذلك بالسهولة التى يكسب ويخسر بها قاطع الطرق المطبوع على ذلك.

في التاريخ المسجل يظهر أول ما يظهر في أنطاكيا، أنطاكيا سيئة السمعة في عام ١١٥١، في ذلك الوقت، كانت قد مضت سنتان على وفاة الأمير ريمون الأنطاكي، إذ قتل في معركة ضد نور الدين، الذي أرسل بجمجمة الأمير في صندوق من الفضة، إلى خليفة بغداد السني. وكانت كونستانس قد أظهرت حينذاك أن بها شيئا من روح أمها أليس، وبعد أن رفضت بإصرار كل من تقدموا لطلب يدها، حكمت أنطاكيا وحدها. ومن المحتمل أنها كانت قد التقت برينولد قبل ذلك، ومن الواضح أن رينولد كان في مقدوره أن يكون ساحر الشخصية حين يلائمه ذلك، لأن كونستانس قررت أن تتزوجه في أوائل عام ١١٥٣، على الرغم من أنه لم يزد قليلا عن أحد جنود الحظ المفلسين. وكان هذا الزواج يتطلب موافقة الملك، فانطلق رينولد على الفور للحصول عليها. وكان بولدوين منشغلا بحصار عسقلان، فالتقى هو ورينولد هناك. وكان لهما لقاء قصير، بهر أثناءه رينولد الملك بهمته. وبدا أن الخاطب من المحتمل أن يكون قادرا على الدفاع عن أنطاكيا دفاعا جيدا، وكان الملك منشغلا؛ فأعطى موافقته، وأسرع رينولد عائدا إلى أنطاكيا، وتم الزواج على الفور.

ثم بدأ رينولد يكشف عن شخصيته الحقيقية. وكان هو بالفعل موضع نقد لأن الأنطاكيين صدموا من اختيار كونستانس زوجًا وضيع المكانة. إذ كتب ويليام الصوري: "كثير من الناس تعجبوا من هذا، وكان هناك كلام كثير في أنحاء البلاد؛ ولكن على الرغم من هذا كله، كان رينولد أمير أنطاكيا." وكامير، لم يكن ليتحمل أي نقد من أولئك الذين كان يعتقد أنهم أدنى منه، وحين اكتشف أن بطريارك المدينة العجوز من أشد منتقديه اختطف ذلك الرجل المسن، وجرده من ملابسه، وضربه ثم قيده ولطخ رأسه بالعسل وتركه يومًا بأكمله على سطح ساخن، يعذبه الذباب والدبابير. ومع ذلك، شأنه شأن كل شخص مستأسد كان يولي اهتمامه لمن هم أعلى منه قدرا، وحين تلقى توبيخا شديدا من بولدوين، تصرف بالطريقة التي تناسب شخصيته: إذ تم الإفراج عن البطريارك واقتيد مكرما على ظهر حصان حول أنطاكيا، وكان رينولد بنفسه يقود الحصان وهو يسير على قدميه.

غير أن هذا الرجل الذى كان يخلو من أى جاذبية من نواح عدة، كان محاربا جسورا؛ وبهذا الوصف، حقق الكثير من الشعبية بين الفرنجة. غير أنه لم يكن يحترم أحدا سوى فرسان الهيكل، ولم يكن مما يشرفهم أن يتقبلوا ذلك. وفيما بعد، ذهبوا إلى حد عقد تحالف رسمي معه، - وهو تحالف كانت نتيجته النهائية مناقضة لكل ما كان الهيكل يرمز إليه: تفكك وهزيمة بلاد ما وراء البحار. غير أن ذلك كان لا يزال بعيدا، وفى عام ١١٥٣ لم يكن لأحد أن يستشعره أو يتنبأ بوقوعه. وبينما كان رينولد يعذب البطريارك المسن، كان حصار عسقلان فى أوجه، وكان فرسان الهيكل فى الطليعة.

كان المسلمون يطلقون على عسقلان "عذراء الصحراء" لأنها هى وحدها التى ظلت دون أن تنتهك منذ أيام الحرب الصليبية الأولى. وفى بداية العام قرر بولدوين أن يغير ذلك، واقترح المشروع على فرسان القدس. وتم قبوله على الفور وأقسم القادة على الصليب الحقيقى ألا يستسلموا حتى يتحقق الفتح. وكان أمامهم انتظار طويل.

كانت المدينة تمتد على نصف دائرة، جانبها المستقيم إلى البحر وقوسها محصن تحصينا قويا. فتمكن المسيحيون من حصارها، بما فى ذلك الجانب المتجه نحو البحر، لكن المدينة كان بها الكثير من المؤن، وكانت الأسوار قوية جدا حتى أن الحصار كان قليل الأثر لعدة أشهر. وفى عيد القيامة دعم الحجاج المسيحيين، لكن هذا حدث به توازن حين تمكن أسطول مصرى من اختراق الحصار البحرى ومعه المؤن. فشعر المسيحيون الذين يقومون بالحصار بارتباك شديد، واتفقوا على القيام بجهد إضافى. حتى ذلك الوقت كانت أسلحتهم عبارة عن مجانيق، وقواذف ومعدات تحطم الأبواب الخشبية. فكانت المجانيق تلقى بالصخور؛ والقواذف تقذف برماح ضخمة، طولها سبع أقدام فى رأسها أطراف حديدية طولها أربع بوصات. فى ذلك الوقت تقرر بناء برج للحصار يمكن أن يعلو على الأسوار؛ - لم تكن هذه الفكرة أصلية على وجه الدقة، لكنها كثيرا ما تكون فعالة. وكان البناء ضخمًا عند الانتهاء منه، وشديد الإبهار -

أو شديد الرهبة، هذا يتوقف على وجهة نظر كل شخص. وعلقت حوله أغصان الصفصاف والحبال لحمايته من الصخور - لأن المسلمين أيضًا كانوا يملكون المجانيق - وجلود جديدة كي تمتص أثر الرماح والسهام. وأمامه كان هناك "سلحفاء" نفق متحرك من العارضات والألواح الخشبية. وتحت حماية هذا، كان الرجال يعدون الطريق من أجل البرج العظيم. ووضعت منصة من الألواح المتحركة تحت عجلات البرج، وتحركت الآلة ببطء وهدوء كمارد رهيب، إلى أن وقفت أمام الأسوار. فالقى المسلمون بكل ما أمكنهم الحصول عليه فى اتجاهها؛ ورد الفرنجة بكل ما استطاعوا الرد به؛ فلم يؤثر أى فريق فى الفريق الآخر.

ثم، فجأة، وبطريقة غير متوقعة نجح الهجوم. كان ذلك فى أواخر يوليه، ليلا. وأرسل المسلمون جماعة صغيرة تحت جنح الظلام كى يحرقوا البرج. فاشتعل بسرعة، جاعلا الليل يضيء باللهب والشرر؛ ولم يتمكن المسيحيون من إطفاء الحريق. ولكن بينما كانوا يشاهدونه وهو يحترق بيأس، تغيرت الرياح - وهب اللهب فى اتجاه أسوار المدينة، التى أضعفتها أصلا معدات تحطيم الخشب، وعند السحر انهار جزء من الجدار. وكان فرسان الهيكل مسئولين عن هذا القسم، وقاد المعلم، بيرنار دى تمبلى هجوما من خلال ذلك الشرخ. وصحبه تسع وثلاثون من الإخوة. فى البداية افترض العسقلانيون أن هذه هى مجرد طليعة بقية الجيش، وكانوا على وشك الاستسلام؛ ولكن حين لم يظهر المزيد من المسيحيين، أحاطوا بفرسان الهيكل، وذبحوهم عن بكرة أبيهم. وتم سد الشق بسرعة؛ وفى اليوم التالى، عَلَقَتْ أربعون من صلبان فرسان الهيكل من تحصينات المسلمين.

ومع ذلك، كان الحصار لينجح بمرور الوقت. ذلك أن ثلاثة أسابيع أخرى جعلت المسلمين يقتربون من حافة المجاعة، إذ لم تمر أية سفن إمداد؛ واستسلمت المدينة فى ١٩ أغسطس. وسمح للسكان بالمرور الآمن إلى مصر، بمنقولاتهم؛ وحين وصلوا إلى هناك، قتل معظمهم المسلمون البدو وسرقوهم.

وفى عسقلان تحولت المساجد إلى كنائس؛ واستقر المسيحيون فى المدينة؛ وانتشر الكلام عن فرسان الهيكل. وعرف سبب عدم وجود دعم لتسع وثلاثين من الإخوة الميتين، ومعهم المعلم، ولم يجادل فيه من تبقى من الفرسان: لقد أمر بيرنار دى تمبلى مجموعة من فرسان الهيكل بحراسة الشق من الخارج، ويمنعوا المسيحيين الآخرين من الدخول. أما السبب الذى جعله يفعل ذلك، فهذه مسألة أخرى؛ إذ لم يستطع الناجون أو لم يشاءوا شرح ذلك، أما هو فلم يمكن سؤاله باعتباره قد مات. فقال خيار الناس إن فرسان الهيكل كانوا يرغبون فى أن ينالوا شرف فتح المدينة؛ وقال آخرون كثيرون إنهم طمعوا فى أن ينالوا نصيب القادم الأول من الغنيمة. وأيا كان السبب، كان من الممكن فتح المدينة قبل ذلك بثلاثة أسابيع لو أن فرسان الهيكل تصرفوا بقدر أقل من الاندفاع.

واتخذت قصص الفساد فى الهزيمة عند دمشق انحناءً فى النهاية، يعبر تعبيراً صادقًا عن الفكاهة المتهكمة لدى الجنود الذين يشعرون أن قادتهم خانوهم: إذ قيل إن النقود التى يقال إن المسلمين دفعوها اتضح أن جميعها مقلدة زائفة. ولم تخفف مثل هذه النكتة من الشعور فى عسقلان: إذ اعتبر دى تمبلى وإخوته أنانيين وحمقى عديمى الشرف.

وانتهى شهر العسل بين فرسان الهيكل وبقية المسيحيين منذ وقت طويل. لقد توصل إلى هذه النقطة بعض الناس منذ وقت طويل قبل غيرهم؛ أما الآن فإن جميع من هم خارج الجماعة قاموا بتقييمها فى الممارسة، وأصبح كل ما فعله الإخوة مفتوحا على رأيين. واستمرت المكاسب والخسائر مثل ما يحدث فى لعبة الشطرنج. ذلك أن أمير دمشق المسلم تأثر من فتح عسقلان، وبدأ يدفع لبولدوين إتاوة سنوية. ولكن بالنسبة لأهل دمشق العاديين، فإن التحالف شىء، ودفع الإتاوة شىء آخر، وفى عام ١١٥٤ انفتحت أبواب دمشق أمام نور الدين. فحقق حلم أبيه حتى دون أن يضطر إلى القتال، وفاز بلؤلؤة الصحراء.

فى نفس الوقت كان هناك صراع على السلطة يدور بين المسلمين فى القاهرة: إذ قتل الخليفة أحد رجال البلاط يدعى [نصر] غير أنه فشل فى الاستيلاء على العرش وفر إلى صحراء سيناء. وكان يهدف إلى القيام بدورة كبيرة جنوب أراضى الفرنجة نحو اللجوء فى دمشق؛ ولكن فى أثناء مروره بجانب مونريال على بعد سبعين ميلاً جنوب البحر الميت، وقع فى كمين لفرسان الهيكل وأسروه. فعبر على الفور عن رغبة قوية فى أن يصبح مسيحيا، فأخذوا يعلمونه العقيدة لمدة أربعة أيام؛ ثم وصلت سفارة من أخوات الخليفة الميت فى القاهرة، تعرض فدية ستين ألف دينار للقاتل. فسلمه فرسان الهيكل على الفور وأخذوا المال؛ وأعيد مقيدا بالسلاسل، إلى القاهرة، حيث مثلت به أرامل الخليفة الأربع قبل شنقه.

وتلقف منتقدو فرسان الهيكل هذه الحادثة. لقد أرسل بنادم كافر ونفس أخرى من نفوس الرب، إلى حتفه لمجرد المال. وعقدت المقارنات بين فرسان الهيكل ويهوذا الأسخريوطى. ولكن كالمعتاد، كان هناك تفسير آخر: لم يكن قبول نصر للمسيحية أكثر من طريقة لإنقاذ حياته، والمال أكثر فائدة للقتال من أجل مملكة الله على الأرض؛ من إضافة معتنق جديد أمره ملتبس.

وعلى وجه التقريب تم تطبيق الحجة نفسها على مناسبة أخرى فى العام التالى فقط. إذ كان رينولد دى شاتيون يجرب نفسه مرة أخرى فى أنطاكيا. إذ تم التغاضى عن نقطة فنية فى زواج كونستانس ورينولد: وهى أن أنطاكيا تدين بالولاء إلى الإمبراطور البيزنطى. وكان على كونستانس أن تطلب الإذن من الإمبراطور كما طلبت من الملك. وهى لم تفعل ذلك، فشعر بالإهانة. كما كان قلقا من أن الأمير الجديد قد يحاول تحرير أنطاكيا من بيزنطة، ولكى يستبق ذلك وضع عرضًا غير عادى. يمكن الاعتراف برينولد، على الرغم من زواجه غير السليم، أميرا على أنطاكيا إذا وافق على القتال من أجل الإمبراطور ضد الأرمن. وإذا ما نجح فى قتاله، فإن الإمبراطور يعد بمكافأة مالية أيضًا.

ورينولد، بالطبع، قبل الصفقة، – مال، وقتال، ودعم إمبراطورى؛ لم يكن فى وسعه مقاومة ذلك. وكسب معاركه ضد الأرمن، وطالب بما وعد به من مال. غير أن المال لم يكن جاهزا؛ ذلك أن الإمبراطور كان يريد المزيد من الانتصارات أولا. لكن رينولد كان فى استطاعته لعب هذه اللعبة أيضًا، فقدم البلاد التى فتحها لفرسان الهيكل. وقبل الإخوة العرض، واحتلوا الإسكندرونا وأعادوا بناء القلعتين التوأمين جاستون، وبغراس، اللتان أطلتا على بوابات سوريا. ولم تمنعهم سمعة رينولد.

غير أنه لا بد من توازن فى الصورة: وكان من أسهل ما يكون فى تلك الفترة من الزمان، لصورة مشوهة أن تتكون. إذ يجب تذكر أن الأحداث التى سبق ذكرها، كانت أحداثا استثنائية، ومعالم تمثل فى عقول الناس فى مواجهة واجبات الجماعة العادية المألوفة المتمثلة فى القيام بدور الشرطة فى الطرق الكبيرة وحماية الحجاج. كما كانت هناك معالم وأحداث مهمة، من نوع أكثر شرفا؛ وإليك مثالين، من أعمال فى أنطاكيا والقدس. لقد وصف أندرى دى مونبار الحدث الأول فى رسالة مؤثرة من الضراعة إلى المعلم فى ذلك الوقت [إفرار] بعد أن عاد إلى فرنسا، ولكن قبل تقاعده عن الجماعة.

"منذ أن حرمنا من وجودك الغالى، رزئنا بأن خسرنا، فى معركة، أمير أنطاكيا (ريمون، الذى وضعت جمجمته فى الفضة)، وجميع نبلائه. وثمة حادثة أخرى تلت هذه الحادثة الأولى: لقد غزا البرثيون مقاطعة أنطاكيا، ولما لم يجرؤ أحد على مقاومتهم حصنوا المكان ووضعوا حامية. ... وما إن سمعنا بالكارثة، اجتمعنا مع ملك القدس، وحزمنا أمرنا بالذهاب لمساعدة المقاطعة المنكوبة. ولم نتمكن من أعداد أكثر من مائة وعشرين فارسا وألف من الخدم، والمرتزقة، ولكى نزود المرتزقة بالمعدات، اضطررنا إلى اقتراض سبعة آلاف من البيسانت فى عكا وألف فى القدس. ... وما إن وصلنا إلى جوار أنطاكيا حتى حاصرنا نور الدين من جانب والبرثيين من الجانب الآخر وحصرونا داخل أسوار المدينة.

"لم يكن وجودك ضروريا إلى هذا الحد بالنسبة لإخوتك كما هو الآن؛ ومهما تفعل بنا العناية الإلهية، لا تتردد فى البدء فى رحلة العودة. ونحن نعلم أن الله يمكنه بكل سهولة أن ينقذنا من أعدائنا كما يمكنه تحويل الوثنى إلى متعبد حقيقى، ونحن نضع فيه كل ثقتنا. ولكن لا يدهشنك العدد القليل من الإخوة الذى نرسله إليك؛ فنحن بناء على أمرك نود أن نجمع ونحتفظ هنا بجميع رجالنا الموجودين على جانبكم من البحر؛ لأن غالبية من جلبناهم لمساعدة أنطاكيا قد ماتوا ... أن وضعنا من الصعوبة حتى إننا لا نملك الألوان كى نرسمه، أو الكلمات للتعبير عنه".

لم يكن هذا النداء البائس صيحة جبان؛ ذلك أن مونبار وأخوته كانوا قد بذلوا ما يستطيعون وكتب وهو يتوقع بكل أمل فى أن دى بار، كمعلم سوف يفى بما أقسم عليه. كونه لم يفعل ذلك، وترك الجماعة تنضم إلى السيسترسيانيين (جماعة تأملية لاهوتية) فى كليرفو، يبين المحنة التى تقدمها دراسة فرسان الهيكل. إذ لا بد أن معاصريهم واجهوا نفس المشكلة، ولا يملك أحد أن يندد بفرسان الهيكل أو يثنى عليهم بالكامل.

فإذا كانوا بوصفهم أفراداً أو جماعة قصروا فى الوفاء بمثلهم وما أقسموه من إيمان، فإنهم كانوا عادة أكثر إخلاصًا لهدفهم المتحد من أى مجموعة من العسكريين. لقد تحدث عنهم القديس بيرنار باعتبارهم مزدوجى التسليح؛ ويمكن النظر إليهم بالمثل باعتبارهم مزدوجى العبء، إذ يحاولون إلى الأبد عمل توازن بين أخلاق الدير مع السياسة العملية البرجماتية. وليس مما يبعث على الدهشة أنهم لم يكونوا دائما على مستوى مثلهم؛ بل المثير للدهشة هو أنهم كثيرا بل عامة ما اقتربوا من تلك المثل.

أما الحدث فى القدس، وهو صورة أخرى للشرف، فوقع فى عام ١١٥٢، حين كان تمبلى معلما. إذ كان هو والملك بولدوين كل منهما بقواته يقومان بحملة ناجحة إلى حد ما ضد نور الدين، كان دى تمبلى فى نبلس، وبولدوين فى طربلس. وبذلك كانت القدس دون قائديها الرئيسيين. وحين علم المسلمون ذلك، تقدموا بسرعة

نحو المدينة، ونصبوا المعسكر عند جبل الزيتون. وكانوا ينوون شن هجوم مباغت، ولكن أمكن رؤيتهم؛ وتنبه فرسان الهيكل الذين بقوا فى القدس، فهاجموا المسلمين هم ومعهم الفرسان الإسبتاليون، ودهماء من المدنيين تحت جنح الظلام. وتحول اتجاه المفاجأة كلية؛ وتنبه جيش المسلمين من غفلته، وانكسر، وفر، وتشتت كى يقع فى الفخ على ضفاف الأردن. وتقول الأنباء إن خمسة آلاف ماتوا، سواء قتلوا أو غرقوا فى النهر.

وبعد ذلك الهجوم، الذى تم صده وتحويله إلى انتصار قرر بولدوين أن يحاول الهجوم على عسقلان. وهناك دى تمبلى لقى حتفه، وانتخب أندرى دى مونبار، عم القديس بيرنار معلما للهيكل - وهو أعظم شرف حققه فى حياته، وأثقل المسئوليات. لكن لم يكن لديه ما يكفى من الوقت كى يستمتع بهذا التكريم أو يتحمل المسئولية: إذ مات بعد ذلك بأقل من ثلاث سنوات، فى ١٧ يناير ١١٥٦، آخر المجموعة الأصلية المكونة من ثمانية أو تسعة.

وكان المعلم السادس للهيكل هو بيرتراند دى بلانكفورت، وهو عضو من عائلة بلانكفورت من بوردو. وكان معلما لمدة ثلاث عشرة سنة، غير أنه لم يكن قادرا على إدارة الجماعة لمدة عامين من هذه المدة - ذلك أنه فى ١٩ يونيه ١١٥٧، أسر فى المعركة، واقتيد مقيدا بالسلاسل إلى دمشق. حدث ذلك خارج بنياس. إذ كان نور الدين، وهو الآن حاكم دمشق الذى يثق فى نفسه قد خرج مرة أخرى؛ وحوصرت بنياس. وهب لنجدتها بولدوين وبلانكفورت ولكن بسرعة أكثر مما ينبغى، لأنهما لم يتوفر لديهما الوقت كى يقوما قوة المسلمين. وقال ابن القلانيسى.

"حين اقترب الفرنجة خرج رجالنا عليهم من الخلف كالأسود حين يهجمون على فريستهم، وأعملوا فيهم الذبح، وتلا ذلك الأسر والنهب. وفر قليل من الفرنجة. وفى الاثنين التالى، وصل الأسرى ورءوس من قتلوا إلى دمشق.... وكان من بين الأسرى بلانكفورت وسبع وثمانون من إخوته - وأعفى هو على الأقل من النهاية الشنيعة". كان

الأسرى من المسلمين نصيبهم قطع الرءوس أو سلخها. وقتل ما يقرب من ثلاثمائة من فرسان الهيكل الآخرين فى المعركة.

"وتم عرض الأسرى ومعداتهم ونخبة من الخيل، حول المدينة، وأحدث المنظر فرحا عظيما... وخرج جمع كبير من المواطنين، شيبا وشبابا، ونساء وأطفالا كى يشاهدوا النصر المجيد الذى منحه الله" وكان من بين مبادئ فرسان الهيكل عدم التقهقر ما لم يكن من أمامهم ما يزيد على ثلاثة إلى واحد. مات ثلاثمائة وتم أسر ثمان وثمانين - كادت الجماعة أن تتحطم. ولكن فى العام التالى أنقذ من نجوا شرف جماعتهم فيما كان بالفعل مباراة عودة؛ وفى هذه المرة هزم الثلاثون المتبقون قوة من مائتين من المسلمين.

وكان رينولد دى شاتيون، قاطع الطريق فى أنطاكيا هو أيضا مشغولا، ولكن فى مهام أنانية بحتة. فبأموال سلبها من البطريارك المعذب اغتصب جزيرة قبرص. لا توجد كلمة أخرى تعبر عما فعله: إذ لم يكن لتصرفه من دافع سوى الطمع، واشتهاء ما هو دون دفاع وجميل. إذ إن الجزيرة كانت مسالمة وتعيش فى رفاهية، وتنعم بحكم ابن أخ الإمبراطور البيزنطى - وهى قرابة كانت لتكفى كى تثير روح الانتقام عند رينولد. فدمرت المحاصيل، وسرقت الماشية؛ وقتل الشيوخ والأطفال؛ ونهبت الكنائس والمحال والمنازل وأحرقت؛ واختطفت النساء إلى أنطاكيا، وسجن الرجال من أجل تقاضى الفدية فى المستقبل، وتم إرسال القساوسة إلى بيزنطة - بعد أن جدعت أنف كل واحد منهم.

وقد ساند جميع تصرفات إيمانه الأكيد بأن أحدا لن يفعل شيئا إزاءها. إذ حاول بولدوين فى وقت متأخر جدا أن يحذر أهل قبرص من الهجوم؛ وبعد أن انتهى لم يكن فى وسعه فعل الكثير، لأن قيمة رينولد كانت أكبر مما ينبغى. ولكن جزئيا كى يبين رأيه فى هذا الأمر، تزوج من ابنة أخ الإمبراطور؛ وقلل رينولد من شأن الإمبراطور. وكما فعل أبو أمانيويل، جون زينوس فى عام ١١٣٨، دخل أمانيول أنطاكيا عام ١١٥٩، وأذل رينولد إذلالا تامًا. ذلك أن الجيش الإمبراطورى كان كبيرا جدا، حتى أن

رينولد لم يستطع المقاومة. واقتيد حافي القدمين إلى خيمة الإمبراطور؛ وجثا أمامها في التراب، وقال ويليام الصوري "وأخذ يبكي ويصيح طويلا حتى اشمأز الجميع". يقال إن التماسيح تفعل الشيء نفسه. وكان في وسع أمانيويل كإمبراطور خلع رينولد. والسبب الرئيسي الذي منعه من فعل ذلك هو أن الأمر كان بالغ التعقيد. ذلك أن أنطاكيا كدولة تابعة خاضعة كانت تضيف مكانة معينة لإمبراطوريته؛ وكمسئولية مباشرة، كان من الممكن أن تستنفذ ماله ورجاله. وكان هو سياسيًا حتى النخاع، ودائما على استعداد لموازنة الحلفاء مع الأعداء إذا كان هذا يساعد على تحقيق هدفه؛ لذا، فبعد قبول احترامات رينولد، عقد هدنة – مع نور الدين.

استشاط الفرنجة في الأراضي المقدسة غضبا؛ لكن الهدنة كان لها تبعة طيبة بالنسبة لهم، إذ تم فك أسر ستة آلاف من الأسرى المسيحيين من سجون المسلمين، بما فيهم بيرتراند دي بلانكفورت. وإذا لم يتعلم أحد من الخمسة آلاف وتسعمائة وتسعة وتسعين من الأسرى الآخرين شيئا من المسلمين، في زمن الأسر، فإن بيرتراند قد تعلم، وسرعان ما استخدم ما تعلمه.

أما رينولد دي شاتيون، الذي لم يشعر بالندم قط، فاستمر في أعمال التخريب والنهب حيثما استطاع؛ غير أن قيمته كرصيد تضاءلت طبقا لذلك، لذا ففي عام ١١٦٠ دخل في إغارات كثيرة لم يتقدم أحد لمساعدته. فلما تضخم من فرط الثقة بالذات، هاجم أخا نور الدين، فأحيط به، وأسر وسجن، – ليس لمدة عامين، كما حدث مع بلانكفورت، وإنما لمدة خمس عشرة سنة. وكان أحد آخر أعماله قبل ذلك، التأكيد على بيع ممتلكات لفرسان الهيكل؛ لكنهم، شأنهم شأن غيرهم سعدوا برؤيته يرحل.

بالنسبة للفرسان المقدسين، كان السلام بعيد المنال كما كان دائما، ولا يمكن تحقيقه إلا بحد السيف. وكانت الحرب دائما مصاحبة لهم، وكانت الحياة البسيطة على الأرض محظورة عليهم بسبب ما يتسمون به من مزيج السياسة والعقيدة. ولم يكن السبب فقط عدوهم المباشر، المسلمون؛ بل أن الأحداث في أوربا البعيدة كانت لا تزال

تؤثر فيهم تأثيرًا عميقًا. ففى عام ١١٥٢ تم تتويج فريدريك باربروسا إمبراطورا على الألمان، والانشقاق البابوى عاود الظهور من جديد. ودعم فريدريك مرشحا يسمى أوكتافيان، أما فرسان الهيكل فرشحوا آخر يسمى إليكساندر. وفاز إليكساندر وفى عام ١١٦٢ أعاد إصدار وثيقة الهبة العليا وقوى من ما بها من امتيازات غير عادية، إلى حد ضرب ضريبة على الكرسى المقدس والكنيسة بأكملها دعما للجماعة. غير أن ينابيع أوربا كانت آخذة فى الجفاف؛ ومات الكثير من الفرسان فى الأراضى المقدسة، وأخذ عدد المجندين يقل. وكان الاستشهاد يفقد جاذبيته. ولم تعد الجماعتان بقادرتين على الأمل فيما يكفى من المساعدة لكل منهما. وأحدثت المنافسات أثرها البالغ فى كل اتجاه: بين البابا وباربروسا، وفرسان الهيكل والإسبتاليين، والبطريارك والملك، وكنيسة الشرق والغرب. بل إن الجماعتين العسكريتين التقيتا فى معارك مفتوحة، كل منها تحرس ممتلكاتها ومكانتها بكل حمية.

ومع ذلك، كان هناك جانب أكثر خفة؛ إذ كان فرسان الهيكل والإسبتاليون موحدين فى مقتهم لبطريارك القدس، وبلغ الاثنان حدا كوميديا لإظهار هذه الكراهية. ورأى ويليام الصورى أن سلوكهما يثير الصدمة، ولكن حتى هو لم يتمكن من إزالة هذا العبث. ويصف كيف بنى الإسبتاليون أبراجا فى مواجهة كنيسة الضريح المقدس، أبراجا "أعلى وأكثر عظمة من أبراج الكنيسة التى قدستها دماء سيدنا ومخلصنا". وتحتوى على أجراس مرتفعة جدا.

"حين كان البطريارك يرغب فى الحديث إلى الناس ويصعد المنبر كان الإخوة على الفور يدقون أجراسهم بنشاط كبير ولمدة طويلة حتى أن البطريارك تعوزه القوة كى يرفع صوته بالقدر الكافى لذا على الرغم من جميع جهوده، لم يكن الناس يستطيعون سماعه". وبينما كان البطريارك يحاول الوعظ، والأجراس تدق من حوله، كان هناك طرق مستمر على الباب أيضًا لأن فرسان الهيكل كانوا يستخدمونه للتدريب على الرماية.

مـثل هذه اللحظات كـانت مطلوبة من آن لآخـر لكسـر إيقـا ع الصـرا ع الرهيب والتوتر. لأن فـرسـان الهيكل كانوا بشريين، على الرغم من مثلهم التى تفوق البشر، وتبين القصـة نقصاً بشرياً آخر: ألا وهو التكبر، الذى أصبح بدرجات غير محسوسة جزءاً من طريقتهم فى الحياة، والذى أصبح فجأة باديا للجميع عام ١١٦٨، لقد كانت زوجـة الملك بولدوين، تيـودورا ابنة أخ الإمـبـراطور البيزنطى تبلغ الثـالثـة عـشـرة من عمرها فقط حين تزوجت. وفى عام ١١٦٢ حين كان عمرها ست عشرة سنة، أصبحت أرملة، لأن بولدوين الثالث مات فى ١٠ فبراير، قتلته العلاجات التى قدمها له طبيبه. ولم ينجب الزوج والزوجـة أطفـالا، وانتقل عرش القدس إلى الأخ الأصـغـر لبـولدوين، أماليك. حينئذ اعترف الفرنجة والمسلمون على حد سواء بأن مصر هى مفتاح السلطة فى الأراضى المقدسة: ومن شأن امتلاك الفرنجة لها شق قوة المسلمين الجغرافية إلى الأبد، ومن شأن توحدها مع خليفة بغداد السنى أن يحيط بالفرنجة بشكل قاتل. ولم يكن أمـالريك بالشخص الجبان؛ وفى ١١٦٣ و ١١٦٧ قام بشن هجمات على مـصـر، واندحر هذان الهجومان. أما الهجوم الثانى فقد حسم بمساعدة مفيدة للجانبين، وكان من الممكن أن تستقر الأمور لبضعة سنوات على الأقل. لكن إغراء مصر، وأرض النيل الخصبة، وما بالبلاد من موارد طبيعية، وأهمية مصر الاستراتيجية، كل هذه الأشياء كانت أكبر من أن تقاوم. وفى عام ١١٦٨ اقترح أماليك القيام بهجوم ثالث؛ ورفض فرسان الهيكل تقديم دعمهم.

الفصل السادس

المسلم العربى المثالى

مصر والأراضى المقدسة، ١١٦٩-١١٨٧

سأجعل صبيانا رؤساء لهم، وأطفالا يتسلطون عليهم

أشعياء، الإصحاح الثالث، الآية ٤.

لقد كان غزو أماريك لمصر فى عام ١١٦٨ يتناقض تناقضًا مباشرًا مع المعاهدة التى عقدها فى العام السابق، وحين رفض فرسان الهيكل مصاحبته، استفاد منتقدوهم وأعداؤهم فائدة كبيرة من ذلك. وقال البعض إنهم يشعرون بالغيرة لأن المشروع منشأه معلم الإسبتاليين. واستشاط آخرون غضبًا، من أن الجماعة، التى أسست للدفاع عن الأراضى المقدسة لا يعينون ملكها، وشكوا من أن فرسان الهيكل فى استقلالهم إنما يسقطون فريسة للتكبر. وأجاب دى بلانكفورت، المعلم بأنه هو وإخوته - والملك - ملتزمون بالمعاهدة. وجاء الرد القوى بأن معاهدة مع الكفار ليست ملزمة؛ ورد الفرسان باقتباس القديس يرميا الذى قال، "لا يهم لمن، بل بمن نقسم".

خيانة هى أم تصرف شريف: تتوقف الإجابة على وجهة نظر الشخص. فتوماس فولر، وهو مؤرخ إنجليزى حين كان يكتب فى القرن السابع عشر، وصف هذا الأمر وقال، "حين يكون تاج هو جائزة اللعبة، لا يجب أن نتوقع من اللاعبين أن يلعبوا بشرف". ولكن ويليام الصورى، وهو عمومًا أحد أشد منتقدى فرسان الهيكل، أقر

بأنهم تصرفوا بشرف. فمن المؤكد أن أماليك كان غادرا، ولم يستفد أحد من خيانته سوى المسلمين. إذ دحر الهجوم الإفرنجي، عن طريق قوات مشتركة مصرية وسورية، فنصب الخليفة المصرى المعروف بالرشيق كبير الضباط السوريين وزيرا له. وتوفى الوزير الجديد بعد ذلك بعامين، وحل محله ابن أخيه، وهو شاب مسلم مغمور، يجعله إحساسه بالشرف والدين المسيحيين يشعر بالخجل. اسم هذا الشاب هو صلاح الدين.

مع مقدم عام ١١٦٩، لم يعد فتح المسيحيين للقدس، الذى تم منذ سبعين سنة، سببًا لبهجة المسيحيين، بل كان مجرد حقيقة تاريخية. ذلك أن سبعين سنة؛ وثلاثة أجيال؛ تعد وقتًا كافيًا جدا لإخماد نشوة تلك الأيام الأولى وتحويلها إلى شيء أكثر من مجرد ذكرى خاملة. إذ إن كل من اشتركوا فى المعارك والمغامرات فى بداية القرن كانوا قد شبعوا موتا. وبالنسبة للناس فى أوربا كانت الأراضى المقدسة مسيحية وهذا هو كل ما فى الأمر. إذ كانت كذلك منذ زمن أجدادهم، ومن المحتمل أن تظل كذلك؛ فهى فى نهاية الأمر، مدينة الرب، وهم عبدة الله الوحيدون الحقيقيون. بل إن الصدمة التى حدثت حين سقطت أديسا تآكلت - جزئيا لأن الناس لم يكونوا يريدون التحدث عن الحرب الصليبية الثانية التى تمت بسوء تدبير وعيوب فى التصرف؛ وجزئيا لأنهم تقبلوا الأمر الواقع، ما دامت المدينة المقدسة نفسها آمنة؛ ولكن فى الأغلب لأن الأوربيين، المنشغلين بمشاكلهم، كانت هذه كلها أمورا بعيدة جداً عنهم. وبالنسبة للكثيرين من الفرنجة فى الأراضى المقدسة أيضًا، فقد الحلم القديم بريقه. فالقدس الذهبية قد صنعت من حجارة وطوب ووحل مثلها مثل أى مدينة أخرى. من المؤكد أنها مقدسة، وسوف يدافعون عنها من أجل ذلك - لكن ما هو أهم من ذلك، أنها وطنهم. ذلك أن آلاف المسيحيين من أصول إفرنجية ممن يعيشون فى الأراضى المقدسة لم يروا أوربا قط؛ ولن يروها أبدا؛ ولم يرغبوا فى ذلك بشكل خاص. فهى أيضًا بعيدة جدا، وباردة ومظلمة ومبتلة. ولديهم الصعوبات الخاصة بهم وهى كبيرة مثل تلك التى يواجهها أى شخص فى أوربا، لأنهم لم يستمتعوا بإثارة الفتح، وإنما يواجهون المشكلة اليومية المتعلقة بحماية منازلهم فى أرض غير صديقة.

من بعض النواحى، واجه هؤلاء الناس، أحفاد الصليبيين الأول، أشق صعوبات واجهها أى إفرنجى فى الشرق. ذلك أنهم حين كانوا يقاتلون، لم يكن ذلك من أجل مجد كنيسة روما، وليس بالضرورة من أجل مملكة الله على الأرض؛ وإنما كان قتالهم من أجل المكان الوحيد الذى عرفوه كوطن لهم.

أما القدس كحلم بعيد فيمكن بسهولة أن تكون لها هالة من القداسة. أما كمكان يعيشون فيه، من يوم إلى يوم، ومن سنة إلى سنة، فقد احتفظت بقداستها فقط لدى أولئك الملتزمين بالله، وهم رجال الدين، ورجال الجماعات العسكرية. فبالنسبة لهم أسماء الأماكن فى الأناجيل حقائق حية. وحين يقرءون فى كل يوم فى كتبهم المقدسة أسماء البلدان، والأنهار والجبال والوديان التى كانوا يرونها حولهم، كانت الحياة لها معنى، وهدف يعلو على مدار الحياة اليومية. لقد رأت عينا المسيح نفس المناظر؛ ومست قدماه نفس التربة. بالنسبة لأناس مثل هؤلاء، يمكن أن تكون الحياة فى أرض الكتاب المقدس مصدر قوة وإلهام.

وكان لدى فرسان الهيكل مصدر آخر للقوة: الاستقرار والنظام. إذ كانت حياتهم منظمة تنظيمًا صارمًا بالانضباط الثنائى الذى يتحلى به الرهبان والمحاربون؛ فكل لحظة من لحظات اليوم تحتوى على واجب يسألون عنه أمام الآخرين.

فى الصيف، يبدأ اليوم فى حياة فارس الهيكل من الرابعة صباحا. أما فى الشتاء، فيبدأ فى السادسة، ولكن عدا ذلك، فإن التنويع فى الطعام والملبس والمراسيم الكنسية طبقا للموسم، وكل يوم يسير إلى حد كبير هكذا: بدقة من جرس، يوقظ أحد الأعضاء الآخرين: لكى يرتدوا ملابسهم، عليهم فقط أن يضعوا أرديتهم البيضاء، أو البنية أو السوداء فوق الملابس الداخلية التى كانوا ينامون بها. ولا يتوقع منهم الاغتسال، ولا يتناولون طعام الإفطار. ويذهبون مباشرة من عنابرهم إلى الكنيسة الخاصة لأداء الصلوات الصباحية وهى صلاة السادسة والتاسعة وصلاة منتصف الصباح ومنتصف النهار - كلها فى نفس الوقت معا. وهكذا يتم تركيز الواجبات الدينية معا؛ فهم باعتبارهم رهبانًا، لا يمكنهم إهمال الصلوات، ولكن باعتبار أن

عليهم واجب العناية بأجسادهم بالإضافة إلى أرواحهم لا يمكن أن يكونوا دائما فى الكنيسة. لذا فهم بعد القداس، يتفرقون للقيام بمهامهم المختلفة؛ إذ إن مهمة الفارس هى العناية بجياده وسلاحه ودروعه لإصلاح أى خطأ، ثم يستمرون فى تدريبهم المستمر، مستخدمين أسلحتهم المعروفة - الرماح ذات الرءوس الحديدية، والسيف والخنجر والدرع، والدبوس. أول وجبة فى اليوم تكون فى وقت متأخر من الصباح، أو عند الظهيرة؛ ويأكل الفرسان والرقباء أولا، ويليهم الخدم من الإخوة. وأخيرا يأكل المرتزقة. وكل شخص يحضر معه إلى المائدة وعاءه، وفنجانه وملعقته وسكينه؛ ومعلم الدير وحده أو القائد هو الذى يشرب من كوب، تشريفا له، وكاحتراس لتوقى السم. وكان الفرسان يجلسون على مقاعد طويلة خشبية أمام مائدة طويلة خشبية، ولا يتكلمون فى أثناء تناول الوجبة؛ والصوت الوحيد الذى يسمع هو صوت أخ كاهن يقرأ فى الكتاب المقدس. وتطلب الطلبات بالإشارة؛ وإذا شاء الفرسان، فيمكنهم استبدال الخدم بطعامهم، ولكنهم لا يشجعون على الامتناع عن الطعام كلية. ذلك أنهم يجب أن يكونوا لائقين دائما للقتال، لأن الصيحة للقتال يمكن أن تأتى فى أية لحظة. عدا ذلك، لا يوجد سوى ظرف واحد يمكن للأخ أن يترك المائدة فيه دون إذن، ذلك الظرف هو إذا ما نزفت أنفه. إنه استثناء غريب؛ ولا بد أن ذلك كان حدثًا شائعًا حتى يكتب فى الميثاق.

هناك استثناءات عجيبة أخرى أيضًا. إذ كان يجب على الإخوة أن يكونوا فى الكنيسة بعد الظهيرة لسماع صلوات المساء، التى تجمع معا كما حدث فى الصباح. لكن البعض كان يسمح لهم بألا يحضروا: الأخ الخباز، "إذا كانت يده فى العجين" والأخ الحداد "إذا كان يقوم بتسخين حديد على النار" وأى أخ من حملة الدروع "إذا كان يعنى بحدوات الخيل، والحوافر" وأى أخ يقوم بغسل شعره. ولكن جميع الإخوة عليهم ترنم أبونا، سواء على إيقاع مطرقة أو خرير الماء المصتنع. وعلى كل أخ أن يترنم بأبانا مائة وثمان وأربعين مرة يوميا، - أربع عشرة مرة فى كل ساعة، وثمان عشرة مرة لصلوات المساء، وثلاثين مرة من أجل الأحياء وثلاثين مرة من أجل الأموات. لا بد أن العد السليم كان يشكل صعوبة.

وكان التكرار تقريبا مستمرا؛ ولكن "حتى إذا أصبح آليا، فإنه يكون بمثابة خلفية مهدئة تأملية لجميع أفكارهم وأفعالهم". وكانوا يأكلون مرة أخرى فى المساء؛ وإذا ما قدم لهم اللحم، كما كان يحدث ثلاث مرات فى الأسبوع، يكون هناك نوعان أو ثلاثة أنواع بالإضافة إلى النبيذ والماء للشرب؛ ثم ينتهى اليوم كما بدأ، بالصلاة معا ومباركة عامة.

إذن، كان هذا هو طقسهم اليومى المرسوم، ولو كان هذا هو كل شىء، لما اختلف كثيرا عن أى نظام هادئ مسالم لدير جيد التنظيم. مع هذا النشاط كله، - جميع النشاط الذى يتخيل المرء أنه يرتبط بالخيل والرجال الذين هم فى حالة دائمة من التدريب من أجل الحرب، ومع عمل جماعة بدائية إلى حد ما ومقيدة - فإن الجو الذى يميز أى دار لفرسان الهيكل كان يمكن أن يكون جوا هادئا. غير أن هذا الهدوء فى الحركة الدائبة لم يأت صدفة؛ بل كان ثمرة إدارة جيدة التنظيم واعية التحديد.

لقد كان جميع الإخوة يدربون على التصرف بلياقة ورحمة طوال الوقت مع بعضهم بعضاً، كما يليق بخدمة المسيح. فيجب تحاشى الضحك بصوت مرتفع؛ ويكون الحوار فى أضيق الحدود، ويتم بصوت منخفض. ومع ذلك، فى مواجهة المثال الناعم الرقيق، كانت هناك مادة خاصة بعدم ضرب الخدم المتطوعين بالجماعة من جانب الفرسان، وهى تشى بقدر من الحرية فى مفهوم الفرسان للرقة.

منذ البداية، كانت إدارة الجماعة إدارة إقطاعية، ولا بد أنها فى أول الأمر كانت مرنة - أى أنها كانت فضفاضة، ولكنها لم تكن أبدا تسير كيفما اتفق. ومع ذلك، حتى قبل وفاة الجيل الأول من الإخوة، تم التضييق إلى حد كبير؛ وعلى الرغم من النقص النسبى فى الأدلة المباشرة، فإن الأدلة الداخلية للسجلات المختلفة تعطى صورة بشكل ما عن بيرقراطية فرسان الهيكل. من الجلى الواضح أنها كانت تنظيما بيرقراطيا. ذلك أن كل شىء فى إمبراطورية فرسان الهيكل كان مركزا فى القدس بشكل صارم؛ وكل شىء فى هيكل القدس مركز وقائم على المعلم، على الأقل نظريا، إن

لم يكن فى الممارسة الفعلية. من الواضح أنه سيكون من العسير على رجل واحد مراجعة حسابات كل دار من دور فرسان الهيكل، على سبيل المثال، من إيرلندا إلى اوتلجردين (القسم الجنوبى الشرقى من مملكة القدس) ومن البرتغال إلى المجر؛ غير أنه قمة هرم له قاعدة واسعة والبناء الاتحادى بأكمله يتطلع إليه. وفى وسعه، إن شاء، التفتيش على أى جزء من أى تنظيمات محلية؛ وبنفس الطريقة، لو أن أيا من الإخوة، مهما كان تواضع مكانته لديه شكوى أو شعر بأنه عومل بظلم فى مستوى محلى، يمكن لذلك الأخ أن يقدم قضيته أمام المعلم نفسه.

من المناسب بالنسبة لجماعة تتخذ الطاعة فيها مكانا بارزا، أن تعاقب التعديات على الميثاق عقابا صارما، لكن هذا يبدو غير منحاز. إذ كان يتم سماع القضايا وإصدار الأحكام فى الاجتماع الأسبوعى؛ أما الاجتماع العام فكان أكثر عظمة وأقل تكرارا، يجتمع فيه الأعضاء الأقوياء فى الجماعة لمناقشة السياسة الداخلية والخارجية. ومع أن الاجتماعات الأسبوعية المنتظمة كانت أكثر تواضعا فإنه لم تكن ترتب بشكل أقل التزاما بالرسميات.

وكانت عادة ما تتم يوم الأحد، إما فى الكنيسة أو فى القاعة الرئيسية فى الدار، وكانت تنعقد فى كل دار يسكنه أربعة أو أكثر من الإخوة. وكان جميع الإخوة، خدما ورقباء، وفرسانًا يشاركون. وعند دخولهم الاجتماع، كانوا يركعون أمام المذبح، ويرتلون أبانا الذى، ويخلعون قبعاتهم قبل الجلوس - من اللباد الأحمر أو الأبيض - القلانس الضيقة. (عند هذه النقطة يعطى الميثاق تفصيلا فاتنا بأن الإخوة الصلع يسمح لهم بالإبقاء على قلانسهم الضيقة) ثم يبدأ المعلم، أو القائد أو الأخ الأكبر الحاضر الإجراءات بموعظة مليئة بالنصائح الأخلاقية والروحية؛ ثم يفتح المجال للاعترافات. ولم تكن هذه الاعترافات تتعلق بإساءة تصرف روحى، تتطلب تطهيرا يقوم به أحد الكهنة وإنما تتعلق بخروقات للنظام والانضباط. مع ذلك فإن نوعى الاعتراف قريبا الصلة حتى أن الكثير من الإخوة، خاصة ذوى العقول الأكثر بساطة، أخفقوا فى فهم الفرق - وهو تقصير فى الفهم يشاركهم فيه الكثير من خارج الجماعة،

مما سوف يتسبب فى الكثير من الضرر فى المستقبل. وكانت الاعترافات الطوعية يتم التعامل معها بقدر أكبر من الليونة من تلك التى تأتى بناء على اتهامات؛ وفى حين كان فى وسع أى أخ أن يبرز إلى العلن خطأ أخ آخر، فإنه إذا ما اتضح أن الاتهام خاطئ أو بدوافع سيئة، فإن مقدم الاتهام يطلب منه الاعتذار علنا ويقدم نفسه لعدالة الدار. وبعد أن يقر بخطئه، يجب عليه ترك الاجتماع، فى حين تتم مناقشة قضيته سرا. وبعد ذلك بالعديد من السنوات، استخدمت هذه السرية، مثلها مثل البلبلة المتعلقة بالاعتراف والعفو والتطهير سلاحا لاتهام وتوبيخ الجماعة كلها، لكن الغرض الأصلى منها كان بسيطا ومنطقيا: إلا تأتى العقوبة من أخ بمفرده مما قد يؤدى إلى نشوء مشاعر سيئة بين الإخوة، وإنما من الجماعة ككل.

من المهم بشكل خاص على ضوء الاتهامات التى استخدمت للقضاء على الجماعة، فحص الأفعال التى كان الإخوة أنفسهم يعدونها جرائم. ففى الجانب الأدنى من السلم كانت هناك مخالفات مثل فقد أو تدمير أى شىء يخص الجماعة. ومن بين المخالفات النموذجية المسجلة فى هذا القسم ضياع مطرقة فى أحد الأنهار، من جانب أحد الإخوة ألقى بها على أحد الطيور، أو كسر صينية مليئة بالأكواب من جانب أخ آخر، بعد أن يكون قد أسقط كوبا، فألقى بالصينية كلها بسبب الغضب. فكانت الأخطاء العارضة أو الصغيرة مثل تلك، تستتبع عقوبات تختلف وتتراوح من صيام يوم فى الأسبوع على الخبز والماء لمدة عام إلى الحرق على الظهر العارى، إلى الندم بالحط من المكانة لمدة عام، يفقد فيه الأخ حقه فى ارتداء ثوبه الذى يميزه، ويجبر على أن يأكل الطعام من الأرض مع الكلاب – ولا يسمح له بمطاردتها. وهذه الفئة من المخالفة كانت غامضة، وتتوقف على ما يمكن أن يحدث من أسبوع لآخر؛ إذ لم يكن فى وسع الإخوة فى الاجتماع أن يبحثوا عن العقاب المناسب فى كتاب من الكتب، وإنما كان عليهم استخدام ما لديهم من حصافة. ذلك أن الجرائم الخطيرة هى التى كانت مدونة، وكانت لها عقّوبات معروفة محددة. هناك عشر مخالفات تستحق الطرد من الجماعة. هى المتاجرة فى المناصب الدينية، والسرقة، واللواط، والابتداع والتآمر وقتل مسيحى،

والخيانة؛ وإفشاء أسرار الاجتماع، والتقهقر أمام أقل من ثلاثة من الأعداء، ومغادرة الدار بأية وسيلة غير البوابات. وأى أخ يثبت أنه متهم بأى من هذه المخالفات يطلب منه المثول أمام الجمع بأكمله، ولا يرتدى سوى سرواله وحزام حول رقبته. عندئذ يجلد بعصا درس الحبوب أو بحزامه ويعطى الإذن بانقاذ نفسه - وهذا معناه أن يلقى به فى الخارج، ويجبر على الانضمام إلى جماعة أخرى أكثر شدة. إلا أنه لا يمكنه الانضمام إلى الإسبتاليين، - إذ اتفقوا وهم فرسان الهيكل فى وقت مبكر على ألا يقبلوا الإخوة المطرودين من أيهما. وكل مخالفة من هذه المخالفات تعرض الأمن الداخلى والخارجى للجماعة للخطر؛ لهذا فإن العقوبة عليها شديدة - حتى يرى العالم كله تطهير السلوك المشين من صفوف الهيكل. ومع ذلك، فعلى الرغم من أن فرسان الهيكل أنفسهم لا يتسامحون مع مثل هذه الأشياء، فإن الاتهامات بخمسة من هذه الجرائم المحددة، وهى المتاجرة بالمناصب الدينية، واللواط والابتداع والتآمر والخيانة، هى التى شكلت أساس السقوط المدوى للهيكل.

فى واقع الأمر، فإن هذه الأحداث، بالطبع، كانت نادرة الوقوع؛ فاللواط على سبيل المثال، لم يسجل سوى مرة واحدة فى تاريخ الجماعة الذى امتد لمائتى سنة. وكانت أعمال الاجتماع الأسبوعى تجرى عادة حول أمور تافهة. ثم تنتهى الإجراءات بمباركة وداعية من الأخ الأكبر بين الحضور يذكر فيها الآخرين بأن السلوك الذى لم يتم الاعتراف به لم يتم العفو عنه. أما بالنسبة للباقى "فإنى أعطيكم كل ما يمكننى من عفو، باسم الله، وسيدتنا، والقديس بطرس، والقديس بولس، ولكم أنتم الذين منحتمونى السلطة".

لكن المعلم الأخير، جاك دى مولى، قد غير ذلك؛ فكانت اجتماعاته تنتهى بكلمات "اغفر لكم الأخطاء التى لم تعترفوا بها من خلال خجل الجسد، أو خوفا من عدالة الدار". وعلى الرغم من سلامة القصد فى هذا الفرق، فإنه كان عميقا. ومن الممكن أن الإخوة فى جيله فسروا ذلك بأنه يعنى جميع الخطايا، وليس مجرد الخروج على الانضباط، وشعروا بالتخفف. والأفعال التى كانوا ينفرون منها كانت عندئذ شائعة.

ولكن فى الأزمنة الأولى، وفى معظم تاريخ الجماعة، كان الميثاق هو الميثاق على قسوته، وتجب طاعته. لقد كانت هذه الصرامة ومعها الإلهام الروحى الذى وجده الإخوة فيما يحيط بهم، هو ما أعطى فرسان الهيكل ذلك الإحساس بالهدف، والاستقرار. حتى كبار السن، والمرضى والجرحى كانوا قادرين على الاحتفاظ بهذه الراحة. وكانوا يلقون عناية خاصة؛ ويعتنى بهم بأكبر قدر من الرقة، والحكمة. وكان ضحايا ذلك المرض الأكثر فظاعة، الجذام، يضطرون إلى ترك الجماعة والانضمام إلى مجموعة خاصة، جماعة القديس لأزاروس، ولكن حتى هم كانوا يعاملوا بكل رحمة، - ومما يدل على أكبر قدر من الاستنارة - أن الجماعة كانت تتعامل مع المصابين بالصرع ليس كأناس تلبستهم الشياطين، وإنما كمرضى يمكن التحكم فى مرضهم.

باستثناء الإسبتاليين، لم يكن لدى أحد فيما وراء البحر الأمن والاتجاه النابع عن حياة جيدة التنظيم. إذ لم يعد الأشخاص العاديون من الفرنجة تلك الطموحات الفريدة التى وحدت آباءهم، أو تلك الأهداف البسيطة؛ لقد تحققت هذه، وبدلا منها كان هناك الغيرة والمنافسة، والعداوات والتحالفات التى تسم أية مجموعة مفككة. أما فرسان الهيكل، الذين كانوا يعتزون بتنظيمهم ويثقون به، ويزدرون الحياة الدنوية التى تتناقض معهم، فقد أسهموا فى هذا التشتيت لدى غيرهم. ولكن مع ذلك فإن المسيحيين فى الأراضى المقدسة لم يتحملوا التفكك؛ إذ إن آباءهم استفادوا من انقسامات المسلمين، ولكن لم يكن هناك مطلقا أى فتح حقيقى للشرق. ومع أنه قد تم الاستيلاء على مدن وقلاع لم يتم تأمين شىء تأمينًا حقيقيًا؛ وكانت سلامة المسيحيين تعتمد على ضعف المسلمين أكثر من اعتمادها على قوة المسيحيين.

وهذا لم يدم. فعاجلا أو آجلا، كان لا بد للبلاد الإسلامية التى تحيط بالفرنجة أن تتحد. لقد قال دى بلانكفورت بالحس العسكرى الثاقب الذى جعل معلمى فرسان الهيكل يتحدثون كالأنبياء، ذات مرة إن أخشى ما يخشاه أن "يقوم أمير مسلم بمفرده بإعادة توحيد أقوى مملكتين إسلاميتين، القاهرة ودمشق، ويمحو اسم مسيحى". ذلك

أن الفرنجة اعتمدوا لعقود على العداء المتبادل بين مصر الشيعية وسوريا السنية، وقاموا بألاعيب دبلوماسية بالدول الواقعة بينهما، وهم يدركون أن مسيحيى بيزنطة وأوربا سوف يتحدون لمساعدتهم إذا كان ذلك جوهريا. وقد نجح هذا المزيج لعقود؛ ولكن فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر، دمر وزير مصر السورى الشاب هذا التوازن إلى الأبد.

كان صلاح الدين أحد أولئك الناس النادرين الذين يملكون صفات تجبر أصدقاءه وأعداءه على احترامه. وكل من التقوا به قالوا ذلك عنه: فباستثناء مواهبه كقائد كان عادلا، وكان تقيا، وكان معتدلا؛ وكان يتصف بالرحمة بصفة عامة، وجسورا مقداما، دائما ما يفى بكلمته. كانت هذه جميعا صفات المسلم الكامل، المسلم المثالى؛ كما كانت صفات مسيحية مثالية، ولكن لم يكن هناك قائد فى المعسكر المسيحى يشاركه هذه الخصال حتى بين فرسان الهيكل. وحتى إذا كان أى مسيحى قد أظهر هذه الخصال، لم يكن هذا ليفت من عزم صلاح الدين، كمسلم تقى، على استرداد القدس، والتخلص من الكفار وخاصة فرسان الهيكل الذين كان يثق بهم كأناس شرفاء، لكنه كان يكرههم كراهية عميقة كمحاربين لدين آخر.

غير أن صلاح الدين لم يكن دائما طموحا هكذا. وعلى الرغم مما يحكى عنه من حكايات تتعلق بانتصاراته فى أثناء شبابه فى القنص، يبدو أنه كشاب كان منكبا على الدرس، متحفظا حذرا فى سلوكه، يميل إلى التمسك بالقواعد إلى حد ما. لقد ولد عام ١١٣٧ أو ١١٣٨ سنة ٥٣٢ هجرية - فى قلعة تكريت على ضفاف نهر دجلة، شمال شرق بغداد. وعاش كطفل أولا فى بعلبك؛ وكان فى دمشق حين استولى عليها نور الدين عام ١١٥٤، وبقى هناك عضوا فى البلاط لمدة تسع سنوات. ثم شن أماريك ملك القدس فى عام ١١٦٣ هجومه الأول على مصر. وعبر عم صلاح الدين عن الرأى الشائع العام المتعلق بهذا البلد - إنها "بلد بلا رجال، وبها حكومة بغيضة غير مستقرة." لكنها نسبيا كانت تمتلك موارد غير محدودة، وكان أماريك ونور الدين يعرفان أنها مفتاح القوة. فهاجمها نور الدين فى السنة التالية على أماريك؛ ورد

أماريك بهجوم آخر عام ١١٦٧؛ فكان الدخول الأسطورى لصلاح الدين فى التاريخ الإسلامى الإفرنجى. ذلك أنه فى قيادته المستقلة الأولى، صمد لحصار دام خمسًا وسبعين يوما فى الإسكندرية، تحيط به قوات مشتركة إفرنجية مصرية، إلى أن أنقذه جيش سورى. وبينما كان رجاله يجلون، وقع رهينة فى معسكر أماريك؛ ويقال إنه هناك قدمت له فروسية مسيحية.

ولا يوجد دليل مؤكد على هذه القصة، ولكن سواء كانت صحيحة أو لم تكن كذلك، فإنها بينت الاحترام الذى كان يكنه له الفرنجة وفرسان الهيكل بمرور الوقت. وكانت نزاهته الكاملة أحد أسباب هذا الاحترام؛ إذ لم يخرق معاهدة أبدا. ومثل هذا السلوك كان فى الدول اللاتينية الإقطاعية هو المعيار من الناحية النظرية؛ أما من الناحية العملية فلم يسمع أحد عن هذا السلوك. بل كان القاعدة التى كان الجميع حتى فرسان الهيكل يكسرونها؛ وككل شيء آخر، كان انعدام الثقة هو ما تسبب فى سقوط دول ما وراء البحر: لقد مات بيرتران دى بلانكفورت فى ٢ يناير عام ١١٦٩، وكان فيليب دى ميلى من نبلس هو خليفته، وهو نبيل من أصول إفرنجية، لكنه مولود فى البلد المقدسة: وكان أول معلم من أهل فلسطين. وكان فى حياته الدنيوية سيدا قويا يستحوز على مقاطعتى اولتريجوردين، التى تضم قلعة الكرك القوية ومونريال. وقد اختاره فرسان الهيكل بسبب مكانته الدنيوية، إذ لم تكن له قط أية مهنة دينية - ودخل الجماعة فى ١٣ أغسطس عام ١١٦٩ وصار معلما فى خلال أسبوع. وبقيادته حقق فرسان الهيكل نصرا واحدا له أهميته: ففى ديسمبر عام ١١٧٠، حين كان صلاح الدين يختبر قوته الجديدة فى مصر، عبر الحدود وحاصر حصن دارون، المعقل الإفرنجى فى أقصى الجنوب، على ساحل المتوسط. لقد كانت قلعة ضعيفة، وعلى وشك التسليم حين أنقذها أماريك وفرسان الهيكل. وكانت الجماعة فى حاجة إلى انتصار كهذا، لأن سلوكهم فى ما يتعلق بمصر كان لا يزال يثير المرارة، وفى أرمينيا نحو الشمال كان مرتد من فرسان الهيكل يقود غارات من المسلمين على أراضى الفرنجة. إلا أن دى ميلى لم يبق طويلا: إذ استقال بعد انتخابه بأقل من عامين، من منصب المعلم وأصبح سفير

أماليك الدائم إلى القسطنطينية. ومن بين السببين الذين ذكرهما عند استقالته هناك سبب مقنع: إذ شعر أنه يستطيع خدمة الأراضى المقدسة بشكل أفضل فى دوره الجديد. أما السبب الآخر الذى ساقه فلا يوجد أحد من فرسان الهيكل يمكنه تخيله: وهو الفتور، إذ جف فيضان الدعم من أوربا إلى أن صار قطرات.

فى عام ١١٧٠ دهمت الأراضى المقدسة سلسلة من الزلازل المدمرة التى قلبت مدنا وقلاعًا لا يقدر إنسان على تدميرها، وتروى لنا مدونات بيزا فى عام ١١٧٢ أن نحو ستة آلاف رجل ماتوا. وتوقع الذين يميلون إلى قراءة مثل هذه الأشياء كنذر أن كارثة توشك أن تقع، ولكن لم تكن هناك أية نتيجة واضحة على ذلك سوى الانتخاب العرضى لمعلم جديد لفرسان الهيكل. لو أن المتنبئين، نظروا أبعد قليلا، لكان من الممكن أن يبدو هذا الانتخاب كارثيا بالقدر الكافى.

كان اسم المعلم الثامن هو أودو دى سان أمان. وكان يحتل مراتب فى البلاط، كمرشال القدس، وحامل كأس الملك، ولكن على الرغم من هذا، أظهر نفسه كمعلم بأنه أحد فرسان الهيكل المخلصين ولا شىء غير ذلك، يدافع عن حقوق الجماعة ضد أى دخيل. وقد شفى ويليام الصورى من ضعفه المؤقت وانغمس فى الهجوم بكامل قوته: وقال إن سان أمان "كان رجلاً يمتلئ غضبا وهو لا يخشى الله، ولا يحترم الانسان." ومما يبرر انحياز ويليام الهائل، أن أفعال سان أمان بدا أنها توضح ذلك. إذ إنه لم يتنازل أمام بطريارك أو ملك، ولكنه التزم بشكل صارم بالمعنى الحرفى المطلق لامتيازات فرسان الهيكل. وقد كان هذا من الناحية الفنية اتجاهًا لا غبار عليه؛ أما من الناحية العملية فإن المساومة تجعل الأمور أكثر يسرا. ذلك أن فرسان الهيكل فازوا بحقوقهم عن طريق الدبلوماسية؛ وبدا أن الإصرار على هذه الحقوق ضرب من العجرفة.

لم يحدث صدام مباشر حتى عام ١١٧٢، لكنه حينئذ جاء مصحوبا بالانتقام. إذ جاءت سفارة إلى الملك أماليك من الحشاشين - دون الناس جميعا. فهؤلاء الشيعة المتشددون أزعجهم نهوض صلاح الدين فى مصر، إذ إنه، على الرغم من أن هذه

البلاد كان يحكمها الخليفة الشيعى اسميا، فإن صلاح الدين نفسه كان سنيا، وكان يقبض على زمام السلطة الحقيقية باعتباره وزيراً. لذا سعى الحشاشون إلى عقد تحالف مع أماريك، الشيعة والمسيحيون ضد السنة؛ وأشار السفراء إلى أنه إذا ما نجح هذا التحالف، فإن الرجل العجوز ورجاله فى الجبل سوف يدينون بالمسيحية. ولم يكن هذا محتملا أو واردا، غير أن أماريك لم يعبأ بذلك؛ فالحشاشون سوف يكونون حلفاء أقوياء. ولم ينصوا سوى على شرط واحد: أن ترفع أموال مفروضة على بعض من أراضيهم من جانب فرسان الهيكل. وهذا ثمن لا يذكر؛ لذا وافق أماريك، ووعد فرسان الهيكل بأنه سوف يعوضهم عن الخسارة. وعندها اكتشف أن سمعة عدم الوفاء بالوعود يمكن أن تكون عائقا خطيرا.

بينما كان سفراء الحشاشين عائدين إلى قلعتهم فى الجبل، قلعة الموت – وكر النسر، – نصب واحد من الفرسان منفردا لهم كمينا وقتلهم، بأسلوب يليق بهم. كل ما يعرف عن القاتل أن اسمه وولتر دى ميسنيل، بعين واحدة. ولا يعرف هل أودو دى سان أمان هو من أمر بالقتل أم لا، ولكن بما أنه قد تم، فقد ساند وولتر على الفور. فاستشاط أماريك غضبا، وطلب أن تتم محاكمة وولتر كمجرم عادى؛ فرفض سان أمان تسليمه، وأشار، كما فعل كثيرا من قبل، أن الجماعة مسئولة فقط أمام البابا، الذى يمكن أن يحكم فى القضية، – إذا بلغت أصلا هذا الحد. وفى ما يتعلق بفرسان الهيكل، فإن وعد أماريك بأن يرد لهم ما يخسرونه من مال مجرد كلام فى الهواء؛ إذ إن فرسان الهيكل يفضلون المال المجمد وليس التحالف الملتبس الغامض.

عند غزو أماريك الثالث لمصر، أظهر الإخوة أنهم لن يقاتلوا رغم إرادتهم؛ وبقتلهم للسفراء، تدخلوا تدخلا مباشرا فى حكم أماريك. لذا كف الملك عن الكلام. وركب إلى صيدة علي رأس مجموعة من الجنود، حيث كان وولتر يوضع فى أمان مفترض، واندفع داخلا دار فرسان الهيكل، وقبض شخصيا على الفارس ذى العين الواحدة. وتم حمل وولتر إلى السجن، ولم يسمع أحد عنه أى شىء بعد ذلك.

ومع ذلك، فإن التحالف المقترح بين الفرنجة والحشاشين لم يصل إلى شيء، وأصر فرسان الهيكل على إتاوتهم. إذ إنهم كانوا يتجاهلون الملك متى شاءوا، ويتبعون ما يرونه هم. فأخذ غضب أماليك يتزايد، وحين سلم اثنا عشر من فرسان الهيكل حصنًا لا يمكن الدفاع عنه، للمسلمين في معركة صغيرة عام ١١٧٤، "ربطهم الملك على الفور" - أي أنه شنقهم. وحاول أن يفعل المزيد: وبدأ مع ويليام الصورى وضع رسالة إلى البابا، مفصلا شكاواه، ومطالبا بحل الجماعة. غير أن الرسالة لم يتم إرسالها أبدا، بل ولم تتم، لأنه في ١ يولية ١١٧٤، أنهى أماليك حياته التي تدفق فيها الدم، أو بعبارة أكثر ركاكة، مزيج من التيفود والدوزينتاريا.

وقبل ذلك بأقل من شهرين، كان الموت قد اختطف نور الدين من المسلمين؛ وكان السبب احتقانًا في الحنجرة؛ وبعد أماليك بشهرين مات خليفة القاهرة الشيعي. وكان السلطان السوري الجديد صبيا في الحادية عشرة؛ وكان ملك القدس الجديد في الثالثة عشرة؛ وكان ملك مصر الجديد هو صلاح الدين، البالغ من العمر سبعًا وثلاثين سنة والراغب في النجاح.

لقد أعاد صلاح الدين مصر إلى الحظيرة السنية المحافظة، بسهولة وهدوء، دونما أية معارضة من الشعب المصرى. أما من الناحية السياسية لم يكن الأمر سهلا بالنسبة له في مصر، وفي عام ١١٧٥ وافق على عقد هدنة من عامين مع القدس في حين قام بتنظيم مملكته الجديدة. وعلى الرغم من أن الفرنجة كانوا من الممكن أن يهاجموا أن استطاعوا، فإنهم اعتبروا أنفسهم محظوظين بالهدنة لأن ملكهم، البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة، بولدوين الرابع، لم يكن صغيرا فحسب وإنما كان مصابا بالجذام. هكذا، على أي حال، تقول الروايات المعاصرة له. لقد كان بولدوين الرابع مريضًا مرضًا مميتًا، هذا أمر لا شك فيه. ولم يلاحظ أحد مرضه إلى أن كان في نحو العاشرة، حين كان معلمه ويليام الصورى، الأسقف والمؤرخ يراقبه وهو يلعب مع أصدقائه. وكان الصبية يجربون التحمل بنشب أظافرهم في أذرع بعضهم بعضًا؛ وكان الأمير الصغير هو الوحيد الذي لم يرمش جفنه، فاكتشف ويليام أن الصبي لم

يستطع الشعور بالألم. فأطلقوا عليه جذامًا؛ ولكن لم يكن مسموحا لأى أحد، حتى وريث العرش، بالحياة العادية إذا كان مجذوما. يقول فولر "لقد كان الجذام المسمى داء الفيل، وهو مؤذ للمريض، لكنه غير معد لأصحابه" - ومع ذلك، فهو مميت؛ وحول الأراضى المقدسة، كان صلاح الدين يصنع عقدة مميتة أيضا. ذلك أن دمشق فتحت له أبوابها فى نوفمبر ١١٧٤، وحسب ما قاله فولر، "كانت القدس مملكة فقيرة هزمها الطقس، فهى كئيبة موحشة منكشفة أمام عواصف الأعداء من كل جانب، ليس لها من غطاء أو حماية من صديق طيب بالقرب منها، ترقد فى فم الأسد بين فكه الأعلى وفكه الأسفل؛ دمشق فى الشمال، ومصر فى الجنوب؛ مملكتان تركيتان قويتان، متحدتان تحت لواء أمير قوى، هو صلاح الدين. .... أما أمراؤنا الغربيون فهم كرماء بشفقتهم، لكنهم مقترون فى مساعدتهم. ذلك أن حرارة الحرب فى فلسطين جعلت رغبتهم فى الذهاب إلى هناك تبرد".

ومع ذلك، لم تخضع جميع الدول الإسلامية بهذه السهولة لمصر وساعد الفرنجة تلك الدول التى لم تخضع كل ما أمكن ذلك. وكانت حلب واحدة من هذه الدول، إذ أنقذها جيش من الفرنجة من الحصار الذى فرضه صلاح الدين فى أوائل فبراير عام ١١٧٥، وكانت حلب بالفعل تحتجز عددا كبيرا من السجناء المسيحيين فى معارك سابقة؛ فحين رفع الحصار، أفرج الحلبيون عنهم جميعا عرفانا بمعروف منقذيهم. من بين المفرج عنهم كان ذلك البارون اللص النموذجى رينولد دى شاتيون - وكان أكبر سنا، لكنه لم يكن أكثر حكمة ولو بأقل قدر، ولم يكن غاضبا بأى حال بسبب الخمس عشرة سنة التى قضاها فى السجن. والآن انقلبت طاولات الحرب انقلابا كاملا؛ لدى المسلمين والفرنجة، إذ تبددت أرواح أجدادهم مثل رمال الصحراء، والفكرة القديمة التى قادت المسيحيين إلى القدس - فوضى المسلمين فى مواجهة مملكة المسيحيين - انقلبت انقلابا تاما. وانغلق فكا الأسد ببطء حول المملكة المقدسة، وفى داخل الملكة، انتشرت المنافسات كانتشار المرض فى جسد بولدوين. فكان الملك والمملكة يقتل بعضهم بعضا.

لقد كانت منافسات تلك السنين الإحدى عشرة، [١١٧٥ - ١١٨٦]، معقدة كأى تراجيديا مسرحية. ومثل ما يحدث فى تلك الحبكة، تكشفت مستويات الحبكة مرحلة مرحلة، وتفاعلت معا حتى وصلت إلى الكارثة.

وكانت الشخصيات الرئيسية الأولى هى رينوالد دى شاتيون، وريمون الطربلسى، وفرسان الهيكل، والإسبتاليين، وبولدوين الملك المجذوم. فبما أن بولدوين كان صغيرا، فهو فى حاجة إلى وصى على العرش إلى أن يبلغ السن المناسبة وهى السادسة عشرة؛ وكان وصى العرش هو ريمون الطربلسى. وبدعم من أبناء بلده من البارونات، والإسبتاليين حاول إقامة علاقات سلمية مع المسلمين حولهم؛ ذلك أن الاستمرار فى الحرب كان يشكل عبئًا ثقيلا على المسيحيين. غير أن فرسان الهيكل ورينولد كانوا ملتزمين بالحرب - فرسان الهيكل بدورهم كفرسان للرب، ورينولد بما لديه من افتراض سابق بسلطته كأمير، وما يتسم به من عقلية قطاع الطرق. إذ أنه حين أفرج عنه من السجن، وجد نفسه معدمًا بلا أرض، وأمير حرب بلا عمل، لأن إقطاعيته فى أنطاكيا قد سلمت فى غيابه لابن زوجته، وزوجته كونستانس قد توفيت. لذلك، ما إن أطلق صراحه حتى تزوج وريثة اولتريجوردين ونصب نفسه لوردًا على قلعتى الكرك ومونريال، - اللتان كانتا فى إحدى المرات من ممتلكات فيليب دى ميلى، المعلم السابع للهيكل، وما زالتا، من أهم المناطق من الناحية الاستراتيجية، باعتبارهما الدفاع الشرقى الجنوبى عن المملكة المقدسة. لكن المسافة بين أوربا وبلاد ما وراء البحر - التى كانت فى وقت من الأوقات منطقة جذب للمظلومين والمعدمين كما كانت قداسة الحروب الصليبية بالنسبة للتقاة أصبحت صديقا لا يؤتمن بالنسبة للجيل الجديد من الفرنجة فى الأراضى المقدسة. وإذا كان هناك رعب فى الخروج لغزو أرض أجنبية، فهناك الإثارة أيضا، وهناك إمكانية أمام الفقراء والأغنياء فى أن يجدوا حياة جديدة أفضل على وجه الأرض. غير أن هذه الإثارة وهذه الإمكانية لهما وجود محدود. وعندما استنفدت الأرض، لم تعد هناك أية مقاطعات كى يكسبها أحد، أو ممالك يوجدها أحد؛ وليس فى وسع الفقير سوى استبدال سيد بآخر. وحينما يجب أن يتحول

العدوان إلى دفاع، يتبخر ما فى الحرب من إثارة؛ ولا يتبقى سوى الرعب. بل أكثر من ذلك، فإن أولئك الذين استمروا فى الخروج من أوربا فى أواخر القرن الثانى عشر، يملؤهم ما يملؤهم من مزيج من التقوى والغرور والطمع، وجدوا فى الشرق أناسا يعرفونهم بالكاد كأقارب. لقد كانت هناك روابط اللغة، وقشرة سطحية من الثقافة المشتركة؛ وغير ذلك لا يوجد الكثير. ذلك أن الغربيين جاءوا يبحثون عن عالم يعلم:

فرنجة الشرق أنه غير موجود. ولم يستطع تقاة أوربا أن يفهموا أنك ببساطة كى تبقى على قيد الحياة، لا بد من عقد معاهدات مع الكفار؛ وبالمثل خاب رجاء الآملين والجشعين حين أدركوا أنهم استدعوا كى يدافعوا عن أراضى غيرهم فحسب، دون أن يحصلوا على أية مكافأة مادية لأنفسهم. لذا قلت التعزيزات القادمة من الغرب، كما أن تلك الأعداد القليلة التى كانت تأتى وهى تجهل حساسية الوضع السياسى، كل هؤلاء كل لأسبابه - حب الله أو حب النهب انضموا إلى المزيج الحربى الخطير المكون من رينولد وفرسان الهيكل.

لقد تفاقم التعارض بين المعسكرين المسحيين، الذين كان أحدهما ينشد السلام، والآخر متشدد بلا تنازل، تفاقم هذا التعارض بسبب خصومات شخصية. ذلك أن زوجة رينولد كانت متزوجة من قبل وقد قتل زوجها الأول، وكانت مقتنعة بأن اللوم يقع على الوصى على العرش، ريمون الطربلسى. كما كان ناظر أراضى الهيكل جيرار دى ريدفور يحمل لريمون ضغينة شخصية. ذلك أنه قد جاء إلى الشرق كفارس عادى مع الحرب الصليبية الثانية، والحق نفسه ببلاط ريمون. ووعده ريمون بتزويجه من أول وريثة مؤهلة لكن الأولى اتضح أنها مؤهلة أكثر مما ينبغى - كان اسمها لوتشيا من بوترن، وحين عرض تاجر إيطالى على ريمون وزن الفتاة ذهبا للزواج منها كان من المناسب لريمون أن ينسى الوعد. فانضم جيرار إلى فرسان الهيكل تعبيرا عن الاشمئزاز، دون أن ينسى غضبه وخيبة أمله أو يتحدث عنهما. وبدأ سرا وفى صمت يخطط للانتقام.

ولكن على الرغم من الانشقاق فى الدولة فى القدس، بدا أن الأمور تسير سيرًا حسنا فى البداية. ففى عام ١١٧٧، بلغ بولدوين المجذوم السادسة عشرة، واعتبر بالغا. وتنحى ريمون عن الوصاية على العرش؛ وتولى بولدوين السلطة الكاملة، وسرعان ما أظهر أنه عوض عن أية إعاقة بمجرد الحماس. وانتهت الهدنة مع مصر؛ فواجه الملك المعوق على الفور تقريبا غزوة حين عبر صلاح الدين وجيشه الحدود الساحلية للبحر المتوسط. فكتل سان أمان جميع فرسان الهيكل فى غزة إذ بدا أن هذا هو الهدف الواضح؛ لكن صلاح الدين تخطاه بالكامل، واندفع شمالا، فانطلق بولدوين لمواجهته بما لا يزيد على خمسمائة فارس. والتقيا فى عسقلان، حيث طوق الجيش المصرى الكبير القوة الإفرنجية واحتجزها عاجزة فى البلدة. ثم ترك صلاح الدين بولدوين والخمسمائة فارس محاطين، وتوغل شمالا. وفجأة اتضح هدفه الحقيقى: القدس نفسها، المفتوحة التى لا يوجد من يدافع عنها.

وبدا أن كل ما يحتاج العرب المسلمون فعله هو مجرد الدخول والاستيلاء ولكن عندئذ أظهر بولدوين ما يمكنه فعله: فاستدعى سان أمان من غزة بشجاعة اليائس، واندفع برجاله الخمس مائة خلال خطوط العدو وتواعد مع فرسان الهيكل وركب متجها شمالا بأقصى سرعة وأحاط بصلاح الدين. أما العرب المسلمون، فبسبب الثقة المفرطة خففوا من درجة الانضباط. وفى ٢٥ نوفمبر، كانوا يعبرون واد ضيق، فى مكان يسمى مونتجيسارد لا يبعد عن شمال غرب القدس سوى خمس وأربعين ميلا حين هاجم بولدوين، وهو يقترب دون أن يراه أحد مطلقا على غير توقع من الشمال. كان هناك ست وعشرون من الفرسان العرب المسلمين، وبضع مئات من المسيحيين؛ ولكن تم التخلص من المسلمين. وقتل معظمهم؛ أما صلاح الدين نفسه فقد هرب فقط، لأنه كان يركب ناقة سباق. وركب الملك الشاب، ويده مضمضة، فى مقدمة الهجوم المسيحى – وإلى جانبه القديس جورج، كما قال الناس، والصليب الحقيقى يلمع كالشمس. وسواء كان ذلك صحيحا أم لم يكن كذلك، فقد كان نصرا لا يكاد يصدق، وكان صدا للحرب الصليبية الأولى. لكنها كانت أيضا آخر مرة يهزم فيها

مثل هذا الجيش المسلم الكبير عن طريق مثل هذه القوة الصغيرة، وعلى المدى الطويل لم يفعل أكثر من منع الهزيمة النهائية. بمزيد من العون من الغرب، ربما سارت الأمور سيرا مختلفا. وكان لدى الفرنجة بعض المبرر للأمل فى الدعم، ذلك أنه فى ذلك العام نفسه اتفق هنرى الثانى ملك إنجلترا ولويس السابع ملك فرنسا على القيام بحرب صليبية معا، وأرسل البابا بمبعوث للبحث عن بريستر جون؛ ولكن سرعان ما تخلى لويس وهنرى عن الفكرة، وعلى الرغم من أن مبعوث البابا بلغ الحبشة، لم يتم العثور على بريستر جون.

فى زمن مضى كان هناك مجال لحب الاستطلاع، والاهتمام بل والصداقة، بين الفرنجة والمسلمين. فقبل ذلك بجيل، نشأت مثل هذه الصداقة بين فرسان الهيكل وأحد الدبلوماسيين المسلمين، هو الأمير أسامة الشيرازى: لقد كان يعيش بشكل رئيسى فى القاهرة ودمشق، غير أنه قام برحلات متكررة فى الجزء الأول من القرن إلى القدس، يراقب ويلاحظ طريقة الفرنجة فى الحياة باهتمام تجاهل معه السياسة. وكان يمقت العلاج الطبى الإفرنجى؛ ويعجب بنظام العدالة الذى أسسه الملك أماريك؛ وأدهشه ما يتسم به الأزواج والزوجات الفرنجة من قلة الغيرة الزوجية؛ وكان يحب فرسان الهيكل ويحترمهم.

كتب أسامة، "حين كنت فى القدس كنت أذهب إلى المسجد الأقصى (قبة الصخرة)، وبجانبه مكان للعبادة حوله الفرنجة إلى كنيسة. وكلما دخلت المسجد، الذى كان فى يدى فرسان الهيكل الذين كانوا أصدقائى، كانوا يضعون المكان تحت تصرفى، حتى أتمكن من الصلاة هناك. وذات يوم دخلت وقلت الله أكبر، ونهضت كى أبدأ صلاتى، حين ألقى أحد الفرنجة نفسه على من الخلف، ورفعنى وأدارنى حتى صرت أواجه الشرق. وقال "هذه هى طريقة الصلاة." وتدخل بعض الفرنجة على الفور، وأمسكوا بالرجل، وأبعدوه عن طريقى. ولكن فى اللحظة التى توقفوا فيها عن مراقبته أمسك بى مرة أخرى وأجبرنى على أن أتوجه شرقا، مكررا قوله إن هذه هى طريقة الصلاة. ومرة أخرى تدخل فرسان الهيكل وأبعدوه. واعتذروا لى قائلين: "إنه أجنبى

وصل اليوم، ولم ير قط أحدا يصلي ويوجه وجهه إلى جهة غير الشرق". فقلت "لقد انتهيت من صلاتى" وغادرت المكان وأنا مذهول من هذا المتعصب". مع الجيل الثانى، كان المسيحيون القادمون من الغرب أجانب بالنسبة للفرنجة والمسلمين على حد سواء؛ ولكن مع الجيل الثالث، لم يعد لدى أحد وقت للتسامح. إذ أصبحت الحرب بالنسبة للمسلمين تحت قيادة صلاح الدين جهادا وحربا مقدسة؛ أما بالنسبة للفرنجة فقد أصبحت قتالا يوميا من أجل البقاء.

على أى حال، لقد صاحوا قائلين، الذنب مرات كثيرة؛ و"الأجانب" الذين احتقروهم فى وقت من الأوقات توقفوا عن المجيء، مع أن الحاجة إليهم كانت أكبر من ذى قبل.

ومهما كان ما قاله المنتقدون الغربيون عن فرسان الهيكل، فقد حافظوا على معاهداتهم مع المسلمين. حتى إذا كانت هذه الثقة الآن صعبة. فعلى ضفاف نهر الأردن، عند نقطة العبور حيث صارع يعقوب الملاك، شرعوا فى بناء قلعة. وكانت فى منتصف منطقة لا يملكها أحد حيث كان التحصين مستبعدا بنص المعاهدة؛ فقال سان أمان، الذى كان لا يزال متمسكا بالميثاق، إن المعاهدة بين صلاح الدين وبولدوين، لذا يمكن لفرسان الهيكل أن يفعلوا ما يحلو لهم. فعرض صلاح الدين أولا على بولدوين ٦٠٠٠٠ من القطع الذهبية ثم ١٠٠٠٠٠ لوقف البناء، ولكن لم يكن ممكنًا منع فرسان الهيكل. وانضم بولدوين إلى المغالطة: وبينما كان فرسان الهيكل يقومون بالبناء، وضع دائرة دفاعية حولهم مدعيا أن البناء والدفاع عمليتان مختلفتان تماما. وبدأ البناء فى أكتوبر عام ١١٧٨؛ وتم البناء فى إبريل عام ١١٧٩، وسميت شاتيلى، وتم وضع حامية من ألف وخمسمائة من المرتزقة وستين من فرسان الهيكل من بينهم ناظر الأراضى. وتراجعت الدائرة أو الحلقة، وعلى الفور أقام صلاح الدين حصارا على القلعة الجديدة. وتم صده، وقضى الأسابيع القليلة التالية فى شن الغارات على المنطقة؛ ثم ثار لهزيمته فى ١٠ يونية، فى مونتجيسارد. إذ كان الفرنجة يمرون خلال مرج عيون، فى أعلى نهر الأردن – كان بولدوين (محمولا على محفة)، وريمون، وسان أمان، وفرسان الهيكل،

والجيش الملكى: كانوا جميعا موجودين. وأزعج مرورهم القطعان التى كانت ترعى فى الوادى، وراقبهم صلاح الدين من نقطة مراقبة فى أعلى التل. وكان هجومه مفاجأة تماما كما كان هجوم بولدوين فى مونتجيسارد، كما كان نجاحه عظيما كذلك. لقد فر الملك وريمون؛ وتشتت الجيش المسيحى؛ وأسر سان أمان. وكان ذلك خطأ فرسان الهيكل. حتى هم لم ينكروا ذلك؛ لأنهم انضموا إلى المعركة مباشرة لدى رؤيتهم لجيش المسلمين، قبل أن يستعد الجيش الملكى، فجعلهم الهجوم الإسلامى المضاد يرتدون على إخوتهم من المسيحيين. طيش، تسرع، هزيمة؛ أنقذ الملك ولورد المملكة الأول بالكاد؛ وأصبح معلمهم فى الأسر؛ - وأصبح فرسان الهيكل مسئولين عن الكثير فى مرج عيون.

وبعد أن تحرك صلاح الدين جنوبا وصل مرة أخرى إلى شاستيلى، القلعة التى توجد عند منطقة عبور يعقوب. وحاصرها لمدة خمسة أيام من ٢٤ حتى ٢٩ أغسطس، مرسلا مهندسين لتقويض الجدران؛ ونجح فى هذه المرة. والجدران التى أقيمت بسرعة منذ أشهر قليلة، انهارت، وفى النهاية لم يبق شىء: لا بشر ولا حجر: إذ قتل كل من فى الحامية، وسويت القلعة بالأرض، بعد أن بدأ البناء بعشرة أشهر فحسب. وحين لا تكون هناك أية إمكانية للسلام أو الثقة، يمكن لفارس من الدنيويين أسر فى أثناء القتال أن يأمل فى أن يطلق صراحه مقابل فدية. أما أحد فرسان الهيكل فلم يكونوا يتزحزحون، ولم يتوقعوا أى شىء؛ ذلك أن الفارس كان يلتزم بميثاقه، ويرفض أن يفتدى بأى شىء أكثر من حزامه وسيفه. وهذا ما حدث مع سان أمان، فمات بعد عام فى أحد سجون دمشق، ويقال إنه كان شديد الكبرياء بحيث لم يفكر فى مسألة الفدية

وسواء كان الأمر يتعلق بالكبرياء أو الفهم الحرفى للكلمة المكتوبة فلقد كان سان أمان مصدر شقاء للمملكة، أما إلى أى حد كان كذلك، فيمكن معرفته والحكم عليه من التوبيخ الذى أرسله إليه البابا إليكساندر الثالث، عام ١١٧٩:

"نحن نعلم أن إخوة الهيكل تعدوا الميزات التى منحها لهم الكرسى المقدس ويفعلون أشياء كثيرة تسبب الخجل بين شعب الرب، وشراً مستطيراً للنفوس. ... لذا نمنعهم من استلام الكنائس والعشور من أيدى الناس العاديين دون موافقة أساقفتهم؛ وعليهم تجنب من حرموا من الكنيسة ووضعوا تحت الحظر البابوى بلا اسم؛ وفى الكنائس التى لا تخصهم، يجب أن يتركوا للأساقفة تعيين القساوسة؛ ولا يسمح لهم فصل من عينوا دون استشارة الأساقفة؛ وإذا جاءوا إلى كنيسة محظورة قانونا، يسمح لهم مرة واحدة فى العام بأداء القداس هناك، وحتى فى ذلك الوقت لا يسمح لهم بدفن المحظورين قانونا هناك." إنها لغة قوية ودقيقة، ولا يملك أى أحد حتى لو كان مثل سان أمان أن يسىء تفسير معناها. لقد كان إليسكاندر الثالث من أقوى داعمى فرسان الهيكل؛ لذا يتضح من كتابته هو بالذات لمثل هذا التوبيخ أنه يعتقد أن فرسان الهيكل قد تجاوزوا حقوقهم كثيرا وبشكل كبير. ومع ذلك، ففى أيام سان أمان نما الهيكل نموا لا حد له فى السلطة الزمنية فى الأراضى المقدسة، من حيث شراء القلاع والبدء فى التجول فى أنحاء البلاد مع عودة ملاكها إلى الغرب، ومع ذلك شعر فرسان الهيكل أنفسهم بأنه قد حان الوقت لإجراء تغيير فى السياسة؛ لأن الرجل الذى انتخبوه كى يكون معلمهم التاسع كان نقيض أمان من عدة نواحٍ. هذا الرجل هو أرنولد دى توروج. عمره غير معروف، غير أنه كان أكبر سنا بكثير من سان أمان، لذا كان لديه الحذر والتحوط المتوقع من السن؛ ومنذ كان معلم الهيكل فى إسبانيا، منذ عام ١١٦٧، لم تكن لديه أية صلة بأى من الجماعات السياسية فى الأراضى المقدسة.

لقد كان هذ الاختيار جديرا بالإعجاب من عدة نواحٍ، لأن طبيعته المعتدلة هدأت، إلى حين، الانتقادات التى كانت توجه إلى فرسان الهيكل - لكن فضيلة عمره المتقدم لم تخدمهم، وانعدام الارتباط السياسى لديه بأى جماعة أو أحد تسبب فى نشوء صراع مفتوح مع الملك.

لقد دخلت منافسات تلك الفترة فى الأراضى المقدسة مرحلتها الثانية عند تلك النقطة وزاد من حدتها أحداث وقعت ما وراء الحدود. من بين أعمال القديس أمان

الأخيرة قبل السجن عقد اتفاق مع معلم الإسبتاليين "أنهت طوعا وبشكل لا رجوع فيه، جميع الجدال بين الجماعتين، هنا وما وراء البحر، المتعلق بأراضينا وأموالنا، وممتلكاتنا المختلفة" - وهذا أحد أعمال القديس أمان القليلة للتصالح. لكن هذا التصالح غير توازن سياسة السلطة فى الأراضى المقدسة عن طريق جلب الإسبتاليين إلى جانب فرسان الهيكل؛ وبعده تماما فى عام ١١٨٠، بدأ تغير مثير خارج البلاد حين مات الإمبراطور مانويل زينوس، ولم يترك وريثًا سوى صبى يبلغ من العمر الحادية عشرة. وفى عام ١١٨٠ أيضا، مات بطريارك القدس؛ وحل محله هيراكليوس، أسقف قيسارية، وهو رجل أمي تقريبا غير أنه جميل المنظر إلى حد ملفت، ولم تكن سمعته طيبة. ويرجع اختياره إلى حد كبير إلى نفوذ أم الملك. وفى نفس العام تزوجت أخت الملك سيبيلا من شاب فرنسى غير معروف يدعى جى دى لوزينيان. وهو الابن الثالث لنبيل صغير فى فرنسا، وسيم، يقال إنه ينحدر عن الشيطان عن طريق جنية الماء، ميلوزين، ولكن لم يكن لديه ما يميزه غير ذلك بأى حال. وبما أن الملك، فى ذلك الوقت، كان يوشك على الموت، وقف كى يورث عرش القدس. وبذلك تشكلت الأحزاب، تقريبا من كونت ريمون من طربلس، الوصى السابق على عرش بولدوين، والبارنونات من أبناء بلده من جانب، والذين كانوا ما زالوا يأملون فى نوع ما من السلام؛ وعلى الجانب الآخر، كان هناك من يميلون إلى الحرب، ويتكونون من فرسان الهيكل ورينوالد دى شاتيون، ومعهم حلفاؤهم الجدد، الإسبتاليون، والبطريارك المنحل هيراكليوس والوريث الجديد الأحمق، جى دى لوزينيان. فرجحت كفة المجموعة الثانية، الجماعة الميالة للحرب؛ ولكن لو أن بيزنطة صمدت، لكان لأفعالهم وسوء تصرفاتهم قدر أقل من العواقب الوخيمة. وما وقع هو أن ست سنوات من التفاعل بين الناس والأحداث أدت إلى وقوع المأساة التى لا فكاك منها.

لقد كان الحدث الوحيد الباعث على الأمل فى ذلك العام ١١٨٠ هو معاهدة سلام جديدة بين بولدوين وصلاح الدين، كان القصد أن تدوم لمدة عامين. وكانت إحدى موادها تسمح بالمرور الحر للتجار الفرنجة والمسلمين من خلال أراضى كل منهما؛

ولكن حدث أن طريق قوافل إسلامية رئيسى إلى مكة يمر من خلال أولتريجوردين، تحت أسوار قلعة رينولد، الكرك. ولمّ يكن من المتوقع بأى حال توقع أن رينولد يمكن أن يقاوم الإغراء المتمثل فى تلك المجموعات من الجمال المحملة بالثروات وهى تمر أمام بابه؛ فلم يستطع المقاومة، ولم يقاوم. وفى عام ١١٨١ استولى على البضائع فى قافلة بأكملها . فطلب صلاح الدين عودة البضائع أو التعويض؛ ورفض رينولد رفضا قاطعا، ولم يتمكن بولدوين المسكين من فعل أى شيء، إذ إنه كان قد صار أعمى يلزم فراشه غير قادر حتى على توقيع اسمه. وتصادف أن ألفًا وخمسمائة من الحجاج المسيحيين غرقت سفينتهم على الساحل المصرى، وعلى الفور أخذهم صلاح الدين رهائن؛ وكان رينولد متصلبا . فبقيت البضائع والرهائن كل فى مكانه، ونشبت الحرب مرة أخرى.

وفى عام ١١٨٢ كان صلاح الدين يوسع إمبراطوريته فدمر شمال سوريا؛ واقتنص رينولد الفرصة كى يقوم بإجراء عملية فى حياته. وأى كان رأينا فيه فإن جسارته فى حد ذاتها تجبرنا على الشعور بشيء من الإعجاب؛ لأنه حينئذ كان قد سئم الغارات البرية المحلية. فكانت القرصنة هى الشيء التالى، والقرصنة على نطاق كبير. وعلى مدى طيران الغراب، تقع الكرك على بعد مائة وعشرين ميلا شمال وشمال شرق خليج العقبة، القرن الشرقى للبحر الأحمر. ومن إيلا، الميناء الواقع شمال الخليج، إلى المدينة تستغرق الرحلة بحرا وبرا حوالى سبعمائة وخمسين ميلا؛ أما إلى مكة فهى تزيد على ألف ميل. غير أن مكة والمدينة، أقدس مدينتين فى الإسلام كانتا هدف رينولد الجديد. ولقد كانت غابة مواَب شرق البحر الميت، بالقرب من الكرك مزدهرة. فقطعت الأشجار بناء على أوامر رينولد، وتم بناء خمس سفن، وجربت فى البحر الميت، وفككت وحملت على الجمال، مسافة تلك الأميال المائة وعشرين إلى عيلا. وتم الاستيلاء على البلدة بسهولة؛ وتم تجميع السفن؛ وبقيت سفينتان لحصار حصن جزيرة جرى، وانطلقت بقية السفن تغرق وتحرق السفن الأخرى، وتخرب وتنهب المدن، بزهو واستهتار وغرور. لم يفكر أحد من قبل فى شيء كهذا؛ وكان العالم الإسلامى

غير مستعد مطلقا؛ ولمدة عام تقريبا، كان أسطول رينولد سيدا فى البحر الأحمر. أما رينولد نفسه، الذى كان أقرب إلى الراعى منه إلى البحار فقد بقى على الشط، فى الشمال؛ أما بحارته فلا بد أنهم كانوا يعيشون أسعد أيام حياتهم، فى نشاط دائب رائع من ساحل إلى ساحل. فعلى الساحل الإفريقى، نهبوا إيديب، الميناء النوبى الرئيسى، وأخذوا تجاراً مع بضائعهم القادمة من الهند وعدن. وعلى ساحل العرب، أحرقوا جميع السفن الموجودة فى ميناء المدينة، ووصلوا إلى الراغب، أحد الموانئ التى تخدم مكة - وتقول بعض الأخبار العربية إنهم بلغوا عدن. لقد كانت مغامرة رائعة، ولكن لم يكن من الممكن أن تدوم. إذ تشكل أسطول من المسلمين تحت أمير بحر يسمى لولو، وهذا اسم غير محتمل إلى حد ما. ولحق بالقراصنة وهم منشغلون فى الهوارة، ميناء المدينة. لقد أوشك الأسطول على النجاح، مما أثار أكبر قدر من الدهشة والفزع لدى المسلمين؛ لأن الراغب تقع على بعد ما لا يزيد على خمس وستين ميلا من مكة. بل إن قليلا من القراصنة وصلوا إلى مكة - ولكن كسجناء: لأن لولو دمر سفنهم. وتم تقسيم الناجين إلى مجموعتين، أخذت إحداها إلى مكة، والمجموعة الأخرى أخذت إلى القاهرة؛ وفى المدينتين، تم إعدام المجموعتين بالمراسم المناسبة.

ومن أغرب جوانب هذه الواقعة أن مدونا أفرنجيا واحدا هو الذى ذكرها أساسا. كان سكوير يدعى ايرنول ووصف الأودسا (الملحمة) القرصانية باعتبارها حملة علمية "لمعرفة ما كان يعيش الناس عليه فى هذا البحر". أما بالنسبة للمسلمين، فكانت أكبر انتهاك للعقيدة منذ سقوط القدس، وأقسم صلاح الدين أن يقتل هو شخصيا رينولد. وتركز الكتابات الإسلامية بالطبع عن رحلة التدمير هذه على دمار السفن وحرقها، والفوضى والخراب الذى خلفه رجال رينولد. ولم يتناول المسلمون أو ايرول فى تعليقه الموجز ما يبدو الآن أهم جزء فى القصة بأكملها: العمل الكبير المتمثل فى تنظيم وتحمل نقل تلك السفن من البحر الميت إلى البحر الأحمر.

لا أحد يعرف طريق رينولد من الكرك إلى الساحل، ولكن توجد إمكانية واحدة فى الواقع: هى الطريق الرومانى القديم الذى كان يربط بين العقبة ودمشق البعيدة، والذى

كان يمر من أمام باب رينولد. حتى اليوم، ما زالت أجزاء من هذا الطريق باقية، وتكشف الرحلة على طولها هذا الطريق من بحر إلى بحر المنظر الحى الفاتن عبر الزمان، وتعيدنا إلى ذلك اليوم حين بدأت جمال رينولد تشق الطريق نحو الجنوب، بالعوارض والألواح الخشبية لسفنه المربوطة على ظهورها المتأرجحة.

وبين البحر الميت وقلعة الكرك يجرى وادى الكرك، وهو وادٍ ضيق متعرج يقطعه مجرى مائى يكبر بسرعة فى نوبات الأمطار النادرة حتى يصبح نهرا. من الممكن أن تكون سفن رينولد قد تم جرها إلى الشاطئ عند نقطة معينة إلى حلق الوادى وفككت هناك على الشاطئ. إن مجرد كونها فككت وجمعت يثير سؤالا عن كيفية بنائها، ولا يمكن أن تكون الإجابة عن هذا السؤال سوى مسألة تخمين؛ من الممكن أن تكون على نسق تصميم أوربى وأمنت بأوتاد، ولكن من الممكن، ربما الأكثر احتمالا أنهم استخدموا تصميما شرقيا مثل الدهو (سفينة عربية). ذلك أن رينولد كان يستغل البيئة المحيطة به أكبر استغلال، والسفن من عائلة الدهو لها ميزتان فى عملية البحر الأحمر: ذلك أن أشكالها المألوفة لن تعطى أى إنذار بوقوع أى خطر، وبناءها التقليدى - إذ تربط بألياف، بدلا من أن تثبت تثبيتا دائما - ربما يكون قد ساعد على حل مشكلة نقلها برا. ولكن بالنسبة لشخص أوربى، سفن الدهو ليست سهلة فى التعامل معها، حتى إذا ما قورنت بسفينة تنتمى للقرن الثانى عشر؛ وبما أن تغطيس شىء فى البحر الميت يستلزم جهدا وعزما فمن الممكن أن فترة الاختبار كانت فترة تدريب لطواقم السفن. ولكن سواء تعلق الأمر بتدريب أو اختبار، فما إن ينتهى وتحمل السفن على الجمال، يجب أن تبدأ الرحلة الطويلة الصعبة. كما أن وادى الكرك، نقطة الانطلاق كان إحدى أصعب المراحل: عبارة عما يقرب من عشرة أميال من طريق منحدر، يرتفع أربعة آلاف وثلاثمائة قدم عن مستوى البحر الميت، إلى القلعة نفسها. ويرتفع الطريق منحدرا من شاطئ صخرى تنتشر عليه النباتات، خلال أجراف مسننة من الحجر الرملى والجرانيت؛ ثم بعد المرور بقطعة من الأرض صغيرة ولكنها ثرية، تجد نفسك أخيرا بجانب قمتى الجبل المستديرتين من الحجر الجيرى. ها هى الكرك صامتة متأملة وبها شىء من الوعيد، ترتفع فوق رأسك.

إن حجمها رهيب. ويرجع تاريخ المبنى إلى أوائل القرن الثانى عشر، غير أن الموقع كان به سكان منذ ١٢٠٠ ق.م. ويتحدث العهد القديم عن لعنة صبها النبى أشعياء على البلدة، ولقد شهدت الكرك الكثير من المعارك الكبرى فى زمانها، سواء بسبب تلك اللعنة أو بسبب موقعها الاستراتيجى على طريق التجارة الشمالى الجنوبى. فى مقاطعة أوتلجوردين الصليبية، كانت الكرك تسود بهيئتها، وتهدد، وتحمى، وتخنق؛ إذ تعلم من هم خارجها غريزة البقاء، فى حين تعلم من بداخلها أن يتذوقوا الفتح وينظروا إلى ما وراء الأفق. إنها قلعة مبهرة، غير أن تركها يبعث على الشعور بالارتياح. ومن المحتمل جدا أن قراصنة رينولد شعروا بذلك الشعور. وإذا ما سلمنا بما هو غير محتمل أى أن بعضهم كان يجيد القراءة والكتابة - فإن هذا يجعل الافتقار التام إلى سجل يفصل رحلتهم الصحراوية أكثر قابلية للفهم. ذلك أنهم بعيدا عن وكر رينولد كانوا سادة أنفسهم ولم تكن الصحراء سوى عقبة صغيرة قبل البدء فى مغامرتهم الكبرى. كان من الممكن أن يتوقعوا العودة، كى يحكوا عنها، وربما كى يكرروها؛ إذ إن الكتابة - إن كان أحد منهم يقدر عليها - لا محل لها إذا ما قورنت بالتجربة الفعلية.

لقد كان قدرهم قدرا قاسيا. إذ يتعثرون فوق الحجارة المحرقة، وربما توقفوا قليلا عند قمة ممر رأس النقب، على بعد عشرين ميلا جنوب بترا، وحملقوا فى الصخور البنية المجدبة إلى الجبال الزرقاء على المدى؛ ثم يهبطون إلى مساحات الغور الواسعة، تلك المسطحات الطينية الجافة التى تخلو تماما من المياه، التى أحرقتها الشمس فاسحالت كالصوان، وأخيرا يعبرون الرمال الصفراء فى الصحراء الجنوبية. حتى هم لم يكونوا ليتجاهلوا الجبال هناك. إنها بروز عملاقة من الصخر الصلب، يبلغ ارتفاع الكثير منها ما يزيد على ألفى قدم، تحولت إلى عشرات الأشكال الرائعة بفعل عواصف القرون. ربما استراح الناس فى ظلها، أو عثروا، شاكرين، على تلك البرك القليلة التى يجرى فيها الماء والتى ترقد مختفية بين تلك الأشكال.

ولكن سواء كان الفرنجة أميين أم غير أميين، فإن صمتهم الشامل بخصوص هذه الرحلة الشاقة ينبع من سبب أكثر بساطة وعمقا من أى سبب آخر: ألا وهو أنه، بعد ما يزيد على ثمانين سنة من الاحتلال المسيحى، فإن هذه الأراضى الواقعة شرق البحر المتوسط كانت بمثابة الوطن. وكانت أخطارها ومخاطرها معروفة ومقبولة، لأنه بالنسبة للفرنجة فى القرن الثانى عشر فإن الشرق اللاتينى، بحالته الريفية هذه كان كل ما يعرفونه فى حياتهم أو من الممكن أن يعرفوه. ومع ذلك فإن هذه المشاق والمخاطر فى الأرض لم تكن أقل واقعية؛ وبشكل ما من الخير معرفة ذلك، فرجال رينولد الرحل، مع كونهم بلا شك سفاحين، وقتلة، فإنهم كانوا طلقاء فى البحر الأحمر لما يقرب من عام، قبل مقتلهم الكئيب الاحتفالى بسيوف المسلمين. وفى الوقت الذى تم فيه تدمير أسطول رينولد فى صيف ١١٨٣، كان صلاح الدين سيدا على حلب. ذلك أن ملك سوريا الصبى كان قد توفى فجأة قبل ذلك بعامين، ربما مسموما، ولم يكن على صلاح الدين سوى أن يملأ الفراغ. ولم ينعم الإسلام بملك بهذا القدر من العظمة لما يربو على مائتى سنة؛ إذ امتد حكمه من ليبيا إلى عدن إلى دجلة، وهو مثلث ضخم أكبر بكثير من جميع الدول الصليبية مجتمعة. أما الآن فهى لا تعدو مجرد شريط حدودى ضيق - لكنها موجودة، وكان وجودها يشكل وصمة عار على الإسلام. ويجب استئصالها. وكان صلاح الدين يعلم أنهم لا يمكنهم انتظار المساعدة؛ فالغرب قد سئم كما أنه منشغل - والحركة الأخيرة فى أنماط القوة أن حكم بيزانطة القوى المستقر كان يتفكك. والإمبراطور الصبى قد سمم، مثله مثل ملك سوريا الصبى؛ وكان الإمبراطور الجديد طاغية يحكم إمبراطورية توشك على الإفلاس وجيش لا يذكر. فركز صلاح الدين على رينولد.

وفى القدس، كان مرض الملك بولدوين يعمل عمله ببطء فى جسده، وبدأ ذراعاه وساقاه يتآكلان. وبسبب إلحاح أمه، وأخته، والبطريارك المنحل أعطى الوصاية على العرش إلى الشاب الجميل الضعيف، جى دى لوزينيان. غير أن جى كان من الضعف، والجبن والتردد والفظاظة مع مليكه المحتضر، حتى أن أحدا لم يطق فكرة

وجوده فى السطة حتى مساندوه الثلاثة. فتم خلعه فى مارس عام ١١٨٣، ونودى بابن زوجته ابن أخت بولدوين وريثا للعرش. أنه بولدوين آخر، سيكون الخامس الذى يحمل هذا الاسم؛ وستكون حكايته هى الأقصر والأكثر مدعاة للحزن.

عند هذه النقطة أدى جهل أرنولد دى توروج بالسياسة الفلسطينية إلى أن يضل الطريق، ذلك أنه، لسبب غير مفهوم حاول هو ومعلم الإسبتاليين معا ومعهم هيراكليوس التوسط من أجل جى. وتم نفى الثلاثة جميعا من البلاط؛ ثم، بعد ذلك ببضعة أشهر أرسل الملك بولدوين بهذا الثلاثى فى مهمة لا بد أنهم جميعا كانوا يعلمون أنها بلا أمل - وهى دق طبول الحرب فى أوربا كى يبعثوا الاهتمام هناك من أجل شن حرب صليبية أخرى. وهكذا حرمت الجماعتان من قائديهما المختارين.

فى أثناء ذلك، كان صلاح الدين يستعد لرينولد. وكان حصاره للكرك هو آخر حدث كبير فى عام ١١٨٣ وفشل هذا الحصار، ولكن فى أثنائه وقع حادث غير عادى - إنه إيماءة تعد من أعلى درجات الشهامة. إذ إن الحصار بدأ فى ٢٠ نوفمبر، وتصادف أنه كان يتم الاحتفال بزفاف فى القلعة. وبينما كانت صخور مجانيق المسلمين تهز الأسوار، استمر حفل الزفاف فى الداخل. وأرسلت أم العريس أطباقا من الوليمة لصلاح الدين، وحين علم أين يتم الزفاف، أمر بوقف قصف ذلك الجزء.

لقد أصبح الكونت ريمون وصيا على عرش القدس مرة أخرى، ولدى تقدمه نحو الكرك، انسحب صلاح الدين. كان ذلك فى ٤ ديسمبر ١١٨٣، وكانت القلعة وريمون فى أمان؛ لكن صلاح الدين كان فى وسعه الانتظار.

وفى خريف ١١٨٤ سار نحو الكرك مرة أخرى؛ ولم يتمكن من كسر دفاعات القلعة. غير أن هذا لم يكن مهما حقا: فرينولد كافر غير مؤمن، لكنه واحد بين كثيرين، وكان الوقت فى جانب صلاح الدين.

ففى ٣٠ سبتمبر، خضع أرنولد دى توروج لمقتضيات سنه، وتوفى فيرونا؛ وكانت هذه هى النتيجة الوحيدة للبعثة إلى الغرب. ولم يكن هناك أى أمل من أوربا، والطاغية البيزنطى، أندرينيكوس زينوس، الذى قلب السياسة المسيحية رأسا على عقب، حيث عقد معاهدة مع صلاح الدين ضمن فيها ألا يساعد الفرنجة. ولم تفد هذه المعاهدة اندورنيكوس بأقل القليل، لأن طغيانه أثار تمردا فى عام ١١٨٥، وتم القبض عليه وتمزيقه إربًا.

وتسارعت عجلة القدر فى هبوطها بفعل الدسائس. وتم انتخاب معلم جديد للهيكل؛ وكان الانتخاب سريا كالمعتاد، ولكن يبدو أنه لم يحسم سوى بعد نقاش عنيف فى الجماعة. ففى القدس أشيع أن جيلبير اريل، قائد القدس وأمين خزانة الجماعة، ورفيق توروج فى الرتبة، سوف يكون المعلم الجديد؛ ولكن حين أعلن ناخبو الهيكل قرارهم، كان جيرار دى ريدفور، الذى باع ريمون عروسه. كان دى ريدفور قد ارتقى كى يكون ناظر أراضى الهيكل، فلم يكن من غير المعتاد أن يرقى من ناظر إلى معلم، ولكن بقلبه المليء بالضغينة والحنق على الوصى على عرش المملكة، كان انتخابه أسوأ اختيار ممكن.

وفى ١٦ مارس ١١٨٥، توفى الملك المجذوم بولدوين متخلصا أخيرا جدا من ألمه الذى دام طويلا. وتوج ابن أخته كبولدوين الخامس، وفى هذه المجموعة من الممالك التى يرأسها أطفال، كان أصغرهم جميعا: إذ لم يتعد عمره سبع سنوات. وأطلق عليه الناس اسم بودوينيت. وصحب موت الملك المجذوم وتتويج الملك الطفل مجاعة فى أنحاء المملكة. وبدأ أن المجاعة سوف تضع حدا للحرب القديمة بين الهلال والصليب دون أى دفعة من صلاح الدين فطلب الكونت ريمون فى يأس هدنة لمدة أربع سنوات. ولم يكن يأمل فى أن يقبل الاقتراح - غير أنه قبل، لأن صلاح الدين كان مريضا، وكان يعتقد أنه يحتضر. وبدأ ذلك بالنسبة للفرنجة وكأنهم قد انتشلوا من بين فكى الأسد.

لقد كانت هذه الفرصة الأخيرة مجرد وهم. ففى نهاية أغسطس عام ١١٨٦، توفى بودوينيت بعد عيد ميلاده بووقت قصير. لقد توفى، على الأقل، لأسباب طبيعية،

لأنه كان دائما معتل البدن. فكان موته شبه متوقع، وكان بولدوين، الملك المجذوم، قد ترك خطة احتطياطية فى وصيته، لتغطية الخلافة على العرش. طبقا لهذه الخطة، يقوم البابا وملكو فرنسا وإنجلترا وإمبرطور الألمان بتقييم المزاعم المتنافسة بين أخت الملك المجذوم سيبيلا، وابنة زوجة أبيه، إزابيلا؛ فكانت خطة حساسة، وبينما كان بولدوين يحتضر أقسم جميع بارونات المملكة وقادتها العظام على تنفيذ الخطة. وكان هيراكليوس ودى ريدفور من بين من أقسموا على تقديم المساعدة. أما رينولد دى شاتيون فلم يكن موجودا، لكن رفيقه فى السجن من أيام دمشق يدعى جوسلان كان حاضرا، وأقسم اليمين مثل الجميع.

وحين توفى بودوينيت، أطلقت الخطة الإحطياطية. فدعا الكونت ريمون إلى عقد اجتماع لجميع لوردات المملكة لاتخاذ قرار بشأن السفراء الذين سوف يتجهون إلى الغرب. وكان المقرر أن يعقد الاجتماع فى القدس؛ غير أن جوسلان أقنع الكونت بأن طبرية ستكون أكثر أمنا، بعيدا عن تأثير البطريارك هيراكليوس المنحل غير المؤتمن. وسار ريمون بثقة كى يدخل الشرك، وسافر إلى طبرية.

وكان بودوينيت فى عكا. وما إن غادر ريمون المدينة، حتى احتلتها قوات جوسلان، إلى جانب صور وبيروت. وأعاد فرسان الهيكل جثمان الملك الهزيل إلى القدس، حيث قاموا بدفنه بكل آيات التكريم فى كنيسة الضريح المقدس. واستدعى جوسلان رينولد من الكرك، وسيبلا وزوجها عديم النفع جى دى لوزينيان من عسقلان ووجههم إلى القدس. وفى عكا أعلن عن سيبيلا ملكة، ثم اتجه مسرعا شمالا كى يلقاها هى والآخرين. وحين تجمعوا جميعا، أغلق فرسان الهيكل بوابات المدينة المقدسة، ووضعوا الحراس لمراقبة الكونت ريمون. وذهب هيراكليوس وريدفور كى يطالبوا بالشارات الملكية؛ وكانت هذه محفوظة فى خزانة ذات أقفال ثلاثة، مفتاح منها كان لدى البطريارك والمفتاحان فى البداية رفض معلم الإسبتاليين الذى كان وفيا لقسمه تسليم مفتاحه؛ ثم ألقى به باشمئزاز من النافذة، والآخران لدى معلمى الجماعتين. وفصل نفسه وجماعته كلية من تتابع الأحداث.

وحين أمن هيراكليوس شارات الملك، قام بتتويج سيبيلا، ثم قامت هى بتتويج جى؛ وهو أضعف وأسوأ من حكم بلاد ما وراء البحر من ملوك. ورفع جيرار دى ريدفور صوته فى مباركة ساخرة صائحا: "هذا التاج يعوض عن زواج بوترن".

ورفض ريمون الخضوع لجى. وكانت الهدنة مع صلاح الدين لا تزال سارية المفعول، مع أن صلاح الدين شفى وأصبح قويا مرة أخرى، وكان من الممكن مع ذلك أن يتم بث الحياة فى المملكة على الرغم من ملكها عديم الشخصية. ولكن عندئذ، لعب رينولد دى شاتيون ورقته الأخيرة.

ذلك أن مجموعة أخرى من تلك الجمال المحملة بالثروات أخرجته مرة أخرى من وكره فى الكرك. فذبح الحراس المصاحبين لها، وزج بالتجار وأسرهم فى سجونه، وقال لهم اطلبوا العون من محمد. وكانت غنيمته من هذه الغارة هى أكبر غنيمة فاز بها فى حياته. وكانت أشبه بالإعادة لآخر إغارة على قافلة. إذ طالب صلاح الدين بالتعويض؛ ورفض رينولد؛ ولم يستطع الملك جى فعل أى شىء؛ فاستؤنفت الحرب. لكنها هذه المرة كانت حرب إبادة تامة.

الفصل السابع

قرون حطين
الأراضى المقدسة

سأدفعهم ليد أعدائهم، ... وأجعل مدن يهودة خربة بلا ساكن.

أرميا الإصحاح الرابع والثلاثون، الآيات ١٩- بب.

لقد أثر جو انعدام الثقة والخيانة فى الجميع فى بلاد ما وراء البحر - حتى الكونت ريمون، الذى كانت وصايته على العرش جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد عليها. وقال المسلمون إن الفرنجة فى ذلك الوقت لم يكونوا يعدون أحدا أشجع أو أكثر حذقا منه؛ ولكن بعد تتويج جى، تحول ريمون إلى الخيانة والتمرد. فحاول أولا اقتلاع سيبيلا، وجى وأن يحل محلهما إزابيلا وزوجها، همفرى من تورون؛ غير أن الخطة فشلت حين أقسم همفرى يمين الولاء لجى. ثم، بدأ التراسل مع صلاح الدين حين أصبحت الحرب الشاملة أمرا حتميًا، وفى أوائل عام ١١٨٧ كون الاثنان معاهدة خاصة ضمن فيها صلاح الدين أن يجعل ريمون "ملكا على جميع الفرنجة". من المؤكد أن هذا التصرف كان تصرفا ذكيًا: إذ كان ريمون يعلم أن الفرصة الوحيدة لبقاء بلاد ما وراء البحر تكمن فى مد السلام إلى أبعد حد ممكن وإلى أطول وقت ممكن. ولكن من المؤكد أيضًا، أن هذا كان ضربا من ضروب الخيانة. ولم يحاول ريمون إخفاء ما فعله، وحين عرف الأمر فى القدس، جمع الملك جى جيشه واستعد لإخضاع ريمون بالقوة. ولم تكن الحملة، بالطبع، فكرة جى - إذ إنه، فى الواقع لم تكن لديه أبدًا أفكار

تخصه فلعب ريدفور على انعدام التفكير لديه على نحو يخلو من الأخلاق. ذلك أن حقد دى ريدفور على ريمون لم يكن يعرف حدودا، فكان هو من دفع بجى إلى هذا الوضع غير المألوف من ممارسة السلطة. لو أن جى هو من دفع بالأمور لكان ذلك ضربا من ضروب الجنون. ولارتكبت بلاد ما وراء البحر انتحارا فى الحرب الأهلية، لأن ريمون كان قد امتلك دعما من المسلمين فى جيشه، وكان فى وسعه التعويل على موارد إمبراطورية صلاح الدين غير المحدودة. غير أن الأمر لم يصل مطلقا إلى هذا الحد، ذلك لأن مستشارا جديدا قد ظهر: إنه باليان من ابيلين، الذى بين بقوة ما فى هذه الخطة من حمق. إذ يمكن الاعتماد على جى فى شيء واحد، ذلك الشيء هو أنه يتبع أحدث نصيحة تقدم له. وبدلا من استخدام القوة، وافق على استخدام الدبلوماسية، وأرسل باليان، فى صحبة رئيس أساقفة صور، معلم الإسبتاليين وجيرار دى ريدفور للتوسط عند ريمون. فشعر ريدفور بالإهانة بحدة، لكنه كان مضطرا للحضور، ذلك أن سلامًا دونه يمكن أن يكون عديم الجدوى.

وكان وصيف باليان فى هذه الرحلة شابًا يدعى أرول. وكان يجيد القراءة والكتابة، وهذا لم يكن شيئا شائعا؛ بل والأمر الأقل شيوعًا أنه كان لديه الاهتمام الكافى بالكتابة كى يسجل ما رآه. وهو الذى كتب السجل الإفرنجى الوحيد عن قرصنة رينولد دى شاتيون مع أنه لم يشارك فيها مما يفسر كونه عزا دوافع أعلى لدى رينولد مما كان يستحق. لكن روايته عن السفارة لريمون جاءت عن خبرة مباشرة، وتفصيلية وحية. لقد غادر الوفد القدس فى ٢٩ إبريل ١١٨٧، وفى ذلك اليوم قطعوا ستين ميلا، واستراحوا فى قلعة باليان فى نبلس. وفى صباح يوم ثلاثين، حين قرر باليان البقاء فى داره وتنظيم شئونه، أرسل رئيس الأساقفة والمعلمين قبله؛ ورتبوا أن يلتقوا على بعد خمسين ميلا إلى الجنوب عند قلعة لافيف. وفى المساء كان باليان مستعدا للسفر؛ وانطلق هو وأرول فى وقت متأخر، وكانا يقصدان السفر طوال الليل. ولكن حين كانا يمران بالسامرة، تذكر باليان موعدا: ذلك أن الصباح التالى، ١ مايو هو عيد القديس فيليب والقديس جيمز. فقرر التوقف فى دار أقرب أسقف والاحتفال بالقداس فى الصباح.

وبعد الفجر بقليل فى يوم العيد، واصل المسير مع أرول. ووصلا إلى لافيف عند الضحى، وسرهما رؤية خيام فرسان الهيكل منصوبة أمام أسوار القلعة؛ ولكن حين اقتربا أحسا بأن هناك خطأ ما، إذ خيم الصمت على كل شيء. ففتشا الخيام - وكانت جميعا خالية. فدخل أرول القلعة وفتشها - وكانت أيضا خالية. إذ لم يكن فى المبنى كله سوى جنديين فقط، متمددين فى أحد الأدوار العليا، وفى حالة من الإعياء حتى أنهما لم يتمكنا من الكلام.

فى القلعة لمدة ساعتين إذ لم يكونا يدريان ماذا يفعلان غير ذلك، وهما فى حالة من الحيرة والقلق؛ ثم انطلقا فى الطريق مرة أخرى. وفى الطريق إلى الناصرة التقيا فجأة بفارس واحد وحيد - أحد فرسان الهيكل، جريحا ينزف دما. وحين اقترب كل منهم من الآخر، صاح باليان: ما الخبر"" فأجاب الفارس "الأخبار سيئة" وهناك فى الطريق الترابى، علما بما جرى.

فى الليلة السابقة، فى قرابة الوقت الذى كان باليان وارول يخرجان فيه من نبلس، وصل رئيس الأساقفة والمعلمان عند لافيف، حيث وصلتهم رسالة من ريمون. تقول الرسالة إن صلاح الدين طلب إذنا من ريمون كى يعبر ابنه أرض الكونت فى رحلة استطلاعية لفلسطين. فاضطر ريمون إلى الموافقة التزاما بمعاهدته؛ لكنه وضع شرطا بألا يدخل المسلمون أرضه قبل فجر ١ مايو، وأن يخرجوا قبل حلول الليل دون إلحاق أى أذى بأى من مدنه أو قراه. وتم تحذير أهل البلاد من الزيارة، وأمرهم ريمون بالبقاء داخل دورهم، حتى لا يصيبهم سوء. واشتملت رسالة ريمون إلى رئيس الأساقفة والمعلمين على النصيحة نفسها؛ فاتبعها رئيس الأساقفة ومعلم الإسبتاليين، روجى دى مولان. أما جيرار دى ريدفور فلم يفعل. واستدعى مارشال الهيكل جاك دى ميلى من قرية قريبة، كى ينضم إليه ويحضر جميع إخوانه معه. وأطاع دى ميلى الأمر، ووصل إلى لافيف ومعه تسعون فارسا من فرسان الهيكل - وكانت خيمتهم تلك التى فتشها باليان وأرول دون جدوى.

فى ذلك الصباح، حين كان باليان يحضر القداس، كان فرسان الهيكل قد غادروا لافيف. وتوقف رئيس الأساقفة فى الناصرة؛ واستمر المعلمان والإخوان، والمرشال، يدعمهم أربعون من الفرسان من غير الجماعات الدينية. اهتم الجميع برسالة ريمون؛ فيما عدا مائة وثلاثة وثلاثين فارسا، وكانت الطرق خالية. اتجهت المجموعة على ظهور الخيول مسافة قصيرة بعد الناصرة، ثم وهم يصعدون أحد التلال، شاهدوا قوة الاستطلاع الإسلامية فى أسفل. وكانوا سبعة آلاف.

وبمبادرة من أحد فرسان الهيكل، أقسم على ألا ينسحب ما لم تكن المجموعة أمامه أكثر من ثلاثة إلى واحد. وهنا، عند ينابيع كريسون، كانوا ثلاثة وخمسين إلى واحد؛ فلم ير جاك دى ميلى وروجى دى مولان أى جدوى من مواجهتهم وقالا ذلك. أما جيرار فأبى الانسحاب. وأدار ظهره بغضب إلى روجى، ونظر إلى جاك، وهو طويل أشقر يمتطى جوادا أبيض، وقال هازئا، "إنك تحب رأسك الشقراء حبا جما حتى لا ترغب فى فقدها." فرد جاك، "إنى أموت فى المعركة كما ينبغى لرجل شجاع، إنه أنت من ستفر كما يفر الخائن".

وحين أثار كل منهما ما وجه الآخر له من إهانات، نزلا بالجيش إلى المعركة اليائسة. وتحققت كلمات جاك دى ميلى: فمن بين المجموعة المكونة من مائة وثلاثة وثلاثين رجلا لم يهرب سوى ثلاثة - كان دى ريدفور من بينهم. وكان دى ميلى آخر من سقط. ذلك أنه قاتل كشيطان - أو كملاك. عندئذ كان من الشائع لدى الفرنجة أن يروا القديس جورج يقاتل إلى جانبهم فى انتصاراتهم، وهو اعتقاد كان المسلمون يعلمونه. أما بالنسبة لفرسان الهيكل، فقد كان غائبا فى كريسون؛ ولكن حين رأى المسلمون مظهر ميلى، وما تحلى به من شجاعة، اعتقدوا حين أسقطوه أنهم قتلوا القديس المسيحى المحارب.

بالنسبة للفرنجة، لم تكن لهذه المذبحة سوى نتيجة بناءة واحدة: إذ سلم ريمون نفسه لجى، حين رأى فظاعة الذنب الذى اقترفه بسبب المعاهدة التى عقدها مع صلاح الدين، وسلم نفسه دون تردد. ذلك أنه شهد أدلة بشعة على المذبحة، فبعد

ظهيرة ١ مايو، حين التقى باليان وأرول بالفارس المحارب، كان ريمون فى طبرية يراقب عودة دورية المسلمين. وكان يعلم أنهم حافظوا على كلمتهم: فلم تضار مدينة ولا قرية ولا مبنى. غير أنه استطاع أن يرى رءوس فرسان الهيكل معلقة على رماحهم.

على الأقل، - أخيرا، وفى آخر لحظة كان هناك ما يشبه الوحدة فى المملكة. وفى مايو مرت قافلة حجاج من الكرك؛ هذه المرة لم يجرؤ رينولد على المساس بها، لأن من بها كانوا يشملون أخت صلاح الدين وابنها، وكان صلاح الدين بنفسه على رأس الحراسة المصاحبة. وفى نفس الوقت، كانت الجيوش من جميع أنحاء إمبراطوريته تتجمع شرق بحر الجليل. واستعد المسيحيون كأفضل ما يكون الاستعداد، وفى نهاية يوليه كانوا قد جمعوا ما يقرب من ثلاثة عشر ألفًا من الرجال، عشرة آلاف من الجنود المشاة، ونحو ألفين من الفرسان، وألف ومائتين من الفرسان. وقدمت الجماعتان العسكريتان كل ما استطاعتا، محتفظتين فقط بحاميتين هيكليتين فى حصونهما. بالإضافة إلى ذلك قدم فرسان الهيكل لجى نصيبهم من الأموال التى تم تلقيها من هنرى الثانى ملك إنجلترا، - والجنود الذين دفعت لهم الأموال من هذه كانوا يحملون سلاح إنجلترا. وكان يفترض أن يكون هيراكليوس على رأس الجيش يحمل الصليب الحقيقى باعتباره البطريارك والزعيم الروحى، لكن كان من المناسب له أن يمرض، فاضطر أن يعطى الصليب لأسقف عكا. وكان معظم الناس يعتقدون أنه، فى واقع الأمر، كان يلهو مع عشيقته. ولم يكن أمام الجيش المسيحى وقت يضيعه؛ فصلاح الدين مستعد، وهو الذى طلب المواجهة. وفى ٢٦ يونيه، استعرض جيشه، وقسمه إلى ثلاثة أقسام وكان هو فى المنتصف. فى ترتيب المعركة قاد رجاله إلى جنوب بحر الجليل، وفى ١ يوليه، عبروا نهر الأردن. وفى ٢ يوليه سقطت مدينة طبرية؛ لكن القلعة التى كانت تقودها زوجة ريمون، صمدت، وأرسلت رسالة إلى زوجها فى معسكر الملك فى عكا.

لقد كان الجيش الملكى بالفعل يتحرك. وفى اجتماع مع الملك، كان الكونت ريمون قد نصح باتباع الحذر واتباع استراتيجية دفاعية: كانت حرارة الصيف بالفعل لا تطاق، والأرض عطشى، - ولكن بالنسبة للجيل الثالث من الفرنجة، كان ذلك أمرا مألوفًا؛ ولم يكن صلاح الدين يعلم ذلك، وإذا أمكن تحاشى المعركة فإن الطقس والأرض يمكن أن تعمل لصالح الفرنجة. إذن كانت نصيحة ريمون سليمة، لكن خيانته كانت قريبة العهد جدا. فاتهمه رينولد دى شاتيون ودى ريدفور بالجبن والغدر؛ وكانت العاطفة لدى الملك جى تتغلب على العقل، فأمر بهجوم عام. وفى أصيل ٢ يوليه، كان الجيش الملكى يعسكر فى سفوريا، وهو مكان جيد الرى وبه الكثير من المراعى، فى منتصف الطريق بين عكا وطبرية، وعلى بعد ثلاثة أميال من كريسون. وهناك وجدهم المرسال القادم من طبرية. وأنباؤه الآتية من سيدة فى حالة من الكدر، مست الفرسان الذين يتسمون بالشهامة، وكان رد الفعل العام هو إقامة المعسكر على الفور والذهاب لتقديم العون. ولم ينشق سوى صوت واحد، كان صوت ريمون دون كل الناس. مع أن طبرية هى مدينته، وزوجته معرضة للخطر، وقال إنه يفضل أن يخسرهم جميعا على أن يضحى بالمملكة، - لأنه، توقع أن تكون هذه هى النتيجة لو ترك الجيش موقعه القوى. فى هذه المرة ساد عقله والمثال الذى ضربه؛ واتخذ القرار بالبقاء فى سيفوريا، واستراح الجيش فى تلك الليلة. ثم، حين هدأ كل شىء، عاد دى ريدفور إلى خيمة الملك. ومرة أخرى اتهم ريمون بالخيانة. إن طبرية تبعد ست قصبات وإن خسارتها ستكون عارا على المسيحيين، وأنه هو وإخوانه يفضلون بيع عباءاتهم البيضاء على أن يدعوا مدينة مسيحية تسقط بهذه السهولة. وحين سمع جى ذلك، غير رأيه حتما. وصدر أمر جديد: ليخرج الجيش إلى طبرية فى الصباح التالى. وجاء الفجر سريعا فى ٣ يولية إنه فجر منتصف صيف والهواء، حار وجاف وساكن. وبشكل ما، ما إن طلع الفجر، حتى خمن صلاح الدين - أو علم - بأمر الملك. ربما غادر خونة حقيقيون معسكر جى تحت جنح الظلام. فبينما كان جيش الملك يغادر المياه والمروج فى سفوريا، عبأ المسلمون وتحركوا عشرة أميال إلى الشمال الغربى، مباشرة بين الفرنجة وطبرية. وتوقفوا عند قرية صغيرة تسمى حطين.

الأرض هناك تنحدر بسرعة بعيدة من الغرب إلى الشرق. ويؤدى السهل الغربى العظيم إلى تل صخرى ذى قمتين، ارتفاعه مائة قدم، يسمى "قرون حطين." وتبعد قرية حطين أقل من ميل عن القرون لكنها تقع تحتها بست مائة قدم؛ أما بحر الجليل، الذى يبعد خمسة أميال، فينخفض بمائة قدم أخرى. وحطين مثل سفوريا بها الكثير من المراعى والماء. لذا تمكن صلاح الدين من الاستراحة وأنعاش رجاله وخيله؛ لكنه كان يخاطر مخاطرة كبيرة. إذ لم يكن جيش جى أصغر كثيرا من جيشه، ومن شأن الهزيمة هناك أن تجبره على التقهقر أسفل التل نحو البحر. ومع ذلك، كانت مخاطرة محسوبة: ذلك أنه بين سفوريا وحطين السهل الغربى جاف كالعظمة، وينبغى على الجيش المسيحى أن يسير عبره مسافة اثنى عشر ميلا، بالدروع، وتحت الحرارة اللافحة، لشمس منتصف الصيف. وقال أحد المسلمين "بدو وكأنهم جبال تسير وبحار تغلى، على موجة ... والهواء حار، والضوء معتم، والسهل استحال إلى غبار، فتعلق المصير فوق رءوسهم".

وحين كان الفرنجة يتقدمون، خرجت عليهم تجريدات راكبة من الرماة، من معسكر المسلمين. وكان الكونت ريمون قد تولى قيادة طليعة الفرنجة؛ وركب معه باليان وارول. وتولى جى الوسط، أما فرسان الهيكل فكانوا فى المؤخرة. وكان الطريق من الحجر الجيرى، الذى يلمع باللون الأبيض، بلا ظل أو ماء. وأحاط الرماة المسلمون بالفرنجة، يعملون فيهم القتل، مركزين على فرسان الهيكل ويضغطون عليهم بشدة جعلتهم يكادون ينعزلون عن بقية الجيش الملكى. وحين قطع الجيش عشرة أميال كان كل فرد من أفراده قد أنهك، وهدّه العطش، ولفحته الشمس، وأثقلته الدروع وقيد الرماة حركته. فأمر جى بالتوقف. وحين سمع ريمون الأمر، صاح: "وا حسرتا! يا إلهى، انتهت الحرب! إنا هالكون. والمملكة قد قضى عليها". وكان هو وحده يعلم بإمكان وجود بئر، فى لوبية، على المنحدرات الجنوبية لقرون حطين؛ فجرجر الجيش الملكى نفسه إلى الأمام قليلا، لكن البئر كانت جافة.

ولم يتمكنوا من الاستمرار؛ لا ولم يتمكنوا من التقهقر. فأقاموا المعسكر بالقرب من البئر الجافة، دون مرعى للخيل، ولا مياه لأى مخلوق، إنسانًا كان أو حيوانًا، وجفت حلوق الرجال حتى أنهم لا يكادون يأكلون. وطوال الوقت، كان جيش صلاح الدين فى الأسفل يأكلون ويشربون وكأنما كى يثيروا الغيظ ويسيلون اللعاب.

كان الليل مسبقا للجحيم، بما فيه من حرارة وذعر. وتحت جنح الظلام أحاط المسلمون بالفرنجة، وأشعلوا النار فى العشب الجاف، وجزوع الشجر. ومع مقدم الليل، هبت ريح ومع اشتعال أوراق الشجر الجاف بلون أحمر لامع، انبعث الدخان الحارق متغلغلا فى المعسكر الملكى. وفوق الضجيج الصادر عن اللهب وهبوب الدخان، استطاع الفرنجة أن يسمعوا ويروا المسلمين وهم يغنون ويصلون بصوت مرتفع؛ وتحمل أرول هذا كله. وحين جاء الصباح أخيرا - السبت ٤ يولية - رأى مقدار إحاطة المسلمين، ورأى أن القطة ذاتها على صغرها لا يمكنها النفاذ. ولكن بعيدا، أسفل كان بحر الجليل باديا، يلمع تحت الشمس الساطعة. فدفع منظر كل هذا الماء الكثير بمشاة الفرنجة إلى اليأس: فشقوا الصفوف واندفعوا نحو دائرة المسلمين فى هجوم مميت. كان المسلمون مستريحين، ومنتعشين نشطاء، وجيدى التسليح: كانت لدى كل رجل جعبة كاملة من السهام، وحِمل سبعين جملاً من السهام فى انتظار استعمالها لتزويد الجنود. ولم يتمكن أحد من مشاة الفرنجة من النفاذ.

بدأ هجوم المسلمين بسحابة من السهام "كأسراب كثيفة من الجراد" وقتل الكثير من جياد الفرنجة، فى الهجوم الأول الكبير، والفارس بلا جواد، فارس بلا حراك. ومع ذلك، وعلى الرغم من العطش والحرارة والدخان الذى لا زال يتصاعد من الجزوع المحترقة، فإن الفرنجة قاتلوا بشراسة. "اشتعلوا ولمعوا فى عذاب وجنون" كما كتب أحد المسلمين، "لكن حين كانت السهام تسقطهم صار من بدوا كأسود مجرد قنافذ" .

ومع موت وعجز المشاة عن الحركة التجأ الفرسان إلى قرون حطين. وحين أحكم المسلمون الخناق، أمر جى ريمون بانتهاز الفرصة الأخيرة والقيام بهجوم مباشر فى حين يتجمع هو ومن تبقى من الفرسان حول الصليب الحقيقى. وكان القسم الذى

هاجمه ريمون بقيادة ابن أخت صلاح الدين الذى رد بتكتيك كلاسيكى حين رأى هذا التحرك إذ إنه تراجع وترك الفرنجة يمرون، ثم ضم الصفوف. فأصبح هجوم ريمون عديم الفاعلية بل أسوا من ذلك: الآن انشطرت قوة الفرنجة، ولم يبق أمام ريمون سوى التقهقر فى اتجاه طربلس. وانفصل باليان وأرول بعد ذلك بوقت قصير مع ريجينالد حاكم صيدة؛ وبعد ذلك لم يهرب أحد.

وعلى القرون قام جى ومائة وخمسون من الفرسان الآخرين بوقفتهم الأخيرة، وفى وسطهم خيمة الملك الحمراء والصليب الحقيقى. وكان ابن صلاح الدين البالغ من العمر ست عشرة سنة فى الجيش:

وقال "لقد كانت أولى معاركى. وكنت إلى جانب أبى. وحين تراجع ملك الفرنجة إلى التل، قام فرسانه بهجوم جرىء، ودفعوا بالمسلمين إلى الخلف نحو أبى. فلاحظت غضبه – إذ تغير لونه، وجذب لحيته واندفع إلى الأمام، وهو يصيح: "أسقطوا الشيطان!" فانهال رجالنا على العدو، الذى تراجع صاعدا التل. وحين رأيت الفرنجة يفرون والمسلمين يلاحقونهم، صحت فى حبور: لقد قضينا عليهم!" لكن الفرنجة عاودوا الهجوم، وأزاحوا رجالنا مرة أخرى إلى حيث يوجد أبى. فحثهم مرة أخى، إلى التقدم، فدفعوا العدو فى أعلى التل. وصحت مرة أخرى: "لقد قضينا عليهم!" لكن أبى استدار إلى وقال: "اصمت! – نحن لم نهزمهم ما دامت هذه الخيمة قائمة هناك!" وفى تلك اللحظة انقلبت الخيمة. ثم ترجل أبى وجثا على الأرض، يحمد الله، ودموع الفرح تملأ عينيه".

وكان مندوب هيراكليوس من بين الموتى، وهو أسقف عكا الذى كان يحمل الصليب الحقيقى. وكان يفترض أن يكون حامله بلا سلاح أو درع، لكنه كان يرتدى سترة معدنية تحت ملابسه. فرأى المسيحيون، بعد ذلك، هذا على أنه نموذج على الافتقار الشامل للإيمان، وهو سبب الكارثة. من الصعب علينا الآن أن نفهم ما فى الحرب يدا بيد فى العصور الوسطى من بشاعة ورعب؛ ولكن بعد حطين، ساد الخطاب الإسلامى، فى شماتة وسعادة بما تم من عمل فى ذلك اليوم.

"ألقيت ضلوع من سقطوا عارية، فى ميدان القتال، متناثرة أشلاء على موقع النزال، مقطعة وممزقة، وانشقت الرءوس، وانشطرت الحلوق، وقسمت الظهور، وكسرت الأعناق، وصارت الأقدام أشلاء، وشوهت الأنوف، وبترت الأطراف، وتشوهت الأعضاء وتطايرت الأجزاء، وقلعت العيون، وخرجت الأحشاء، وصار الشعر بلون الدم، وقطعت الأصابع، وانكسرت الضلوع، وفككت المفاصل، وهشمت الصدور، وانقسمت الأجساد نصفين، وسحقت الأذرع، وذبلت الشفاة، وثقبت الجباه، وصارت قرمزية اللون، وتدرجت الصدور فى الدماء، وانخلعت السواعد، وكسرت العظام، ومزقت الثياب، وفارقت الحياة الوجوه، وفغرت الجراح فيها، وسلخت الجلود، وقطع الشعر، وانسلخ الجلد عن الظهور، وخلعت الأسنان، وسالت الدماء، وخرجت آخر أنفاس الحياة، وتدلت الأعناق، وسالت المقل، وعلقت الرءوس، وسحقت الأكباد، وهشمت الرءوس، وأزهقت الأرواح، أشباحهم ذاتها حطمت؛ كحجارة بين حجارة، إنها لعبرة لمن يعتبر".

فى تلك العبارة الأخيرة مفارقة كئيبة غير ذكية: فلم تكن هذه المعركة هى أول درس يتعلمه المسيحيون فى حطين. إذ تذكر بعض الكتب أن هذا التل ذا القمتين كان موقع موعظة الجبل التى قالها المسيح.

على الأقل لم يكن فى وسع الموتى معرفة عظم ما لحق بهم من هزيمة. ولكن بالنسبة لمن نجوا، وبالنسبة للبلاد المسيحية، لقد فقد شىء أكبر من الهزيمة فى ميدان القتال فى حطين: ألا وهو الصليب الحقيقى، الذى تم الاستيلاء عليه وجره فى التراب. وحتى حين انتهت الحرب، استمر الذبح. إذ تم إحضار من نجوا من الفرنجة، بما فيهم ما يربو على مائة من فرسان الهيكل والإسبتاليين، أمام صلاح الدين. وتم بيع الفرسان من غير الجماعات الدينية كعبيد؛ ثم قطعت رأس فرسان الجماعتين المقدستين واحدا واحدا أمام صلاح الدين. فى ذلك اليوم مات مائتان وثلاثون من فرسان الهيكل منهم من أعدم ومنهم من قضى فى القتال؛ ولم ينقذ سوى دى ريدفور، ومعه الملك جى، ومجموعة من البارونات ورينولد دى شاتيون. ذلك أن الملك وريدفور

كانا رهينتين أثمن من أن يقتلا؛ والبرونات يمكنهم تلقى فديات عنهم؛ وصلاح الدين كان قد أقسم على أن يقتل دى شاتيون بنفسه. فاقتيد دى شاتيون، ودى ريدفور والملك جى إلى خيمة صلاح الدين، بالقرب من ميدان القتال. وحياهم صلاح الدين جميعا بكل أدب، وأمرهم بالجلوس والراحة؛ ثم قدم لجى كوبا من ماء الورد، المثلج بالجليد. وحسب العادات الإسلامية فإن تقديم الطعام أو الشراب يضمن الأمان لمتلقيه؛ فشرب جى شاكرا وأعطى الكوب لشاتيون. فقال صلاح الدين على الفور لمترجمه: "هذا الكافر لم يحصل على إذن منى بالشراب، وسوف ينقذ حياته بهذه الطريقة". ونهض صلاح الدين واقفا أمام رينولد وعدد خطاياه بغضب. ولكن لم يكن هناك أى شيء يمكنه أن يجعل رينولد يحس بالخجل، فرد بوقاحة. فاستل صلاح الدين سيفه، وبحركة سريعة واحدة خلع رأس رينولد.

فأخرس الذعر جى؛ ولكن حين تم سحب الجثة من الخيمة، استدار إليه صلاح الدين وقال: "أقسمت مرتين بأن أقتل ذلك الرجل: مرة حين حاول الهجوم على مكة والمدينة ومرة حين خرق الهدنة واستولى على القافلة؛ لكن الملك لا يقتل ملكا".

وغادر جيش المسلمين ومعه رهائنه وعبيده ميدان القتال، بسرعة وبدءوا مسيرة طويلة فى بقية فلسطين، كانت مسيرة أشبه بموكب النصر منها إلى الحملة الحربية. وفى ٥ يولية، بعد حطين بيوم، استسلمت طبرية؛ وأعطيت زوجة ريمون وأهل بيتها، مرورا آمنا إلى طربلس. وفى اليوم العاشر سقطت عكا؛ ونبلس فى اليوم الرابع عشر؛ ويافا فى العشرين؛ وتورون فى اليوم الرابع والعشرين؛ وصيدة فى التاسع والعشرين؛ وبيروت فى السادس من أغسطس؛ أما عسقلان ففى الرابع من سبتمبر.

ومع مقدم منتصف سبتمبر لم تكن هناك ممتلكات للفرنجة جنوب طربلس سوى بضعة قلاع وميناء صور والقدس نفسها. وكانت صور على شبه جزيرة، لا يربطها بالساحل سوى شريط ضيق من الأرض؛ وقد هرب إلى هناك جميع البارونات المهزومين، وأقاموا دفاعا قويا. أما القدس، فلم يكن بها سوى فارسين؛ لكنهم رفضوا أن يتركوا المدينة تضيع، مع أن صلاح الدين وعدهم بالحياة والحرية. وكان من بين

اللاجئين الذين اكتظوا فى المدينة المقدسة زوجة باليان حاكم أبين وأبناؤه؛ أما باليان نفسه فكان قد ذهب إلى صور. وطلب من صلاح الدين السماح له بالمرور الآمن كى يحضر أسرته إلى صور، فسمح له بذلك، بشرط ألا يحمل أى سلاح، وألا يقيم سوى ليلة واحدة فى القدس. ووافق باليان بحسن نية، وذهب إلى القدس مع أرول؛ ولكن ما إن أصبح هناك حتى كان من المستحيل عليه أن يحفظ قسمه: إذ إن المواطنين ببساطة رفضوا أن يدعوه يرحل. وكان ذلك أمرا محرجا بالنسبة لرجل شريف، فكتب باليان إلى صلاح الدين شارحا سبب خرقه لوعده، فحله صلاح الدين، كدأبه، من قسمه، وقدم حراسة تصحب أسرته. ذلك أن مثل هذه الإيماءة على أهميتها لم تكلف صلاح الدين شيئا، لأن الجميع كانوا يعلمون أن القدس مآلها إلى السقوط؛ فكان ذلك نبلاً خالصًا، وعطفًا لا ضرورة له.

وبدأ حصار المدينة المقدسة فى ٢ سبتمبر. وفى ٢ أكتوبر، ذكرى صعود النبى محمد إلى السماء، (يقصد الإسراء والمعراج) كتب أحد فرسان الهيكل يدعى تيريك إلى هنرى الثانى، ملك إنجلترا:

"وا حسرتاه! لقد سقطت القدس. وأمر صلاح الدين بأن يتم إنزال الصليب من قمة هيكل الرب، وأن يحمل لمدة يومين فى المدينة، ويضرب بالعصى. وبعد ذلك أمر بأن يغسل الهيكل بماء الورد، من الداخل والخارج ومن أعلى إلى أسفل".

قبل ذلك بثلاثين سنة فحسب، زار مدينة القدس حج ألمانى اسمه جون فورتسبورج. وقال إن المبانى التى يمتلكها فرسان الهيكل عبارة عن مدينة داخل المدينة، وحصن داخل الحصن؛ وكانت الإسطبلات من الاتساع بحيث إنها كان بها ما يزيد على ألف وخمسمائة من الجمال، أو ما يربو على ألفى حصان. وكانت قاعة طعامهم قاعة واسعة مسقوفة، لا تزينها سوى غنائم الحرب – من سيوف وخوزات ومعاطف واقية أخذت من العدو. فتجولت القطط والكلاب فوق الأرضية التى انتشر عليها ورق الشجر الجاف. وكانت عنابر نوم الإخوان غرفًا صغيرة مؤثثة بفراش، ومقعد وصندوق مفتوح لكل فرد منهم.

وفى الخارج هناك حجرات تخزين مسامير الألجمة وفرن صهر المعادن، ومصنع الدروع، وورش الحائك والإسكافى والمخازن والمخبز، والمطابخ وأقبية الخمور، ومخازن العلف - المحفورة فى الصخور الطبيعية ومسلخ الحيوانات.

فى خلال أسبوع واحد من الفتح الإسلامى، تغير ذلك كله لأن صلاح الدين بذل جهود خاصة لإزالة جميع آثار فرسان الهيكل. وفى يوم الجمعة، ٩ أكتوبر، بعد تنظيف وتطهير المسجد الأقصى صلى هناك؛ ثم بدأ فى التخلص ممن نجوا من الحصار. ولا يمكن أن يكون هناك نقيض أكبر من هذا مع تصرف الفرنجة عام ١٠٩٩، إذ كان لا يزال هناك ما يزيد على عشرين ألفا من المسيحيين على قيد الحياة؛ تم أفتداء سبعة آلاف بالمال من الخزانة الملكية والجماعتين العسكريتين، وتم الإفراج ببساطة عن ألف ومائتين؛ وبقى المسيحيون من أهل البلاد فى القدس. أما أولئك الفرنجة الذين لم يتمكنوا من دفع الفدية - وكانوا عدة آلاف - فقد صاروا عبيدا؛ ولكن لم يقتل أحد. لو أن هيراكليوس أحسن التصرف، ربما لم يكن هناك عبيد مطلقا؛ لكن الأخلاق لم يكن لها دور كبير فى حياته. ذلك أنه دفع فديته من عشرة آلاف قطعة ذهبية وغادر المدينة، مما أثار اشمئزاز المسلمين والمسيحيين على حد سواء، مثقلا بعبء حقيبة مملوءة بالذهب، ويقود قافلة من العربات المحملة بالبسط، وغير ذلك. ولا يعرف أحد ماذا جرى له بعد ذلك؛ ويكفى تعليق فولر تيرس: "لقد عاش عيشة ملؤها الرذيلة، ومات مغمورا".

ابتداء من معركة حطين حتى سقوط القدس، استغرق فتح فلسطين اثنى عشر أسبوعا وستة أيام. ولم تتبق سوى صور؛ إذ إن صلاح الدين افترض أنها سوف تقع بسهولة كما وقعت بقية المدن، فلم يعبأ بالاستيلاء عليها فى وقت مبكر. ومما أذهله كما أذهل الفرنجة أن الوقت كان قد تأخر كثيرا. ففى منتصف يوليه، بعد حطين بعشرة أيام، كان الميناء على استعداد للاستلام؛ ثم أبحرت سفينة إلى الداخل، حاملة كونراد، مركيز دى مونفرا، وشقيق زوج الملكة سيبيلا، من زواجها الأول. وتولى على الفور الدفاع عن المدينة، وشغل جيش المسلمين بالغنائم الأكثر سهولة.

وفى نوفمبر، بعد أن أخضع صلاح الدين بقية البلاد، عاد إلى أسوار صور؛ لكنها حينذاك كانت قد قويت كثيرا، وأصبحت المدينة جيدة التنظيم، فلم يتمكن المسلمون من اقتحامها. وفى يوم من العام الجديد، ١١٨٨، رفع صلاح الدين الحصار الثانى عن صور، وعاد بجيشه إلى الداخل. لقد بدأ عام ١١٨٧ بالخيانة والدسائس فى بلاد ما وراء البحر. وفى نهايته لم يتبق شىء من مملكة القدس اللاتينية؛ لا شىء سوى عظام جافة متناثرة فى أنحاء قرون حطين - وميناء واحد عبارة عن شبه جزيرة. بالنسبة للمسلمين، لم تكن صور سوى مجرد مصدر ضئيل للإزعاج؛ أما بالنسبة للفرنجة، فكانت الصخرة الأخيرة، والأمل الوحيد.

الفصل الثامن

قلب الأسد

قبرص والأراضى المقدسة، ١١٨٩ - ١١٩٣

ليس للموتى ولا للسجناء أصدقاء ولا أقارب

ريتشارد قلب الأسد، في أسره.

مع تفكك فلسطين الإفرنجية فى خريف عام ١١٨٧، تجمع فرسان الهيكل الذين تم اجتياح أراضيهم فى صور. وكان تيريك من بينهم، وهو الذى كان قد كتب إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا؛ إذ كان هو مدير الهيكل فى القدس، وفى أثناء أسر دى ريدفور تولى مسئولية الجماعة. وفى صور، تعاون مع كونراد دى مونفيرا، إذ كان يشهد على الوثائق القانونية، وينظم دفاعات المدينة، ويقوم بكتابة مناشدات حادة إلى الغرب. وبدا أنه يعمل بشكل جيد مع ريدفور - عمومًا، لم نجد انتقادا من أيهما للآخر. ذلك أن الوضع الذى وجدا نفسيهما فيه يتطلب التعاون؛ غير أن العلاقة الجيدة لم تدم. ذلك أن ريدفور عاد فى أوائل عام ١١٨٨ إلى فرض إرادته على فرسان الهيكل مرة أخرى؛ إذ كان قد نال حريته بعد أن أمر إخوانه فى غزة بتسليم القلعة لصلاح الدين. وفى يولية، تم إطلاق صراح جى دى لوزينيان أيضا.

وبعد ذلك بوقت قصير، كتب كونراد لرئيس أساقفة كنتربرى. ويبين خطابه الأثر الذى كان يتمتع به جى ودى ريدفور.

إذ قال: "إنك تعلم ماذا تكلفت كى أدافع عن المسيحيين فى صور؛ ولأنى أكافح كى أحتفظ بهم هناك، فإن دى لوزينيان، الملك السابق يهاجمنى هو وباروناته ومعلم الهيكل: وهم لا يكتفون بتلطيخ سمعتى، والقدح فى شرفى، بل يعترضون المساعدة الضرورية بالنسبة لى؛ والأسوأ من ذلك أن دى ريدفور استولى على صدقات ملك إنجلترا، ويرفض أن يعطيها لى".

لم يكن التعليق الأخير حقيقيًا، ذلك أن فرسان الهيكل كانوا قد أنفقوا جميع حصتهم من صدقات هنرى فى الأعداد لحطين، وفى الفديات فى القدس - مع أنه من الجائز جدا أن يكون دى ريدفور قد ادعى، ببساطة من قبيل الحقد، أن الأموال لا زالت موجودة، ويتم حجبها. لكن بقية الشكوى كانت صادقا؛ وأهم ما فيها عبارة "الملك السابق". إذ كان جى يظن أنه، طالما كان ملكا ذات مرة، فهو ملك دائما، لذا فحين تم إطلاق صراحه ذهب راكبا إلى صور، كى يتحكم فيما تبقى من مملكته. ومهما يكن من أمر، فإن كونراد كان يعلم أنه يحسن التصرف بشكل أفضل من جى، ورفض التخلى عن السلطة، بل رفض السماح لجى بدخول المدينة. ولمدة عام كامل، ظل الملك الشرعى غير قادر على الحكم، وبدون كونراد كان من الممكن فتح المملكة. وكان كونراد يعتبر أن جى فقد حقه فى الحكم؛ وأن العرش خال، فى انتظار كتابة اسم كونراد عليه. وكان فى ذلك ما يكفى لإحياء المنافسة القديمة؛ فعظام رينولد دى شاتيون ترقد فى حطين، ويقال إن ريمون من طربلس مات خجلا، ولكن فرسان الهيكل بقيادة دى ريدفور ما يزالون يدعمون جى، وكان أهل صور عندئذ قانعين بكونراد. وبدا لهم أن جى لم يكن قط ملكا محظوظا، ومما زاد من فداحة الانشقاق انتشار شائعات بأن دى ريدفور وعد صلاح الدين بأنه سوف يعتنق الإسلام.

ولم ينتظر جى طويلا مع انغلاق بوابات المدينة فى وجهه، ولكن بعد قضاء الشتاء فى طربلس، عاد إلى صور فى ربيع عام ١١٨٩ وجدد مطالباته. ولما تم تجاهله ورفضه كما حدث من قبل أقام معسكرا خارج أسوار المدينة. وفى نفس الوقت تقريبا، وصل أسطول من بيزا يتكون من خمس وخمسين سفينة، وهذا يعد دعما مهما لكونراد؛ ذلك

أن المساعدة الوحيدة التى جاءته من الغرب كانت كتيبة من صقلية فى العام السابق. ويبقى جى أمام المدينة لمدة أربعة أشهر عديمة الفائدة، وفجأة فى نهاية أغسطس نفد صبره، ورحل - آخذا دى ريدفور معه، وكذلك فرسان الهيكل والأسطول البيزى والصقليين. ولما كان البعض يباركون كونراد كمخلص، ويلعنه البعض الآخر كغاصب، لم يكن فى وسعه فعل أى شىء سوى مراقبتهم وهم يرحلون، ثم يكتب شكواه المريرة. وكان جى قد قرر الذهاب إلى عكا. وعكا شأنها شأن صور، كانت مبنية على شبه جزيرة؛ لكنها تختلف عن عكا من حيث إن المسلمين كانوا يستولون عليها. لكن جى الذى كان لديه أسطول كبير يحاصر به اتجاه البحر، وجيش يغطى اقتراب الأرض، أعتقد أنه يستطيع محاصرة المدينة والاستيلاء عليها. وكان قراره إيماءة تحدى كبيرة وشجاعة فى وجه كونراد؛ فهو كملك بلا مملكة لم يكن لديه الكثير الذى يخسره، سوى حياته. أما النجاح فى عكا فمن شأنه أن يقدم له قاعدة مناسبة، ومصداقية لم يتمتع بها من قبل.

من المؤكد أنه شجاع، لكنه أيضًا متهور، ذلك أن جى كان يعول على انشغال صلاح الدين فى مكان آخر. أن كل شىء فى هذا القرار - بما فى ذلك من تهور وافتقار واضح إلى التفكير يوحى بأن من زرعه فى عقل جى، هو حليفه العبقرى الشرير دى ريدفور. ذلك أن دى ريدفور المهووس، المتصلب، الخالى من التعقل، ربما ظن فى ذلك الوقت بأنه باعتباره معلم ميليشيا الرب يحمل تعويذة للحياة. فالحظ، من قبل، كان يدفع به إلى الأمام - فى كريسون، وفى حطين، وفى سجنه. أما فى هذه المرة فقد خذله. لقد بدأ حصار عكا فى ٢٧ أغسطس. وكادت المدينة تسقط تحت الصدمة الأولى؛ غير أن الفرنجة لم تكن لديهم آلات حصار، فلم يتمكنوا من تأكيد الميزة التى أتيحت لهم. وكان الأمل فى ألا يعير صلاح الدين أى اهتمام ضربا من ضروب الجنون. فكان هناك فى خلال اسبوع، والفرنجة، الذين يحيطون بعكا برا وبحرا، كان خلفهم أيضًا جيش من المسلمين. وفى ٤ أكتوبر اصطدم الجيشان. ولم يكن القتال حاسمًا؛ ولكن فى أثنائه، تم أسر دى ريدفور مرة أخرى، وألقى به فى

السجن مرة أخرى. ولم يعد. والجنون شيء نسبي؛ ويمكن تعريفه بأنه اقتناع طاغ يختلف عن الاعتقاد الذى يعتقده عامة الناس. وفى عصرنا، الذى يفتقر إلى العقيدة الدافعة فى بلدان المسيحية فى العصور الوسطى يمكن أن تبدو قصة الحروب الصليبية بأكملها ضربا من الجنون - ذلك أن الكثير من الطاقة والجهد والكثير من الأرواح بددت على تلك القطعة الصغيرة من الأرض التى تسمى الأراضى المقدسة. أما بالنسبة لهم، لم يكن هذا جنونًا، لأنهم كانوا يعتقدون أن هذه الأرض مقدسة. ولكن دى ريدفور، آخر معلم منتخب لفرسان الهيكل، فى القدس، ربما كان مجنونا بالفعل.

وما إن ولى، بدا أن حظ جى يتغير، ذلك أنه مع اقتراب الشتاء، مرض صلاح الدين، وسرح جزء من جيشه، وتراجع إلى الداخل مع من بقي. وعلى الرغم من أن المسلمين فى عكا دعموا دفاعاتهم، ولم يكن هناك أى تدخل مباشر متوقع من الغرب رفض إرسال رجال ضد الفرنجة فى الوقت الذى لا يمكنه فيه أن يكون فى القيادة. وقال، "إذا لم أكن هناك معهم، لن يحققوا شيئا مطلقا، وقد يضر ذلك أكثر مما يفيد". فحفر رجال جى الخنادق، وبنوا تحصينات من الطين، واستعدوا لخنق عكا خنقا بطيئا. لو أنهم عرفوا ما ستستغرقه هذه العملية ربما لم يكونوا ليبدءوها أصلا؛ ذلك أنه حين وصلت الحرب الصليبية الجديدة بعد عامين، كانوا لا يزالون هناك. وكان الأوربيون قد ألفوا منذ وقت طويل رفض الأنباء السيئة المعتادة، والتوقعات الأكثر سوءًا، التى كانت تأتى من الأراضى المقدسة. وأخيرا كان للأنباء الفظيعة عن حطين أثرها - بلبلة مرتبكة من الندم. وكتب المؤرخ توماس فولر معلقا:

"لقد انتحب الكرادلة نحيبا يفوق الوصف، مقسمين على إصلاح الأخلاق؛ وألا يتلقوا الرشى أبدا، وألا يحيوا حياة الرذيلة؛ أجل، وألا يركبوا حصانا ما دامت الأرض المقدسة تحت أقدام الأتراك. غير أن هذا الانفعال تبدد بما فيه من عنف، وانتهى إيمان هؤلاء البحارة مع العاصفة".

وفى أكتوبر عام ١١٨٧، وحتى قبل أن تصل أخبار القدس إلى روما، كان البابا جريجورى الثامن يناشد الناس من أجل شن حرب صليبية ثالثة. وصدرت عن أمراء

أوربا - خاصة هنرى الثانى، ملك إنجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا - أصوات ضجيج عن التقوى والورع؛ بل إن هنرى قرر "عشور صلاح الدين" عبارة عن ضريبة مقدارها عشرة فى المائة على دخل كل شخص من غير رجال الدين فى مملكته، كى يدفع المال من أجل حرب صليبية. ولكن فى البداية لم يحدث الكثير غير ذلك. إذ تم جمع المال بنجاح، مع أنه وقعت فضيحة حين صاح أحد فرسان الهيكل بأن جيلبيرت من هوكستون حاول اختلاس المال الذى كان فى عهدته؛ ومع ذلك لم تقع حرب صليبية. وكان السبب هو الحرب شبه الدائمة بين إنجلترا وفرنسا؛ كانت قد خمدت بعد الصدمة الأولى لسقوط القدس، ثم اشتعلت مرة أخرى بعد أشهر قليلة، مما أبقى على الملكين داخل وطنيهما. ولكن ثمة شخص واحد كان قد أخذ الصليب وقرر أن يفى بقسمه: إنه كونت فرنسى صعب المراس يدعى ريشار من بويتو. ولقد أكسبته رحلته إلى الأراضى المقدسة والأعمال التى قام بها هناك اسما جديدا: ريتشارد قلب الأسد - ملك إنجلترا.

ومن المفارقة أن يصبح ريتشارد أحد أبطال إنجلترا الشعبيين، ليس فقط لأنه لم يكد يعيش فى إنجلترا، بل كاد يجعل البلاد أقرب إلى الفقر، بل أنه لم يكن يتكلم الإنجليزية. فى محاولة فهم ريتشارد ورد الفعل الشعبى الإنجليزى عليه - وفى محاولة لمس قلب الأسد - على المرء أن ينقب فى الحكايات والأساطير التى دارت حوله وأحاطت به. ذلك أن معظم هذه الحكايات خلقت بعد وفاته بأربعمائة سنة، فتم تكبير الأحداث الحقيقية، كما ألصقت أحداث خيالية. ذلك أن كتاب القصص الخيالية استعاروا من الكثير من الحكايات عن الشخصيات الحقيقية، أو الأسطورية وأطلقوا لأنفسهم العنان فى مقارنة ريتشارد بأبطالها - من أمثال شارلمان، ورولاند، وأرثر، وروبين هود. وإذا ما تغلغل المرء فى هذه الزخارف، سوف يقف وجها لوجه أمام رجل أقرب موازٍ له هو البارون اللص رينولد دى شاتيون. بل إنه لو توفر لدى رينولد بعض الشاعرية داخل نفسه والقليل من الدعاية، لكان من الممكن أن يكون بطلا شعبيا مثل ريتشارد، فأفعالهما متشابهة بشكل ملحوظ. أما الفروق، فأولا، كان دافع رينولد فى

المقام الأول هو الطمع، فى حين كانت أفعال ريتشارد بها قشرة سميكة من الدين؛ وثانياً، فإن ريتشارد، كملك أوربى، كان يتحكم فى جمهور أكبر من رينولد - وهو، فوق ذلك، جمهور بعيد بشكل مريح، عن موقع الأحداث؛ وهو أكثر ثقافة وتهذيباً عن جمهور رينولد؛ وهو مستعد للاحتفاء بأبطاله بالغناء والشعر والنثر.

ولد فى إنجلترا فى سبتمبر عام ١١٥٧، وكان ريتشارد هو الابن الثانى لهنرى الثانى ولينور من أكوتين التى طلقها لويس الشاب ملك فرنسا عام ١١٥٢ بعد عودته من الحرب الصليبية الثانية عديمة الجدوى. ونشأ ريتشارد فرنسيا أكثر منه إنجليزيا، إذ كان يعيش فى بلاط أمه فى بواتيى، ويتعلم مثله. وكان، كرجل، تجسيدا لهذه المثل - إذ كان طويلا، قويا وأنيقا، له شعر أحمر ذهبى؛ وكان جم الطاقة؛ وفارسا ممتازا، يتقن استخدام السيف؛ كما كان سريع الانفعال، لكن تسهل تهدئته - خاصة بواسطة الذهب؛ وكان قائد معركة من الطراز الأول، شهما مع النساء وشاعرا جميلا فى البلاط. أى أنه كان تجسيدا لعصره. وتعد مصادر شهرته فى الفروسية والشهامة الرومنسية أقرب إلى فرنجة فرنسا وإنجلترا منها إلى فرنجة فلسطين. ذلك أن مشكلات فلسطين أكثر إلحاحا من العثور على قافية للغناء؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن نصف مغامرات ريتشارد حدثت خارج الأراضى المقدسة، فى رحلاته إلى هناك والعودة منها. إذ مرت أربع سنوات بين تلقيه الصليب ووصوله إلى عكا. بالنسبة للبلاط الرومانسى فى بواتيى، فإن الصليبى الكامل، الذى كان فى وقت من الأوقات يعد نموذجه فارس الهيكل الورع المتقشف، بدأ الآن قديم الطراز قليلا، ولكن إذا ما قام الرجل ببعض الفتوحات العارضة فى طريقه، وهو ذاهب لمقاتلة الكفار، عندئذ، يكون ذلك أفضل. أما بالنسبة للإنجليز، فكان الأمر لا يزال أكثر بساطة، ذلك أنهم، حتى فى ذلك الوقت كان لديهم إحساس متطور بالقومية. وقد يكون ريتشارد نصف إنجليزى بالمولد، وتقريبا فرنسيا كله بالتربية؛ غير أن هذا لم يكن مهما؛ إذ إن تتويجه جعله إنجليزيا كله، وجعل من شخصيته مثالا "لجميع فرسان إنجلترا البواسل"، حتى ذلك الوقت كان الإنجليز قد لعبوا دورا صغيرا نسبياً فى الحروب الصليبية؛ ولكن ما

إن أعطاهم ريتشارد دورا قوميًا فى المشروع، حتى كالوا له الثناء-بحيث يغتفر للمرء أن يظن أنه هزم جميع المسلمين وحده.

لقد أصبح ملكا على إنجلترا فى ٦ يوليه عام ١١٨٩، وتم تتويجه فى ٣ سبتمبر. فشرع مباشرة فى إعادة تنظيم المملكة، والاستعداد للحرب المقدسة، "عن طريق ألف مهارة أميرية جامعًا الكثير من العملات وكأنما لا ينوى إعادتها". وأخيرا أمكن البدء فى حربه الصليبية.

وكان فيليب أغسطس ملك فرنسا قد حزم أمره أخيراً بأن من الخير لسياساته أن ينضم خيراً من البقاء فى الخارج؛ وبذلك لم يكن المشروع ملكًا لريتشارد، أو حتى ملك لإنجلترا؛ غير أن فيليب كان رجلا هادئا لا يحب التظاهر، ولما كانت شخصية ريتشارد المشعة هى التى سادت الحرب الصليبية، بدا وكأنه، هو الوحيد الذى شارك فى الحرب.

وغادر المكان من فيزيلى فى فرنسا فى ٤ يولية ١١٩٠، - بعد ثلاثة أعوام بالضبط من معركة حطين. وبعد ليون بمسافة قصيرة اتخذ كل منهما طريقا مختلفا إذ اتجه فيليب إلى جينوا، أما ريتشارد فاتجه صوب مرسيليا، حيث انتظر أسطول كل منهما على حدة لنقلهما مع جيشيهما إلى بلاد ما وراء البحر. وكانا قد قررا فصل الرحلة فى صقلية؛ فذهب فيليب مع رجاله بحرا، ووصلوا بعد رحلة آمنة عند ميسينا فى ١٤ سبتمبر. أما ريتشارد فقد كان هناك بالفعل. فهو، شأنه شأن رينولد دى شاتيون كان لا يحب البحر، وقرر فى آخر لحظة أن يسافر برا من خلال إيطاليا فى حين سافر رجاله بحرا. وفى أثناء مروره بإحدى القرى حاول سرقة أحد الصقور، فهجم عليه صاحبه وكاد يقتله. ففر، لكن هذا الحدث غير اللائق دمغ رحلته بأكملها، وحين وصل إلى ميسينا فى ٣ سبتمبر، لم يكن يشعر بأى ندم، وكان فى حالة مزاجية غاية فى السوء.

وحدث أن أخته المفضلة، جوانا كانت فى صقلية، تقريبا سجينة عند تانكريد الملك. وكان رد فعل ريتشارد دائمًا حادا فى الإهانات، على أنه، هو شخصيًا كان

يسب الناس بحرية؛ وعلى الرغم من إطلاق تانكريد الفورى لصراح جوانا كان عمل ريتشارد الثانى فى حربه الصليبية هو الاستيلاء على مدينة إيطالية صغيرة نيابة عن أخته. وتبع ذلك بأن وضع قواته فى دير صقلى ملقيا الرهبان فى الخارج بالقوة. وكان هناك اعتقاد شائع فى إيطاليا وفرنسا بأن الإنجليز لهم أذيال، ولم تكن طبيعة ريتشارد الحادة لتتحسن عند سماع الصقليين يرددون هذا الرأى. وفى ٣ أكتوبر قام رجاله بنهب ميسينا، ورفرفت رايته فوق البلدة.

ولم يكتف ريتشارد بإزعاج الملك الذى يستضيفه، تانكريد، بل راح يسىء إلى الملك فيليب شريكه فى الحرب الصليبية. ذلك أنه كان هناك تفاهم منذ عدة سنوات بأن ريتشارد سوف يتزوج من أخت فيليب أليس؛ والآن، أعلن أنه لا يوجد ما يحمله على فعل ذلك. ولكن بشكل لا يعقل، - كما تقتضى أساليب السياسة - ابتلع فيليب الإهانة؛ وأعطى تانكريد لريتشارد وجوانا عشرين ألف أوقية من الذهب لكل منهما؛ وقضوا جميعا الشتاء على الجزيرة الصغيرة.

غادر فيليب صقلية فى ٣ مارس، أما ريتشارد فغادرها فى ١٠ إبريل عام ١١٩١، وبقى إخوان فرسان الهيكل والإسبتاليون مسئولين عن ميسينا. وكما حدث من قبل، كانت رحلة فيليب بطيئة وسالمة؛ لكن ريتشارد بدا وكأنه يجتذب المتاعب والأحداث أينما ذهب. ذلك أن رياحا عاتية وأمواجا عالية بعثرت أسطوله. وغرقت إحدى السفن، واثنتان قزف بهما على قبرص، وتوقف ريتشارد نفسه أولا فى كريت ليوم واحد، ثم توقف لمدة عشرة أيام فى رودس. ومرض جدا فى أثناء العاصفة حتى أنه كاد لا يفكر فى رحلة بحرية أخرى، ولم يغادر رودس بحرا إلا لأنه لم يكن هناك طريق آخر. وبعد أن أرسل بنبأ إلى عكا بأنه سوف يصل قريبا، توجه إلى قبرص - لأن السفن التى ألقى بها إلى هناك لم تكن تضم أخته فقط وإنما تضم أيضا عروس المستقبل، بيرجينجاريا من نافار. وكان الوصول إلى البر فى ٨ مايو. وكان إمبراطور قبرص الذى نصب نفسه، إزاك، قد منع جوانا وبيرجيناريا من نزول الجزيرة، وبعد أن قضى ريتشارد أياماً كثيرة فى البحر، كان يشعر بالرغبة فى الانتقام. وفى ١ مايو، وصلت

السفن من الأراضى المقدسة، تحمل فرسان هيكل من أرفع الرتب، كما تحمل جى دى لوزينيان، المفعم بالأمل والمتلهف للمساعدة. وفى اليوم الثانى عشر، تزوج ريتشارد وبيرجيناريا ملكة إنجلترا؛ وفى اليوم الثالث عشر، حين وصلت بقية سفن ريتشارد، وبمساعدة جى، وفرسان الهيكل بدأ هجوما شاملا على الجزيرة. وقبرص، قبرص القابعة فى البحر، عبارة عن جزيرة صغيرة: إذ تزيد مساحتها قليلا على ٣٥٠٠ ميل مربع. غير أنها ليست بالمكان الذى يمكن اختزاله فى عبارة واحدة، سواء فى الواقع أو الخيال. فى الأزمنة القديمة كان شكلها يقارن بأحشاء علقت كى تجف. فعلى الساحل الشمالى، هناك كيرينيا بما بها من تحصينات ضخمة فينيسية ترتفع من شاطئ البحر. وفى الجنوب توجد ليماسول، حيث نزل ريتشارد، وخليج بافوس القديم، حيث ولدت أفروديت. وإلى الغرب، فى شبه جزيرة أكاماس، توجد الكهوف التى حفرها القديس نيوفوتوس، وحيث كتب عن "سحابة الإنجليز" الذين غزوا الجزيرة. وإلى الشرق، توجد شبه جزيرة كاربازيا، التى يمكن للمرء أن يرى منها، فى يوم صاف جبال لبنان؛ وفى وسط الجزيرة توجد جبال ترودوس، بما بها من مناجم نحاس قبيحة فاغرة فيها، ونيقوسيا، العاصمة؛ وبين قمم الجبال المليئة بالرياح، وصمت البحر وصخبه، يبدو أن هناك كل منظر وكل خضرة - من حقول حنطة، وبساتين غريبة من المشمش والموالح؛ مزارع لوز وزيتون؛ وخلايا نحل؛ وغابات صنوبر، وشقائق نعمان، وشجيرات، وبلوط ذهبى وأشجار كرز. وتوجد كنائس وأديرة فى كل مكان، الكثير منها مهجور أو محطم.

وفى الوقت الذى نزل فيه ريتشارد قلب الأسد فى ليماسول، كانت حضارات ميسيناى، وفينقيا، وروما ومصر وبيزنطة قد تركت آثارها على قبرص. وعلى بعد بضعة أميال من ليماسول، تحت أمواج خليج أكوتيرى، تقع مدينة أماتوس الغارقة؛ وإلى الغرب فى كوريوم، يوجد ضريح أبولو الرومانى، فى الغابات، ومذبحه لا يزال فى مكانه. وبقيت قنوات وحمامات واستاد يتسع لستة آلاف من البشر. أما الشىء الأكثر غموضا من أى من هذه الأشياء، فهو قصر فونى، فى الشمال بجانب خليج نورفو. إذ

توجد الجدران، والشرفات، والأفنية، والحمامات، والممرات وبئر السلم، التى يرجع تاريخها جميعا إلى القرن الخامس ق.م. ومع ذلك، لا يعرف أحد على وجه الدقة من بناها، ومن كان يعيش هناك، ومن أين جاء هؤلاء الناس. لقد كان احتلال فرسان الهيكل هو أقصر احتلال فى تاريخ هذه الجزيرة، كما أنهم تركوا أقل ما يمكن أن يتركه أحد: كنيسة صغيرة فى فاماجوستا، وبعض الصخور المحفورة فى كتدرائية القديسة سوفيا فى نيقوسيا، وفى الخارج فى شبه جزيرة كاربزيا تركوا قلعة تسمى كاستريا، لا يبقى منها سوى الأساس. ليس ثمة ما هو أكثر من ذلك؛ إذ يبدو أنه لم يكن هناك وفاق تقريبا بين قبرص وفرسان الهيكل. ذلك أنها، بالنسبة لهم كانت دوما جزيرة منكودة الطالع؛ أما بالنسبة لريتشارد قلب الأسد، فكانت عكس ذلك تمامًا: لقد جلبت عليه قبرص شهرة أكبر وثروة أكبر مما كان لديه فى أى وقت من الأوقات. وتم ذلك بسرعة أيضًا، ذلك أن فتحه المرح الصاخب لم يستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع.

ففى نهاية ١١٩١، كانت الجزيرة بأكملها فى يدى ريتشارد، واستسلم الإمبراطور إزاك. ولم يشترط إزاك سوى شرط يثير الشفقة إلى حد ما - هو ألا يقيد بالحديد؛ فوضعه ريتشارد فى أصفاد من السلاسل الفضية كنوع من الفكاهة الثقيلة. وفى ٥ يونيه، بعد أن وضع إزاك فى الأصفاد، وبعد أن تبع جى وفرسان الهيكل، وصارت ثروات قبرص فى قبضة ريتشارد، وأسندت مسئولية قبرص إلى اثنين من الإنجليز، أبحر ريتشارد مرة أخرى - هذه المرة إلى عكا، أخيرا.

ولا بد أنه كان يشعر بالسعادة لأن الرحلة لم تستغرق أكثر من ثلاثة أيام. ومع ذلك، ففى هذا الوقت القصير جدا، تمكن من الدخول فى قتال، هذه المرة مع غليون (من القرون الوسطى) عبارة عن سفينة مؤن كبيرة للمسلمين تحمل الطعام إلى عكا. وأغرق الغليون - للأسف قبل التمكن من إفراغ شحنته - وقتل طاقمه، أو ماتوا فى أثناء الغرق. وبالطبع خرجت حكايات عن هذه الحادثة؛ وتروى هذه الحكايات عن ريتشارد وهو موليا ظهره إلى الشراع، حيث قتل الجميع سوى ثلاثين من الطاقم الذى

كان يتكون من ألف وستمائة. من الواضح أن دوره لم يكن بكل هذا الحجم؛ لكنها كانت أول مرة يقاتل فيها مسلمين حقيقيين. ويبدو أن هذا أفهمه معنى الحرب المقدسة: إن هناك أناسًا حقيقيين لا يشاركونه العقيدة، وهم على استعداد لأن يقتلوا كى يحموا عقيدتهم. وهكذا، فحين وصل إلى عكا فى ٨ يونية عام ١١٩١، كان مدربًا ومشحونًا، ومستعدا ومتحرقا للبدء فى القتال. وكل ما كان فى حاجة إليه هو أن يتغلب على دوار البحر.

أما فيليب ملك فرنسا فلم يكن رجل حرب؛ وكان يفضل مؤامرات السياسة ودسائسها على المواجهة فى المعركة، وفى أثناء الأسابيع السبعة بين وصوله ووصول ريتشارد، تلهى بعمل ماكينات حصار محكمة. كما كان أيضا، شخصًا وضيعًا، ولم يدفع لجيوشه أكثر من الكمية المتفق عليها؛ وكانت معقولة بالقدر الكافى، ولكن فى حصار دام عامين، كان لا بد من شىء إضافى لضبط الميزان. هذا القدر قدمه ريتشارد.

وكانت شهرة ريتشارد قد سبقته، ومجرد كونه فى عكا، جعله يجلب بعض الطاقة للحصار المعتل، الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ أسبوعه الثالث والتسعين وانحدر حتى صار جمودًا لطيفًا. إذ كان الأطفال من المسلمين والمسيحيين يلعبون معا بين الخطوط، وكان المحاربون من الجانبين يبدءون مبارزات فردية، ثم يتوقفون للدردشة. لكى يكسب المرء حربا، لا يجب أن يعيش أقرب مما يجب من العدو؛ فهو يصبح إنسانيا، وكثيرا ما يصبح محببا إلى حد ما. أما نظرة ريتشارد إلى المسلمين، فهى طبق الأصل نظرة القادم الجديد، إنها نظرة جديدة وواضحة؛ إذ لم يكن لديه وقت كى يتطهر من التعصب الفكرى - بل إنه كان قد اندفع إليه حديثا. فذكر وجوده المسيحيين بأن جيرانهم هم فى الواقع أعداؤهم، بل هم أعداء من نوع مقيت بشكل خاص: إنهم كفار أسروا الصليب الحقيقى. لقد كان فى وسع فيليب أن يكون غيورا بقدر ما هو وضيع. وكانت آلاته وماكيناته جاهزة؛ إذ إن ريتشارد كان قد أهانه فى صقلية، ومع ذلك، كان يتمتع بشعبية تفوق شعبيته. لذا دون أن ينتظر إلى أن

يتحسن الملك الإنجليزى، قام بشن هجوم اشترك فيه فرسان الهيكل، هذا الهجوم يتم تذكره بسبب مظهره أكثر من أثره.

لقد كتب أحد المشاركين: "يمكنك رؤية عدد غير مفهوم من المسلحين، وكانت هناك الكثير من السترات المعدنية اللامعة، والكثير من الخوزات المتلألئة، والكثير من الخيول الأصيلة تصهل، والكثير من العباءات البيضاء، والكثير من الفرسان المدربين، الجسورين، والكثير من الرايات، حتى أنه لم يظهر قط مثل هذا العدد". ولكن على الرغم من هذا الاستعراض، لم ينجح الهجوم. فبعد القتال طوال النهار – وكان اليوم هو الاثنين، ١٧ يونية – ألقى الفرنسيون أسلحتهم ووبخهم الأتراك بخبث، وأغاظوهم بأنهم لم يكملوا ما بدأوه. بل إن الأتراك قذفوا نيرانهم الإغريقية، ورويدا رويدا، دمروا ماكينات ومعدات الحرب التى صنعها الملك الفرنسى بكل عناية. فغلبه ما كان يحس به من غضب وغل حتى إنه سقط فريسة للحزن، ولم يتمكن حتى من امتطاء حصان من فرط ما أحس به من اضطراب وحزن".

وبعد ذلك بعدة أسابيع، حين شفى ريتشارد بالقدر الكافى بحيث يفكر فى القيام بمحاولة أخرى، كان فيليب لا يزال حزينا بحيث إنه لم ينضم إليه. وفى كل الحالات، كانت طريقة ريتشارد شيئا لا يمكن لفيليب المقتر أن يهضمها. فكتب نفس مدون الأحداث:

"فقرر (ريتشارد) إنه، ما دام فى عالم الأعمال يتقدم العمل من خلال الامتياز، فيمكنه جذب أرواح الشباب عن طريق إعطاء المكافأة، بدلا من إصدار الأوامر عن طريق القادة. فمنذا الذى لا يجذبه عبير المال".

كانت فكرة ريتشارد غاية فى البساطة: رفع أجر الجنود، وقدم منحة، أولا من قطعتين من الذهب ثم ثلاثة ثم أربعة، مقابل كل صخرة تزال عن أسوار عكا. وكان ذلك فى استطاعته؛ إذ إنه امتلك الكثير من المال حين غادر إنجلترا، كما جعلته فتوحاته العارضة تقريبا لميسينا وقبرص شديد الثراء. ونجحت الفكرة. إذ تم إسقاط أحد

الأبراج الدفاعية، فقد أضعفته النار من أسفل، وتدافع من الصخور من أعلى؛ ثم اندفع الشباب وهجموا مجموعات نحو الجدار. وحين كانت الصخور تقتلع، كانوا يستمرون فى تلهف، طمعا فى الثناء وكذلك الأجر. بل كانوا يعملون بشجارة بين قذائف الأعداء. وجرح الكثيرون منهم؛ وآخرون بقوا بعيدا عن الخطر، خوفا من الموت، لكن بعضهم دون حماية من درع أو أسلحة، دفعوا بالأتراك بعيدا برجولة عن السور. لقد كان ذلك السور شاهق الارتفاع، وشديد السمك، غير أن الشباب أزالوا الكثير من الصخور...." لقد بين ريتشارد للفرنجة الفوائد العملية من الفتح، وأنها أكثر جاذبية من متطلبات الواجب أو اعتبارات الدين غير الملموسة. واشتد القتال بحرا وبرا، مما خنق المدينة، جاعلا المسلمين فى البر الرئيسى فى الخليج؛ فاستسلمت الحامية فى ١٢ يولية. وكان الحصار قد دام لثمان وتسعين أسبوعا؛ أما ريتشارد فكان موجودا هناك لمدة أربعة وثلاثين يوما.

كانت شروط السلام صارمة. إطلاق صراح المسلمين المحاصرين، ولكن لا يستطيعون أخذ أى شىء من المدينة عدا ما يرتدون من ملابس. أما الأسلحة، والأثاث، والطعام، والمال - وكل شىء آخر يجب أن يبقى. وتم افتداء المسلمين الذين أسرهم الفرنجة مقابل ٢٠٠٠٠٠ قطعة من الذهب؛ والصليب الحقيقى ومعه ألف ومائة من المسيحيين الأسرى الذين حددت أسماؤهم، تتم إعادتهم إلى الفرنجة؛ والإبقاء على ألفين وسبع مائة من المسلمين كرهائن، إلى أن يتم الوفاء بجميع الشروط؛ وتم تحديد الموعد النهائى بالشروط بنهاية الشهر - أى بعد أقل من ثلاثة أسابيع.

فى البداية، سار كل شىء بشكل لين سهل. إذ تم تسليم الرهائن المسلمين، وأجليت المدينة. وريتشارد الذى كان دائما مستعدا لاحترام المحارب الجيد، تماما كما كان مستعدا دائماً إلى إهانة المحارب الضعيف، أصدر أوامره ألا يجرح أحد أو يسيء إلى المسلمين الراحلين. غير أن هذا الأمر لم يكن ضروريا؛ فالمسيحيون كانوا مفتونين بمنظر خصومهم، وكانوا يعرفون بعضهم، وكتب شاهد عيان:

"فى ذلك اليوم الحرج كانت استقامة الأتراك جديرة بالإعجاب، وكذلك شجاعتهم العظيمة... والآن، وهم يعبرون الأسوار العالية فى طريقهم إلى خارج المدينة، كانت أعين المسيحيين المحبين للاستطلاع والذين كانوا يعجبون بهم بوصفهم جنوداً، يحملون لهم الذكريات. وكان مظهرهم، وهم يخرجون خاوى الوفاض، من المدينة تقريبا، بما فيه من جلال وكرامة مثيرا للدهشة. فعلى الرغم من أن الضرورة القصوى أضعفتهم فأنزلت قدرهم إلى مستوى المتسولين تقريبا، فإن ما يتسمون به من ثبات لم يختف؛ بل بدا أنهم منتصرون بروحهم العالية".

لقد كان هؤلاء النازحون محظوظين. ذلك أن معاهدة السلام قد عقدت دون موافقة صلاح الدين؛ فخط الاتصال الوحيد بينه وبين المدينة المنكوبة عن طريق إرسال رجل يسبح من الساحل خلال حصار الفرنجة عند مدخل المرفأ. فأحضر مثل هذا الرجل إلى صلاح الدين نبأ المعاهدة المقترحة، وكان صلاح الدين يقوم بكتابة رسالة يمنع فيها التسليم حين رأى أعلام المسلمين تنزل من فوق الأسوار وتحل محلها رايات إنجلترا وفرنسا.

وسواء تم السماح بالمعاهدة أم لم يتم، فقد وقعت، وباسمه؛ فوافق على الالتزام بها.

وحين أفرغت المدينة، تزاحم المسيحيون إلى الداخل، وتدافعوا فى الشوارع، وهم يصيحون، ويغنون ويرقصون، ويركب الملكان على رأسهم - ريتشارد بطل الساعة، وهو منتش، وصاخب، وفيليب، بجانبه، صلب وكئيب.

"رفعت الرايات وأعلام الملكين المضاعفة فوق الأسوار والأبراج، وقسم الملكان المدينة بالتساوى. كما قاموا أيضا بعمل توزيع متناسب لمؤن السلاح والطعام، وتم تقسيم الأسرى من أعلى درجات النبالة أو المنزلة بينهما بالقرعة. ... وفوق ذلك، أخذ ملك فرنسا من بين نصيبه قصر فرسان الهيكل النبيل وجميع متعلقاته. وحصل الملك ريتشارد على القصر الملكى، وأرسل إليه ملكتيه (جوانا، وبيرجينجاريا)، ومعهما الأطفال والخدم".

فأشعلت هذه القسمة مباشرة شرارة إحدى صيحات التمرد التى كان الفرنجة ينغمسون فيها حين لا يوجد من يقاتلونه من المسلمين. إذ كان الكثيرون من أفراد جيش المسيحيين لديهم ممتلكات فى عكا قبل الفتح الإسلامى. وكانت جماعة فرسان الهيكل أكبر مالك وحيد؛ إذ كانوا يملكون سوق الماشية، وشوارع السوق، وقصر بجانب البحر، وتحت قيادة معلمهم الجديد، روبير دى سابل، كان فرسان الهيكل يتزعمون الشكاوى، قائلين إنهم لم يقاتلوا كى يثبتوا ملكين أجنبيين، وإنما كى يستردوا ممتلكاتهم المفقودة. وتم التوصل إلى حل ودى قبل أن يمر وقت طويل، لكن هذه الحادثة كانت نموذجا لاتجاهات الفرنجة عموما، وريتشارد على وجه الخصوص، وأكدت على التناقض بين شخصيتى ريتشارد وصلاح الدين. ذلك أن ريتشارد كان ملكا بالحق الملكى، لكنه فارس منحرف بالطبيعة. ولم يكن يشعر بالكثير من المسئولية نحو رعيته الإنجليزية، ولا يحس بأى مسئولية نحو جنوده فيما عدا حين يكون فى ميدان القتال. هناك، يمكن أن يكون قائدا رائعا، يرى الفرص وينتهزها، ويرى الأخطار ويتجنبها، ويضرب دائما مثالا على الشجاعة الشخصية. لكنه أيضًا يمكنه أن يكون فظا، وأنانيا لا يعتمد عليه، ولا يوثق به - وفى اللحظة التالية شاعريًا، حنونًا حسن الطبع، وجديرا بالإعجاب. وفى جميع هذه التناقضات، كان ببساطة، مرآة ثقافته. وصلاح الدين الذى كان يعرف ذلك، ويعرف ريتشارد معرفة جيدة، كان شديد الحذر مع هذه المعاهدة. وسأل فرسان الهيكل الذين كان يثق فى كلمتهم مع أنه كان يكرههم، عما إذا كان ريتشارد سوف يفى بالجزء الخاص به من المعاهدة أم لا. فرفض فرسان الهيكل الرد. ولا يمكن العثور على تقييم أكثر استنكارا لذلك لنزاهة ريتشارد.

لقد كان ما اشتهر به صلاح الدين من أمانة ورحمة قائما على أساس متين: وكان سلوكه فى القدس أوضح الأمثلة على هذا، بل أن ذلك اشتهر حتى فى أوربا. وكانت سلطته على شعبه قائمة على حبه الواضح لهم، وعلى إيمانه الذى لا يتزعزع بالإسلام. ذلك أنه، فى ذلك الإيمان فقط يمكن أن يصبح متعصبا أو غير إنسانى، كما

اتضح فى إعدامه لفرسان الهيكل فى حطين. لكنه، كان يقاتل، على وجه العموم، فقط كى يحفظ طهارة أراضيه، ودينه، ليس كما كان الفرنجة يفعلون كثيرا، حبا فى القتال والنهب. لذا كان من الصعب على صلاح الدين الوفاء بمعاهدة ريتشارد فى عكا. وكان الوقت قصيرا؛ إذ كان عدد الأسرى الذين يجب إطلاق صراحهم كبيرا؛ ومبلغ المال كان باهظًا؛ والصليب الحقيقى، الذى لم يعد فى نظر المسلمين سوى قطعة من الخشب، كان أقيم جزء فى المساومة المضادة يمكن أن يملكوه. وبينما كان صلاح الدين غير قادر على الحنس بكلمته، لم يكن هناك ما يضمن أن ريتشارد سوف يحافظ على كلمته. لذا، تفاوض صلاح الدين على إجراء تغيير على الشروط: بقى عدد الناس كما هو، ولكن تم مد الوقت إلى ثلاثة أشهر. فى كل شهر يتم تسليم ثلث إجمالى الأسرى وثلث المال. وكان صلاح الدين غير راغب فى التخلى عن الصليب الحقيقى؛ وهنا يكمن تفسير تصرف ريتشارد التالى، وهو أقسى فعل ارتكبه فى حياته كلها.

فى ٢ أغسطس وصلت أول مجموعة من الأشخاص والمال. وكان قليل من السجناء المذكورة أسماؤهم غير موجودة، فى المجموعة، وطلب صلاح الدين استبدال الرهائن المحتجزين فى عكا بمجموعة جديدة. وكان كل من الجانبين يشعر بشك عميق فى الجانب الآخر. فبالنسبة لريتشارد، بدأ صلاح الدين مراوغا. وحسب فهمه، كان ذلك يعنى شيئا واحدا: الغدر. لذا كان رد فعله يتعدا حدود العقل من حيث قسوته. وفى أصيل ٢٠ أغسطس انطلق مع جيشه على صهوات الجياد إلى أن أصبحوا على مرأى كامل من معسكر المسلمين. وأحضروا معهم جميع الرهائن المسلمين – ألفين وسبعمائة من الرجال. وأصدر ريتشارد أمره؛ وقال أفرنجي برضى بعد ذلك "دونما ابطاء. قفز اتباع الملك إلى الأمام متلهفين إلى تنفيذ الأوامر، شاكرين الرحمة الإلهية التى سمحت لهم بالانتقام".

والمسلمون المعسكرون فوق التلال كانوا يراقبون، دون أن يفهموا فى البداية. ووصف وزير صلاح الدين بهاء هذا المنظر البشع فى ذلك اليوم.

"أحضر الفرنجة الأسرى المسلمين مقيدين فى السلاسل ... ثم هووا عليهم كرجل واحد وذبحوهم بدم بارد، بالسيف والرمح. وكان جواسيسنا قد أخبروا صلاح الدين بمناورات العدو، فأرسل ببعض التعزيزات؛ ولكن حينئذ كان الذبح قد وقع. وما إن أدرك المسلمون ما حدث هاجموا العدو واشتعلت المعركة، مع وجود قتلى وجرحى فى الجانبين، حتى جن الليل، وفصل بينهما. وفى الصباح التالى أراد المسلمون أن يعرفوا من سقط، فوجدوا رفقاءهم من الشهداء يرقدون حيث سقطوا؛ وتعرفوا على بعضهم".

منذ ذلك الوقت، حاول الناس سبر تفكير ريتشارد واكتشاف دافع لهذه المذبحة. ولم يجدوا سوى إمكانيتين فحسب، وشرحهما بهاء الدين باقتضاب: "أحدهما أنهم قتلوهم انتقامًا لسجنائهم الذين قتلوا من قبل. والسبب الآخر هو أن ملك إنجلترا كان قد قرر التقدم نحو عسقلان ولم يشأ أن يخلف وراءه عددًا كبيرًا من جنود العدو." وأى التفسيرين ممكن؛ وكلاهما مقيت. ولكن هناك سبب ثالث، لم يذكر من قبل: مسألة الصليب الحقيقى.

حتى فى القرن الثانى عشر كان هناك شطرات كافية من الصليب الحقيقى فى العالم تملأ عدة سفن، وحقيقة الصليب الذى امتلكه الفرنجة فى حطين من الواضح أنها كانت موضع تساؤل. ومع ذلك فإن الشىء المهم هو أن الفرنجة كانوا يعتقدون اعتقادا جازما أنه الصليب الحقيقى. غير أن ما حدث لذلك الصليب بعد حطين يظل لغزا. فالمسلمون يقولون إنه قد أرسل إلى دمشق، ثم إلى بغداد، حيث دفنه الخليفة - فى ٤ يونيه ١١٨٩: وثمة تاريخ دقيق - كى تدوسه أقدام المسلمين. ولكن صليبا، مغطى بالذهب، ومحلى بالآلئ والحلى، كما كان "الصليب الحقيقى" كان يحتفظ به فى معسكر صلاح الدين، وكان يعرض على المبعوثين من الفرنجة الذين قبلوه على أنه الصليب الحقيقى. وأخيرا، زعم أحد الفرنجة القلائل الذين فروا من حوين أنه دفنه هناك فى الرمال، حين رأى أنهم خسروا المعركة. وتعهد بالعثور عليه مرة أخرى، غير أنه لم يستطع بعد ثلاثة أيام وليالى من الحفر، واستسلم وتخلى عن البحث.

هذا التفسير الأخير هو أقلها معقولية؛ إذ لا يوجد مسيحي مؤمن بأنه يعرف مكان الصليب الحقيقي يمكن أن يتخلى عن البحث بعد ثلاثة أيام فقط. والسؤال هو أي من الروايات هي تلك التي صدقها ريتشارد؛ ومن الممكن، أنه، بعد أن قبل دون تفكير الأنباء عن وجود الصليب في معسكر صلاح الدين، ربما يكون قد سمع عن دفنه في بغداد. وحين صدق ذلك، ربما يكون قد اعتقد أن صلاح الدين جعل منه أحمق. وسواء صح ذلك أم لا، فإن مجرد التفكير في ذلك أمر لا يطاق؛ وريتشارد حين يغضب كان لا يرحم.

أيا كان السبب الحقيقي غير المكتشف - "والله خير العالمين" كما كتب بهاء الدين بتعاسة - ترك ريتشارد عكا بعد ثمان وأربعين ساعة واتجه جنوبا، بحقد تاركا الاجساد المذبوحة كي يتم جمعها أو تترك كي تتعفن. وكان جيشه من مائة ألف من الأقوياء، في طليعتهم، مجموعة صغيرة من بضعة مئات، هم نخبة القوة من العباءات البيضاء - فرسان الهيكل، مع معلمهم الجديد، روبير دي سابل.

أما مصير جيرار دي ريدفور فكان مجهولا. إذ لم يسمع أحد عنه منذ أسره خارج عكا، قبل ذلك بنحو عامين. وانتظر فرسان الهيكل عاما ونصف عام قبل انتخاب معلم جديد، ذلك أنهم لم يكونوا متأكدين من أنه ميت أو حي، وما إذا كان لا يزال مسيحياً أو مرتداً. وربما كانوا متأثرين بسبب الخمول الزاحف عليهم بسبب أشهر الحصار الطويلة؛ ومن المؤكد أن وصول ريتشارد قد بعث فيهم النشاط كما حدث مع غيرهم. فلم يكد يصل حتى حددوا اختيارهم أخيرا: دي سابل، إنه رفيق للملك الإنجليزي.

لقد كان دي سابل أحد القلائل الذين طلب منهم بوضوح الانضمام إلى الجماعة؛ وتم انتخابه مباشرة - بعد دخوله. وكان مؤهلا تماماً للمنصب الرفيع: فهو ثري، كريم وتقي، وناضج، ومجرب وصاحب نفوذ. ترك في فرنسا مقاطعاته في أنجو في برولي ولا سوز، وبلدته سابل التي تقع على بعد خمسين ميلا جنوب غرب باريس. كما ترك أسرة - ابنتين، كليهما متزوجتين، وزوجة وابن، كليهما ميتين. ويدين دير

للرهبان وآخر للراهبات بوجودهما وحياتهما بالفضل له؛ وثمة كنيسة خاصة تحيي ذكرى زوجته.

وفي طريق الخروج إلى عكا، كان هناك أحد أمراء بحر ريتشارد، وكانت أراضيه في أنجو قد جعلت ريتشارد سيده الأعلى؛ ولكن حين كان ينادي ريتشارد وفيليب أغسطس يا "ابن العم" لم يكن يراعي أصول الأدب فحسب، بل كان يراعي الدقة. فقد تصادف أيضا أنه كان يمت بقرابة بعيدة لمعلم فرسان الهيكل الثاني، روبير دي كرون، الذي انتخب قبل ذلك بخمس وخمسين سنة. وهذا مؤهل عرضي؛ غير أن روبير دي سابل كان يتمتع بشيء من المهارة ذاتها التي كان يتمتع بها روبير السابق عليه، فهو المعلم الدبلوماسي الذي أكسب جماعته الميثاق الأكبر؛ وكان فرسان الهيكل في حاجة إلى معلم دبلوماسي أكثر من أي وقت مضى منذ أيام روبير ديكرون. ذلك أن أفعالهم غير الحكيمة الأخيرة بقيت حية في عقول الناس أكثر من الحماية التي قدموها؛ إذ إن معلمًا واحدًا متصلب الرأس يمكنه أن يعطي الجماعة سمعة سيئة أكبر من تلك التي يمكن أن يمحوها ثلاثة من الزعماء الحكماء. بيرنار دي تيمبلي، وبيرتران دي بلانكفور، واودو دي سان أمان، وجيرار دي ريدفور؛ لقد كان لفرسان الهيكل أكثر مما يكفي من المعلمين العنيدين النزقين - على أي حال في الوقت الحاضر. وكان الأعضاء من أفراد طبقة النبلاء العليا نادرين بين فرسان الهيكل في ذلك الوقت. وكانت سمعة دي سابل طيبة أصلا، وبمجرد قبوله لمنصب المعلم، خطى خطوة كبيرة نحو الذنب الذي عزاه الكثيرون إلى الجماعة - وهو ذنب الهزيمة في حطين، وما تلا ذلك من خسارة القدس. وأصبح فورا شخصية رئيسية في المعسكر الأنجلوفرنسي في عكا. لذا فبعد تقسيم ريتشارد التعسفي للمدينة وما تلا ذلك من تمرد دام عاما أنيطت بدي سابل مهمة تخصيص الممتلكات والإسلاب. وبينما بقي فيليب في الأراضي المقدسة، كان دي سابل يقوم دائما بالتحكيم بين الملكين؛ وحين أمر ريتشارد باستعلاء أن يلقي براية دوق النمسا بإهمال كان دي سابل وإخوانه الجدد هم من حموا ريتشارد من غضبة النمساويين.

لقد كان من المهم بالنسبة لفرسان الهيكل أن يعملوا على تخفيف التوتر بين الفرنجة ذلك أنه، على الرغم من أنهم هم والإسبتاليون كانوا القوة العسكرية الوحيدة المتبقية فى الشرق، فإنهم كانوا يحتاجون إلى شد إزار الصليبيين الجدد إذا كان لأى شىء أن يتم استعادته. وربما كان من حسن الحظ، أن الملك فيليب غادر إلى أوربا فورا بعد إعادة الاستيلاء على عكا، معلنا أن قسمه قد تم الوفاء به وأن دوره فى الحرب الصليبية قد انتهى. وقبل أن يغادر، سلم جميع مواده الحربية وما لديه من طعام إلى دى سابل، كى يتم تقسيمها بين الجماعتين. فهو لم يكن لديه كثير حب للحروب الصليبية، وكثيرا ما كان عائقا أكثر من كونه نافعا؛ وانتقد رحيله علنا، لكن الكثيرين رحبوا به فى دخيلة أنفسهم، وعلى الأخص الإنجليز. أما بالنسبة لمعظم الصليبيين كانت القدس هى الهدف الوحيد؛ لذا لم يغادر سوى القليل من الفرنسيين مع ملكهم. وظل الباقون، وتحركوا جنوبا مع ريتشارد.

وعلى الرغم من خبرة دى سابل فى ميادين الحرب الأخرى، كان قادما جديدا على فلسطين. فتلقى النصح بحصافة من إخوانه، الذين كانوا يعرفون البلاد والعدو معرفة جيدة. وكان ريتشارد، بدوره، عموما يصغى إلى نصيحة دى سابل، ويعمل بها بصفة عامة. لذا، فاثناء هذه المرحلة من الحرب، كانت روح فرسان الهيكل هى الروح الهادية؛ وقد حدث شيئان على الأقل بينا للإخوان إلى أى حد بعثت صورتهم العامة وتحسنت. حين افترض أن دى ريدفور قد مات، وصار دى سابل مسئولا، توقف جميع ما كان يوجه من انتقاد لأعمال فرسان الهيكل؛ وعلى الرغم من أنه، على الأقل، مرة واحدة تناقضت نصيحة فرسان الهيكل مع آمال الصليبيين، فإن هذه النصيحة تم قبولها.

لقد كان ريتشارد فى حاجة إلى مستشارين؛ إذ كان شخصا مليئا بالطاقة فى حاجة إلى توجيه وسيطرة، وإلا فمن الممكن أن يحرق كل شىء دونما تمييز. ذلك أنه

لم يكن إداريًا بأى حال؛ وأقل من ذلك، لم يكن من بناة الإمبراطوريات. وكانت قبرص آخذة فى الأثقال عليه، والمال آخذ فى النفاد. فاقترح دى سابل حلا للمشكلتين: أن يشترى فرسان الهيكل الجزيرة. فوافق ريتشارد مباشرة، ذلك أنه ابتهج من فكرة التخلص من ملكية غير مرغوب فيها وملء خزائنه بالمال. وتم تحديد الثمن بمبلغ ١٠٠٠٠٠ بيزنتة ذهبية. ودفع دى سابل مبلغ ٤٠٠٠٠ نقدا، نيابة عن الجماعة، ورتب لدفع بقية المبلغ حينما تكون هناك حاجة إليه وكما تكون هذه الحاجة. وحين توفر لريتشارد الأمن المالى، والقوة العسكرية، والنصيحة السليمة، كانت ثقته بلا حدود.

من أجل المسير إلى عسقلان، أوصى فرسان الهيكل بالطريق الرومانى القديم بجانب الساحل - وهو طريق أطول من الطريق المباشر، إلا أنه أكثر أمنا، حيث يتحكم فى البحر أسطول الإمداد البيزى. وتحرك صلاح الدين بحذر فى موازاتهم، محاولا إغراء ريتشارد بالهجوم، لكن دى سابل جعل الملك يركز ناظريه على الجنوب. ولم يتم الالتحام فى المعركة أخيرا حتى بلغوا أرسوف، على بعد مائة ميل من عكا، وفى منتصف الطريق إلى عسقلان. لقد اختار صلاح الدين الموقع؛ وكان الهجوم الأول مسلما؛ لكن النصر كان من نصيب ريتشارد. إذ كان تشكيل المعركة إحدى روائع الذكاء الكلاسيكى. فى المؤخرة كانت هناك قوة احتياط من المشاة تحرس طابور الأمتعة. وثلاثة أضعاف هذا العدد من المشاة والرماة شكلوا الصف الأمامى، الممتد على ثلاثة أميال من الطريق الرومانى؛ وبين الصفين، على الطريق نفسه، انقسم الفرسان إلى اثنى عشرة فرقة، وكان فرسان الهيكل فى الجناح الأيمن، والإسبتاليون فى الجناح الأيسر، وريتشارد فى المنتصف بعلمه. فتكسرت موجة من المسلمين تلو الأخرى فى مواجهة الفرنجة الذين كانوا ينتظرون كالصخور؛ ثم حين جاء هجومهم، كان ريتشارد فى المقدمة. واعتلى وزير صلاح الدين، بهاء الدين أحد التلال ابتغاء السلامة، فكانت له نظرة طائر مع اندفاع الخيول ذوات الدروع إلى الأمام. وكتب وهو لاهث الأنفاس.

"رأيت بنفسى فرسانهم يتجمعون معا فى وسط المشاة؛ وأمسكوا برماحهم، وصاحوا صيحة المعركة الخاصة بهم كرجل واحد، فأفسح المشاة، واندفعوا فى هجوم كبير فى جميع الاتجاهات - بعضهم على جناحنا الأيمن، وبعضهم على جناحنا الأيسر، والبعض فى المنتصف، إلى أن انكسر كل شيء".

وكانت أجمل ساعات ريتشارد.

لقد كان يبلغ من العمر الرابعة والثلاثين، أى أنه فى قمة الحيوية. وفى عكا جعل جيش صلاح الدين الضخم عديم الأثر. وهزمهم فى ترسوف فى معركة حامية، وأظهر نفسه كواحد من أكبر القواد فى زمانه وثقافته. وعلى نفس الدرجة من الأهمية، قد بين أن صلاح الدين الذى لم يهزم منذ حطين، ليس منيعا. ويمكن للحرب الصليبية أن تستمر، وبدا ألا شيء يمكن أن يوقفها. فصلاح الدين الذى يكبر ريتشارد بعشرين سنة، بمقياس الزمن، كان مقبلا على الشيخوخة. وكان مريضًا قد تعب من الحرب. وكانت أمنيته الرئيسية هى الحفاظ على القدس من أجل الإسلام. فبدأ يقاتل بطريقة غير معروفة بالنسبة له من قبل: سياسة الأرض المحروقة فى المؤخرة، ساحبًا قواته إلى داخل الأرض المقدسة، بؤرة الاهتمام. وسويت عسقلان بالأرض؛ وتفككت تحصينات اللد، والرملة، ونترون، وهى القوس الشرقى للدفاع عن القدس. فتركزت جميع طاقات صلاح الدين على القدس، التى كانت ضعيفة التحصين بشكل يائس؛ لأن ريتشارد، ملك الفرنجة صاحب قلب الأسد قد يدخل فى أى وقت، وجميع العمل، وجميع القتال، وجميع الأرواح التى فقدت من أرواح المسلمين فى سنوات أربع من الجهاد قد تضيع بالكامل.

لكن هذا لم يحدث أبدا. لقد تقدم الفرنجة بنشاط وحماس، وقد جذبهم مغناطيس القدس، وفكرة أن المدينة المقدسة اقتربت من أن تصبح فى قبضتهم؛ ثم عند حصن بيت نوبا، على بعد ما لا يزيد على اثنى عشر ميلا من هدفهم، أمر ريتشارد

بالتراجع. فكانت خيبة الأمل مذهلة. ووقف الإنجليز بجانب ملكهم، كما فعل فرسان الهيكل، والإسبتاليون؛ أما الفرنسيون الذين شعروا بالغضب والإحباط، فبدءوا يتركون الخدمة. ومع ذلك إذا كان ريتشارد قلب الأسد قد فقد الشجاعة، فلم يكن ذلك خوفا من صلاح الدين؛ فلقد كان يرغب بشدة مثل رجاله فى الاستيلاء على المدينة المقدسة. لقد كان واضحا من التلال حول بيت نوبا؛ حين ركب إلى هناك ذات يوم، كان أن رأى ريتشارد القدس فغطى وجهه بدرعه كى لا يرى المدينة، القريبة جدا، والمغرية جدا والضعيفة جدا، والخطرة جدا. لقد رأى ريتشارد خطرا مستقبلا؛ فمنعه ذلك، كما منعته متاعب فى الأراضى التى تركها من فتح كان من شأنه أن يجعل البلاد المسيحية تلهج باسمه.

لقد كان دى سابل وفرسان الهيكل بمساندة الإسبتاليين والبارونات من سكان البلاد هم من عارضوا الفتح. إذ كانوا يعلمون، كما كان ريتشارد وغيره من الصليبيين يعلمون أن المدينة متاحة لهم؛ سوف تضيع أرواح، ولكن يمكن الفوز بالمدينة. ولكن حين تؤخذ، من سوف يحتفظ بها؟ ذلك أن غالبية الصليبيين سوف يرحلون إلى بلادهم بالتأكيد؛ وسوف يضطر ريتشارد أيضا إلى العودة إلى عرشه الإنجليزى البعيد. ولن يكون لدى الفرنجة من الفلسطينيين شىء سوى شريط ساحلى ضيق؛ ومدينة كبيرة بعيدة عن البحر، يحيطها الأعداء وتنفصل عن الأصدقاء. سوف تكون جاذبية الفتح بلا حدود، ولكن سيكون هذا تهوراً غير محسوب. حتى إذا كانت مملكة القدس هى مملكة القدس اسماً، فيجب أن تكون موحدة جغرافيا وسياسيًا، إذا كان لها أن تتحول إلى واقع مرة أخرى.

فكانت عسقلان هى الهدف الجديد، وعمل الشتاء الجديد هو إعادة تحصينها. واستدار الجيش المكتئب الحزين وسار فى أسى نحو الساحل. وكان الشتاء فى ذروته؛ وعلى الفور جميع الأشياء التى كانت مجرد منغصات من قبل صارت لا تطاق تقريبا - فهناك المسير فى الوحل، والمطر والطين. وإقامة المعسكرات فى الطين، والبرك، وهناك

الطعام المتعفن. حتى فى عسقلان كان الحال أفضل قليلا - كانت المدينة محطمة، وكان العمل الشاق ضروريا لمجرد حجب المطر.

وفى عكا أيضا كان الشتاء ساخطا. ذلك أن جى دى لوزينيان، ملك القدس اسميا، كان وحيدا بين أهل بيته؛ فزوجته سيبيلا، وابنتاهما قد متن جميعا، فى العام السابق. وكوننراد دى مونفيرا، مخلص صور، كان قد هندس طلاق الأميرة الأخرى، إزابيلا من زوجها همفرى، ثم تزوج إزابيلا هو نفسه. هناك مطالبان اثنان بعرش واحد غير موجود: كان الأمر يمكن أن يبدو ملهاة رخيصة لولا أنه كان أقرب إلى المأساة. ولم يكد ريتشارد يفيق من هذه الأخبار من عكا، حتى جاءته أنباء تصرفات أخيه جون السيئة في إنجلترا. وعلى الملك الجائل أن يعود بأقصى سرعة، وما لم يكن يرغب، مثل جى، أن يفقد مملكته. وأخذت الأمور تتجاذبه من كل جانب، فمن ناحية هناك ميوله، وهناك طموحه، وواجبه، فوازن ريتشارد جميع هذه الأشياء فى أواخر شهوره فى الحرب الصليبية، وكان دى سابل هو من ينصحه فى جميع المناسبات.

وفتحت مفاوضات من أجل السلام مع صلاح الدين. وفى نفس الوقت، رفعت مسألة من يجب أن يرتدى تاج القدس الفارغ أمام مجلس عام يتكون من جميع الفرسان والبارونات. وأيد ريتشارد شخصيا جى، على ما به من عدم فاعلية، بما أن آل دى لوزينيان من أنجو كانوا أتباعا للملك الإنجليزى. وفعل دى سابل نفس الشيء لنفس السبب، لكنه، الآن، بما يتمتع به من بعد نظر أدرك أن التاج يجب أن يؤول إلى الرجل الأفضل. وفاز كونراد بصوت فرسان الهيكل - وكل الأصوات الأخرى أيضا. لم يذهب صوت واحد لجى.

ومع ذلك كان جى قانعا؛ لأن دى سابل حين كان يصوت لكونراد ملكا للقدس، اقترح مملكة جديدة لجى - جزيرة قبرص. ذلك أن حكم فرسان الهيكل لم يعد يمثل احتلالا عسكريا، بل حتى فى ذلك كان حكما محدودا، إذ لم يكن من الممكن الاستغناء عن أكثر من أربعة عشر فارسًا من البر الرئيسى. وهؤلاء الأربعة عشر لم يكونوا يستسيغون الاستعمار، ولم يتمكنوا من التحكم فى أهل قبرص المحبين

للحرية؛ لكن جي أسعده شراء الجزيرة، وعاد الفرسان الأربعة عشر، إلى عكا وهم سعداء أيضا.

أما كونراد دى مونفيرا فلم يكن يتمتع بمثل هذا الحظ. فحين سمع بنبأ انتخابه السار، صلى لله ألا يسمح له أن يقبل إذا لم يكن الشخص المستحق للعرش. ومات بعد ذلك بثمانية أيام، بطعنة من خنجر مغتال بين ضلوعه. وتطايرت الاتهامات فى كل اتجاه - إنه جي، إنه ريتشارد، إنه صلاح الدين. فى الواقع كانت مبادرة المغتالين أنفسهم، عملهم الأول والأخير فى كل الحرب الصليبية الثالثة، وقد أدى إليها عمل من أعمال القرصنة قام به جي، حيث سرق سفينة بضائع تخص الطائفة. أيا كان الأمر، فقد فتح ذلك المشكلة على مصراعيها مرة أخرى؛ لكن الشيطان يظهر عند الحاجة، وريتشارد باعتباره شخصاً ينتمى إلى عائلة بلانتاجينيت، ادعى انتسابه إلى الشيطان. فوجد زوجا جديدا لإزابيلا فى خلال يومين، وبعد ذلك بخمسة أيام كان للقدس ملك جديد - هنرى من شامبين، الذى تصادف أنه ابن أخت ريتشارد. ومن المناسب أنه كان أيضاً ابن أخى فيليب ملك فرنسا أيضاً. وأخيرا، كان لبلاد ما وراء البحر زعيم يمكن أن يتبعه الجميع - أو الجميع تقريبا.

ومرت الأشهر القليلة المتبقية من الحرب الصليبية الثالثة فى حراك سريع من الأعمال المتبادلة من العدوان ومفاتحات السلام. وفى ٢٣ مايو من عام ١١٩٢، أعاد ريتشارد الاستيلاء على دارون؛ أقصى قلعة فى الجنوب يفقدها صلاح الدين. وفى ٢٠ يونية، وعلى طريقة رينولد دى شاتيون، استولى على قافلة للمسلمين بها كميات كبيرة من البضائع والطعام، وعدة آلاف من الجمال والخيول. وتقدم مرة أخرى نحو بيت نوبا، وتراجع مرة أخرى، دون أن يعلم أن صلاح الدين كان على وشك الأمر بالتراجع هو نفسه نحو الشرق. وفى ٢٩ يوليه، تبع صلاح الدين الفرنجة نحو الشرق واستولى على يافا؛ وفى اليوم الواحد والثلاثين استعادها ريتشارد.

وكانت المعركة الأخيرة فى ٥ أغسطس، خارج أسوار يافا. وكانت، مثل تارسوف، استعراضا رائعا لقيادة ريتشارد؛ وفى حركة أخيرة مستهترة بدا أنه يضع أصابعه

فى وجه صلاح الدين. كان المقصود من هجوم الفجر أن يفاجئ الفرنجة وهم نائمون، غير أن تحذيرا فى اللحظة الأخيرة وفر لهم ما يكفى من الوقت كى يستعدوا؛ وبألفين من المشاة، وأربعة وخمسين من الفرسان، وخمسة عشر من الخيول، دحر ريتشارد ما لا يقل عن سبعة آلاف من الخيالة المسلمين.

لم يكن للأمر أن يستمر. ذلك أن كلا من الجيشين كان قد أنهك. وكان كل من ريتشارد وصلاح الدين مريضاً. ولم يتم إحراز انتصار أخير، كما لم يتم إلحاق هزيمة نهائية، غير أن كلا من الملكين كان يدرك أنه لا هو ولا الملك الآخر يمكنه الاستمرار. وفى ٢ سبتمبر وقع ريتشارد معاهدة سلام لمدة خمس سنوات. ورفض كملك أن يقسم؛ فأقسم دى سابل نيابة عنه. وفى اليوم التالى وضع صلاح الدين اسمه على المعاهدة؛ وبذلك أنهى الحرب التى قامت فى الحرب الصليبية الثالثة، التى جعلها ريتشارد قلب الأسد بإرادته النارية وشخصيته حربه الخاصة. وتم بعث بلاد ما وراء البحر. واختزلت إلى كسر من حجمها السابق، لكنها عاشت. وتحقق السلام بشرف، حيث كان كل شىء قد ضاع بالنسبة للبلاد المسيحية منذ بضعة سنوات مضت. وتمكن المسيحيون من زيارة الأماكن المقدسة فى القدس؛ وأمكن لقوافل المسلمين والمسيحيين أن تمر بحرية، بلا خوف، فى أراضى كل منهما. لقد انتهى القتال؛ وسرحت الجيوش.

لكن مغامرات ريتشارد لم تنته بعد. إذ كان لا يزال عليه أن يسافر الأميال الطوال فى عودته إلى إنجلترا وكون الكثير من الأعداء فى تلك الرحلة. وقدم دى سابل آخر مساعدة يمكنه تقديمها، وغادر ريتشارد الأراضى المقدسة مقنعا كأحد فرسان الهيكل. لكن بعض الشخصيات لا يمكن أخفاؤها. فقد تم التعرف عليه وهو يمر من خلال النمسا، وقبض عليه وقدم للدوق، - الرجل الذى أهمل رايته فى عكا. وبعد ذلك بخمسة عشر شهرا، أطلق صراحه، حين ذهب كل ما لدى إنجلترا من فضة لبناء تحصينات فيينا.

حينئذ، كان كل من صلاح الدين ودى سابل قد توفى: الأول فى الربيع، والثانى فى خريف عام ١١٩٣. ولحق بهما ريتشارد بعد ذلك بست سنوات، وهو يقاتل كما عاش يقاتل. توفى صلاح الدين فى سلام مع شعبه، ومع أعدائه ومع ربه، يتذكره المسلمون بالحب، ويتذكره الفرنجة بالاحترام. ولا يعرف الكثير عن نهاية دى سابل؛ إذ لا تذكر السجلات سوى حقيقة أنه مات. ولكن كما أعاد ريتشارد بلاد ما وراء البحر، أعاد دى سابل شرف الجماعة بما كان يتسم به من حكمة وحصافة؛ وحتى الأحياء لفترة قصيرة، يمكنهم أن ينعموا بالسلام.

الفصل التاسع

مذهب الشيطان

أوربا، بيزنطة والأراضى المقدسة ١١٩٣- ١٢١٣

لابد أن يكون بينكم بدع أيضا.

١ كورينثوس، الإصحاح الحادى عشر، ١٩

لقد كان من بين الأهداف الرئيسية للحروب الصليبية توحيد البلاد المسيحية الشرقية والبلاد المسيحية الغربية، ومن بين المبادئ الأساسية فى ذلك الوقت، أن الاعتقاد الدينى - التحول إلى العقيدة الحقيقية الوحيدة للكنيسة الرومانية - يمكن إقامته بطريقة فعالة بالقوة. وما لم يضع المرء هذا نصب تفكيره، فإن أحداث العشرين سنة التى تلت وفاة صلاح الدين ودى سابل تكون جوهر الجنون. ومع ذلك، حتى مع تذكر تلك المبادئ، من الصعب رؤية السنوات من ١١٩٣ إلى ١٢٢٣ إلا باعتبارها أشنع انحراف عن تعاليم المسيح، ومسخًا كئيبًا لكل شخص فى البلاد المسيحية - حتى فرسان الهيكل كان لهم دور فيه.

لقد تم لعب هذه المسرحية القبيحة فى ثلاثة مسارح منفصلة: جنوب فرنسا، وشمال سوريا، والقسطنطينية. وكان فرسان الهيكل متورطين، إلى حد كبير أو صغير، فى المسارح الثلاثة جميعا؛ وخلف الثلاثة جميعا، وفى نفس الوقت محرك عرائس، وإحدى العرائس، كان هناك رجل قوى: إنه البابا أنوسينت الثانى.

لم تكن إمبراطورية صلاح الدين لتصان إلا عن طريق شخصيته. لذا حين توفى عام ١١٩٣ خلف سبعة عشر ابنا وابنة واحدة؛ فبدأت الإمبراطورية تتفكك على الفور. لقد انتزع السكين من رقبة بلاد ما وراء البحر، غير أن فرنجة فلسطين لم يستطيعوا استغلال الفرصة لإعادة الفتح؛ ذلك أن مملكتهم الضئيلة كانت فى غاية الضعف. وكان هنرى من شامبين يتمتع بكامل السلطة الملكية، مع أنه لم يتوج أبداً ملكا على القدس؛ وكانت سياسته نحو المسلمين دائما هى سياسة الدبلوماسية المسالمة، وتتسم بتبادل الكلمات بدلا من الضربات، وأيده فرسان الهيكل ابتغاء صالح بقائهم. بل إن هنرى عقد تحالفا جديدا مع الحشاشين. وقد احتفى رجل الجبال العجوز بهذا التحالف بطريقة مبهرة: إذ دعا هنرى إلى اجتماع على قمة جرف حيث استعرض أتباعه إخلاصهم بأن قفزوا واحدا بعد الآخر إلى حتفهم فى أسفل، إلى أن رجاه هنرى بإنهاء الاستعراض. أما فرسان الهيكل فلم يكن لديهم كثير وقت لمثل هذه التوافه. وكانوا ممتنين لهذا التحالف: لقد أزيل تهديد آخر. واتباعًا لسنة دى سابل الحصيفة، تجنبوا أى صراع مع المسلمين لمدة أربع عشرة سنة تقريبا بعد وفاته. غير أنهم كانوا منشغلين فى اتجاه آخر - منشغلين بمولد عشرين سنة من تقاتل الإخوة بين المسيحيين.

فى بداية الأمر بدأ ذلك لا ضرر منه، مجرد مسألة بسيطة تتعلق باسترداد ممتلكات مفقودة. على بعد ما يقرب من ثمانية عشر ميلاً شمال أنطاكيا تقع قلعة تسمى بغراس. قبل حرب صلاح الدين، كانت ملكا لفرسان الهيكل. وفى عام ١١٩١ استولى صلاح الدين عليها ومحاها؛ ثم غادر هو ورجاله مباشرة، فاحتل أمير أرمينيا ليو الثانى، الموقع، وأعاد بناء القلعة. وما إن انتهى من إعادة البناء، حتى طالب الأمير بوهيموند، أمير أنطاكيا نيابة عن فرسان الهيكل بأن ترد إلى الجماعة؛ فرفض ليو الطلب رفضا قاطعا؛ ومن هذا الرفض نشبت حرب دامت لعقدين بين مسيحيى فلسطين ومسيحيى أرمينيا.

فى تلك الأيام التى كان يوجد فيها ملوك سياسيون، كان ليو من أوضح هؤلاء الملوك. فهذا الملك الذى تم تتويجه عام ١١٩٨، نال عرشه عن طريق الكلمات المعسولة والنفاق؛ وحافظ عليه عن طريق الوعود الفارغة والابتزاز الروحى الحكيم متلاعبا بمن هم أكبر منه ضد بعضهم بعضا. ولم يكن من الممكن منح تاج الملك إلا عن طريق إمبراطور، أو البابا؛ وكانت كنيسة روما تعد الكنيسة الأرمينية مبتدعة. لذا حصل ليو على تاجه من الإمبراطور البيزنطى وعلى صولجانه من الأمبراطور الألمانى، وهو أعظم حاكم زمنى فى ذلك الوقت. وفى نفس الوقت، دخل فى مراسلات مع البابا المحتضر سيليستين الثالث، موحيا، بأنه فى مقابل الاعتراف البابوى سوف يعيد الكنيسة الأرمينية إلى الحظيرة الأرثوذكسية. وتمت الصفقة، وحقق ليو طموحه؛ وتم الاعتراف به ملكا من جانب كل أصحاب الشأن والأهمية. وبعد أن حقق ذلك، كانت له طموحات أخرى. إذ يمكن أن تكون أنطاكيا إضافة جذابة لملكه. ولتحقيق هذا الهدف، كانت بغراس موقعا استراتيجيا له أهمية كبرى، وعلى الرغم من حث البابا على أنه يجب أن يعيد القلعة لفرسان الهيكل، كان ليو عازما على الاحتفاظ بها. وكان فرسان الهيكل أيضا عازمين على استعادتها.

ولا يعرف الكثير عن الرجل الذى كان معلم الجماعة حينذاك، حتى اسمه غير مؤكد، فيقال عنه بأشكال مختلفة مرة كجيلبيرت أريل، أو هورال، أو اريل، أو رورال. كما لا يعرف أحد عمره، أو مسقط رأسه؛ لكن على العكس من سلفه دى سابل كان من فرسان الهيكل "بالمهنة". وكان منصب المعلم الرفيع طريقه الطويل الشاق. وقبل انتخابه كمعلم بعشر سنوات، كان كبير رواد الهيكل فى القدس؛ وكان هو الذى تم تخطيه لصالح دى ريدفور الخطر. ويمكننا أن نخمن ذلك، مما بينهما من فروق من حيث الشخصية، فهو وريدفور كان يكره كل منهما الآخر كراهية تامة؛ لكن إيريل قد أعفى من ألم الإحباط الذى يمكن أن ينجم عن الخدمة الشخصية لدى ريدفور، ذلك أنه، فى عام ١١٨٥ نصب معلما على الهيكل فى إسبانيا وبروفانس. وبقى هناك أربع سنوات، يراقب عن بعد الزعامة المدمرة الخرفة وما أدت إليه فى حطين؛ ثم فى ١١٩٠،

فى الفترة بين ريدفور ودى سابل، حين كان الهيكل ككل بلا معلم، نصب مندوب المعلم للهيكل فى الغرب. لذا يبدو أنه كان شخصا يعتمد عليه، وأنه موضع احترام ويتسم بالضمير الحى؛ ومع أن السرية التامة لأعمال الهيكل تحظر ذلك، من المعقول أن نخمن أنه اقترح مرة أخرى كمعلم بعد اختفاء ريدفور فى عكا. ومع أنه كان يمكن الاعتماد عليه، فإن فرسان الهيكل كانوا فى حاجة إلى رجل يعترف به خارج حدودهم، رجل يمكن أن يعيد الاحترام للجماعة ليس فى أعينها فحسب بل فى أعين العالم أجمع. وحين توفى دى سابل، لاحت فرصة اريل، وفى عام ١١٩٣ تم استدعاؤه من الغرب، وأصبح الخادم الأمين للهيكل ومعلمه الثانى عشر.

وبعد ذلك بخمس سنوات، حين وضع ليو تاج أرمينيا على رأسه وأحكم قبضته على بغراس، قد يكون بدا لفرسان الهيكل أن الظروف هى التى حددت اختيارهم للمعلم. وكان البابا سيليستين العجوز قد رحب بعودة الأرمن إلى المذهب الصحيح، غير أنه لم يفعل الكثير من حيث استعادة بغراس. ومن المؤكد أنه كان هناك أمل أكبر فى خليفته؛ - لأن أنوسينت الثالث كان صديقا شخصيا لجيلبيرت اريل. ومع ذلك، فإن أى تفاؤل من هذا القبيل لم يكن على أساس سليم. إذ إن الرجلين كانا يشتركان فى سمة واحدة: الولاء العميق للأجهزة الدينية التى يرأسانها. ولكن بينما كان أريل متباطئًا عادى التفكير، مباشرًا ومستقيمًا، كان أنوسينت نشط الحركة، مشبوب العاطفة، وصاحب رؤية وشديد القوة - فهو ليس بالرجل الذى يلتزم بمقتضيات الصداقة حين تكون هناك أمور أكبر فى الميزان.

وحين أصبح أنوسينت بابا فى عام ١١٩٨، كان لم يتعد سبعا وثلاثين من عمره. ولم يحدث أبدا أن يحتل مثل هذا الرجل الشاب مثل هذا المنصب الرفيع، غير أن أنوسينت كان بحق شخصية استثنائية إن لم يكن شخصية فريدة. ذلك أنه درس اللاهوت والقانون الرومانى، والقانون الكنسى فى باريس وبولونيا، (ربما يقصد بولندا) وكون أفكارا محددة عن مهمة البابوية وهى أفكار رسمها بحيوية، وربما بقسوة، فى يوم تنصيبه. إذ أقام موعظته على اقتباس من أرمياه: "هنا والآن، أعطيك سلطة فوق الأمم؛

بكلمة سوف ترفعهم وتنزلهم، وتقلبهم وتحولهم إلى ركام، بكلمة سوف تبنيهم وتزرعهم من جديد".

وكان يعنى ما قال فى كل مقطع. فعلى مدى مائة وعشرة من السنين، منذ أن شن إيربان الثانى الحرب الصليبية الأولى لم يكن للكنيسة بابا يتمتع بهذه الرؤية العريضة والشخصية القوية. إذ كانت رؤية أنوسينت هى لبلاد مسيحية أشبه بجمهورية عظيمة، يشترك فيها جميع الناس فى عقيدة واحدة، وتكون جميع الأمم، رغم استقلالها خاضعة لسلطة زمنية وروحية واحدة، - هى سلطته وسلطة من يأتون بعده. كانت فكرة أنوسينت هى إيجاد وحدة جامعة روحية كبيرة يترأسها الإحسان الزبوى للحبر الرومانى، وقد نجح فى تحقيقها تقريبا أكثر من أى بابا قبله ومنذ وقته. ففى ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا والنورويج وأرمينيا وأرجون، تم الاعتراف به كسيد روحى؛ وبدأ مفاوضات مع الإمبراطور البيزنطى، باعتباره رئيسا للكنيسة اليونانية، عاملا على توحيدها مع الكنيسة الرومانية. وسيكون أنوسينت، بالطبع، رئيسا للكنيسة الموحدة.

غير أن ما بدا لأنوسينت تجمعا روحيا بدا لغيره دكتاتورية روحية. فلم يكن الجميع على استعداد لاتباع خطته - من المفهوم أن البيزنطنيين كانوا مترددين؛ وكان إخلاص الأرمن فى خضوعهم موضع شك؛ وأهل جنوب فرنسا، الثائرون الجسورون كدأبهم بدءوا يشككون فى العقيدة الثابتة التى لا تقبل الشك لدى الكنيسة. والقدس نفسها، بالطبع، وهى نظريا مركز وركيزة المسيحية كانت فى يد الكفار.

إذا كان ليو ملك أرمينيا مثالا جيدا على الكيفية التى يكون عليها الملك السياسى، فإن أنوسينت كان المثال الذى لا نظير له كبابا سياسى. إذ لم يكن هناك من يضارعه فى العالم الكنسى، ومن بين جميع سادة أوربا الدنيويين منافسه الوحيد المحتمل - هنرى السادس، ملك ألمانيا، الذى منح ليو الصولجان - توفى فجأة مما يلائم البابا. ثم شقت ألمانيا الحرب الأهلية، لأن فريدريك وريث هنرى كان فى درجة أدنى. غير أن فريدريك كان تحت حماية أنوسينت، الذى اجتث وقلب وأعاد بناء الأمم اتباعا دقيقا

لكلمات موعظته. فأصدر حكمه على الحرب الأهلية الألمانية، وتوج الرجل الذى اختاره إمبراطورا، ثم خلع ذلك الشخص بمرور الوقت، ووضع فريدريك الشاب مكانه.

وفعل الشىء نفسه فى إنجلترا بأن خلع الملك جون الضعيف الذى لا مبدأ له، ورفض إعادته إلى أن أصبح أحد أتباعه. والشىء ذاته حدث فى النورويج. وفى فرنسا أجبر أنوسينت فيليبب أغسطس على إنهاء زواجه الثانى، وإلا يكون متزوجا من زوجتين؛ وفى إسبانيا، تم إجبار الملك ليون على التنازل عن زوجته، لمن كان على قرابة وثيقة به؛ وعندما شهد ملك أرجونِ هذا كله، أسرع إلى إعلان ولائه للبابا المتقلب.

فى خضم هذا التتابع للحوادث، بدت مسألة ملكية بغراس مسألة بعيدة غير ذات أهمية. ذلك أن أنوسينت كان يعلم أن فرسان الهيكل لن يتركوا كنيسة روما مطلقا، لكنه كان يشك فى عمق اعتناق ليو للمذهب، ولم يكن يرغب فى فقد تابع تم اكتسابه بكل يسر، لذا ترك ليو يحتفظ بالقلعة موضع النزاع. وأخذ جيلبيرت اريل يرسل الرسالة تلو الرسالة إلى من كان صديقه فى وقت من الأوقات، يناشده مراعاة العدالة، غير أن أنوسينت لم يكن يتأثر بأى مناشدة فى هذه القضية بالذات. وعلى فرسان الهيكل مواصلة حربهم الخاصة ضد مسيحى مثلهم - فهو لم يجد ما يعترض عليه فى هذه الأحوال.

ومع ذلك، فقد ساعد الإخوان بهمة فى نواحٍ أخرى. واعتبرهم جيشه الخاص، ولن يسمح لأحد بأن ينسى ذلك. وفى السنوات السبع الأولى من بابويته أعاد التأكيد على الهبة العليا ثمان مرات، وفى سنته الثانية ١١٩٩، طلب منه أن يدافع عن الجماعة ضد الهجوم الوحيد الذى لا يستطيعون مقاومته مطلقا: ألا وهو الحرمان من الكنيسة.

إن مجرد فكرة أن فرسان الرب يجب أو يمكن حرمانهم من الكنيسة تبدو فكرة من قبيل العبث. لكنها حدثت؛ وتبين هذه الحادثة السبب الذى جعل الناس فى ذلك الوقت تتكون لديهم مشاعر مختلطة ضد فرسان الهيكل.

لقد كانت النقود هى أس المشكلة. ذلك أن فرسان الهيكل كانوا قد تعودوا منذ زمن طويل على التعامل مع مبالغ كبيرة من المال، ليس فقط من حيث حساباتهم فى تمويل عملياتهم العسكرية الممتدة على مسافات بعيدة، ولكن التعامل فى المال أيضا نيابة عن الآخرين. وكانت قلاعهم فى أوربا عنوانًا على القوة والأمن، وكان من الشائع بالنسبة لأى ملك أوربى تصادف أن يملك بعض المال أن يعطيه أو يودعه فى أيادى فرسان الهيكل للمحافظة عليه. ولم يكن فيليب أغسطس سوى واحد من هؤلاء؛ ففى زمن حربه الصليبية مع ريتشارد ملك إنجلترا، كانت خزانة الدولة الفرنسية مودعة فى قباء هيكل باريس. ولم يكن الملوك هم الوحيدون الذين بحثوا عن مستودع آمن للمال الاحتياطى داخل جدران فرسان الهيكل؛ بل إن الأساقفة ورؤساء الأساقفة والتجار والمواطنين العاديين جميعا أودعوا أموالهم داخل دور فرسان الهيكل.

وما لم يكن هذا المال يقدم كهبة صريحة، فإن هؤلاء الناس كانوا، بطبيعة الحال، يتوقعون استرداده حين يطلبونه. وللأسف، كان معظم فرسان الهيكل من الأميين، فكان حفظهم للدفاتر شديد العشوائية فى غالب الأحيان. وفى بعض الأحيان كان رجل واحد، ربما رئيس مقر ريفى لفرسان الهيكل، يعلم أن رصيداً مودعا، فإذا مات أو نقل قبل أن يستعاد المال، فقد لا يراه مالكه مرة أخرى. كما كان يحدث أحيانا، أيضا أن المال الذى أودعه شخص ما يطالب به وريثه. وبقليل من حسن النية من كلا الجانبين، يمكن تسوية مثل هذه المطالبات بكل يسر؛ غير أن حسن النية لم يكن دائما متوفرا. ووفقا لأخلاقيات ذاك الزمان، لم يكن حب المال هو أصل الشر وإنما التفاخر والعظمة - التعالى، والتكبر والعجرفة - وفى أيام أنوسينت كان من الشائع أن فرسان الهيكل لديهم من هذا الكثير. وحتى ريتشارد الأول، وهو نفسه لم يكن ملكا متواضعا، دفع عن نفسه اتهامات بأنه متكبر وذلك بأن قال بأنه سوف يزوج تكبره بفرسان الهيكل، بما أن التكبر مألوف لديهم.

فى عام ١١٩٩، اجتمع عنصرا المال والتكبر. ذلك أن أسقف طبرية أرسل مطالبة للمعلم، جيلبيرت أريل، لرد ألف وثلاثمائة بيزنتة ذهبية أودعها سلفه لدى

فرسان الهيكل، ورفض فرسان الهيكل، لسبب غير معروف، رد المال. ورشح أسقف صيدة للتحكيم؛ وعموما، كانت فكرته للتحكيم هى التهديد بالحرمان من الكنيسة، ليس فقط لأريل والجماعة كلها، وإنما أيضا لأصدقائهم وزملائهم فى أوربا والأراضى المقدسة، ما لم تعد النقود فى خلال ثلاثة أيام. وأعيد المال - غير أن الأسقف نفذ تهديده مع ذلك.

فأصاب الذهول أريل وإخوانه، وشعروا بالغضب. فإذا حرموا من الكنيسة لن يتمكنوا من الوفاء بقسمهم المقدس. فقالوا، حسن إذن، سوف ننسى ما أقسمنا عليه، ونلقى بعباءاتنا البيضاء، ونغادر الأراضى المقدسة ونعود إلى ديارنا.

فتدخل أنوسينت على الفور. وبعد أن اتهم الأسقف "بالحمق الشديد أو الخبس الخطير" أوقف الرجل عن أداء واجباته ومنع أى رجل دين من أن يتعدى حدوده مرة أخرى. وكان هذا نوعا من الانتصار لفرسان الهيكل، الذين سحبوا تهديدهم المتهور؛ غير أنه لم يفد سوى فى تعميق الكراهية التى يشعر بها رجال الكنيسة العاديون نحو الجماعة؛ ويمكن معرفة عمق هذه الضغينة من سرعة وشدة حكم الأسقف ضد فرسان الهيكل. كما يشير رد فعل أنوسينت السريع إلى عزمه على أن يحرر فرسان الهيكل من أية سلطة عدا سلطته.

لقد أصبح فرسان الهيكل والإسبتاليون ملاكًا كبارًا فى فلسطين الإفرنجية من خلال الشراء بأسعار بخسة للمتلكات أو الاستيلاء على ممتلكات هجرها المدنيون الذين فروا فى اتجاه الغرب. وكان أنوسينت الثالث واسع الثراء من حيث الأراضى، وشديد الانضباط من الناحية العسكرية، ويتمتع بمنعة شرعية وروحية، كان ذلك كله تحت تصرفه؛ وكان من شأن هذه الإمكانيات جميعا أن تذهب بعقل أى رجل أقل من أنوسينت الثالث. لكن أنوسينت لم يطر صوابه، بل إنه كان يرى بدقة كيف يمكنه، هو وحده، استخدام فرسان الهيكل، بما يتمتع به من عقل قانونى صارم، ونظرة شاملة للجمهورية المسيحية؛ فبمجرد اعتلائه العرش البابوى، بادر بالحرب الصليبية الرابعة.

وكانت لديه كل الأسباب التي تجعله يأمل في تحقيق النجاح التام. لم تكن الظروف أكثر ملاءمة مطلقا لهذا منذ أيام إيربان الثاني. ذلك أن الفشل الذريع للحرب الصليبية الثانية، والإنجازات المحدودة للحرب الثالثة، شكلت نقيضاً حاداً للانتصارات الكاسحة للحرب الصليبية الأولى. بالنسبة لأنوسينت كان السبب واضحا في حد ذاته لم يذهب ملوك إلى الحرب الأولى. وحيث لا يوجد ملوك، لا توجد منافسات ملكية. ذلك أن التناحر والغيرة العادية بين الأشخاص يمكن لمندوبي البابا التحكم فيها؛ ويمكن لأنوسينت، من موقعه الذي لا يمكن تحديه، إلا تلطخ حربه أي ملوك. كما يمكنه تحاشي الوقوع في خطأ إرسال رجال من أمم مختلفة للقتال من أجل ما يفترض أنه هدف مشترك؛ أما بالنسبة للمحاربين الخاصين به، فلديه لهم دور خاص. فبما أنهم أصلا في الأراضي المقدسة، فمن الواضح أنهم ليسوا في حاجة إلى السفر. وبدلا من ذلك، ينتظرون الجيوش الأوربية التي سوف تتشكل؛ ويدعمون ما يملكونه، ويمهدون السبيل من أجل هجوم عظيم موحد؛ ومما يملكونه من احتياطي أسطوري من ذهب وحلي، يمكنهم المساهمة في تمويل العملية الكبرى. بدا هذا كله بسيط الجمال بحيث لا يسمح لأي فرصة للفشل. وإذا كان جميع المشاركين يلهمهم الله كما يعتقد أنوسينت بأن الله يلهمه، كان من الممكن أن تنجح. لكن كل شيء كان خاطئا بشكل مأساوي على نحو بشع، لأن عقول الناس بها قوى لم يأخذها أنوسينت في الحسبان، لم يكن بقادر على فهم قوتها.

بادئ ذي بدء، لم يكن فرسان الهيكل متلهفين بأي حال إلى الدخول في حرب مقدسة جديدة. ذلك أن ضياع بغراس كان يغضبهم بشكل مؤلم. وليو تجاهل طلب أنوسينت الوحيد بأن يتخلى عن القلعة، وتعجب فرسان الهيكل من عدم مبالاة البابا الظاهرة. وتوفي جيلبيرت أريل في ١٢ ديسمبر عام ١٢٠٠ وهو في حالة من البلبلة والشك في دوافع صديقه القديم؛ وإذا كان فيليب دي بليزيي خليفة أريل، حذرا وملتويا في التعامل مع أنوسينت فلم يكن ذلك سوى انعكاس للحيرة التي تحسها الجماعة كلها.

وكانت هناك مع ذلك أسباب أكثر إلحاحا وعملية لتحاشى الدخول فى حرب غير ضرورية. ذلك أن دى بليزيى (الذى لا تعرف أصوله ومراتبه السابقة معرفة تامة) أصبح معلمًا فى وقت خاص شديد الصعوبة: إذ أنفقت فصول الصيف الثلاثة الأولى من احتلاله لهذا المنصب فى التعامل مع الجفاف، والمجاعة، والزلازل والطاعون وعاصفة رملية عاتية. وفى أثناء الزلازل تم تدمير مدن عكا وصور، وطربلس تدميرا كبيرا، ومن العجب أن دار فرسان الهيكل فى عكا كان من بين المبانى القليلة التى بقيت دون أن يلحقها أى ضرر. لذا فإن التعمير، وإيجاد الطعام لعشرات الآلاف من الجياع، والفقراء اللاجئين من الريف المحطم كان عملا يكفى وزيادة؛ غير أن الكوارث الطبيعية على الأقل، ضربت الجميع، من مسلمين ومسيحيين، فتمكن دى بليزيى من تجديد الهدنة مع المسلمين. أما أنوسينت البابا الميال إلى الحرب، فلم يكترث بذلك مطلقا، وانما استراح حين سمع من دى بلزيى أن المسلمين بدءوا يدفعون إتاوة لبطريارك القدس فى مقابل المعاهدة. ربما كانوا يفعلون ذلك. وربما يكونون قد صدقوا ادعاء دى بليزيى بأنه يمكنه أن يضمن سلاما دائما إذا ما استمرت الإتاوة – ولكن من حسن حظ دى بليزيى أن أنوسينت لم يسمع بهذا الادعاء. وعلى الرغم من مراوغة فرسان الهيكل المعقولة جدا، فإنهم لم يستطيعوا منع وقوع الحرب الصليبية. وتم جمع مساهمتهم فيها فى الوقت المناسب؛ وانطلق المشروع فى أوربا؛ وعلى الفور بدأ الخطأ فى العمق بشكل يهدد بالخطر. ذلك أن مبدأ الشيطان كان يتحكم. فكان مقدرا للحرب الصليبية الرابعة أن تصبح إحدى أكبر جرائم المسيحيين ضد المسيحيين.

لقد كانت مسيحية أنوسينت فى أفواه الناس لكنها لم تكن فى قلوبهم. وكان قادة الحرب الصليبية الرابعة منجذبين بإغراء الثراء وشهوة الانتقام – وليس الثراء فى السماء، وليس الانتقام من الكفار. لقد بدأ الجنود العاديون بحسن نية، وتجمعوا فى يونيه ١٢٠٢ فى فينيسيا. والاقتراح الذى قال به ريتشارد قلب الأسد قبل ذلك بعشر سنوات، وهو أن الحرب الصليبية يجب أن تبدأ بهزيمة مصر أولا، تم قبوله، وتعهد أهل فينيسيا بأن يقدموا السفن والطعام لمدة عام. وكان ثمنها مرتفعا جدا: ٨٥٠٠٠ من

المركات الفضية. وفى الوقت الذى تجمع فيه الجيش الصليبى، اكتشف قادته أنهم لا يستطيعون جمع مثل هذا المبلغ. وكل ما استطاعوا تقديمه هو خمسون ألفا، بما فى ذلك مساعدة فرسان الهيكل. وما لم يكونوا يعرفونه آنذاك، هو أن أهل فينيسيا فى حين وافقوا على نقل الجيش إلى مصر، كانوا قد عقدوا اتفاقية تجارية مع سلطان مصر - اتفاقية وعدوا فيها ألا تطأ قدم جيش أوربى التراب المصرى. منذ سنوات عديدة، كانت الجمهوريات الإيطالية التجارية، فى بيزا، وجينوا، وفينيسيا قد اكتشفت أنه يمكن تحقيق أعمال تجارية جيدة مع الأمم الإسلامية، ولم يرغب أهل فينيسيا على وجه الخصوص فى إفساد أسواقهم الرابحة المستقرة. لقد كان أعداؤهم أكثر قربا منهم.

ولما كان الصليبيون غير قادرين على الوفاء بالجانب الخاص بهم من المعاهدة، وهم ينتظرون فى فينيسيا لم يكن أمامهم سوى الموافقة على أية شروط يمليها أهل فينيسيا. وبدا أن العرض المقدم لهم يتسم بكرم كبير: يمكن تأجيل دفع مبلغ ٣٥٠٠٠ مرك المتبقى ويمكن البدء فى الحملة، إذا ما استطاع الصليبيون فقط مساعدة أهل فينيسيا فى ميناء زارا فى دالماتيا. إنه شىء تافه؛ فزارا على بعد يومين فى البحر من فينيسيا، وهو على الطريق إلى الأراضى المقدسة. فقبل القائد الصليبى، بونيفاس دى مونفيرا، شقيق كونراد، مخلص صور العرض بسرعة، مستخفا بحقيقة أن زارا مدينة مسيحية؛ وفى ذلك الوقت، رأى هو أيضًا هدفًا أفضل من فلسطين. وأدرك أنوسينت أنه فقد السيطرة على الحرب الصليبية بعد فوات الأوان. إذ إن أوامره اليائسة بحظر العدوان على المسيحيين تم تجاهلها. وفى ١٢٠٢ أبحر الأسطول يحمل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وتسعة آلاف من مساعدى الفرسان، وعشرين ألفا من المشاة، وبعد ذلك أصبحت زارا أو ما بقى منها ملكًا لفينيسيا.

واستخدم أنوسينت السلاح الوحيد الذى يملكه، وذلك بأن حرم مدينة فينيسيا من الكنيسة وكذلك كل الجيش الصليبى. ومع ذلك، فبما أن الصليبيين قد تم ابتزازهم، فقد رفع الحكم عنهم، وعلى الرغم من أن أهل فينيسيا ظلوا مدانين، فإنهم لم يشعروا

بأى خجل. ذلك أن زارا بالنسبة لهم لم تكن سوى المقدمة. فبونيفاس كان قد رتب لطريق جانبى آخر فى مؤتمر مع أنريكو داندولو المسن نصف الأعمى والذى لا يعرف مكره حدودا ألا وهو القسطنطينية.

لقد كانت لداندولو ضغائن شخصية مع البيزنطيين. إذ إن فقده لنصف أبصاره نتج عن جرح فى الرأس تلقاه فى منذ ثلاثين سنة، حين اشتبك فى معركة هناك حين كان سفيرا إلى القسطنطينية؛ وبعد أن صار حاكما (دودجى) أو دوقًا، ثبت أن كراهية اليونانيين له أمر ضار بالتجارة. كما تذكر أهل فينيسيا بمرارة كيف أن أبناء مدينتهم طردوا بقسوة من القسطنطينية عام ١١٧١؛ كما رأى الصليبيون أن لديهم ما يكفى من الأسباب لكراهية اليونانيين حين فكروا فى الأمر. إن الكنيسة الشرقية منشقة ومبتدعة، والمبتدعون الذين رفضوا كلمة المسيح أكثر سوءًا من الكفار الذين لم يسمعوا عنها، كما أن الجميع يعلمون أن اليونانيين خونة؛ فمنذ أكثر من خمسين سنة بدأ القديس بيرنار التعليمات التى لا زالت قائمة وهى أن غدر اليونانيين هو الذى قضى على الحرب الصليبية الثانية، وكتب أودو أن "فرنسا وألمانيا سيكون لديهما ما يندمان عليه ما لم ينتقم أبناء هؤلاء الرجال ولم يثاروا لموت آبائهم". وتمكن بونيفاس بيسر من أحياء هذه الذكريات، وأضاف إليها ما يخصه فى المشروع. إذ ادعى أن شقيق زوجته، هو الإمبراطور الشرعى لبيزنطة. والإمبراطور الحالى مغتصب يجب خلعه واستبداله فى صالح القانون الدولى والوفاق. وفى روما، لم يكن أمام أنوسينت سوى انتظار الأخبار، بعجز ونفاد صبر. ولم يندد بالخطة مباشرة؛ فإذا نجحت، فإن وحدة البلاد المسيحية الشرقية والغربية أمر يستحق التضحية. وحين بدأت الأنباء تصل ببطء، كان يشعر بالحبور - إذ حدث انقلاب ضد الإمبراطور، وجلس الإمبراطور الجديد على العرش؛ وسوف يتم دفع الديون لأهل فينيسيا، ويتم توحيد الكنيستين، وينضم عشرة آلاف بيزنطى إلى الحرب الصليبية. أى أن كل ما كان يمكن أن يؤمل فيه قد تحقق، ولسوف تهبط القوات المتحدة لأوربا وبيزنطة على الأراضى المقدسة.

ثم تغيرت الأخبار ببطء، وجاءت أنباء تتحدث عن حرق، وتعذيب، واغتصاب، وتدنيس للمقدسات. وتحولت القسطنطينية، قلب بيزنطة وفخرها إلى مذبح هائل. ففي ثلاثة أيام من الشغب والصخب قتل الصليبيون أكبر عدد ممكن من اليونانيين، من أطفال صغار ورجال ونساء، وشيب وشباب؛ ودخلوا القباء، ونهلوا ما شاءوا من النبيذ اليوناني اللذيذ، ثم اندفعوا كي يشعلوا النيران في المكتبة الكبيرة؛ واندفعوا إلى الأديرة كي يعبثوا بالراهبات؛ وهشموا أبواب كنيسة القديسة سوفيا، وشربوا نبيذ المذبح، ومزقوا الحرير المعلق، وانتزعوا الزينات الذهبية والفضية، وأفرغوا صناديق الآثار الدينية، وتبرزوا على الإيقونات، ونظفوا أنفسهم بصفحات من الكتب المقدسة؛ وطوال الوقت، كانت العاهرات يقفزن بين المقاعد، في حين كانت إحداهن تجلس على مقعد البطريارك وتغنى عن مباهج العشق.

وحين جمعت الجثث أخيرا، كان من بينها جسد الإمبراطور الذي أعيد تنصيبه. ذلك أن جميع وعوده كانت بلا أساس: لم يكن هناك رجال للجيش، ولا مال لأهل فينيسيا. فتم خلعه، وخنقه، وتوج مكانه فارس من الفلمنكيين سيدا على جميع اليونانيين.

أما في أوربا "فكان الانتصار الصليبي" يتمتع بشعبية، طاغية. ودفع المال لأهل فينيسيا من الفضة المأخوذة من كئوس التناول التي تم صهرها، وتدفق سيل من الآثار المقدسة الثمينة في كتدرائيات فرّنسا، وفلاندر، وإيطاليا وأديرتها. وكان أنوسينت وحده هو الذي رأى أن حلمه الكبير قد تحطم؛ الآن لن تتحد الكنيسة الشرقية والغربية أبدا. فأدار ظهره إلى بيزنطة، وأخذ في كآبة ينظم بيته من الداخل.

ربما أحيانا، في الاثنتي عشرة سنة المتبقية من عمره، قد يكون أنوسينت تمكن من النسيان، تمكن من الهرب من ذكرى الدخان والقذارة بينما كانت حضارة وثقافة بيزنطة تذوي وتموت تحت صليبييه. ربما؛ لكنه تغير، وطهرته النار وجعلته صلبا. فعلى الرغم من أنه لم يكن مسئولا مسئولية مباشرة عن جرائم الحرب الصليبية الرابعة، فإن غضبه من نتائجها كان ممزوجا بشعور عميق بالذنب. وللتطهر من الانفعالين كان

فى حاجة إلى مخرج من العنف المبرر؛ ووجد هذا المخرج تقريبا تحت أنفه، فى الوسط الجغرافى للبلاد المسيحية الغربية؛ - جنوب فرنسا، بلاد اللانجويدوك.

لقد كانت فرنسا منقسمة شمالا وجنوبا، إلى ثقافتين، هذا الانقسام يتجاوب بشكل تقريبى إلى مجرى نهر لوار. وكان ريتشارد قلب الأسد بما له من خلفية بواتيفينية نتاج نموذجى للجنوب الرومنسى؛ أما فيليب أغسطس حاكم الشمال والسيد الأسمى على الجنوب، فكان نموذجا لشعبه الأكثر برودة وصلابة وقسوة. وكانت الفروق بين الإقليمين تتمثل فى لغتيهما: فكلمة نعم فى الشمال كانت أويب؛ أما فى الجنوب فكانت أوك. وكانت سيطرة الشمال مع الوقت هى التى دعمت الكلمة الفرنسية الحديثة وى؛ غير أن لغة أوك، لا تزال تحدد الجنوب.

ولم يكونا يختلفان فى اللغة فحسب وإنما أيضا فى الدين. وقد فرض أنوسينت الإيمان على فيليب، غير أن هذا الإيمان لم يسد فى الجنوب. وفى إحدى المرات شكى القديس بيرنار من أن الكنائس هناك خاوية ومهدمة. وسبب ذلك هو أن أهل الجنوب كانوا قد وجدوا ديانة أكثر إرضاء لهم من الكثوليكية الرومانية - هى ديانة الكتاريين، أو كما أصبحوا يعرفون من مركزهم الروحى الفرنسى، الإلبيجينزيين.

وكانت الكتارية أكثر من مجرد طائفة من الكنيسة الكاثوليكية. فمع أنها قائمة على الديانة المسيحية، فإنها كانت ديانة أخرى، لديها مفهوم للمسيح ينكر على الكنيسة الكاثوليكية الحق حتى فى الوجود. وكان الكتاريون يزعمون، عن حق، أن قداديسهم أقرب جدا إلى المسيحيين الأوائل من أى قداديس فى الكنيسة الرومانية. كما أنهم تبعوا تمييز القديس بولس بين الجسد والنفس والروح، معتقدين أن النفس البشرية ملاك ساقط محبوس فى جسد بشرى، وأن جسده الروحى بقى فى السماء. ولا يمكن توحيد النفس والروح إلا عن طريق المعرفة؛ - الغنوصية، وهى لا تعنى المعرفة العقلية، لكنها معرفة خاصة يوحى بها وفهم للأسرار الروحية؛ ودون هذه الغنوصية، يحكم على النفس بأن تتناسخ إلى جسد آخر فإن، بشرى أو حيوانى، حين يموت جسدها الأول. كما ميز الكتاريون بين أجزاء الثالوث، التى لم يعتقدوا أنها جوانب ثلاثة لكيان واحد:

المسيح كان ملاكا، رسولا سماويًا، علم المعرفة التى تحرر بها النفوس من أجسادها. ولم يأت للتكفير عن خطايا البشر؛ ومع أنهم يعتقدون بأن رجلاً قد دق بمسمار فى صليب، فإنهم أنكروا أن هذا الرجل هو المسيح. وبذلك أنكروا البعث والتجسد، وهما المذهبان المركزيان فى العقيدة المسيحية.

إذا بدا ذلك أمرا معقداً، فما ذاك إلا لأنه غير مألوف. ففى جنوب فرنسا فى القرنين الثانى والثالث عشر، كان هذا المذهب يتم الوعظ به فى كل مكان، وكان مألوفا للجميع. ومع أن الكتاريين لم تكن لديهم مبان كنسية، كانت لديهم منظمة شاملة للمعلمين فى بلاد اللانجويدوك، رجال يعلمون الناس مذهبا للسلام والبساطة، ويبدو أنهم عاشوا وفقا لما كانوا يعظون الناس به.

ومع ذلك، مهما كان الكتاريون مسالمين ومتسامحين فإنهم ينتهكون العقيدة الصلبة الكاثوليكية، بصراحة وبشكل جازم، ولم يستطع أنوسينت ليتحمل ذلك. قد يعيشون كما يجب أن يعيش المسيحيون، لكنهم مبتدعون؛ وفى ١٢٠٩ أمر البابا بتدمير من يؤمنون بمذهب الكتار. ومع وجود سابقة القسطنطينية، أعلى من شأن هذه العملية بأن أطلق عليها اسم حرب صليبية، وطلب من فرسان الهيكل تأييده. وفعلوا كما فعل الكثيرون غيرهم، وإغراهم بذلك صكوك الغفران التى منحت لجميع المؤمنين الحقيقيين. بالنسبة للفرنسيين، جاءت الحرب المقدسة إلى أعتابهم، فكان من الأيسر بكثير إحراق المبتدعين فى الوطن عن مواجهة مشقة الرحلة الطويلة إلى فلسطين. ويكفى مثال واحد كى يبين التفكير الذى يكمن وراء حرب الإبينجينزيين. ففى ٢٢ يوليه ١٢٠٩، أحيطت مدينة بيزيى، وهى ليست بعيدة عن الحدود الإسبانية، وبالقرب من ساحل البحر المتوسط "بجيش الإيمان" وتم الاسيلاء عليها بسرعة. وحين سئل المندوب البابوى بما يجب فعله مع مزيج الكتار والكثوليك رد ببساطة "اقتلوهم جميعا؛ والرب سيعرف شعبه".

انضم فرسان الهيكل إلى أعمال الحرق، والشنق بإرادة، غير أن الأمر استغرق وقتا أطول من الأيام الأربعين التى توقعها أنوسينت لإحراق العقيدة الكاترية.

وبمساعدة النظر إلى الوراء، يمكن النظر إلى هذه الفترة فى بداية القرن الثالث عشر كوقت لنذير كبير لفرسان الهيكل، كبروفة أو تدريب شيطانى بالملابس لنهايتهم المؤلمة؛ ذلك أنه من لهيب البى وتولوز نشأت الشرارة التى سوف تشتعل وتغمرهم جميعا.

فى رماد الكتاريين والقسطنطينية كتب فرسان الهيكل مصيرهم بغباء. وبعيدا عن تقديم أى عون لبلاد ما وراء البحر، دمرت الحرب الصليبية الرابعة وما تلاها فى بلاد لأنجويدوك المملكة تدميرا حقيقيا. وساعد وفد من فرسان الهيكل فى تتويج أول إمبراطور لاتينى، وقد قدم وعودا متفاخرة بالوعد العسكرى الوشيك، وهى وعود لا يمكن أبدا الوفاء بها؛ وحين رأى الكثيرون من الفرسان من غير رجال الدين الغنائم التى يمكن الحصول عليها فى فرنسا وبيزنطة، تركوا ما فى الأراضى المقدسة من أخطار وفقر إلى الأبد. وبعد عام ١٢٠٤ كان الفرسان الغربيون الوحيدون الذين ذهبوا إلى هناك هم أولئك الذين انضموا إلى الجماعات العسكرية.

من الناحية السطحية، بدا أن فرسان الهيكل لم يحققوا الكثير فى مقابل أموالهم التى أنفقوها فى الحرب الصليبية الرابعة، ولكن من الممكن، وإن لم يثبت ذلك قط، وأثير حديثا فقط - أنه من بين دمار القسطنطينية، فازوا بجائزة أكبر من أى جائزة فاز بها غيرهم: جائزة لا يكادون يدركون طبيعتها، لكنهم قدروها وعظموها أكثر من أى شىء عداها. ذلك أن فرسان الهيكل مختفون خلف جدار لا يخترق من الصمت، ومحصنون من أعين الجميع سوى قلة مختارة، تمكنوا من أحد أكبر ألغاز العالم بما لهم من تكتم وسرية، وهذا شىء كانوا يعتقدون أنه مصدر قوتهم ومجدهم، لكن ما أشيع عن ممتلكاتهم أدى إلى محوهم محوًا تامًا.

الفصل العاشر

قلعة الحاج

الأراضى المقدسة ١٢١٨- ١٢٤٤

هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا، رأسه بالسماء

سفر التكوين، الإصحاح الحادى عشر، الآية ٤

من حيفا إلى عسقلان، ينساب ساحل إسرائيل (فلسطين المحتلة: المترجم) فى انحناء رفيق لا ينقطع تقريباً، متجها غرب الجنوب. وحيفا نفسها، حيفا القديمة تقع فى ظل مشبك من الأرض. ولكن إذا ما ركبت قاربا وأبحرت نحو الغرب حول ذلك المشبك أو الخطاف، فى البحر المتوسط الصافى؛ ثم إذا ما غيرت الاتجاه، مع اتجاه الأرض إلى ميديان، جنوب جنوب غرب، وتبعت الساحل، لا يوجد شىء بينك وبين عسقلان. لا شىء سوى نتوء طويل يدعى عتليت.

حين تبحر فى ذلك الساحل من الإسكندرونة فى تركيا الحالية إلى دمياط فى مصر، سوف تمر بجميع موانئ أيام الصليبيين - اللاذقية، وجبلا، وطرطوس، وطرابلس؛ وبيروت وصيدة، وصور؛ وعكا، وحيفا، وقيسارية، ويافا وعسقلان. ولكن لا يوجد مكان واحد من هذه الأماكن، ومعظمها مدن كبيرة اليوم، يعيد للذكرى الحروب الصليبية وفرسان الهيكل على وجه الخصوص - كما تفعل عتليت. إن النتوء الذى يقع على بعد تسعة عشر ميلاً بحرياً جنوب حيفا - أى رحلة بحرية تستغرق بضع ساعات

يبرز ثلث ميل إلى البحر، ويغطى بأكمله بحطام أقوى قلعة شيدها فرسان الهيكل فى أى وقت من الأوقات: إنها قلعة الحاج.

وقلعة الحاج التى بنيت عام ١٢١٨، بعد أن أسس جى دى بايان ومجموعته الصغيرة الجماعة بمائة عام بالضبط، تعد مثالاً كاملاً على كل ما كان فرسان الهيكل يرمزون إليه. وكان الغرض المحدد لها هو "إحضار جمعية الهيكل من مدينة عكا الخائرة، إلى أن يتمكنوا من الانتقال إلى القدس المحصنة". وكان فى إمكانها أن تتسع لأربعة آلاف من البشر، وداخل أسوارها يمكن أن يجد المرء كل ما يحتاجه الناس من أجل الحياة: فهناك المراعى، وبرك الأسماك، ومناجم الملح، وينابيع المياه العذبة، والبساتين، وحدائق الخضراوات، وحوض للسفن بجانب المرفأ الطبيعى. ويمكنك الرسو هناك عند جسر طوله مائتا قدم؛ وحتى اليوم لا زالت تثير الرهبة والجلال. وإذا ما سرت بينها يمكنك تخيل الفرسان بعباءاتهم البيض، والخيول والحرس، باللون الأسود أو البنى، الحجاج الذين شيد عملهم القلعة والذين اشتقت اسمها منهم. وكانت هناك الكنيسة، وهى بناء متعدد الأضلاع شبه دائرى، بنيت على نموذج كنيسة الضريح؛ وكانت هناك الأبراج الكبيرة، كل منها يبلغ طوله مائة قدم، وعرضه أربع وسبعون قدمًا، تدافع عن الواجهة المتجهة إلى الأرض؛ وهناك القاعة المحدبة التى كان فرسان الهيكل يعقدون فيها اجتماعاتهم السرية. إن القلعة المتكبرة الرهيبة المكتفية بذاتها، أى قلعة الحاج، هى العالم المصغر لجماعة فرسان الهيكل بكاملها. لقد بدأ ويليام دى شارتر المعلم الرابع عشر فى تشييدها. ذلك أنه بتحريض من البابا أنوسينت الثالث الميال للحرب، رفض فيليب دى بلزيى، المعلم السابق تجديد الهدنة مع المسلمين، فمات فى ميدان القتال فى أواخر ١٢٠٩. ودامت مدته كمعلم ثمانى سنوات ونصف، وهذه مدة متوسطة؛ ذلك أنه من بين المعلمين الثلاثة والعشرين جميعا، لم يدم أكثر من سبعة لمدة تزيد على عشر سنوات. لكنهم لا بد كانوا كثيرا ما يرحبون بالموت، إذ على الرغم من أنهم كانوا يلقون تكريم الأمراء، كان عليهم مزج مهارات رجل السياسة، والقائد العسكرى، ورئيس الدير، ورجل الاقتصاد. وقد تولى ويليام دى

شاتر هذه المسئولية الجسيمة لتسع سنين عصيبة. على مدى ست من هذه السنوات، كان الفرنجة والمسلمون فى حالة من السلام، ولكن دون ذلك ربما لم يكن لفرسان الهيكل فى الشرق أن ينجو من أحداث تلك الفترة. إذ لم تعد بغراس إلى الجماعة حتى عام ١٢١٦؛ قبل ذلك قام ليو إمبراطور أرمينيا بتدمير دورهم، فى أنطاكيا، وقلاعهم فى أرمينيا، كما ضم هنرى، الإمبراطور الثانى اللاتينى لبيزنطة جميع قلاعهم فى اليونان. لم يتسبب أحد لفرسان الهيكل فى الصعوبات أكثر ممن كانوا يشركونهم العقيدة.

ومن المؤكد أن قلعة الحاج كانت أكبر تراث خلفه ويليام دى شارتر لإخوانه. إذ شيدت كمكان للدفاع وملجأ ولكن أيضا كقلعة قوية يسكنها بشر وبها مؤن ليست كشىء سلبى فقط؛ بل إن هذا الصرح فى حد ذاته كان يمثل تهديدا فعليا. كان نشطا فى حالة القلعة حتى يكفى لأن يهدم المسلمون إحدى قلاعهم، - وهى قلعة منيعة تقريبا على جبل تابو - خوفا من الحصن الجديد المتشامخ على عتليت. وما على المرء سوى أن يخمن المشاعر التى أحس بها الجواسيس المسلمون وهم يراقبون أول خندق يتم حفره ومجموعات الثيران وهى تجر الحجارة الصفراء التى تكون الجدار إذ كان كل حجر من الكبر بحيث إن الثورين لم يمكنهما سوى جر حجر واحد فى كل مرة. وقد استغرق الأمر ستة أسابيع من الحفر لمجرد وضع الأساسات؛ وبينما كان الحجاج وفرسان الهيكل يحفرون اكتشفوا أنهم لم يكونوا أول من اكتشف ما فى النتوء من إمكانيات. ذلك أنه بعيدا فى أعماق الأرض كان هناك جداران كبيران منسيان منذ فترة طويلة، هما بقايا بعض التحصينات القديمة. ولم يجدوا ذلك فحسب، وإنما وجدوا كنزا: وجدوا نقودا من نوع لم يره أحد من قبل. فتلقاها الإخوان بكل الابتهاج، ورأوا فيها هبة من إله عملى جدا، واستخدموها - على ما يفترض أنهم صهورها وأعادوا تشكيلها - لسد بعض من نفقاتهم. ثم جاء كنز من نوع آخر، كان أكثر قيمة من وجهة النظر العسكرية: إذ انبسق نبع من المياه العذبة حاملا معه البشرى بالحياة، والطعام والوفرة داخل الأسوار. وبالمياه التى منحها الله، وأطنان الرمال المستخرجة، وقواقع

البحر المسحوقة من الشاطئ، مزج الإخوة والحجاج الكادحين الأسمنت الذى من شأنه تثبيت تلك الأسوار. ذلك أن الله تبسم إذ رأى عملهم، ووضعت ١٠٠٠ من عملة البيزنة قربانا على حجر الأساس.

وحين انتهى المعمل فى الجدار الشرقى، كان ارتفاعه يبلغ نحوا من تسعين قدما، وسمكه ست عشرة قدما، ولا توجد به سوى بوابة واحدة صغيرة. ولم يكن فى وسع أحد ممن رأوا القلعة وهى تشيد، أن يفكر فى أنها يمكن أن تستسلم – وهى لم تستسلم. بل صمدت لثلاث وسبعين سنة، إلى أن سقطت جميع ممتلكات الفرنجة فى بلاد ما وراء البحر. غير أن أحد جوانب القلعة المثيرة، إذا ما مر المرء فى آثارها، هو الجدار الشرقى وهو خط الدفاع الوحيد. أما من الغرب والشمال والجنوب كانت قلعة الحاج تقريبا مفتوحة على البحر. وذلك الانفتاح والغرض من القلعة – إيواء مجموعة الهيكل "إلى أن يستطيعوا الانتقال إلى القدس الحصينة" – كلاهما تعبيرا عن ذلك الزمان. إذ كان الفرنجة لا يزالون يتحكمون فى البحر؛ وكان فرسان الهيكل بصفة خاصة لديهم النية فى استعادة ممتلكاتهم القديمة، أى الهيكل فى قلب البلاد المسيحية.

حين زار لورانس العرب آثار القلعة وهو شاب، وصف البناء بأنه "حمق" قائلا إنه "أقرب إلى السجن من كونه ملجأ للمدافعين عنه." لكن هذا يمكن أن يقال عن أى حصن؛ وما دامت سفن فرسان الهيكل فى إمكانها الإبحار بحرياً على طول ساحل الأراضى المقدسة، فإن قلعة الحاج – التى هى حصن وميناء فى نفس الوقت – كانت أقل الأماكن سجنا، ربما باستثناء طرطوس. ذلك أنهم كانوا يمتلكون جزيرة محصنة هناك منذ عام ١١٦٩، لكنها مثلها مثل قلعة الحاج كانت موقعا استراتيجيا منذ وقت طويل: ذلك أن البقايا الفينيقية كانت هى الحجارة للمشروع الجديد. إذ إن قنطرة تغطى القلعة فكل بوصة من بوصاتها كانت تربط بين الشاطئ والجزيرة؛ وعلى الجزيرة، هناك أوجه شبه مع القلعة فى عتليت. لم تكن أوجه الشبه تلك هى المناجم أو الحقول، لأن هذا تحصين، لا أكثر ولا أقل؛ هناك برجان مربعان يسيطران عليها، مع حصن

ذى شكل غير منتظم، أصغر جدار به يبلغ طوله مائة وعشرة من الأقدام. وتحت هذا الجزء، توجد حجرات كبيرة محدبة، وبوابة صغيرة جدا خلفية تتصل بالبحر - مدخل للمؤن والتعزيزات، وفى حالة الطوارئ المطلقة، تعد مخرجا للإخوان. لا يمكن للمرء أن ينسى أن هذا كان دارا للمحاربين المقدسين: والكنيسة الخاصة تضاء عن طريق نوافذ صغيرة، وكأنما هذه أيضًا كانت موضع قوة ودفاع، وفى القاعة الكبيرة ذات الأعمدة، لا توجد من وسائل الزينة سوى الصليب وحمل الرب.

وإذا ما سافرت برا من طرطوس، سوف تجد قلعتين لفرسان الهيكل، وهما بحق سجنان بقدر كونهما ملجأين وتعرفان بالقلعة البيضاء والقلعة الحمراء. والقلعة البيضاء، التى بنيت على جبل، مبهرة بشكل مسرحى: بها سوران دائريان الداخلى فوق الخارجى؛ بحيث يكون على المهاجمين أن يخترقوا كليهما، ويتقدموا فى خطر على منحدراتها، وحتى حينئذ لن يبلغوا قلب أو مركز البناء. فهذا برج يبرز فى عظمة وحيدا من الجدار الداخلى، وهو عبارة عن بناء من ثلاثة طوابق، تشكل آخر ملجأ للإخوان. الطابق الأول منه عبارة عن كنيسة خاصة، غرفة تثير الدهشة طولها مائة وخمسون قدما، وارتفاعها خمسة وخمسون قدما. والضوء الوحيد الذى يدخله يأتى من النوافذ الصغيرة المرتفعة عن الأرض؛ إنه مكان كئيب، غير أنه يوحى بإحساس من الأمن. وإن لم يكن آمنا بالقدر الكافى، يمكن للفرسان والحرس أن ينسحبوا أبعد من ذلك؛ فى أعلى سلم مبنى داخل الجدار، ويبرز أو يصعد فى جدارهم الكبير، وهو الطابق الثانى؛ وإذا لم يتمكنوا من ذلك، فهناك الطابق الثالث، أى الطابق العلوى، المفتوح على السماء. ومن هناك، يمكنهم من هذا الارتفاع الشاهق الذى يثير الدوار، صب الحمام والنيران فوق جماعات المسلمين؛ ويمكنهم مراقبة أية حركة من على بعد كاف؛ وبالدخان واللهيب يمكنهم إرسال إشارة تحذير أو استغاثة إلى إخوانهم فى القلعة الحمراء. والقلعة الحمراء مثلها مثل شقيقتها القلعة البيضاء بها سوران دائريان؛ وهى مثل طرطوس وعتليت، مكان محصن مرة ثم مرة عبر العصور. وحين وصل فرسان الهيكل إلى هناك، تمكنوا من استخدامها تقريبا على الفور، لأن أحدث

تحصين، وهو بناء بيزنطى كان لا يزال فى حالة جيدة. كان الجدار الداخلى فقط فى حاجة إلى بعض الإصلاح، وكان المكان مهيأ للقتال. مرة أخرى. وطالما بقيت مثل هذه التحصينات فى أيادى هؤلاء الرهبان المسيحيين المحاربين، كان هناك الأمل أيضا، أمل حقيقى بأن تسترد القدس.

لقد كان فريدريك المتمتع بحماية أنوسينت قد توج إمبراطورا على ألمانيا، وكان يتم الدفع به فى حرب صليبية؛ وكانت هناك سفن مشحونة بالمتطوعين من قبرص، والمجر، وإيطاليا، وفرنسا وإنجلترا وهولاندا والنمسا فى طريقهم إلى بلاد ما وراء البحر. هناك بعض الاضطراب عن أى من الحملات يمكن أن تسمى بالحرب الصليبية الخامسة، أهى حملة فريدريك أم القوة متعددة الجنسيات. فحين تم تنظيم الأولى أى حملة فريدريك أخيرا، كانت جيدة التخطيط وناجحة، فى حين كانت الثانية واضحة بما بها من تنظيم سيئ مهترئ وفشلها فى النهاية. غير أن الحرب الصليبية الفاشلة متعددة الجنسيات كانت مشروعة؛ أما حملة فريدريك فلم تكن كذلك. ربما كان أبسط عنوان للاثنين هو "حرب فريدريك الصليبية" و "حرب دمياط الصليبية" لأن المشروع المغامرة متعددة الجنسيات هزمت أخيرا فى أهوار دمياط.

من حيث الترتيب الزمنى كانت الحرب الصليبية على دمياط هى الأولى بزمن طويل. ذلك أن مجموعات مختلفة غادرت أوطانها فى وقت مبكر يرجع إلى ربيع ١٢١٧، وكان النمساويون أول من يصل إلى الأراضى المقدسة، فى سبتمبر من عام ١٢١٧، وتبعهم مباشرة بعض المجريين، والقبارصة. وبقيادة ملوكهم الثلاثة غير الحكماء - هيو ملك قبرص، وأندرو ملك المجر، وجون ملك فلسطين - ومع الجماعتين العسكريتين، بقيادة معلميهما، لم يحقق هذا الجيش الخليط أى شىء على الإطلاق، باستثناء الاستيلاء على رأس يقال إنها رأس القديس ستيفين، وأبريق يقال إنه استخدم فى مأدبة الزواج فى قانة. وارتحل المجريون مكتفون بذلك، ومات هيو ملك قبرص.

وحينما وصلت المجموعة التالية، فى ربيع عام ١٢١٨، كان تشييد قلعة الحاج جاريا. وبعد العرض الأحمق الذى أداه الفرنجة فى العام السابق، لم يقلق المسلمون

كثيرا من استعداداتهم من أجل الحرب؛ لكن القادمين الجدد كانوا من الهولنديين ولديهم أسطول كبير تحت تصرفهم. ففتح هذا إمكانية جديدة تماما، وفى ٢٤ مايو أبحرت القوة البحرية المشتركة من الهولنديين والنمساويين والفلسطينيين من عكا. وجهتهم: دمياط، والنيل والقاهرة. وتوقفوا فى عتليت، وأخذوا معهم الجيوش المتجمعة من فرسان الهيكل والصليبيين مع مؤن إضافية من القلعة الجديدة. وفى ٢٧ مايو رست السفن فى دلتا النيل، على بعد ميلين أسفل مجرى النيل من دمياط. وفى ٢٩ وصل الأسطول الرئيسى، يحمل الملك جون ملك القدس، وفرسان الهيكل ووليام دى شارتر. وكانوا يعلمون أن مصر لا يمكن فتحها؛ ولكن إذا أمكن احتلال وادى النيل، وتم تنصيب نظام صديق فى القاهرة، عندئذ يمكن استخدام الحبوب المصرية والرجال المصريين فى فلسطين الإفرنجية. وقد كانوا بالفعل على بعد مائة ميل من القاهرة - وعلى مسافة قصيرة، كان مجرى النهر الملتوى يغطى حوالى ضعفى هذه المسافة، وكان مصبه يحرسه أحد الأبراج، به جسر من القوارب، وسلسلة حديدية هائلة، عبر القناة الوحيدة القابلة للملاحة. فعطلت هذه الأشياء الصليبيين لأسابيع؛ ولم يشقوا طريقهم حتى ٢٥ أغسطس. ثم بعد أن أنزلوا مراسيهم أمام أسوار دمياط، كان عليهم الانتظار. هذا التأخير هو ما أفسد وأفشل الحرب الصليبية. إذ كان من الممكن أن تسقط دمياط فوراً بهجوم مباشر، وكان من الممكن لاندفاعة أعلى النهر عبر الريف أن تنجح. غير أن التعزيزات كانت منتظرة فى أى لحظة من إيطاليا. وبدا أن الانتظار لبضعة أيام لا ضرر منه؛ لكن الإيطاليين لم يصلوا حتى منتصف سبتمبر، فى ذلك الوقت كانت المبادرة قد ضاعت.

بالنسبة لقائد الإيطاليين، لم يبد ذلك أمرا مهمًا جداً. لقد كان إسبانيًا يدعى بيلاجيوس، وكان رجلا غير مؤهل تقريبا للقيادة. كان إداريا نشطا يتمتع بخبرة جيدة، لكنه كان يفتقد اللياقة بشكل فاضح، وكان لديه إحساس دقيق بالوضع الاجتماعى. فكان يعتبر وضعه، ككردينال ومندوب للبابا، أمرا يضعه فى مكانة سامية بين الصليبيين، وكان يبنى معالجته للحملة على تفسير البابا أنوسينت لسفر الرؤية. لقد

كان أنوسينت قد مات فى عام ١٢١٦، لكنه كان قد وضع الحرب الصليبية على الطريق، واستمر فيها خلفه أونوريوس الثالث بحماس. وكان البابا والمعلم قد تراسلا مرارا بشأن هذا الأمر وغيره من الأمور؛ وربما تذكر دى شارتر أو يذكره أحد بمراسلات سلفيهما. ذلك أن أنوسينت الثالث كان قد كتب فى إحدى المرات لجيلبيرت إيريل يقول:

"فى الوقت الحاضر فتر حماس الناس، إذ سمعوا أنك تعقد هدنات مع المسلمين. أما عنا، فلا يجب أن نفتر على الإطلاق، بل نتمسك بهدفنا.... ذلك أنك إذا ما أردت من الغرب أن يساعدك، يجب أن تستأنف الحرب المقدسة مرة أخرى".

لقد بثت مدة دى شارتر كمعلم النشاط والقوة فى الإخوان بشكل يبعث على الدهشة. وحررتهم استعادة بغراس فى ١٢١٦ من هم شغلهم لمدة طويلة؛ وأنعشهم بناء قلعة الحاج بعد ذلك بعامين وبث الشجاعة فى نفوسهم. وها هم مرة أخرى أصبحوا مستعدين للخروج عن واجباتهم المملة المتعلقة بالدورية والحماية؛ وكان أونوريوس راغبا فى مساعدتهم. فأنشأ ضريبة واحد على عشرين على بضائع الكنيسة لدفع نفقات من أجل الحرب الصليبية، وعين أحد فرسان الهيكل، هو الأخ إيمار، أمانة الخزانة فى باريس، لتلقى المال. حتى الآن كل شيء على ما يرام؛ لكن الرجل يمكن أن يكون معلما فى الحرب الروحية، ومع ذلك لا يفقه شيئا ذا قيمة عسكرية عادية. فلو أنهم تركوا إدارة حرب دمياط الصليبية لقادة مثل شارتر، يفهم الحرب من نظرية الاستراتيجية، والتكتيك إلى الأمور اللوجيستية (المؤن والإمداد)، نزولا إلى قطع الرءوس وأنت تركب حصانا، لاختلف الأمر؛ ولكن أنوسينت وأونوريوس وبلاجيوس عملوا جميعا من مقدمة منطقية هى أن النبى محمداً لا بد أنه هو الوحش الذى ذكر فى سفر الرؤية، وأن رقم الوحش ٦٦٦ – هو عدد السنوات المخصصة قبل القضاء على الإسلام. وبما أن محمداً ولد فى عام ٥٧٠ م، وبدأ تعاليمه عام ٦١٠ وتوفى ٦٣٢، من الصعب فهم السبب الذى جعلهم يحسون بهذا الأمل؛ على ذلك الأساس، يكون أقرب تاريخ للحرب الصليبية التى تنهى جميع الحروب الصليبية يجب أن يكون عام

١٦٣٢، على الرغم من جميع منجزاته الأخرى، فإن أنوسينت الثالث لم يكن رياضيًا جيدا. ولم تكبح أية اعتبارات الكردينال بلاجيوس مطلقا. وكذلك الأعاصير، والفيضانات والمجاعات والأوبئة التى حدثت عام ١٢١٨؛ كذلك لم تفعل المناوشات الدائمة والمعارك البرية والبحرية. وفى إحدى هذه المعارك تم إغراق سفينة لفرسان الهيكل، وهى محملة بفرسان هيكل ومسلمين يقاتلون بعضهم بعضا قتالا يدا بيد؛ وغرق الجميع. ولقد ترك أحد المعاصرين وصفا بسيطا لكنه مؤلم لهذه المعركة. "أخذوا الشراع وأنزلوا المجداف، وهم فى خضم الماء. وصعد المسلمون، إلى أن أصبح هناك ألفا رجل. وكان فرسان الهيكل أسفل سطح السفينة، فلما رأوا أنه لم يكن هناك مفر، قرروا القضاء على أعدائهم وأن يموتوا فداء لسيدنا. لذا رفعوا الفئوس الصغيرة وأخذوا يشقون جسم السفينة. فغاصت فى الأعماق؛ فغرق مائة وأربعون من المسيحيين، وأكثر من ألف وربع المائة من المسلمين".

ربما يكون هذا معدلا جيدا، غير أن هذا النوع من الانتصار الانتحارى يفتقر إلى الأسلوب الحقيقى لفرسان الهيكل، وأخذ صبر الفرسان ينفد. وفى يناير ١٢١٩ ارتحل أمين خزانة الهيكل، الأخ مارتين، والمرشال، الأخ جون عبر ألمانيا يجمعون المال كى يرسلوا به إلى زملائهم فى دمياط - ما يكفى فقط للعمل المستقل. غير أن أونوريوس الذى يشك فى أفضل النوايا، رفض ذلك بحسم، وقال إن المال يجب أن ينفق "على الغلايين، وغير ذلك من المعدات، أو الأجهزة - طبقا للرؤية المسبقة للمندوب بيلاجيوس." وهذا معناه أنه يقول إنه يجب ألا ينفق فى أى غرض بناء على الإطلاق.

ومع مقدم صيف عام ١٢١٩ لم يكن الصليبيون قد تقدموا أية خطوة. ودمياط، التى كانت سهلة منذ عام، لم يتم الاستيلاء عليها بعد. وقضى المرض على الكثير من المسيحيين فى المعسكر وعلى السفن المزدحمة القذرة المحشورة. وعلى الشاطئ، أخذت مجموعات المسلمين المغيرة تضايق الجيش وتزعجه بلا انقطاع؛ وكان ويليام دى شارتر أحد ضحاياهم. ذلك أنه حين كان يصد هجوما فى ٣١ يولية أصيب بجرح بليغ

حتى أنه اضطر إلى الاستسلام بدلا من إعاقة إخوانه. ومات بعد ذلك بوقت قصير، بعد أن أصيب بمرض مرعب - قد يكون الإسقربوط الذى ألان لثته وعظام ساقيه. إذ كان سببا شائعًا للوفاة هناك.

وفى حرارة شمال مصر الموبوءة فى أغسطس، تم انتخاب معلم جديد على عجل: هو بدرو دى مونتيجيو، من مواطنى أرجون. وكان سابقا معلم الهيكل فى بروفانس وإسبانيا؛ وعلى الرغم من أنه كان مسيحيا تقيا مثل مواطنه بيلاجيوس، فإنه كان محاربا محنكا حتى أنه لم يكن ليتوقع تحقق نبوءة ضعيفة التفسير.

ومع ذلك، وفجأة، بدا أن النبوءة سوف تتحقق بالفعل. إذ تلقى الفرنجة زائرا غير متوقع: إنه فرنسيس من أسيسى. ذلك أن القديس الرقيق قام بزيارة لسلطان القاهرة، الذى أحسن استقباله؛ وبعد ذلك بوقت قصير سلمت رسالة مدهشة للمسيحيين. لو أنهم تركوا بلاده، حسب قول السلطان، سيعيد لهم الصليب الحقيقى، والجليل، ونصف فلسطين بالكامل، والقدس أيضا. وسوف يحتفظ بقلاع الكرك ومونتريال فى أولترجوردين، - وقلعة رينولد دى شاتيون كموطئ قدم - لكنه سوف يدفع إتاوة لهم.

لقد كان رد فرسان الهيكل وغيرهم من المسيحيين أكثر إثارة للدهشة من عرض السلطان. إذ قدمت لهم المدينة المقدسة، والصليب، والناصرة، وبيت لحم وكل ما بينها من أراض لهم على طبق؛ وما عليهم إلا القبول، ودون المزيد من الصراع سوف يكونون مرة أخرى سادة على كل ما فقدوه تقريبًا. ولكنهم رفضوا العرض.

رفضه بلاجيوس لأنه اعتبر أنه يجب على كل مسيحى ألا يتعامل مع كافر. ومونتيجيو وغيره من القادة العسكريين الذين اعتادوا أن يفعلوا ذلك حين كان ضروريًا رفضوا هم أيضا، ولكن لأسباب أكثر عملية. إذ تم تفكيك تحصينات القدس، والمدينة مفتوحة. وحتى لو لم تكن كذلك، فإن القيمة الاستراتيجية للكرك ومونتريال جعلت العرض تقريبًا عديم القيمة. فجيوش المسلمين يمكنها أن تدخل فى أى وقت

وتقوم بالهجوم؛ وفى واقع الأمر كان هذا ما السلطان ينتويه بالفعل. وحين خمن فرسان الهيكل تخمينا سليما مرة أخرى، قرروا أنه بما أن مثل هذا العرض قدم فى الوقت الذى كان فيه تقدمهم صغيرا جدا، فمن الممكن أن تكون مصر أكثر ضعفا مما بدا. وبدا أن هذا الإدراك قد بث فيهم طاقة جديدة، وفى هجوم مباغت تم الفوز بدمياط أخيرا. كان ذلك فى ٥ نوفمبر ١٢١٩؛ استغرقت هذه المدينة الصغيرة الوحيدة اثنين وستين يوما للاستيلاء عليها.

داخل الأسوار وجدوا المكان يمتلئ بالجثث. إذ إن الطاعون كانت ضربته أقسى من ضربتهم. وكان مشهدا يثير التقزز:

"وجدنا جثثا فى البيوت، فى غرف النوم وعلى الفراش؛ الابن بجانب الأب والجارية بجانب السيدة؛ لقد قتل الموتى الأحياء". ووجدوا ذهبا وفضة، وحريراً وكل صنف، آخر، - وجدوا كنوزا أوحت بالطمع، حتى أنهم هم الذين أفسدوا جهدهم. واستمرت الحرب الصليبية لعامين آخرين، واستغرق كل ذلك الوقت تقريبا فى دمياط. ولم يتقدم الفرنجة أكثر من عشرين ميلا فى النيل. وأبقتهم هناك مجرد إشاعات صغيرة، كل منها كانت أكثر ميلا للخيال من سابقتها. إذ قيل إن فريدريك الثانى فى طريقه لمساعدتهم، ووصلت بالفعل قوة ألمانية كبيرة لكن فريدريك لم يصل. ولم يكن بيلاجيوس راغبا فى التحرك دونه. وكان فرسان الهيكل مقيدين بقسمهم للبابا، وأصغوا فى صمت حين أبلغهم بيلاجيوس عن نبوءة عن وفاة السلطان، من الواضح أنها أحدثت فرحا، وعن بريستر جون جديد، يفترض أنه يقاتل الكفار بعيدا فى الشرق، مع أنه لا بد أن يكون قد بلغ مائة سنة إذا كانت الأخبار الأصلية عنه صحيحة. وبذل الأخ إيمار فى باريس أقصى جهده. وحصل على تعليمات من أونوريوس بإرسال ٦٠٠٠ مارك، من أموال الكنيسة، أو أكثر من ذلك إن كان هذا ضروريا، إلى إخوانه الغاضبين المحبطين، فأرسل ١٢٠٠٠ مارك ولم يتلق سوى الشكر على جهده. وتمكن بيلاجيوس من تبديد المال؛ فأبحر ملك القدس إلى الأراضى المقدسة وهو يشعر بالاشمئزاز، بدرو دى مونتاجيو بعد وقت قصير، إذ كانت قلعة

الحاج تحت الحصار. وفى تقارير دى مونتاجيو يمكن للمرء أن يستشعر ما أحس به من راحة لهذا العمل. ولكن حين عاد إلى دمياط فى نوفمبر، صمد الحصار بنجاح، تم صد العدو ووجد بيلاجيوس والآخرين حيث تركهم بالضبط. ولم يجد مونتاجيو فى شخص بيلاجيو أيا من التبصر الذى اثنى عليه أونوريوس. ولم يجد سوى الحمق. وكان الصيف فى مصر فى ذلك العام حاراً وجافًا بشكل استثنائى وجلب الجفاف الموت للمصريين أكثر مما فعل الصليبيون. وكانت هذه آخر فرصة للقيام بهجوم منسق على القاهرة. غير أن مماطلة بيلاجيوس جعلت الصليبيين المحبطين ينحدرون إلى الشجار والقتال مع أنفسهم. ولاحت من السلطان مفاتحات جديدة من أجل السلام، وكانت هذه المرة أكثر كرما؛ بالإضافة إلى جميع الاقتراحات السابقة، تم عرض تعويض نقدى مقابل إعادة تحصين القدس، مع هدنة مدتها ثلاثون سنة. وبنفس السرعة السابقة "مندوب سيد معين" (كما أسماه دى مونتيجيو بسخرية ذابلة) رفض. وأخيرا قرر القيام بعمل ما، لأن التعزيزات الألمانية كانت قد وصلت، وكان لا بد من القيام بعمل لإعادة الهدف للجيش. ولكن لم يكن ثمة ما هو أسوأ من هذا التوقيت – كان الوقت منتصف الصيف، وكان فيضان النيل متوقعا فى أى يوم.

فى ١٢ يولية ١٢٢١، بدأ بيلاجيوس الزحف، وأخذ يقود رجاله باستخفاف إلى حتفهم. لقد أبحرت ستمائة وثلاثون سفينة ببطء فى النيل. وعلى الشاطئ ركب خمسة آلاف من الفرسان مع أربعة آلاف من الرماة وخلفهم أربعون ألفًا من المشاة. وتقدموا لمدة اثنى عشر يوما فى الضفة الشرقية للنيل، متجاهلين التجمع الإسلامى الذى كان يحيط بهم على الضفة الغربية ثم بدأ يجرهم. وفى يوم السبت ٢٤ يوليه وصل المسيحيون إلى البحر الصغير، أحد روافد النيل. وعلى الجانب المقابل تم جمع جيش من المسلمين؛ وحين قام المسيحيون بتقييم الموقف، أدركوا برعب بطيء رهيب أنهم مطوقون، وأنهم أقل عددا.

ولما لم يتوفر لديهم بديل آخر، حاولوا التقهقر؛ وعلى الفور تم فتح البوابات الصناعية على الضفة الشرقية فتدفق الفيضان. فمات الصليبيون فزعا وهم يغوصون

فى الوحل والماء، يلاحقهم المشاة من النوبيين والفرسان من الأتراك، فى حين كان فرسان الهيكل يقاتلون فى معركة لحماية المؤخرة.

وكتب دى مونتيجيو بعد ذلك لإخوانه فى إنجلترا: "فقدت مؤننا، واكتسح مجرى الماء الكثيرين من رجالنا، ولم نتمكن من إحراز أى تقدم. واستمر الماء فى الارتفاع، ففقدنا جيادنا وأسرجتنا وأمتعتنا وكل ما كان لدينا. ولم ندر إلى أين نفر، ولما كنا كالسمك فى المصيدة، لم يسعنا سوى المناداة بالسلام." كان بيلاجيوس قد هرب. والآن كان عليه قبول السلام مع الكفار - سلام غير مشرف. ومع ذلك كانت شروط السلطان تتسم بالرحمة: سيتم تبادل جميع السجناء، وسيتسلم الفرنجة الصليب الحقيقى. وما عليهم سوى ترك مصر وقبول هدنة مدتها ثمانى سنوات. وإلى أن يتم بدء الصليبيين فى الرحيل، سلِمَ بيلاجيوس ودى مونتيجيو مع اثنين وعشرين من القادة الروحيين والعسكريين كرهائن؛ وفى ٨ سبتمبر أبحروا هم وغيرهم من الناجين بعيدا عن دمياط، مع دخول السلطان إليها مظفرا.

لقد أسهم الإيمان الدينى الساذج، والتصلب الذى يخلو من اللياقة، والقيادة غير الكفأة كلها فى حدوث هذه النهاية البشعة المثيرة للشفقة. ومع هبوط الجثث المسيحية كالدوامات فى النيل، عرف بيلاجيوس أنه لا يملك ما يبرر بذل كل هذه الجهود - حتى الصليب الحقيقى لم يكن معه. ذلك أن السلطان، فى نهاية الأمر لم يكن قادرا على العثور عليه.

بعد حكاية حزينة كئيبة مثل هذه، قد يكون من المريح أن نلتفت إلى حرب فريدريك الصليبية. وقد لا تكون الفكاهة من بين صفات فريدريك الشخصية، غير أن ظروف وأحداث رحلته إلى القدس، وعلاقاته بفرسان الهيكل مليئة بالسخرية، حتى إننا حين نراها بمعايير اليوم، نجد أنها تقترب من المهزلة. ذلك أن فريدريك نفسه كان من أغرب الناس فى ذلك الزمان، - بل ربما كان أغرب الرجال الذين التقى بهم فرسان الهيكل. إلى حد ما، (ربما أو بسبب) كونه كان تحت وصاية أحد البابوات وتلميذاً لبابا آخر، نشأ ولديه تقريبا عدم اعتبار تام للكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وكان بالمولد نصف

ألمانى ونصف نورماندى، لكنه، إذ ربى فى صقلية مملكة أمه بما بها من ثقافة نصف إغريقية ونصف عربية، وورث إمبراطورية أبيه فى ألمانيا، فقد جمع عناصر من الإسلام والمسيحية، وتخطاها جميعا. وكان يتكلم ست لغات، بطلاقة، ليس فقط الألمانية والفرنسية والإيطالية، وإنما أيضا كان يتكلم اللاتينية واليونانية والعربية. وكان فيلسوفا بجانب كونه مفكرا، يفكر بنفس الطلاقة التى كان يتكلم ويكتب بها. وكان يحيا حياة متحررة طليقة، كما كان ذواقة للطعام والشراب، ولما كان يعيش فى زمن يمكن للعقل القوى فيه أن يحيط بجميع المعارف السائدة، فكان يفهم العلوم الطبيعية، والرياضيات، والفزياء، والهندسة، والفلك والطب. وكان اسم شهرته يعبر عن ذلك: أعجوبة الدنيا.

غير أن اسم الشهرة هذا يعبر عن محدودية أو قصور أوربا. إذ إن فريدريك كان يمكن أن يكون غير عادى فى مصر أو بيزنطة، لكنه لن يعد خارقا للعادة. فى أوربا كان تقريبا غير مفهوم، لذا كان يثير الخوف ولم يكن جديرا بالثقة. إذ كان يفتقر إلى الفضائل البسيطة: فلم تكن صداقته ثابتة، ولا يرجع عن عداواته؛ فكان قاسيا ماكرا، - ولا غرو فى أنه كان أنانيا. وباعتباره إمبرطورا رومانيا مقدسا، فلم يكن من يفضله؛ حتى البابا نفسه، فبما أن الرب يباركه، فلم يكن يقبل أية عقيدة دينية جامدة - ما لم تتلاءم مع خطته السياسية. وكان ينتقد المسيحية بحرية وصراحة، ويستخدمها متى شاء كأداة للتوسع ولا شىء عدا ذلك. وحين توج ملكا عام ١٢١٥، أعلن مباشرة عن رغبته فى القيام بحرب صليبية فى أقرب وقت ممكن؛ غير أن تبنى الصليب لم يكن سوى طريقة للفوز بحماية البابا وهو يحكم قبضته على أجزاء من إيطاليا. وفى عام ١٢٢٠ توِّج إمبراطورا رومانيا مقدسا، وبشكل أو آخر، تمكن فريدريك القيصر الطموح من البدء الفعلى فى حرب صليبية لمدة اثنى عشر عاما. ذلك أن البابا أونوريوس الذى علم فريدريك حين كان طفلا، كان رجلا بسيطا ساذجا يقبل كل عذر على علاته؛ لكن أونوريوس مات عام ١٢٢٧، وكان خليفته جريجورى التاسع الذى كان بالمناسبة ابن عم أنوسينت الثالث، أقل صبرا. وكان يراقب من على الهامش، وسئم من

إضاعة الوقت الذى كان يمارسه فريدريك. وحين صار جريجورى بابا، لم يضع وقتا، وحرم الإمبراطور من الكنيسة.

فلما شعر فريدريك بالإهانة العميقة بدأ فى حرب صليبية دون إبطاء، وبدأت المهزلة الكبرى؛ ذلك لأن الكنيسة لم تكن تسمح لشخص محروم من الكنيسة بالاشتراك فى حرب صليبية ناهيك عن قيادتها. وفوق ذلك، فإن أى شخص يساعد شخصًا محروما من الكنيسة أو أية بلدة تأويه، تقع تلقائيا تحت الحظر أيضا؛ وكان فرسان الهيكل يراقبون النذر مع اقتراب فريدريك. فهم أقسموا على أن يكونوا خدما للبابا ويلزمهم القسم على كل حاج وكل محارب صليبى - كما كانوا ملزمين بتجنب أى اتصال بالمحرومين من الكنيسة. وهذه المحنة تبدو كوميدية، فى هذه الحالة، ومع ذلك، فإن حلها بالنسبة لفرسان الهيكل كان يعنى أكثر من الموت والحياة، لأن القرار الخاطئ يعنى اللعنة الأبدية. لقد وصلت حرب فريدريك الصليبية إلى عكا فى أوائل سبتمبر عام ١٢٢٨، وكان أول ما علمه فريدريك تقريبا أنه محروم من الكنيسة بشكل مضاعف - الحكم الثانى لأنه دخل فى حرب صليبية بشكل غير شرعى. لا بد أنه شعر بما يشعر به من حكم عليه بالإعدام مرتين: فالحكم الثانى لن يحدث فرقا كبيرا. غير أنه اكتشف أيضا شيئا آخر، اكتشف شيئا يمكن أن يحدث فرقا: ذلك أنه غير مرحب به فى الأراضى المقدسة، وغير مرغوب فيه وبلا دعم تقريبا. ولم يكن حرمانه مرتين من الكنيسة سوى جزء من السبب فى ذلك؛ فعلى نفس الدرجة من الأهمية حقيقة أن بلاد ما وراء البحر قد صارت أكثر قليلا من مجرد مجموعة من المدن والقرى والقلاع يعتمد استمرارها على السلام مع المسلمين. وكان هذا السلام فى ميزان حساس، يتوقف بدوره على الانقسامات المستمرة بين الدول الإسلامية. بل أن فرسان الهيكل والإسبتاليين كانوا أقل ميلا للحرب مع المسلمين، وكانوا لعدة سنوات ينفسون عن عدوانهم ضد بعضهم بعضا؛ غير أنهم نسوا خلافاتهم مؤقتا على الأقل حين اتضح أن فريدريك سوف يثابر فى حربه الصليبية، مهما يكن. ذلك أن معارضتهم اللفظية لم تجعله يتراجع، وحين بدأ هو وجيشه الصغير يتجهون جنوبا، كان لا بد من اتخاذ قرار: هل يقاتلون معه أم لا؟

وكان الحل مبتكرا وسخيفا. فمع تقدم القوات الإمبراطورية، سار فرسان الهيكل في موازاتهم، مدعين أنهم ليست لديهم علاقة بفريدريك أو رجاله؛ وتصادف فقط أنهم يسيرون في نفس الطريق.

غير أن هذا الحل لم ينجح لوقت طويل. ذلك أن القوات المنفصلة جعلت نفسها عرضة أكثر للمغيرين المسلمين بدلا من أن تقلل منهم. لذا تم تبني حل ثانٍ: إذ ركب فرسان الهيكل مع الإمبراطور، وأطاعوا أوامره - بشرط أن يصدر الأوامر باسم الرب والمسيحية، وليس باسمه المحروم من الكنيسة.

لقد كان فرسان الهيكل مخضرمين في المغالطة والسفسطة. ذلك أنهم، منذ قرن، حين كان ميثاقهم يدون، كان هناك حظر على السير في أماكن معينة تبعته المادة التي تقول: "وحيث لا يسير أحد الإخوان، لا يمكنه أن يوجه حصانه أيضا". لكن الجهود التي بذلوها مع فريدريك كانت أكثر من سبل ليّ الميثاق؛ ذلك أنه قد بدا أن فريدريك، أقل الصليبيين احتمالا، قد يستعيد الأراضي المقدسة بالفعل، - ولم يكن فرسان الهيكل يرغبون في أن يتركوا خارج الموضوع. وكان فريدريك يستخدم الدبلوماسية دون وجود تعصب بيلاجيوس الذي كان من الممكن أن يعيقه. لقد كانت القدس تتبع الكامل، سلطان القاهرة، الذي أوضح مرتين أنه مستعد لتسليم المدينة، إذا أمكن لهذه الحركة أن تساعد على تحقيق هدفه في حكم جميع بلاد المسلمين. وكان هدف فريدريك هو أن يحكم جميع بلاد المسيحيين؛ ويريد القدس لنفسه، وليس "لجمهورية البابا المسيحية". من الواضح، إذن، أنه يمكنه التعامل مع السلطان.

وفي بضعة أشهر تم كل شيء. ذلك أن فريدريك وافق نيابة عن الفرنجة الفلسطينيين (وأن يكن دون موافقتهم)، على دعم الكامل. والسلطان بدوره، أعاد للفرنجة الناصرة والجليل الغربي؛ والأراضي الإسلامية حول صيدة؛ وبيت لحم، والقدس، وممر بري من هناك إلى الساحل. وتم التوقيع على المعاهدة في ١٨ فبراير عام ١٢٢٩، - إنه نصر غير دموي حقق بقلم محروم من الكنيسة، أكثر مما فعلته أربعون عاما من الحرب الصليبية المشروعة.

دخل فريدريك الأراضى المقدسة يوم السبت ١٧ مارس. وفى يوم الأحد بحضور أبناء وطنه فقط، توج نفسه ملكا على القدس؛ ويوم الإثنين، وصل رئيس أساقفة قيسارية وهو يلهث غضبا، لتنفيذ المنطق الصارم للعقيدة الكثوليكية فى ما يمكن أن يكون الحركة العبسية الأخيرة فى الحرب الصليبية المتناقضة. وتم حرمان القدس أيضا من الكنيسة وهى بؤرة المسيحية، وذلك لوجود الإمبرطور المحكوم عليه بها.

حقيقة الأمر، هى أن أحدا لم يرد انتصارا من هذا النوع. كان نصرا غير سليم أو مناسب استراتيجيا، لن يمكن الدفاع عن القدس دون إحكام القبضة على الأراضى المحيطة بها؛ ولا فائدة ترجى من ممر ضيق بائس إلى الساحل. وروحيا، لم يكن مما يطاق أن يدخل رجل ممنوع من الذهاب إلى هناك رغم المنع؛ وأخلاقيا، لقد أساءت هذه المعاهدة إلى جميع ما تم من تدريب عسكرى أن يتم الفوز بالمعركة بالكلمات. ذلك أن فرسان الهيكل، على وجه الخصوص، كانوا يغلون غضبا لأنه، حسب المعاهدة بقيت منطقة الهيكل بأكملها مع المسلمين.

لفترة ما، تجاهل فريدريك جميع الانتقادات، وتفقد القدس. وعنف المؤذن المحلى على تقصيره فى رفع الأذان المعتاد، احتراما لحاكم المدينة الجديد. وقال: "إن هدفى الرئيسى من قضاء الليلة فى القدس هو سماع الأذان، وصيحات حمد الله فى أثناء الليل". وزار قبة الصخرة، وأظهر معرفته باللغة العربية بتورية مسيئة؛ إذ كانت هناك شباك عند أبواب هذا المكان المقدس، قيل له إن الهدف منها صد العصافير. والكلمة باللغة العربية هى عصافير، وهناك كلمة خنازير. فقال فريدريك باللغة العربية: "أرسل الله الخنازير بدلا من ذلك!" لكن اتجاهه المعادى للمسيحية علنا لم يجعله محببا لدى المسلمين، بسبب مظهره: إذ علق كاتب مسلم: "لديه جلد أحمر، وهو أصلع وقصير النظر. لو أنه عبد لن يساوى مائتى درهم. ومن الواضح مما قاله أنه مادى وأن مسيحيته كانت ببساطة لعبة بالنسبة له". وعلى الرغم من ذكاء فريدريك الساخر، لكنه لم يفهم أن الدين، بالنسبة لمعظم الناس، فى غاية الخطورة. فجعلته الأحداث بعد انقلابه فى القدس يعى ذلك بشكل حاد. وشن البابا حربا صليبية ضد فريدريك نفسه،

بالقتال على أرض ألمانية فى إيطاليا؛ وحاول فرسان الهيكل فى الأراضى المقدسة إغراء السلطان الكامل بقتله. وحين كان فريدريك عائدا من القدس بسرعة، وضع سياجا من الجنود حول دار فرسان الهيكل فى عكا، مهددا باختطاف المعلم، بدرو دى مونتيجيو ويهدم قلعة الحاج. غير أن القلعة كانت بها حامية شديدة لا تقدر على هزيمتها مثل هذه الأعمال النزقة، وكان دى مونتيجيو محاطا بحرس شخصى طوال فترة بقاء فريدريك فى الأراضى المقدسة.

لم يستطع الإمبراطور البقاء؛ إذ إن الأحداث فى إيطاليا كانت آخذة فى الخطورة. وعند فجر واحد مايو عام ١٢٢٩، أخذ السفينة من عكا، وأمطره المواطنون بالقاذورات والسباخ. وغادر الأراضى المقدسة أنجح الصليبيين جميعا، تغطيه القاذورات وتصحبه اللعنات.

وفى وقت متأخر من عام ١٢٤٠ وصل خطاب من فلسطين إلى الهيكل فى لندن.

"أرمان دى بيجوراس، برحمة الرب المعلم المتواضع للفرسان الفقراء فى الهيكل إلى أخينا العزيز فى المسيح روبيرت دى سانفورد، مدرس هؤلاء الفرسان، فى إنجلترا، محييا باسم الرب!"

لقد كان عقد الثلاثينيات قاسيا بالنسبة لفرسان الهيكل فى الشرق. ذلك أن بدرو دى مونتيجيو مات عام ١٢٣٢؛ وفى عام ١٢٣٧، قتل أكثر من مائة من الإخوان فى معركة واحدة؛ ومات الكامل، السلطان المصرى المسالم فى ١٢٣٨؛ وفى عام ١٢٣٩ ضاعت القدس مرة أخرى. لكن عقد الأربعينيات بدأ بداية جيدة، وبدا أنه مبشر؛ وقد شرحت الرسالة القادمة من بيراجورس سبب ذلك.

"نرغب فى أن تعلم جماعتكم أنه ... ليس خوفا من الشعب المسيحى، وإنما من خلال فعل معجز من الرب، أعاد سلطان دمشق إلى السيطرة المسيحية جميع الأراضى حتى نهر الأردن دون أن تمس... فليبارك الجميع الله الذى فعل هذا كله".

لقد كان ضياع القدس أمرا نصف متوقع، ذلك أنه حسب شروط معاهدة فريدريك، لا يملك سوى إعادة تحصينها و - لعلمه أن أول المستفيدين سيكون فرسان الهيكل - كان يرفض باستمرار إعطاء الإذن. وما إن انتهى مفعول المعاهدة فى عام ١٢٣٩، هاجم المدينة التى ليس لها دفاع أمير الكرك المسلم، واستولى عليها دون صعوبة كبيرة - تماما كما توقع فرسان الهيكل. ولكن هم أيضا استطاعوا أن يلعبوا كدبلوماسيين، كما بينوا ذلك كثيرا؛ وكان فصل الدمشقيين لغرب الجليل مدينا لدبلوماسية فرسان الهيكل أكثر من التدخل الإلهى. ذلك أنهم كانوا انتهازيين كالعهد بهم، فاقتربوا من سلطان دمشق مقترحين تحالفا ضد الخليفة الكامل فى القاهرة؛ ومكافأة على دورهم فى المفاوضات أعطوا قلعة صفد القوية.

وصفد الواقعة على بعد خمسة وسبعين ميلا شمال غرب قلعة الحاج، وما يقرب من خمسة عشر ميلا عن بحر الجليل، كانت مهدمة جزئيا، ولكن فرسان الهيكل عمروها بسرعة ووسعوها. واليوم، على الرغم من أنها صارت حطاما مرة أخرى، ما زالت تسود المنظر الطبيعى هناك؛ وحين كان فرسان الهيكل سادة صفد، وعتليت، كانوا يتحكمون فى جميع مرتفعات الجليل. ولقد كانت الحامية فى صفد تقريبا نصف حامية عتليت، إذ كانت أقل قليلا من ألفى رجل؛ ولكن بالمقاييس فى البناء والسكان، كانت كل قلعة مدينة فى حد ذاتها.

مع ذلك، فإن صفد، على الرغم من موقعها الاستراتيجى المهم، ربما لم تكن ليعاد تحصينها مرة أخرى مطلقا لولا تشجيع رجل واحد، هو بينديديكت أسقف مارسيليا. ففى وقت الهدنة بين فرسان الهيكل والدمشقيين، كان فى الأراضى المقدسة فى رحلة حج بالصدفة. وابتهاجا منه بهذه الفرصة، قام بزيارة أماكن دمشق المقدسة، وكان منبهرا بخوف المسلمين الواضح من صفد كما كان منبهرا بدمشق نفسها. ولكن عند العودة إلى الساحل عن طريق القلعة، وجد أنها مهجورة؛ إذ لم يكن يعسكر هناك سوى قليل من فرسان الهيكل. وفى عكا اكتشف سبب هذا النقص فى النشاط، كان دى بيرجورس مريضاً وملازما للفراش، يشعر بالاكتئاب والإحباط. وحوارهما مسجل.

قال دى بيرجورس: "سيدى الأسقف، ليس من السهل بناء صفد. إن ملك نافار، ودوق بيرجاندى، وكونتات وبارونات الشرق، وعدوا جميعا بالحضور إلى صفد، حتى نعمل بسرعة وبشكل أكثر أمنا؛ وقالوا إنهم سوف يبقون لمدة شهرين، وسوف يقدمون ٧٠٠٠ مارك لنفقاتنا. لكنهم رحلوا جميعا؛ وأنت تقول لنا الآن أن نعيد بناء القلعة دون أية مساعدة." لكن بينيديكت اعتنق الفكرة، ولم يكن هناك ما يثنيه. فأصر وأخيرا - رغبة من دى بيرجورس لتهدئته - وافق على مناقشة الأمر مع إخوته. وأشار مرة أخرى إلى نفقات المشروع، فوعد بينيديكت، الذى كان دعمه لفرسان الهيكل فى ذلك الوقت استثناء بين رجال الدين، بأن يصلى ويعظ نيابة عن الإخوان. ونجح المشروع:

"كان الفرح عظيما فى دار الهيكل وأهل عكا، وكل أنحاء الأراضى المقدسة. ودون إبطاء اختار فرسان الهيكل لجنة من الفرسان والحراس، ورماة السهام، وغير ذلك من المسلحين؛ وجمعوا مجموعة من الدواب، وفتحوا أجرانهم، والقباء والخزن وكل ما لديهم لدفع النفقات هم أنفسهم؛ وأرسلوا مقدما فرقًا من بناة الحجارة والحدادين".

وبارك بينيديكت العمل، بوضع كأس من الذهب والفضة به نقود على حجر الأساس بوصفه قربانًا. وبعد ذلك بوقت قصير عرف عجوز مسلم الإخوان مكان بئر ماء عذب ثمنا لرداء؛ وحين عاد بينيديكت بعد ذلك بأربعة أعوام، وجد القلعة أوسع مما كانت، وبها سبعة أبراج واستحكامات للمجانيق لحمايتها. لقد كان العثور على البئر هو أرخص جزء فى العملية بأكملها؛ ذلك أن الأرقام المقتبسة لبناء وصيانة صفد تدير الرءوس. التشييد: ١٠٠٠٠٠ بيزنتة. استكمال فى زمن السلم: ألف وسبعمائة رجل. زمن الحرب: ألفان ومائتا رجل. مؤن سنوية: اثنا عشر حمل بغل من القمح والشعير، بالإضافة إلى جميع الأصناف الأخرى من الفاكهة، والخضروات واللحوم. العجز السنوى فى مقابل دخل المقاطعات: ٤٠٠٠٠ بيزنتة. وحين يفكر المرء فى أن ذلك كان واحداً من ثلاثة عشر فى الأراضى المقدسة، وليست أكبرها، يتبدى جشع فرسان

الهيكل الأسطورى. ويصبح عدم استعداد بيرجورس لتحمل المشروع الهائل شيئا مفهومًا. ذلك أنه وضع هو وإخوانه فى دائرة مفرغة فظيعة: إذ أصبح المسيحيون فى كل مكان يعتبرون حماية فرسان الهيكل للأراضى المقدسة أمرا مسلمًا به، ودون حض من واعظ ملهم مثل الأسقف بينيديكت صاروا غير راغبين فى الإسهام فى تكلفة الحماية - كانت ميزانية الدفاع خارج جيوبهم. ولكن حين جمع فرسان الهيكل النقود عن طريق التجارة والتمويل، وكان المسيحيون الطيبون مغلولى اليد هم أنفسهم أول من اشتكى واستنكر. ومما زاد من العوائق أمام فرسان الهيكل - مع أن المرء يمكن أن يخمن أنهم لم يفعلوا الكثير للإقلال منها - أن فرسان الإسبتاليين كانوا يراقبون ما يحققون من تقدم بعين الحسد والغيرة.

فمنذ عام ١٢٢٧ كان هناك تحالف غير مريح بين فرسان الهيكل والإسبتاليين، قائم على عدم ثقتهم المشتركة بالإمبراطور فريدريك الذى كان لا يزال يتدخل فى حكم بلاد ما وراء البحر. غير أن الفوز بصفد كان أمرا من الجسامة بحيث لا يمكن أن يتحمله الإسبتاليون. وفجأة انفجرت المنافسة التقليدية بين الجماعتين إلى حرب مكشوفة. إذ عقد الإسبتاليون معاهدة مع سلطان القاهرة فى تعارض مباشر مع فرسان الهيكل، ووقفوا إلى جانب فريدريك فى معارك الحكم. ولمدة ثلاث سنوات، قاتلت الجماعتان كل منهما الأخرى بنفس الضراوة التى كانوا يقاتلون بها المسلمين فى الأوقات العادية إلى أن تمت تسوية هذه المعارك: كان القتال بينهما يجرى فى شوارع المدن، وفى الريف، وحول قلاع كل منهما - فى أى مكان؛ وفى إحدى المرات، فرض فرسان الهيكل الحصار على دار الإسبتاليين فى عكا، مع جميع أنواع الحظر المعهودة: إذ لم يسمح بدخول الطعام إلى المبنى، بل ولم يسمح للمحاصرين بأن يخرجوا ليدفنوا موتاهم. وتصرف الجانبان بالضبط كجمهوريتين مستقلتين داخل المملكة، ولم يعد السلام بين الجماعتين إلا فى عام ١٢٤٣ حين حسمت أخيرا الوصاية على العرش. وتم إلغاء تتويج فريدريك لنفسه، وتم الإعلان عن ابنه كونراد ملكا شرعيا على القدس؛ لكن كونراد، الذى كان يعيش فى إيطاليا، لم يرد أن يذهب إلى الشرق،

لذا انتقلت الوصاية على العرش إلى الوريث التالى عمة أبيه، ملكة قبرص الأرملة. وقد تم التوصل إلى هذا القرار غير المحتمل عن طريق الالتزام الحرفى بالقانون الفلسطينى وعلى الرغم من أن فرسان الهيكل كانوا يعتبرون أنفسهم فوق القانون، فإن هذا هو القرار الذى دافعوا عنه. ذلك أنه من الناحية السياسية كان يعنى أن سياستهم الخارجية هى التى فازت وليست سياسة الإسبتاليين: أى أن الحليف هو دمشق وليس مصر. ومما يثير السخرية، أن ضياع القدس تم التعويض عنه قبل ذلك بعامين، عن طريق معاهدة الإسبتاليين مع المصريين. وهكذا، بدمج الاتفاقيتين، تضخمت فجأة مملكة القدس لتشمل جميع أراضيها القديمة تقريبا؛ وبقليل من المناورة الدبلوماسية استعاد فرسان الهيكل مقرهم القديم - هيكل سليمان. وكتب أرمان دى بيرجورس بانتشاء إلى زملائه فى إنجلترا: "..... وفوق ذلك، من أجل تحصين أراضينا والدفاع عنها نقترح بناء قلعة شديدة القوة بالقرب من القدس، نأمل بواسطتها أن نحتفظ بسهولة بكل الأراضى وندافع عنها إلى الأبد ضد الأعداء". وأضاف: "لكننا لن نتمكن أبدا من الاحتفاظ بأراضينا والدفاع عنها إلى الأبد ضد السلطان (سلطان القاهرة)، فهو رجل قوى حاذق، دون الحماية القوية الممتازة من المسيح والمؤمنين".

لقد كان هذا التحذير ببساطة عسكريًا وسياسيًا، لكنه الآن يبدو وكأنه نبوءة. ذلك أن الشائعات كانت لا زالت رائجة عن ذلك الحاكم القوى المسيحى الغامض بريستر جون؛ وكان لتلك الإشاعات فى الواقع أساس واه فى الحقيقة. ففى أقصى الشرق، فى منغوليا، كان هناك رجل يدعى تغرل، رئيس عشيرة كيرات الماغولية. وقبل ذلك بمائة سنة، كانت عشيرة الكيرات قد اعتنقت المسيحية النسطورية. وكان تغرل مسيحيا من الناحية الاسمية، فتغير لقبه أونجخان عن طريق المبشرين المسيحيين إلى صيغة أكثر قابلية للفهم: وترجمت خان (خطأ) إلى كاهن - بيتر (أب) بريستر، - وأونج أصبح الاسم الفرنسى جان. وكانت أنباء غامضة عن أفعال المغول تتغلغل إلى أوربا، والأراضى المقدسة، ومع أنها لم تكن مبالغًا فيها، فإن تلك الأنباء كانت تعقم بشكل ما عند روايتها. فأصبحت أعمال الذبح المتعطش للدماء هناك فى الأراضى الجافة المعشبة

البعيدة انتصارات تحققت باسم المسيح؛ وحين قتل تغرل فى عام ١٢٠٣ بواسطة الخان الأكبر - جنكيز - انتقلت إلى جنكيز الفضائل المسيحية المفترضة إليه من أونجخان أو جون بريستر. وكان الناس فى أوربا وبلاد ما وراء البحر يؤمنون إيمانا صادقا بأن المساعدة للأراضى المقدسة لن تأتى فقط من الغرب، وإنما من الشرق، من جنكيز، وعائلته مؤسسى الجماعة الذهبية؛ وفى عام ١٢٤٤ ظهر فى فلسطين رجال من الشرق.

وكتب أحد المعاصرين من الغرب: "رجال! إنهم وحوش وليسوا بشرا، يفضل أن يسموا مردة وليسوا بشرا. أنهم يتعطشون لشرب الدماء، لذا يجزرون أجساد الكلاب، والبشر ويأكلونها. ويضعون قرون الثيران، ويتسلحون بالحديد؛ إنهم قصار القامة سمان الأجساد ولا يهزمون فى الحروب، ويعد الدم بالنسبة لهم مشروبا لذيذا".

لم يكونوا مسيحيي بريستر جون، ولا هم مغول جنكيز خان، بل هم رجال الأتراك الخوارزميين، وهم قبيلة نزحت نتيجة فتوحات المغول. وهم الآن محاربون جائلون يبحثون عن وطن، مستعدون لبيع قوتهم لمن يشترى؛ فاشتراهم سلطان القاهرة.

فى ٢ يولية ١٢٤٤، بعد أقل من سنة من تحذير دى بيرجورس التنبؤى، - اقتحم الخوارزميون القدس. ولم يتمكن من الهرب سوى ثلاثمائة من البشر. وفى أثناء فرارهم على الطريق إلى يافا، احترقت خلفهم المدينة المقدسة وكنيسة الضريح المقدس، وتناثرت عظام ملوك القدس من قبورها. ولن تحتوى القدس أبدا بعد ذلك على جيش من فرسان الهيكل. لكن الفرسان أعادوا التجمع فى عكا، كان هناك ما يزيد على ثلاث مائة، ومعهم ثلاثمائة من الإسبتاليين، وستمائة من الفرسان من غير الدينيين، وأعداد متناسبة من المشاة - وجيش من المسلمين أيضًا، استجلب من دمشق. ولم يكن الخوارزميون يعرفون إلهًا مسيحيا أو إسلاميًا. إذ لم يكن لديهم دين على الإطلاق، وأخيرا فى هذه المرة كان للمسلمين والمسيحيين عدو مشترك.

بدأ الحلفاء يزحفون جنوبا فى ٤ أكتوبر. والخوارزميون، تركوا القدس تحترق، اكتسحوا البلاد كى يكونوا فى موعدهم مع مستخدمهم، سلطان القاهرة، وانتظرت الجيوش المتحدة عند غزة. وفى ١٧ أكتوبر التقت القوتان - الفرنجة ومسلمو الشمال، والخورزميون ومسلمو الجنوب، عند سهل لا فوربى، على بعد بضعة أميال شمال شرق غزة. وانتهى كل شيء فى بضع ساعات. إذ تحطم حلفاء الشمال. وسقط خمسة آلاف من الفرنجة والمسلمين موتى جنبا إلى جنب. وسلب ثمانمائة منهم كعبيد فى مصر. ومن بين الثلاث مائة من فرسان الهيكل لم يفر سوى ثلاث وثلاثين كى يشقوا طريقهم عائدين إلى قلعة الحاج. ورقد معلمهم، أرمان دى بيرجورس فاقد البصر فى رمال غزة.

لقد كانت المملكة فيما وراء البحر تموت موتا بطيئا مؤلما. غير أن فرسان الهيكل، فى قلاعهم ودورهم وحقولهم ومزارعهم فى صفد وعتليت وكل أنحاء أوربا، كانوا عازمين على أن تبقى جماعتهم على الأقل.

الفصل الحادى عشر

مياه ميتة

مصر والأراضى المقدسة ١٢٤٨-١٢٩١

انسحقت الأرض انسحاقا، تشققت الأرض تشققا، تزعزعت الأرض تزعزعا أشعياء، الإصحاح الرابع والعشرون. الآية ١٩

تقوم مدينة إيج - مورت بارزة من منظر طبيعى مسطح بلا ملامح. وعلى بعد بضعة أميال إلى الشرق يوجد سهل كإماراج الشهير، حيث الخيول البرية لا زالت تجرى بحرية فى الأهوار المالحة. أما شمالا وغربا فإن الأرض خصبة، وفى الشتاء تكون خضراء بالكروم. وإذا ما نظرت جنوبا من جدران المدينة، يبدو وكأن البحر يبدأ فورا، ذلك أنه لا يوجد الكثير مما يرى سوى ميل بعد ميل من المياه المتلألئة. وما هذه الفكرة إلا وهم: فعند أقرب نقطة منها، يكون البحر المتوسط على بعد أربعة أميال. ومع ذلك فإن البحيرات الممتدة جهة الجنوب بحيرات مالحة. ولأن عمقها لا يزيد على قدم، فهى تقتل التربة، وتعطى المدينة اسمها البروفنسى أو البروفنسالى. ففى لغة أوك، "إيج مورت" تعنى "مياه ميتة".

إنه مكان متكبر، وحزين، فى آن، جميل ومهجور ومنعزل فى آن. حتى عام ١٢٤٠ لم يكن هناك شىء هنا سوى قرية صيد؛ ولكن فى عام ١٢٤٨، ومرة أخرى فى عام ١٢٧٠، مست هذه البقعة المنعزلة أحلام البطولة المقدسة. فى المدينة القديمة -

التى لم تتغير منذ زمن الرجل الذى أعطى هذه المدينة اسمها الفخم، يقف تمثال للويس كابى، أو من يعرف بالقديس لويس، أو لويس التاسع، ملك فرنسا. من هذه المياه الميتة، قاد لويس، الملك القديس أساطيل فرنسا مرتين فى آخر الحروب الصليبية الكبرى. ولويس الذى ولد عام ١٢١٤، كان طفلا جادا منطويا على نفسه. أما لويس الرجل، فكان طويلا وممتلئا قليلاً، أشقر البشرة، أشقر الشعر، جميل الوجه؛ شديد التمسك بالأخلاق، إن لم نقل إنه كان مستقيما على الدوام. ويحتفظ بشبه فى العديد من اللوحات والتماثيل التى تبين وجها وسيما عادة غير ملتح، دائم الهدوء والصراحة. وتظل شخصيته وأفعاله فى العديد من السير المعاصرة، التى إن لم تتفق مع أقوال أخرى توافقا جيدا، لشك المرء فى أنها مجرد مدائح؛ لأن لويس بلغ بممارسة الفضائل المسيحية إلى سمت غير مسبوق تقريبا. إذ كان رجلا دائم الوعى: وكل ما كان يقوله أو يفعله كان تحت بصر الله، ومن أجل مجد الله؛ وكل ما كان يمر به يتلقاه بوصفه درساً من عند الله.

وبقدر ما يكون ذلك ممكنا، فقد كان المسيحى المثالى، وفى ذلك، كان يقارن بصلاح الدين، المسلم المثالى. وكان بشكل ما، خارج زمنه. فمثل هذا الرجل كان لا بد أن يفهم الحرب الصليبية بمعناها النقى، يفهمها على أنها واجب نحو ربه؛ وكان لا بد لمثل هذا الرجل أن يشن ويقود الحروب الصليبية. ذلك أنه منذ مائة وخمسين سنة، لم يكن ليوجد من هو أنسب لذلك الزمان؛ ولكن فى منتصف القرن الثالث عشر، كان المزاج الشعبى فى أوربا منحازا ضد الحروب الصليبية. إذ لم تنجح واحدة منها نجاح الحرب الأولى ومنذ ذلك الوقت، أزهقت الكثير من الأرواح وضاع الكثير من الأراضى المقدسة؛ ومع شن حروب صليبية ضد بيزنطة والإلبيجينزيين، وفريدريك، فإن الدعوة البابوية للقتال من أجل الصليب فقدت الكثير من صدقيتها. ومع ذلك تحمل لويس الصليب فى عام ١٢٤٤، بعد أن شفى من مرض كاد يودى بحياته، وتمكن فى خلال بضعة سنوات من إحياء ما يكفى من روح الحرب الصليبية القديمة فى رعيته كى يجعل من القيام بحملة صليبية جديدة أمرا قابلا للتنفيذ. ففى بداية القرن الثالث عشر، لم

يكن ملوك فرنسا يملكون أية أراض خاصة بهم على ساحل فرنسا الجنوبى؛ لكن لويس كان قد تلقى إيج - مورت كهبة من دير الترانيم، على مسافة قليلة من القرية. فقرر بسرعة أن يحول هذا الخراب المالح إلى ميناء. وتم بناء برج للدفاع عن المدينة الجديدة؛ وتم توسيع مجرى مائى كى يكون قناة صالحة للملاحة؛ وشيدت أرصفة بحرية على طول حافة الماء. جميع تلك الأشياء ما زالت موجودة؛ وعدا ذلك، لم يتبق صدى لكل ذلك الضجيج والعجيج الذى حدث حين كانت السفن الجينوية المستأجرة الثمان والثلاثون تحمل الأسلحة والطعام والخيول والرجال. لقد استؤجرت السفن، التى تسع كل منها سبعمائة رجل، أو مائة جواد، عن طريق رينو دى فيشيى، رائد الهيكل فى فرنسا؛ وحين أبحر الأسطول فى ٢٥ أغسطس عام ١٢٤٨، كان فيشيى ضيف شرف على الملك.

وسرعان ما انضم أسطول ثان إلى الأسطول الملكى من مارسيليا. وكان هناك مسافر بارز فى هذه التجريدة هو جان دى جوانفيل الذى كتب بعد ذلك إحدى أهم السير المعاصرة للقديس لويس. ذلك أنه كان هو والملك صديقين، غير أن دى جوانفيل لم يكن راغبا فى الاشتراك فى مشروع الملك، وكثيرا ما كاد الذعر يخرجه عن صوابه من الناس والأحداث التى صادفها على مدى المشروع. ولم يكن فى ذلك ما يختلف كثيرا عن غالبية الصليبيين فى الفترات الأخيرة؛ من حيث تعاسته بسبب مغادرة وطنه، وغرابته فى الميناء واقتناعه، بمجرد وجوده فى البحر، بأنه جن جنونا تاما بأن يكون هناك، وهذا يصدق عليه كما يصدق على معظم الناس الآن كما يصدق على معظم الناس حينذاك.

لقد كتب: "فى اليوم الذى غادرت فيه جوانفيل، أرسلت فى طلب رئيس دير شيميون، الذى أعطانى عصاة حجى، والتصريح الخاص بى. وغادرت جوانفيل مباشرة بعد ذلك - على ألا أدخل قلعتى مرة أخرى حتى عودتى من الخارج - سائرا على قدمى، العاريتين وأرتدى قميصى. وذهبت وأنا هكذا، إلى بليكور وسان-أوربان، وغير ذلك من أماكن بها آثار مقدسة. وفى الطريق إلى بليكور وسان-أوربان، لم أدع

ناظرى قط يلتفتا إلى الوراء نحو جوانفيل خوفا من أن يرق قلبى من الحنين بالتفكير فى قلعتى الجميلة والطفلين اللذين خلفتهما ورائى".

ولكن حين وصل إلى مارسيليا، بدت الرحلة أقرب إلى المغامرة، وخففت العملية المؤدية إلى الرحيل من قلبه المحزون.

"فى اليوم الذى بدأنا فيه الرحيل، فتح باب دخول السفينة وتم شحن جميع الجياد التى كانت لدينا كى نأخذها إلى الخارج. ثم أغلق الباب وسحب إلى أسفل، بنفس الطريقة التى تغلق بها دورقًا، ذلك لأنه حين تكون السفينة فى البحر، يكون الباب بأكمله تحت الماء.

"وحين وضعت الجياد على ظهر السفينة، نادى قائد سفينتنا على بحارته، الذين كانوا فى مقدمة السفينة، "هل كل شىء ثابت"" فأجابوا "أجل يا سيدى" "يمكن للكتبة والقساوسة أن يصعدوا". وما إن فعلوا ذلك، صاح قائلا: "باسم الرب، انشدوا أغنية:" فغنوا جميعا معا هيا يا روح الرب!؛ فقال رئيس السفينة للبحارة "باسم الرب أبحروا!" وهكذا أطلقوا الأشرعة".

لقد كان ذلك هو نقطة الودا ع لجوانفيل أكثر من تركه لقلعته.

"وسرعان ما ملأت الرياح الأشرعة ولم نعد نرى الأرض، بل لم نر شيئا سوى السماء، والماء؛ وفى كل يوم كانت السفن تأخذنا بعيدا عن الأوطان التى ولدنا فيها. إذن ما أحمق الرجل الذى يخوض مثل هذه المخاطرة! - لأنك حين تنام فى الليل لا تدرى ما إذا كنت ستجد نفسك فى الصباح فى أعماق البحر".

لكنهم وصلوا إلى قبرص دونما مزيد من المنغصات سوى دوار البحر، وبعد أن قضوا الشتاء هناك فى راحة، انطلقوا مبتهجين فى أواخر مايو من عام ١٢٤٩، بأسطول أكبر كثيرا.

كان منظرا جميلا؛ فعلى مدى الرؤية، بدا البحر كله مغطى بمناشف؛ بسبب أشرعة السفن، التى كان عددها كبر أم صغر، ألفًا وثمانمائة سفينة.

ذلك أن الجيش كبر بشكل متناسب؛ إذ يوجد الآن ألفان وثمانمائة من الفرسان، ومشاة لا حصر لهم، وكذلك رماة. وكان الطريق الذى اختاروه هو الطريق نفسه الذى اختاره آباؤهم فى عام ١٢١٨: دمياط، القاهرة، ثم الأراضى المقدسة. فى هذه المرة كان هناك سبب إضافى لهذا الاختيار؛ عسقلان كانت قد سقطت فى عام ١٢٤٧، وبعد فتح القاهرة، سيكون استردادها هو هدفهم الأول. لكن بين قبرص ودمياط كانت كارثتهم الأولى – إذ هبت عاصفة وبعثرت الأسطول الكبير، حتى أن بعض السفن أزيحت إلى مسافة بلغت عكا. ولم ينزل مع الملك دمياط سوى سبعمائة من الفرسان فقط، و ... هناك وجدنا جميع قوات السلطان على شاطئ البحر: يعجبك منظرهم، لأن جميع أسلحة السلطان من ذهب، والشمس أشرقت على الدروع الذهبية. والضوضاء التى أحدثوها بنوافيرهم ونوافير المسلمين تبث الرعب فى القلوب." وبعد أن قفز لويس فى الماء بدرعه ورمحه، أخذ يشق طريقه إلى الشاطئ، واضطروا إلى منعه بالقوة من مهاجمة الجيش المصرى بمفرده. كان فى الوطن حاكما قديرا حكيما؛ أما فى الحرب، فهو بعد، قديس بريء. ومع ذلك، نال الصليبيون ضربة حظ: ذلك أن النزعة الحربية للجيش البراق، على الشاطئ لم تكن سوى مجرد استعراض. ذلك أن السلطان كان فى القاهرة يعانى من مرض خطير. وحين اعتقد أهل دمياط أنه مات، أخلوا مدينتهم على عجل، ودخل الجيش المسيحى ببساطة سيرا، واستولوا على المدينة. فكانت بداية مبشرة.

ولكن بدا أن دمياط تبعث على الكسل والخمول فى أوصال كل أوربى دخلها. إذ كان النيل فى موسم الفيضان؛ وأجزاء الأسطول المتناثرة لم تكن قد انضمت إلى الملك بعد؛ وأصر لويس على البقاء فى المدينة التى تم الاستيلاء عليها. وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذى يمكن عمله، إذا كانت القاهرة هى الهدف. لقد كانت هناك إمكانيات أخرى، من بينها الإسكندرية، التى أوصى بها بقوة بارونات فلسطين وفرسان الهيكل تحت قيادة معلمهم الجديد ويليام دى سوناك. لكن لويس شعر بصدمة عميقة حين اكتشف أن دى سوناك قد تفاوض على معاهدة سرية مع سلطان القاهرة. ذلك أن

الملك الذى يحمل مبادئ سامية لن يسمح بالتنازل بحيث يتعامل مع الكفار؛ وعنف دى سوناك علنا، وتبنى بدلا من ذلك نصيحة أخيه المفضل، كونت روبير دى ارتوا المحب للحرب ذلك الشخص الأرعن. وكانت القاهرة هى الاختيار، وبعد أشهر طويلة من الانتظار فى حر الصيف اللافح، بدأ الملك والجيش يزحفون ببطء على ضفة النيل الشرقية. وأنهك التقدم السلحفائى - ثلاثة أميال فقط يوميا - فرسان الهيكل بشكل لا يحتمل. وكان المغيرون المسلمون يضايقونهم دائما، لكن لويس منعهم من أى انتقام؛ ثم أسقط أحد فرسان الهيكل من على صهوة جواده، فى إحدى المناوشات، فصاح دى سوناك على النقيض من أوامر لويس: "هلموا، باسم الرب، إنى لا أستطيع تحمل هذا الوضع أكثر من ذلك." فهجم فرسان الهيكل وقاتلوا بشراسة. وقتل ستمائة من المسلمين أو غرقوا، وتشجع الجيش بهذا النجاح غير المتوقع وتقدم على نحو أكثر سرعة. وفى ٢١ ديسمبر كانوا على ضفاف البحر الصغير. وعلى الجانب الآخر من القناة الواسعة استطاعوا أن يروا المنصورة. واسمها من معناها؛ إذ إن المدينة بنيت على هزيمة الفرنجة قبل ذلك بجيل.

من الناحية النفسية، لا شك فى أن هذه كانت أهم نقطة فى الحرب الصليبية، لكلا الجانبين. ذلك أن المرور بالموقع الذى مات فيه جيل آبائهم منح الفرنجة الشجاعة التى كانوا فى حاجة إليها، مما هزم روح المصريين أكثر من أى شىء آخر.

لقد كان فى مواجهة الفرنسيين، على رأس جيش المسلمين، اثنان من أعظم قادة المسلمين فى ذلك الزمان: فخر الدين، وهو صديق شخصى لفريدريك الثانى منذ المفاوضات التى جرت بينهما منذ عشرين سنة مضت، والمملوك التركى، بيبرس، الذى قام جيشه المشترك من المصريين والخوارزميين بذبح فرسان الهيكل ومعلمهم فى ذلك الوقت أرمان دى بيراجورس عند غزة.

لقد احتجز المسيحيون لمدة ستة أسابيع عند الخليج. لكنهم وضعوا معبرا عند القناة وعند الفجر فى ٨ فبراير ١٢٥٠، وبتعليمات مشددة بأن ينتظروا لويس على الجانب الآخر، قاد ويليام دى سوناك وروبير دى أرتوا الطليعة المسيحية. وربير الذى

كان نافد الصبر، ويخشى من ضياع ميزة المفاجأة، تجاهل أوامر أخيه وحث رجاله على مواصلة التقدم.

وجادله دى سوناك لفترة وجيزة ثم استسلم أمام توبيخ روبير له بأنه جبان. واندفع الفرسان والفرنسيون معا إلى معسكر المسلمين الذى كان قد استيقظ توا، وفيما تلا ذلك من دمار سريع، وجد فرسان الهيكل فخر الدين، وقتلوه وهو يقفز عاريا من حمامه.

وحث الصليبيون خيولهم على مواصلة المسير، نحو المنصورة. فلو تم التغلب على هذا العائق، لن يوجد ما يمنعهم من دخول القاهرة. ولكن مع أن فخر الدين مات، فإن بيبرس ما زال حيا. وأخفى جنوده فى المدينة، وترك بواباتها مفتوحة. فدخلها فرسان الهيكل والفرسان الفرنسيون كالرعد، وساروا مباشرة فى وسط المدينة، حتى وصلوا إلى أسوار القلعة ذاتها؛ ثم لم يجدوا مكانا كى يستديروا خارجين من الشوارع الضيقة، فوجدوا أنفسهم محصورين، تحيط بهم قوات المسلمين من كل جانب. ودارت المعركة فى المدينة حيث كان القناصة يمطرونهم من النوافذ والأسطح، فرجعت الخيول من الفزع، ملقية براكبيها ودهستهم فى وسط الفوضى والاضطراب. وهرب أحد الفرسان الجرحى كى يحذر لويس؛ وقفز قليل منهم فوق التحصينات، فكان مصيرهم الغرق فى النيل؛ ومن بين قوة فرسان الهيكل - مائة وتسعون فارسا - لم ينج سوى خمسة. وكان دى سوناك المعلم أحد هؤلاء الخمسة، غير أن سهما أصاب إحدى عينيه، فصار الآن نصف أعمى.

كان الأمر كله عبارة عن مقامرة، إنها مقامرة لم تكن جائزتها مجرد مدينة، بل كانت ذلك الشىء غير الملموس، ألا وهو الروح المعنوية. لقد قامر الجانبان، فخسر الفرنجة. وسحب لويس رجاله خارج أسوار المنصورة، وصد سلسلة من الهجمات المضادة. وفى إحداها فقد دى سوناك عينه الأخرى؛ وفى هذه المرة، مات متأثرا بجروحه. وصمد الصليبيون فى مكانهم شهرين. وكان الأمل الأخير أن تنشب ثورة فى القاهرة لأن السلطان توفى أخيرا بسبب مرض؛ غير أن ابنه استولى على السلطة دون

معارضة ونظم أسطولا لمنع سفن المؤن الصليبية من دمياط. وفى أثناء الأسابيع الثمانية التى ظل فيها لويس خارج المنصورة، تم الاستيلاء أو إغراق مائة واثنتى عشرة من سفنه. وبدأت المجاعة فى الجيش، ووقع ضحية الدوزنتاريا والتيفود. وأصيب لويس بالاثنين معا، لكنه أبى أن يترك رجاله. وأخيرا حاول التفاوض - تنازل عن المبادئ ولم يكن ليقبل ذلك فى أية ظروف أخرى. ورفضت المفاتحة رفضا قاطعا، وفى تكرار كئيب لما حدث عام ١٢٢١، بدأ الانسحاب المسيحى. ونقل المرضى فى سفن صغيرة فى النيل؛ وسار أو ركب كل من كان قادرا على فعل ذلك. لكن الوضع كان ميئوسًا منه بالكامل. ذلك أنه قبل دمياط بوقت طويل كان كل رجل فى الجيش المسيحى إما ميتًا أو أسيرًا، ورقد لويس الملك القديس مقيدا بالأغلال فى أحد سجون المسلمين. بشكل ما، دبت الحياة فى روحه فى هذه الظروف. ذلك أن آسريه طلبوا منه تسليم ملكية قلاع الفرنجة فى الأراضى المقدسة. فرفض قائلا إنها ليست ملكه حتى يتخلى عنها؛ وهدده المسلمون بوضعه فى المقشرة.

وقال دى جوانفيل: "إن المقشرة هى أقسى طرق التعذيب التى يمكن أن يعانى منها إنسان. وهى تتركب من قطعتين من الخشب الطيعتين بطولين مختلفين مسلحتين عند الطرف بأسنان. تضبطا معا ثم تربطان من الطرف بشرائط قوية من جلد العجول. حين يريدون وضع الناس فيها، يضعون الضحايا على جنوبهم ويحشرون الساقين بين الأسنان. ثم يجعلون رجلا يجلس على لوحى الخشب. وتكون النتيجة عدم وجود ولو قطعة عظام واحدة طولها ست بوصات غير مكسورة. ولزيادة التعذيب إلى أقصى حد ممكن، فى نهاية ثلاثة أيام، حين تتورم الساقان، يضعونها فى المقشرة مرة أخرى، ويكسرونهما من جديد". مجرد الفكرة من شأنه أن يجعل معظم الناس يستسلمون؛ لكن لويس لم يكن عاديا. "أجاب الملك على هذه التهديدات بأنه سجين لديهم، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا به ما يشاءون".

حين شعر المسلمون بالدهشة والإعجاب وربما الحيرة، قرروا إطلاق صراح لويس وجيشه - عند دفع فدية قدرها ١٠٠٠٠٠٠ بيزنتة ذهبية، وهو ما يعادل آنذاك

٥٠٠٠٠٠ جنيه فرنسى. فوافق لويس، وحين استغرق السلطان الشاب فى التفكير لأن لويس لم يساوم خفض خمس المبلغ. ومع ذلك، كان مبلغًا كبيرًا، وحين جمع كل ما لدى الفرنجة من نقود، كان المبلغ أقل من المطلوب ب ٣٠٠٠٠ جنيه.

"ثم قلت (جوانفيل) للملك إنه يحسن صنعا بأن يرسل إلى قائد ومرشال الهيكل، بما أن المعلم قد مات، ويطلب منهما إقراضه مبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه".

من الصعب للغاية إعطاء معادل حديث لمثل هذا المبلغ. ذلك أن الاقتصادات الوطنية كما نعرفها لم تكن موجودة، لكن تلك الأيام كانت منكوبة كأيامنا بتذبذبات معدلات التبادل والتضخم وتغيرات أسعار السوق. ولكن كمرشد تقريبى جدا، كان الجنيه الفرنسى يعادل ثلث الجنيه الإنجليزى تقريبا؛ ومن المحتمل أن الجنيه الإنجليزى يمكنه شراء ثلاث بقرات وجدى.

وكان لدى فرسان الهيكل أكثر من الكفاية فى سفينتهم غير أن القائد رفض تقديم القرض - على أساس أن الأموال المودعة لدى الجماعة لا يمكن أن ترد إلا إلى المودع. ومن حسن الطالع أن مرشال الهيكل كان رجلا يتمتع بقوة الخيال. كان هذا الرجل هو رينو دى فيشيى، الذى كان قد استأجر الأسطول الجنوى من أجل لويس، وقد رقاه إخوانه حديثا من منصب رائد أو مشرف على دار للهيكل فى فرنسا.

فقال لجوانفيل: "يا سيدى، فلنكف عن هذا النزاع... كما يقول قائدنا لا يمكننا تسليم أية أموال دون أن نحنث بقسمنا. ولكن، إذا كنا لا نريد إعطاءكم النقود، يجب أن تأخذوها ببساطة. وليس فى هذا شىء غير معتاد؛ وإذا أخذتم أيا من نقودنا فلدينا ما يكفى من نقودكم فى عكا، يمكن بها رد المال".

وكان هذا بالضبط ما فعله دى جوانفيل. إذ حمل بقارب إلى سفينة الجماعة، وحين صعد على ظهرها التقط فأسًا صغيرا وقال إنه سوف يستخدم هذا كمفتاح من أجل الملك، وعندئذ قدم له دى فيشيى مفاتيح الخزانة الوحيدة، وهذه وحدها تحتوى حرفيا على ما يكفى من المال لافتداء ملك، ودفع المال للمسلمين فى موعده. هذه

الحادثة العجيبة توضح عدة جوانب تعبر تعبيرا صادقا عن الجماعة، أولها وأوضحها ثراؤهم الفاحش. كما تبين التزامهم المطلق المستمر بحرفية ميثاقهم، واستعدادهم لإيجاد ثغرات فى الميثاق حين تستلزم ذلك السياسة البرجماتية. لكن ربما كان أهم ما تبينه هو مدى سهولة اتهامهم بالتكبر. ذلك أنه لا يوجد أى مودع من الممكن أن يعترض، حتى إذا ما فقدت نقوده فى إنقاذ لويس؛ وإذا رجعنا بالأمر إلى ما حدث من هزيمة فى المنصورة، فإن أسر الملك جزئيا مسئولية فرسان الهيكل.

لحسن الحظ، لم يكن لويس رجلا يحمل ضغائن لأحد سواء كان مسلما أو مسيحيا. وشكَّل هو الهزيمة التامة لحربه الصليبية، وذبح المسلمين القاسى للمرضى الذين تركهم خلفه فى دمياط، كدرس إلهى وإفراط فى التقوى، شكر الله على ذلك .

سرعان ما حان الوقت كى ينقل هذا الملك شديد التواضع عبرته إلى فرسان الهيكل المتكبرين. حين وصل لويس إلى عكا فى ١٢ مايو عام ١٢٥٠، أقام فى الأراضى المقدسة لأربع سنوات. فكانت المكانة التى يكنها لفرسان الهيكل واضحة: فقد أقام فى قلعتهم المنيعة قلعة الحاج، وحين حملت مليكته طفلهما السابع هناك عام ١٢٥١، دعا رينو دى فيشيى كى يكون الأب العوحى. وبكل أسف رفض دى شيفيى هذا الشرف إطاعة للميثاق؛ لكنه نال شرفا مرة أخرى من إخوانه، لأنه أصبح الآن المعلم التاسع عشر للهيكل. إذ من الواضح أن الفرسان وافقوا على الحل الوسط الذى قدمه فى مسألة الفدية.

وكان على لويس أن يتنازل هو أيضًا. وكان يعلم أن إرادة الله على الأرض يجب مساعدتها من آن لآخر، وفى عام ١٢٥٢ بدأ التفاوض كى يتحالف مع أعدائه القدامى فى القاهرة. وكان التنافس القديم بين القاهرة ودمشق ما زال مشتعلا، وكل من الجانبين تقارب مع الفرنجة طلبًا للمساعدة ضد الجانب الآخر. وفضل لويس القاهرة، متذكرا الصليبيين الموجودين فى السجن هناك؛ أما فرسان الهيكل، ففضلوا حليفهم التقليدى، دمشق، ومرة أخرى تفاوضوا على عقد معاهدة سرية. وحين قدم دى فيشيى

المعاهدة التى تم إنجازها إلى لويس، شعر الملك، الهادئ دائما والقادر على التحكم فى نفسه فى أصعب الأوقات، بالغضب الشديد. وطلب من فيشيى أن يستدعى جميع إخوانه لجلسة استماع عام، وأن يحضروا السفير الدمشقى معهم. فتجمع الفرسان حفاة الأقدام وجلسوا أمام الملك. وكان دى جوانفيل شاهد عيان على الإهانة الصريحة.

"قال الملك، بصوت مرتفع، للمعلم: "أيها المعلم، إنك سوف تقول للسفير إنك منزعج لأنك عقدت معاهدة معه دون أن تتحدث معى؛ ولأنك لم تتحدث معى، فإنك تعفيه من جميع الاتفاقيات، وتعيد إليه الأوراق الموقعة".

وفعل دى فيشيى ذلك، ثم، بأوامر من لويس، ركع هو وجميع الفرسان أمام الملك، ورجوا منه الصفح. فعفا لويس عنهم جميعا فيما عدا الأخ الذى قام فعلا بكتابة المعاهدة، الذى كان من المقرر أن ينفى من الأراضى المقدسة. وتم تنفيذ الحكم؛ ومع ذلك، فإن مصير دى فيشيى بعد هذا العار الذي عرض الجماعة له، مصير غامض قليلاً . لقد عاش حتى عام ١٢٥٦؛ غير أن السجلات التى تتحدث عن السنوات الاخيرة من حياته متناقضة. البعض يشير إلى أنه ظل معلما حتى نهاية حياته؛ والبعض الآخر يوحى بأنه استقال، أو عزل من منصبه، مباشرة بعد اللقاء الذى جرى مع الملك لويس. ويعد الرأى الأخير ممكنًا تمامًا؛ ولكن جماعة الهيكل ما تزال تحتفظ بسريتها. ومع ذلك، فإن أغرب ما فى الأمر كله هو الحقيقة البسيطة فى خضوع دى فيشيى للملك، ومسألة السبب الذى جعله يسمح للويس بأن يملى على الجماعة، وهى جماعة تعرف باتجاهها بعدم المبالاة بالملوك. وهناك سببان يطرحان نفسيهما، ومرة أخرى يعكسان طابع الجماعة، الروحى والعسكرى. لقد كان لويس أعظم مثال حى على القيم المسيحية؛ وبينما كان فى الأراضى المقدسة، كانت جميع الفصائل الإفرنجية تقبل قيادته. واحتراما لتلك الصفات، انحنى فرسان الهيكل أمامه.

غادر لويس عكا فى إبريل ١٢٥٤، وكان المسلمون فى دمياط، ذات مرة، قد قالوا له إنه لو قبل عقيدتهم فقط، سوف يجعلونه سلطانهم القادم. وهو رفض بالطبع؛ لكنهم

كانوا يمزحون تقريبا. ذلك أن السلطان الشاب الذى جوع أسطوله (صليبيى لويس)، قد مات، اغتاله بيربس. وكان آخر أسرة صلاح الدين الحاكمة. والآن حكم المماليك الأتراك فى مصر، وهم رجال أقوياء يتمتعون بالطاقة ارتقوا من العبودية كى يصلوا إلى العظمة ويمتلكوا مقاليد الأمور. وكتب عنهم أحد مسلمى ذلك الزمان "إنهم فرسان الهيكل المسلمون" وكان ذلك أسمى ثناء يمكنه قوله؛ وقبل أن يمر وقت طويل أظهر المماليك نوع المعارضة الذى يقدرون عليه.

لقد كان المغول يتحركون. وكان أحفاد جنكيز خان غير راضين عن ميراثهم، ويبغون المزيد. والرجال الأربعة - إريكبوغا، ومونجكا، وهولاكو، وكوبلأى - جميعا حكموا بالفعل كل الأراضى من فارس حتى كوريا، ومن سيبيريا حتى المحيط الهندى. والآن، فى حين بقى إريقبوغا ومونجكا، فى منغوليا، يسيطران على المركز، تحرك نواب الملك وأبناء العم نحو الشمال والجنوب؛ فتحرك كوبلاى شرقا إلى الصين؛ وتحرك هولاكو غربا. وكانت نية الإخوة المعلنة هى فتح العالم؛ ولولا المماليك، لكان من الممكن أن يفعلوا ذلك. إن مسيرة كوبلأى فى الصين معروفة تمام المعرفة. أما هولاكو، ففى تحركه نحو الغرب، قام بتصفية الحشاشين فى فارس وسوريا، وأحرق بغداد، واستولى على حلب، ودمشق واحتل نبلس وغزة. وبتأثير من زوجته المسيحية النسطورية، ترك الفرنجة وشأنهم؛ غير أن سقوط الإسلام فى آسيا بدا وشيكا. ثم طلب هولاكو الاحترامات من المماليك؛ فكان ردهم هو ملاقاة جيشه فى معركة حامية عند برك جالوت؛ (عين جالوت) على بعد عشرة أميال جنوب شرق الناصرة.

لقد كانت هذه المعركة إحدى نقاط التحول فى تاريخ العالم بالنسبة للمغول، ذلك أن فاتحى العالم قد هزموا، وبيبرس الذى دخل المعركة كأحد القواد، عاد إلى مصر سلطانا.

وقد أعطت أحداث حرب المغول والمماليك فرسان الهيكل ملكية شيئين جديدين غير متوقعين هما مدينة صيدة وقلعة بوفورت التى توجد بها. وكانت هذه هى آخر

التفاتة رحمة يستمتعون بها فى بلاد ما وراء البحر. إذ إنه حين انتهت صلاحية هدنة لويس مع القاهرة، ضرب بيبرس ضربته، وكانت فى الصميم.

ففى فبراير ومارس ١٢٢٦، تم الهجوم على قيسارية، وحيفا، وقلعة الحاج. وسقطت المدينتان؛ ونجت القلاع. وأخذت أرسوف واستعبد أهلها؛ وكتب شاعر من فرسان الهيكل يائسا، أن ألم المسيحيين بدأ لذيذا لدى المسيح. ذلك أن هزيمة لويس كانت قد نزعت الصدقية عن فكرة الغضب الإلهى الذى يجعله يعذب الخطائين؛ الآن أصبح يكتب ويقال بصوت مرتفع، إن الرب تخلى عن أبنائه، وأن الحروب المقدسة أغضبته، وأن بلاد ما وراء البحر مقدر لها الفناء.

لقد كتب فارس الهيكل المجهول: "يجسم الغضب والأسى فى قلبى بثبات حتى إنى لا أكاد أعيش. ويبدو أن الرب يرغب أن يدعم الأتراك حتى يهزمونا.... استمع يا إلهى وسيدى؛ واحسرتاه ... لقد فقدت مملكة الشرق قدراً كبيراً حتى أنها لن تستطيع النهوض مرة أخرى. وسوف يحيلون دير مريم المقدسة إلى مسجد، وبما أن السرقة تسر ابنها، من يجب أن يبكى لذلك، فنحن مجبرون على الخضوع أيضا. ... مجنون كل من يرغب فى قتال الأتراك، لأن يسوع المسيح لم يعد يقاتلهم. إنهم انتصروا، وسوف ينتصرون. إنهم يدحروننا فى كل يوم، فهم يعلمون أن الرب الذى كان يقظا، ينام الآن، ومحمد يزداد قوة".

لقد كانت بالفعل آخر جولة فى الكفاح. ذلك أن بيبرس عاد فى يولية ١٢٢٦ وهاجم صفد ثلاث مرات. وحين انهارت الأسوار ودخلها المماليك مندفعين، قطعت رأس كل فرد من فرسان الهيكل، ووضعت حلقة من رءوس المسيحيين حول القلعة. ومع الاستيلاء على راية فرسان الهيكل، كان بوسينت (علم فرسان الهيكل) مقبوض عليه أمام جيشه، وتقدم بيبرس إلى أسوار عكا نفسها قبل أن يتم التعرف عليه. لقد عاشت المدينة بعد هذه المجزرة؛ أما الحقول حولها كانت تتناثر فيها أجساد الموتى من المسيحيين. وثمة خطاب فى عام ١٢٢٧ أرسل من الأراضى المقدسة إلى معلم الهيكل فى فرنسا، وهذا الخطاب يكشف عن مقدار الحسرة واليأس الذى كان يشعر به

فرسان الهيكل فى الشرق، بالإضافة إلى رغبتهم التى تثير العجب فى مواصلة القتال. ولما كان الموت قد أنقص من صفوفهم، كان عليهم اجتذاب المزيد من المرتزقة؛ غير أن مواردهم المالية المحلية قد جفت.

"لا بد أن يكون لدينا ما يكفى من المال فى عكا، كى نطعم رماة السهام؛ كما نحتاج إلى خمسين جنيهًا كى ندفع للفرسان الستين الذين جاءوا مع كونت نيفرز، وسيدى ارار دى فاليرى؛ وفرسان جيفرى دى سيرج يكلفوننا ١٠٠٠٠ جنيه سنويا؛ كما يجب أن ترسلوا لنا ١٨٠٠ جنيه اقترضناها من التجار كى ندفع لخمسين فارسا فى عكا لخمسة أشهر؛ وحبا فى الله، اعقدوا سلامًا بين أهل جينوا وأهل فينيسيا، وعجلوا برحيل حرب صليبية جديدة".

وبين مارس ومايو من عام ١٢٢٨ استولى السلطان المملوكى على يافا، وبنياس وبوفورت، تلك الجائزة غير المتوقعة لفرسان الهيكل، وأخذ فرسان بوفورت عبيدا. ولم يبق جنوب عكا شىء من بلاد ما وراء البحر مطلقا عدا قلعة الحاج؛ وفى ١٨ مايو، وبعد مائة وواحد وسبعين سنة من امتلاك المسيحيين غير المنقطع انهارت أنطاكيا. وإلى جنوب تلك المدينة، كانت هناك قلعة بغراس - التى حدث حولها قتال مرير فى السنوات الأولى فى القرن - أصبح من الصعب الاحتفاظ بها؛ فأجبر فرسان الهيكل على التخلى عنها.

وكتب البابا كليمينت الرابع فى يأس "انهارت تقريبا كل تلك الفروسية الشهيرة عن فرسان الهيكل" ولم تساعدهم سوى فرنسا وإنجلترا. فى ذلك الوقت كان القديس لويس يبلغ من العمر أربعة وخمسين سنة. وكان قد أنجب أحد عشر من الأبناء؛ وولد حفيده الأول عام ١٢٢٨، ولد اسمه فيليب، الذى سرعان ما لقب بالأشقر، إذ إنه قد ورث حسن منظر جده، - الأشقر الجميل. غير أن ضمير لويس لم يسمح بالبقاء أكثر من ذلك مع أسرته. ففى ١ يولية ١٢٧٠، فى السادسة والخمسين من عمره، غادر الأرض الميتة إيج - مورت فى حربه الصليبية الثانية وأبحر إلى تونس، الذى يفترض أن علاقة ودية تربط حاكمها بالمسيحيين. ووصل لويس إلى قرطاج فى ١٧ يولية. وعلى

الفور تقريبا أصيب بالدوزنتاريا التى نغصت عليه حياته فى دمياط. ومما زاد من خطورة المرض أنه أصيب بحمى، مصحوبة بالتقلصات المعتادة؛ وفى ٢٧ أغسطس مات لويس الملك القديس، وهو يهمس بأنفاسه الأخيرة، "القدس القدس" .

وصلت التجريدة الإنجليزية بقيادة الأمير إدوارد إلى عكا فى ٩ مايو عام ١٢٧١، وكان حصن الإسبتاليين الصغير المؤقت، كراك دى شيفاليى، وقلعة سافيتا التى كان يملكها فرسان الهيكل قد سقطتا توا. وكانت إقامة لويس فى إفريقيا قد حولت انتباه بيبرس مؤقتا عن الأراضى المقدسة؛ وكان وجود إدوارد فى فلسطين كافيًا لحمل السلطان على أن يعرض هدنة مدتها عشر سنوات. وقبل العرض بامتنان – ومع ذلك لم يستفد الفرنجة تقريبا مطلقا بهذا الوقت. وتصفهم التقارير المعاصرة لهم بأنهم جنس ما زال قويا من الناحية الجسدية ووسيما؛ ولكن، شأنهم شأن الكثير من القوى الإمبريالية، الاستعمارية، لم يعد لقوتهم الجسدية وجمال منظرهم ما يدعمها من قوة أخلاقية. فانهمك الحكام المدنيون فى حروب أهلية حول ألقاب فارغة لا معنى لها، وكانوا يسلون أنفسهم بحفلات كان يظهر فيها الفرسان والسيدات وهم يرتدون ملابس بعضهم بعضا. ولم يحتفظ بإحساس الوحدة والانضباط سوى الجماعات العسكرية؛ وحتى هم، فى بعض الأحيان كانوا يشتركون فى المنازعات المدنية. ومع ذلك، وقفت الصدفة، ولو مرة فى جانب الفرنجة. ذلك أن بيبرس مات عام ١٢٧٧، وشن المغول عام ١٢٨١ هجوما جديدا ضد المماليك. ولما كان السلطان الجديد قلاوون يعرف الإمكانية الخطرة التى يمكن أن تترتب على قيام حملة مشتركة من الفرنجة والمغول، فقد وقع معاهدة أخرى مع الفرنجة حتى قبل أن ينتهي أجل المعاهدة الأولى. فتم تمديد فترة التقاط الأنفاس؛ وصار من الممكن توقع استمرار السلام على حدود بلاد ما وراء البحر حتى عام ١٢٩١.

لكن الحرب الأهلية استمرت داخل قوقعة المملكة، وأشعلتها المشاجرات التجارية بين أهل بيزا وأهل جينوا. ولم تكن بلاد ما وراء البحر مستعدة تماما لأى هجوم خطير، وفى عام ١٢٨٩ عاد قلاوون.

ومما لا يصدق، أن عودته كانت بناء على دعوة. ففى استعراض محزن لعدم قدرة الفرنجة على التعامل معا، طلبوا منه التدخل فى متاعبهم المدنية؛ وبتدخله فقدوا طربلس.

لم تكن هذه الخسارة حتمية، لا ولم تكن ضرورية. ذلك أن جاسوسا قد حذر معلم الهيكل ويليام دى بوجى، من نية قلاوون. وهو بدوره قام بتحذير سكان طربلس، لكنهم لم يصدقوه ثقة منهم فى الهدنة. ولم يتقبلوا الحقيقة إلا حين كان جيش قلاوون أمام أسوارهم؛ وعندها كان الوقت قد تأخر. وقبل أن يمر وقت طويل كان كل بناء فى المدينة قد سوى بالأرض، وسقط سكان طربلس يتعفنون على الأرض.

وقال قلاوون إن طربلس كانت استثناء، وإن المعاهدة ما زالت تحترم فى أى مكان آخر. وهذا لا يكاد يصدق، لكن الفرنجة أخذوا بكلمته، آملين فى أنهم إن لم يسيئوا إليه، قد يتركون وشأنهم. واستئنفت التجارة بين المسيحيين والمسلمين. وكان الناس من العقيدتين يختلطون، فى سوق عكا كى يبيعوا ويشتروا. وفى صيف عام ١٢٩٠ اكتشف مسيحى أن زوجته على علاقة مع أحد المسلمين. فثار قتال فى السوق. وتطور القتال إلى شغب؛ وقتل العديد من المسلمين؛ فاستئنفت الحرب، مع بقاء عام على انتهاء المعاهدة. وبدأت الأيام الأخيرة. وبينما كان الجيش المصرى يعبأ، قيل إن هدفه مكان ما فى إفريقيا.. ومرة أخرى، جاسوس فرسان الهيكل - أحد الأمراء فى بلاط قلاوون - أبلغ ويليام دى بوجى بوجهة الجيش الحقيقية، وهى عكا؛ ومرة أخرى لعب دى بوجى دور كساندرا. واستقبلت تحذيراته بالسخرية والاستهزاء. وبشكل خاص، قام بترتيبات مع قلاوون بأن تترك المدينة على أن تدفع قطعة ذهبية عن كل فرد من سكانها. وحين أعلن عن الاتفاقية، وصم خائنًا، وقال شاهد "إنه نجا بأعجوبة من أيادى الناس"؛ وازداد اقتناع الناس بسلامتهم حين توفى قلاوون بعد أسابيع قليلة. لكن ابنه أقسم أن يفعل ما كان قلاوون سيفعل؛ وفى مارس عام ١٢٩١ بدأ زحف المسلمين.

فى "وصفه للأراضى المقدسة" كتب أحد الحجاج المعاصرين يدعى بورشار من جبل صهيون:

"إن مدينة عكا محصنة بحصون ومعاقل، وأبراج، وخنادق، ومتاريس قوية، وهى مثلثة الشكل كدرع، حيث يطل جانبان على البحر المتوسط، والجانب الثالث يطل على السهل الذى يحيط بها. وهذا السهل يبلغ عرضه أكثر من قصبتين فى بعض الأجزاء؛ وهى شديدة الخصوبة، سواء مروجها أو أرضها المحروثة، وبها كروم وحدائق، تنبت فيها مجموعة منوعة من الثمار. وبالمدينة الكثير من الأماكن القوية، والقلاع والحصون التى يملكها الفرسان الإسبتاليون، وفرسان الهيكل. وبها مرفأ جيد متسع على الجانب الجنوبى".

وكانت الدفاعات الرئيسية من الجانب المتجه إلى الأرض عبارة عن سورين ضخمين، تفصلهما خمسون ياردة، وكل منهما يبلغ طوله ما يربو على الميل. وكانت هناك أبراج تسند هذين السورين، وكانت المدينة من الداخل يقسمها سور ثالث، به قلعة وأربعة أبراج أخرى. وكانت قلعة فرسان الهيكل تحتل أفضل المواقع، الجانب الجنوبى الغربى، فى أقصى مكان من السور ويحف بالبحر. وفى ٦ إبريل عام ١٢٩١ فجأة غطت الجياد والرجال ومعدات حصار جيش المسلمين السهل بأكمله خارج المدينة. وكان لا بد من وضع نهاية للعمى الإرادى لدى المواطنين. وحين نظروا من تحصيناتهم فى رعب، قدروا أن ستين ألفا من الخيالة ومائة وستين ألفا من المشاة يقفون أمامهم مسلحين ومتأهبين؛ فعرفوا أن مدينتهم قد لا تنجو.

حين كانت ما تزال هناك بقية من وقت، تم إجلاء من لا يستطيعون القتال، من مرضى وكبار السن والعجزة والنساء والأطفال إلى قبرص. وكذلك رحل أهل جينوا؛ ذلك أنهم كانوا قد تفاوضوا على معاهدة خاصة بهم مع السلطان. أما أهل بيزا وفينيسيا، فبقوا، مع الملك والبطريارك، وجميع الرجال القادرين فى المدينة وفرسان الجماعتين العسكريتين؛ لكن عددهم الإجمالى جميعا لم يكن كافيا لملاقاة المعركة القادمة. لا بد أنهم كانوا يدركون ذلك، لكنهم بقوا، وأخيرا نسوا مشاجراتهم، وهم يقفون معا كى يواجهوا النهاية المحتومة. ولم يكن ممكنًا القضاء عليهم جوعا، لأن الممرات البحرية كانت ما تزال مفتوحة على قبرص؛ غير أن أحدا لم يتمكن من أن

يرسل لهم ما يكفى من السلاح والرجال. وكانوا يعلمون أنهم وحدهم، وكانوا يعلمون أنه من المؤكد تقريبا أنهم سوف يموتون.

تولى فرسان الهيكل القسم الشمالى الأقصى من السور. وتم الالتحام على الفور، واستمر دون توقف، ليل نهار. من أسفل السهل، قصفت المجانيق الكبيرة المنتصرة الغاضبة الأبراج بلا توقف، وكانت القواذف التى تسمى "العجول السوداء" تلقى بالصخور والحديد على الأسوار وفوقها. وسقطت السهام كالمطر المميت الذى لا ينقطع؛ وحافظت النوافير والطبول والأجراس وصيحات الحرب على نشاز لا ينتهى؛ وفى أسفل، وفى صمت، كان هناك ألف من المهندسين الذين لم يرهم أحد يحفرون الحفر تحت كل برج.

فى أثناء ليلة ١٤ إبريل، قامت مجموعة من فرسان الهيكل باختراق مباغت فى ضوء القمر فى قلب معسكر المسلمين؛ ولكن فيما يشبه المأساة الملهاة البشعة - "بالنسبة لنا" عرقلتهم جميعا حبال الخيام، فسقطوا وقتلوا حيث سقطوا. وبعد ذلك، فى جنح الظلام حاول بضعة من الفرسان من الإسبتاليين القيام بهجوم مشابه؛ وهزموا أيضا، لأن المسلمين أضاءوا المشاعل وأشعلوا النار إلى أن صار معسكرهم ساطعا كضوء النهار. فلم تحدث المزيد من الهجمات من هذا النوع؛ إذ إن كلاً من المسيحيين كان ضائعا وضعيفا فى حين بدأ المسلمون كالأفعوان الخرافى ذى الرءوس التسعة قادرين على الاستعاضة عن كل رجل يقتل برجلين. كان الوقت فى جانب المسلمين؛ وكانت المبادرة فى يدهم وحدهم؛ وزحف اليأس إلى قلوب المسيحيين وهم يدركون ببطء أنهم لا يستطيعون حتى القيام بالهجوم، وإنما يدافعون عن أنفسهم حتى الموت. وفى الأسبوع الثانى من مايو انهارت أربعة من الأبراج الخارجية وجزء من السور الخارجى. فتراجع الدفاع إلى الجدار الداخلى، وفى ١٨ مايو، شن هجوم عام على طول الجدار بأكمله. فقاتل فرسان الهيكل والإسبتاليون جنبا إلى جنب، وانمحت فجأة منافسات قرنين من الزمان. وجرح معلم الإسبتاليين وتم حمله إلى إحدى السفن؛ أما الملك الذى ليس من واجبه أن يموت وإنما يعيش من أجل مملكته، فهرب هو أيضًا.

وحشر البطريارك المسن فى قارب، لكنه سمح للكثيرين بركوبه معه حتى أنهم أغرقوا القارب، وغرقوا جميعا. ومات الكثيرون في ذلك الفرار المذعور؛ وأصيب ويليام دى بوجى معلم الهيكل بسهم وهو يدافع عن شرخ فى الجدار. واتهم بالجبن حتى وهو يموت، حتى وهو يسقط على الأرض قال: "لم يمكنى فعل المزيد لأنى مت، - انظروا إلى الجروح". فأرقده اثنان من إخوانه على أحد الدروع، وحملوه إلى قلعتهم؛ وفى الخارج، اندفع المسلمون إلى السور الداخلى وغزوا شوارع المدينة، وقتلوا كل من وجدوه. وحين أرخى الليل سدوله كانت المدينة كلها فى أيادى المسلمين فى اليوم الثامن عشر - فيما عدا قلعة فرسان الهيكل. واحتشد هناك المدنيون الذين تبقوا بما فى ذلك النساء والأطفال مع جميع من بقى من فرسان الهيكل. وصمدوا لعدة أيام - حيث لم تكن القذارة والتعفن ومجرد الرعب مما يمكن أن يطاق.

ثم جاء العرض الذى كان الجميع يأملون فيه بما فى ذلك فرسان الهيكل: ممر آمن إلى قبرص لجميع من فى القلعة، وبما لديهم من ممتلكات، إذا سلمت القلعة سليمة. فقبل الشروط مرشال الهيكل، بيتر دى سيفرى. وسمح لمائة من جنود المماليك وأمير واحد بدخول الهيكل كى يكونوا مشرفين على عملية الإجلاء، وتم رفع علم السلطان على المبنى. غير أن المسلمين الذين انتشوا إلى حد الجنون بالنصر بدءوا يسيئون معاملة النساء، والصبية. وحين رأى فرسان الهيكل ذلك، قاموا بالهجوم، فقتل كل مسلم محتجز بين السلالم الضيقة، وممرات المبنى وقاعاته. وأنزل العلم، ومرة أخرى رفرف الصليب الأسود.

فى تلك الليلة أمر دى سيفرى قائد الهيكل، تيبالد جودان، بأن يبحر شمالا إلى صيدة. فأخذ جودان معه ما أمكن من غير المقاتلين، وكذلك خزانة الهيكل. ولا يذكر أى من السجلات بدقة ماذا كانت هذه الخزانة؛ ولكن بسفينة صغيرة ورحلة لبضعة ساعات، كان من السهل حملها، ومن المحتمل أنها كانت خفيفة الوزن. مما لا شك فيه أنه كانت هناك صناديق من الذهب، والمجوهرات، مما تبقى من ثروة فرسان الهيكل فى

بلاد ما وراء البحر؛ وربما كان هناك أيضًا، كنز واحد وحيد أكثر قيمة من المال والأرواح - جائزة القسطنطينية الغامضة.

أيا كانت طبيعة هذا الكنز، فعند الفجر، كان فى أمان فى البحر مع جودان وعدد قليل من المدنيين المحظوظين. وما إن أشرقت الشمس على عكا، حتى أرسل السلطان إلى سيفرى مجددا العرض الذى قدمه فى اليوم السابق. فأخذ دى سيفرى قليلا من إخوانه معه وذهب إلى معسكر المسلمين للتسليم. وفى اللحظة التى وقفوا فيها أمام خيمة السلطان، دوهمت المجموعة الصغيرة من فرسان الهيكل، وأحيط بهم وقطعت رءوسهم، أمام أعين إخوانهم.

فأقفلت على الفور بوابات القلعة، واستمر الإخوان المتبقون فى القتال من التحصينات وتحت الأرض أخذ المسلمون يحفرون أكثر فأكثر، وفى العاشر من مايو، بعد سقوط المدينة بعشرة أيام، بدأت جدران الهيكل الشرقية فى التشقق والتهاوى مع سقوط أسسها. وفجأة انهار إلى باطن الأرض قسم من الجدار. فدهم الحفرة ألفان من المماليك. ولم تتحمل الأخشاب التى كانت تسند الحفرة فانهار هيكل عكا بأكمله بزئير مرعب، وسقط على من بداخله.

ودمر كل أثر من عكا التى كانت فى وقت من الأوقات عاصمة بلاد ما وراء البحر. وبعد عكا، كل ما تبقى من المملكة فيما وراء البحر خمسة حصون [مدن] صيدة، وبيروت، وحيفا، وطرطوس وقلعة الحاج. ذلك أن صور كانت قد استسلمت فى أثناء حصار عكا. وكانت كل من صيدة وطرطوس وقلعة الحاج جميعا معاقل لفرسان الهيكل. ففى صيدة تم انتخاب تيبالد جودان المعلم الثانى والعشرين للجماعة. وتراجع جزء من حاميته إلى صخرة محصنة على بعد مائة يردة قبالة الشاطئ، هى قلعة البحر؛ واستمر هو نفسه فى حراسة كنز الجماعة السرى، وهرب به ليلا مع فرسان صيدة الآخرين إلى قبرص. وسرعان ما احتل المماليك صيدة؛ وحين بدءوا فى بناء معبر إلى الجزيرة الصغيرة، الصخرية أخذ آخر أعضاء الحامية سفينة إلى طرطوس. وفى ١٤ يولية تم محو جزيرة البحر.

أما حيفا وبيروت، آخر المواقع المدنية المتقدمة فاستسلمتا وتم احتلالهما فى يوم ثلاثين ويوم واحد وثلاثين كل على حدة. ولم تبق سوى طرطوس وقلعة الحاج، ولم تتمكن أيهما من الصمود للحصار. وفى ٣ أغسطس تم إخلاء طرطوس، وفى اليوم الرابع عشر أخليت قلعة الحاج آخر ممتلكات الفرنجة فى البر. وماتت بلاد ما وراء البحر؛ غير أن فرسان الهيكل صمدوا حتى النهاية. واستمروا فى الصمود. فعلى جزيرة رواد الخالية من الماء، على بعد ميلين من طرطوس، دافع آخر فرسان الهيكل عن أنفسهم فى الأراضى المقدسة اثنتى عشرة سنة أخرى؛ وحين رحلوا أخيراً، عام ١٣٠٢، لم يكن المسلمون هم من طردهم. بل رحلوا خوفاً من مسيحيى الغرب - ذلك أنه فى أوربا انهال الهجوم على جماعتهم بأسرها.

الجزء الرابع

الهيكل فى أوربا، ١١٥٣-١٣٠٣

الفصل الثانى عشر

ضباط الإمدادات لجيش الحروب الصليبية

فرنسا، إنجلترا . إسبانيا، ١١٥٣- ١٣٠٣

وماذا إذن، أيها الإخوة

رسائل إلى كورينثة، الإصحاح ١٤ الآية ٢٦

بالنسبة لمعظم الناجين من المملكة المنتهية، أصبحت الحياة صورة ساخرة كئيبة بائسة للأيام الخوالى. ذلك أن كثيرين ممن هربوا إلى قبرص فقدوا جميع ممتلكاتهم فى أثناء الفرار؛ وباع البعض كل ما يملكون؛ بل أن البعض باعوا أنفسهم. فكانوا جميعا لاجئين ولم يكن أحد يرغب فى وجودهم فى أى مكان. ولكى يبقوا على قيد الحياة، أذل الكثيرون أنفسهم وأهانوها؛ وأصبح من كانوا أغنياء فى وقت من الأوقات باعتبارهم مواطنين فى بلاد ما وراء البحر خدما ومحظيات.

أما رجال الجماعتين العسكريتين فكانوا أسعد حظا. فكل بلد فى أوربا كان به فرسان الهيكل الخاصون به، وحين يقسم أخ جديد القسم، يكون بالفعل قد اتخذ جنسية جديدة؛ ويصبح عضوا فى دولة بلا حدود؛ وبذلك، حتى الإخوان الذين ولدوا فى الأراضى المقدسة أمكنهم أن يجدوا مأوى وملجأ فى مكان ما فى الغرب، وأينما أرسلوا فسوف يرحب بهم فرسان هيكل آخرون. وسيجدون عادات مألوفة، وملابس مألوفة؛ وسوف تكون لهم مكانة مألوفة وكريمة.

ولكن حتى بالنسبة لهم، لم تكن الحياة كما كانت من قبل. وكان عليهم أن ينضموا إلى طريقة الحياة التى يحياها فرسان الهيكل الغربيون - إنه عالم به المحاربون أقلية، حيث لم تكن وظيفة الجماعة هى القتال، وإنما الزراعة وكسب المال. ومع أن بلاد ما وراء البحر لم تكن لتعيش كل هذه المدة دون فرسان الهيكل، فإن فرسان الهيكل فى الشرق لم يكن من الممكن أن يوجدوا بأى حال دون إخوانهم فى الغرب. فإذا كان الإخوة فى الشرق هم رأس الحربة، فإن فرسان الهيكل فى الغرب كانوا مقبض الحربة، يمدونهم بالسلاح والدروع والرجال والمال، والجياد والطعام. ومعظم هؤلاء الناس لم يغادروا قط مسقط رأسهم؛ لكن عملهم كان جوهريا فى نجاح الحروب الصليبية. وبالنسبة لهم، فإن الشرقيين، المحاربين القدماء الذين لوحتهم الشمس فى الخطوط الأمامية، والذين قاتلوا المسلمين يدا بيد، والذين ألفوا الصحراء أكثر من المروج - لا بد أنهم بدوا مثيرين للرهبة، وغير حقيقيين بشكل ما. ولا بد أن الأمر كان غريبا أيضا بالنسبة للمحاربين العائدين؛ فعليهم أن يعتادوا السلام. بالنسبة للمجموعتين كان الاندماج أكثر سهولة بوجود عناصر مشابهة فى كل دار يملكه الهيكل، سواء كان فى أيرلاندا أو إسبانيا أو فلسطين، ولكن على الرغم من أن فرسان الهيكل فى كل مكان كانوا يلتزمون بميثاق واحد، ومعلم واحد فى النهاية، ومع أنهم يرتدون الملابس نفسها ويصلون الصلوات نفسها ومع أن حقوقهم وامتيازاتهم كانت نظريا متطابقة، شرقا وغربا - مع ذلك، فإن الأفرع المختلفة للجماعة تطورت بطرق مختلفة، فعلى سبيل المثال، فإن فارس الهيكل العائد إلى إسبانيا، عليه أن يتكيف بشكل مختلف عن الأخ الذى يتم إرساله إلى إنجلترا أو فرنسا أو أيرلندا أو ألمانيا أو المجر أو إيطاليا.

لقد كانت إنجلترا وفرنسا وإسبانيا أهم بلدان غربية للجماعة ككل؛ إذ إنها كانت مخازن غلالهم ودروعهم. وفى كل منها كانت الجماعة مفضلة منذ أيامها الأولى، إذ كانت تكسب الأراضى والمبانى، والأعضاء، والمؤيدين؛ ولكن فى كل منها، فى عام ١٢٩١، كانت للجماعة سمات مختلفة. ذلك أن المقاطعات الثلاث أدت وظائف مختلفة داخل الجماعة، وأهم من ذلك، كانت لها علاقات مختلفة مع ملوك الدول الأم.

كما حدث فى الشرق، فإن فرسان الهيكل فى الغرب كانت لهم ممتلكات شاسعة. ذلك أن خريطة بأراضيهم فى إنجلترا تبدو وكأن حفنة من رمل نثرت فوقها؛ وكل حبة منها تمثل على الأقل مزرعة، وكثيرا ما يكون هناك منزل كبير أو قلعة. وخير توضيح لنطاق ملكهم فى فرنسا هو أن المرء بعد قرون من حل الهيكل يمكنه اليوم أن يزور ما يقرب من مائة وخمسين من مواقع فرسان الهيكل؛ وفى إسبانيا فى كورونا أرجون وحدها - هلال الأراضى المقابل جزر البلاريك - كان فرسان الهيكل يمتلكون ثماني وثلاثين مقاطعة لوردات كاملة وسبع مقاطعات جزئية. وحتى المقاطعة الجزئية يمكن أن تضم مائة وعشرين مدينة صغيرة.

لكن الجماعة فى الغرب، على عكس الجماعة فى الشرق، لم تكن جمعية فروسية بشكل رئيسى، أو حتى فى المحل الأول. من المؤكد أن الإخوان فى إسبانيا قد قاتلوا ضد المراكشيين فى إعادة فتح أرجون، واستمروا يفعلون ذلك جنوبا إلى أن تم حل الجماعة. وفوق ذلك، منحوا، مكافأة على جهودهم ثلث مملكة أرجون. أما فى الشرق فإن مثل هذه الهبة كان من الممكن أن تقبل بكل سرور؛ ومع ذلك، فإن فرسان الهيكل الغربيين كانوا مزارعين ورجال أعمال وليسوا محاربين. ولم يكونوا يريدون تحمل مسئولية الاحتفاظ بمثل هذه المساحة وحكمها؛ لكنهم كانوا يعرفون كيف يساومون من أجل ما يريدون. وحين تخلوا عن حقهم فى أن يحكموا، تلقوا بدلا من ذلك ست قلاع، وألف شلن سنويا، وعشر جميع العائدات الملكية، وخمس أى أرض يتم إعادة فتحها، والإعفاء من ضرائب معينة. فوائد دون واجبات - إنه تحرك بارع، يمثل فرسان الهيكل فى أوربا.

وكان وصف أحد الإخوة وهو أيضًا قادم من إسبانيا، لنفسه، معبرا عن نفس النموذج - كان "بسيطا وجاهلا وعاش هو وزملاؤه حياة "مكرسة للأرض وتربية الحيوانات". كان فرسان الهيكل هؤلاء من الحدادين والعاملين بدباغة الجلود والحائكين وصناع الأحذية أو بستانيين، أو تجار خمور، أو رعاة بقر، أو رعاة عجول أو رعاة أغنام، - أو "رواد أو مدربى أغنام" كما أطلق اثنان على نفسيهما. وكان معظمهم

أميين؛ بل أن بعض قساوستهم كانوا فى حاجة إلى ترجمة اللاتينية إلى لغاتهم المحلية. وكان الأخ الذى يستطيع الكتابة يعد حالة استثنائية حتى أنه يستحق التعليق، مثل جيمز من براجانز، الذى كان يستطيع أن يكتب "حروفًا ذات أشكال كتابة جيدة ويوضح بالذهب" أما بالنسبة للقراءة، فإن قيادة كولبينز - وهو مكان متوسط - كان بها مكتبة تحتوى على ستة عشر كتابا. اثنا عشر من هذه الكتب عن الخدمة المقدسة؛ واثنان منها عن حياة القديسين؛ واثنان عبارة عن مجلدات للمواعظ. فالرجال كانوا بوضوح وأمانة من الاتقياء؛ وكان نشاطهم اليومى كما هو الحال فى دير ينقسم بين العمل والصلاة. وكان ما يمارسونه من تسلية بريئا بشكل مؤثر: إذ إن الشطرنج والورق، ممنوعان، لكنهم يستطيعون لعب ضغط الأيدى (الريست) أو الحجلة - طالما لا يكون ذلك برهان. وكانوا يعطون الصدقات بانتظام للفقراء؛ ويبيعون خمورهم وكذلك، الصوف واللحوم، والحبوب؛ ويؤدون خدمات للمجتمع، مثل بناء الأفران العامة، أو يقدمون القروض للتجار على نطاق أكبر، والملوك والنبلاء. لم يكن ذلك لأن خدماتهم كانت مجانية - فمن المخبز كان فرسان الهيكل يتلقون رغيفا من كل عشرين رغيفا يتم خبزها، وكانت ترتيبات سداد القروض دائما لفائدتهم. ذلك أنهم قد يكونون بسطاء، لكنهم كانوا متصلبى الرأس ومفتوحى الأعين أيضا، وكانوا يعرفون واجبهم: المحافظة على تدفق المؤن إلى إخوانهم فيما وراء البحر.

فى جميع هذه الأمور، كان فرسان الهيكل الإسبان يمثلون الجماعة فى أنحاء الغرب؛ غير أن تنظيمهم الإقليمى كان به جانبان فريدان - وهى جوانب تبدو ظاهريا غير مهمة، بل شاذة وحيوية فى نهاية الأمر. أولا، جميع الأعضاء فى إسبانيا هم إسبان بالمولد، ونادرا ما كانوا يرسلون إلى بلاد أخرى. ثانيا، على الرغم من جميع الحريات المنصوص عليها فى الميثاق الأعلى فإن كل فرد من الإخوان الإسبان أقسم يمين الولاء لمليكه. وسبب هذا الجانب الأخير غير واضح؛ ربما كان شرطا للتأكيد الملكى على الهبات. أما الجانب الأول فكان نتيجة للوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة: فبما أن فرسان الهيكل الإسبان لديهم عدو جاهز أمام أعتابهم كما يجب القول، فمن

الاقتصاد والتعقل العسكرى بالنسبة لهم أن يساعدوا فى الدفاع عن عقيدتهم فى وطنهم، بدلا من أن يتم شحنهم إلى الخارج.

فى إنجلترا، لم يقسم أحد فرسان الهيكل يمين الولاء للملك. هناك جميع امتيازات الميثاق الأعلى، تحققت، بل أكثر من ذلك، كان كل ملك تلو الآخر يعطى فرسان الهيكل حقوقا خاصة. ولما لم يكن هناك مسلمون فى إنجلترا، فإن فرسان الهيكل الإنجليز يمكن أن يذهبوا تلقائيا إلى الخارج. وليس فى وسع أحد أن يحدد كم عدد الذين أرسلوا إلى الأراضى المقدسة (على الرغم من أن أحد معلمى الهيكل، توماس بيرار، المعلم من ١٢٥٦ حتى ١٢٨٣ كان إنجليزيا)، غير أن إنجلترا تمثل تمثيلا كاملا، الخاصية غير الفروسية للهيكل فى الغرب. وحين تم حل الجماعة - بتعبير آخر، حين أصبح عدد أكبر من فرسان الهيكل فى بلادهم عن المعتاد - لم يكن هناك سوى مائة وخمسة وثلاثين من فرسان الهيكل فى إنجلترا بأسرها. ومن هؤلاء كان هناك إحدى عشر قسيساً، وستة فقط هم الذين كانوا فرسانا.

كما تبين هذه الأرقام مدى عدم تناسب قوة الهيكل الكبيرة بالمقارنة بالإخوان به. ذلك أن الفرسان الإنجليز المائة والخمسة والثلاثين نظموا فيما بينهم التحكم فى الممتلكات فى كل أنحاء البلاد. وما زال الكثير منها يتذكره الناس؛ وما زالت الأماكن والأسماء موجودة.

فى أوكسفوردشير هناك هيكل كولى، الأكثر شهرة الآن بصناعة السيارات؛ وفى ورويكشير، هناك هيكل بالسول، وهى قرية صغيرة وادعة ساحرة. وبجانب الكنيسة هناك ما زالت الدار قائمة وبها من يسكنون فيها؛ وقد غطيت الجدران الأصلية بالطوب ولكن المدخنة الكبيرة التى يدفئ السكان بها أنفسهم فى أمسية شتوية باردة ما زالت تشير بالراحة للعابر الذى يشعر بشدة البرد. وفى كينت هناك هيكل وولثام وهيكل أويل؛ وفى ويلتشير هيكل ركلى؛ وفى لينكولنشير، هيكل بروشر؛ - وأبسطها جميعا - فى كورنوول، هيكل بى. لم تكن جميع مستوطنات الجماعة بها مقطع هيكل غير أن نظرة إلى خريطة حديثة ما زالت تكشف العشرات من هذه الأسماء التى يسهل التعرف

عليها، فى حين تكشف التواريخ المحلية عن الوجود المستمر لمئات، بالمعنى الحرفى، لمواقع فرسان الهيكل الأكثر وضوحا. والسبب فى أن مثل هذه القلة من الناس تحكموا فى هذه القطع الهائلة من الأراضى يمكن قوله فى كلمة واحدة: المال.

لقد كانت أكبر قيمة لإنجلترا لدى جماعة الهيكل هى أنها مصدر دخل. ذلك أن فرسان الهيكل الإنجليز ساهموا فى تطوير لندن كسوق نقدى دولى، وفى تطوير الاقتصاد الإنجليزى بصفة عامة. ولقد نما وتشعب نجاح الأولى فى البلاد حين جلس الملك ستيفن على العرش - وهذا بالطبع، لأن ستيفن هو ابن الملك ستيفن من بلوا، ذلك المشارك المرغم فى الحرب الصليبية الأولى، والملكة متيلدا ابنة جودفرى دى بويون، ملك القدس غير المتوج. ومما قوى اهتمام ستيفن ومتيلدا وجود صلة أخرى غير مباشرة: ذلك أن عائلة ستيفن كانت تتحكم فى المنطقة التى جاء منها هيو دى بيان، وكانت عائلة متيلدا تتحكم فى سينت أومر، فى فلاندر، حيث ولد جودفرى أحد المؤسسين. وفى أثناء الصراع الأهلى الذى عقب تولى ستيفن العرش، استفاد فرسان الهيكل من الجانبين، على ما يبدو أنهم كانوا يتلاعبون بالطرفين بحيث يكونان ضد بعضهم بعضا، وفى عام ١١٥٤ ثبتت أقدامهم فى كل أنحاء البلاد.

ومع ذلك، كان من الممكن أن تكون فائدتهم من الأراضى أقل بكثير لو أنهم اضطروا إلى دفع جميع الضرائب المعتادة. فنظام الضرائب غير الكفء فى إنجلترا ليس ظاهرة حديثة؛ إذ إن الاقتصاد الإقطاعى كان أيضا خانقا، يفرض أموالاً، وعائدات، وغرامات على كل شىء يمكن إدراكه. وإليك القليل منها بشكل عشوائى أخذت من قائمة الضرائب، أراضى على أية أرض تدفع للملك، وضريبة على الأرض المحروثة، ضريبة دفاع، ضريبة جندية، ضريبة بيع، ضريبة مبانٍ، ضريبة خدمة المستأجر، ضريبة حراسة، قد تكون هذه ألفاظ لطيفة الوقع على الإذن، لكنها كانت تمس كل جانب من جوانب الحياة اليومية. وكانت معظمها ضرائب على الأراضى، أو فى مقابل خدمات مختلفة، مثل حمل السلاح، أو تقديم الدواب. كانت هناك ضريبة على كل شىء يشترى أو يباع، يصدر أو يستورد. وفى حالة وجود أى شىء خارج

القائمة، فكانت هناك ضريبة تعسفية تفرض متى رأى الملك أن ذلك ضرورى. ومع ذلك، كان فرسان الهيكل معفيين منها جميعا. كما كانوا معفيين من ضريبة تربية الحيوانات المنزلية كالأرانب، وضريبة النظافة - أى أنهم يستطيعون أن يحجزوا أرضًا يسوروها لتربية الحيوانات دون دفع المصروفات المعتادة، ولا يقوم الموظفون الملكيون بالتفتيش عليهم. ولديه حق تحويل الغابات إلى أراضٍ زراعية، دون دفع أية ضرائب. كما يمكنهم تجاهل المسئولية المتبادلة عن السلم، وحقوق محاكم المقاطعة.

لم يكن فرسان الهيكل فى إنجلترا قضاة أنفسهم فحسب، وإنما كانوا يحكمون على أى شخص يعيش فى أراضيهم؛ ويمكنهم، إذا شاءوا أن يوقعوا أية عقوبة، ابتداء بالتقييد فى الخشب والغرامات إلى عقوبة الإعدام شنقًا أو غرقًا. لكن هذا الحق لم يكن غير عادى كما يبدو، لأن القضاء الخاص كان ما يزال معتادا فى تلك الأيام؛ وكل لورد فى إمكانه تطبيق العدالة، بأى شكل يفهمه، على أتباعه ومستأجريه. ومع ذلك، فإن امتيازات فرسان الهيكل خطت خطة أبعد؛ ذلك أن عدم الالتزام بأوامر محاكم المقاطعات كانت تعنى أنه لو كانت لأحد شكوى ضد الجماعة، لا يمكن أن تعرض إلا على كبير قضاة المنطقة أو الملك نفسه. وكانت هناك شكاوى ضدهم، من التجار الذين يخفضون أسعارهم، ومن رجال لدين الذين كانوا حانقين على امتيازاتهم الكنسية، ومن السلطات المحلية التى فقدت أراضى تجلب الضرائب، والمستأجرين الذين يدفعون الضرائب فى مواجهة المنازل الريفية المتوسعة لفرسان الهيكل. ومع ذلك، لن يكون من الدقة النظر إلى هذه الانتقادات على أنها أدلة على العداء المنتشر للجماعة؛ ذلك أن نفس المشاجرات لنفس الأسباب كانت تحدث بين الجماعات المختلفة من اللوردات من غير رجال الدين مرارًا، واللوردات الكنسيين والسكان العاديين. ومن الوهم أيضا أن نعتقد أن فرسان الهيكل، بعد أن فازوا بحقوقهم أمسكوا بها بسهولة. لقد منح ريتشارد قلب الأسد الجماعة ميثاقا، شاملا من الإعفاءات والامتيازات عام ١١٨٩، وجدد هذا الميثاق الملك جون بعد ذلك بعشر سنوات، وجدده مرة أخرى هنرى الثالث عام ١٢٢٧ وعام ١٢٥٣، وإدوارد الأول عام ١٢٨٠، وعلى الرغم من هذه الموافقة

الملكية، كثيرا ما كان الإخوان يضطرون إلى مناشدة الملك لدعم حقوقهم؛ ولم يكن دعمه رخيص الثمن. ذلك أن ملوك إنجلترا أدركوا بسرعة أن فرسان الهيكل قليلو العدد، والأغنياء بالأراضى والممتلكات يمكن استغلالهم؛ ويجب شراء تأكيد الامتيازات أو توسيعها، وتحت حكم الملك جون أصبح النظام "حماية نظامية". فوجدت مبالغ ضخمة - ٤٠٠ مارك فى إحدى السنين، و ٤٠٠٠ مرة أخرى، وألف جنيه فى مناسبة أخرى - كلها وجدت طريقها من خزانة الهيكل إلى وزير خزانة جون، فى حين كانت أفضل خيول فرسان الهيكل تطلب من أجل الإسطبلات الملكية.

وقام الإخوان بالدفع؛ وكانوا قادرين على ذلك، وكان الأمر يستحق ذلك. وتكشف أعمال الجرد فى دورهم عن بساطة الحياة التى كانوا يحيونها وتؤكد على حقيقة فقرهم كأفراد. إذ لم يكن لديهم أية أشياء ذات قيمة على الإطلاق باستثناء معداتهم الزراعية - ربما مسوح أحد القساوسة بعشرة أو عشرين شلناً، ولكن لا توجد أية بضائع تدل على الرفاهية من أى نوع. وكان الأثاث الموجود لديهم لمجرد أداء الوظيفة وعادة ما يكون من صنعهم، ولا يتميز بأية جودة؛ وكان طعامهم هو الأكل الأساسى فى المزرعة المعاصرة - الضأن الملح، ولحم الخنزير (مرتدلة) والسمك المملح أو المجفف، والجبن، والقليل من لحم البقر، وعلى فترات متباعدة، قليل جدا من النبيذ. ولكن فى إنجلترا القرن الثالث عشر، حين كان طعام الشخص يكلف يوميا بنساً أو بنسين وكان الجنيه يساوى ٢٤٠ بنساً، كان دخل الجماعة السنوى هو ٥٢٠٠ جنيه.

وكانت النقود تأتى من الإجارات والتجارة والتعاملات البنكية. وكانت التجارة والبنوك هى المصادر الرئيسية؛ فبالإضافة إلى البيع والشراء المعتادين للمواد الغذائية والحيونات والطيور فى الأسواق، المحلية والعامة، كان فرسان الهيكل لديهم أعمال مزدهرة فى تصدير الصوف، والحبوب، والأسماك، ومنتجات الألبان. وكان الصوف مربحا بشكل خاص؛ لقد كان أكبر تركيز لممتلكات فرسان الهيكل فى يوركشير، ولينكولنشير، وذلك لأن المنطقتين كانتا تنتجان صوفا عالى الجودة. وهنا كانت الفائدة

من الإعفاء من جمارك التصدير والقيود؛ ذلك أن الجمارك على جوال واحد من الصوف يمكن أن يكون سبعة شلنات وستة بنسات، ولكن بالنسبة لفرسان الهيكل كان الربح الإجمالي والربح الصافي متطابقين. وكانت يوركشير ولينكولنشير معا تعطيان الإخوان نصف الدخل تقريبا، ما يساوي تقريبا كل ما تقدمه المقاطعات الإنجليزية والولزية التي كانوا يمتلكون أراضي فيها.

ومع ذلك في يوركشير كلها لا يوجد سوى أثر واحد للجماعة - بضعة أحجار من قرية هيكل هيرست. هذه كل ما تبقى من المقر هناك، وهو كان مكاناً شهيراً في أيامه؛ تأسس عام ١١٥٢ وهو ثاني ممتلكات الجماعة في البلاد، وفي القرن التاسع عشر كانت ذكراه من القوة حتى أن سير وولتر سكوت وصفه في أحد أعماله - مع أن وصفه يجافي الحقيقة. أما اليوم، فإن الأثر الإنجليزي الرئيسي للفرسان الفقراء يوجد في لندن: ألا وهو كنيسة الهيكل.

كانت لندن هي مركز العمليات. ولا يعرف تأسيس أول دار هناك، ولكن من المحتمل أن يكون هيو دي بيان قد تلقاه في أثناء رحلته الافتتاحية عام ١١٢٨، وكانت بالدار الأولى حديقة وبستان، ومقْبرة وكنيسة من الحجارة، ومبانٍ خارجية يحميها خندق. كان بالقرب من نهاية تشانسري لين الحالية؛ ولكن سرعان ما أصبح صغيرا جدا، وفي عام ١١٦١ انتقل فرسان الهيكل إلى موقع أكثر اتساعا، على ضفة التيمز الشمالية. وهناك بنوا كنيستهم، وطوبها هيراكليوس في عام ١١٨٥ إنه بطريارك القدس المنحل، وكان ذلك في أثناء بعثته غير المجدية في أوربا.

من الناحية الفنية، فإن هيكل لندن لم يكن في لندن وهو ليس في لندن بالفعل. ذلك أن حدود المدينة كانت تمتد من البرج في الشرق، إلى خط يبعد عدة مئات من اليردات غرب كتدرائية القديس بول؛ لقد كانت مساحة المدينة أكثر قليلا من نصف ميل مربع. وداخل تلك المساحة الصغير، على جانبي شوارعها الضيقة المتعرجة الموحلة تزاحمت مائة كنيسة. وكانت كنيسة الهيكل غرب حدود المدينة، فهي بالفعل في مدينة ويستمينيستر. وحين بنيت غطت على الشوارع المحيطة؛؛ أما الآن فهي مختفية بين

صروح نزلين، وتعد الكنيسة الخاصة بالمحامين. وفى حياة الكنيسة ما زالت باقية اثنان من الامتيازات القديمة التى تم توارثها منذ أيام الجماعة القديمة: لا تدين الكنيسة بأى ولاء لأسقف لندن أكثر مما كانت تدين للبابا، وحكمها مباشرة للملك؛ واللقب الرسمى لكاهنها هو معلم الهيكل. ويتكون المبنى كما كان يعرفه فرسان الهيكل فى القرن الثالث عشر من مكان للمترنمين عرضه خمس وستون قدماً، وطوله نحو مائة قدم، مع وجود بناء مستدير مهيب فى الطرف الغربى قطره خمس و[illegible]تون قدماً. كان هذا البناء فى الواقع هو الكنيسة الأصلية فى القرن الثانى عشر؛ وبه تماثيل صغيرة لفرسان لكنهم ليسوا من فرسان الهيكل.

وكان من النادر وجود كنيسة مستديرة؛ إذ لا يعرف سوى عشر منها بنيت فى إنجلترا فى أثناء القرن الثانى عشر، ست منها كانت لفرسان الهيكل. وكانت على غرار كنيسة الضريح المقدس فى دار فرسان الهيكل الأم فى القدس. ومنذ حل الجماعة، كان هناك اعتقاد شائع لكنه زائف بأن جميع كنائس فرسان الهيكل كانت مستديرة؛ وما هذا الاعتقاد سوى جزء من الأسطورة الشعبية الشائعة التى لا أساس لها التى أوحت بها السرية التى أحاطت بها الجماعة نفسها.

لكن أنشطة فرسان الهيكل البنكية كانت حقيقية، ولعبت دورا كبيرا فى وظيفة هيكل لندن. ومن المبانى المحيطة بكنيستهم الدائرية، أداروا نظاما لتمويل والائتمان الدولى والوطنى. وكان الملوك والتجار والنبلاء يودعون الذهب والفضة والحلى، لديهم من أجل الحفظ الآمن، ويذهبون إليهم من أجل القروض، أو كى يدفعوا المال لأناس فى الخارج. ولم يكن النقد السائل دائما هو وسيلة العمل؛ ذلك أن فرسان الهيكل استخدموا، وربما اخترعوا شكلا بدائيا من الصكوك لتحولات الائتمان، على هيئة ورقة يكتب عليها اسم مرسل الائتمان وعنوانه وتاريخ الإرسال، ووجهة الائتمان والمتلقى المعين. وكان الهيكل يعمل بمعنيين، باعتباره الخزانة الملكية: أى أنه كان مخزن النقود الملكية والأشياء الثمينة، والوكالة التى تجمع بها هذه النقود، وتراجع. وهكذا كان فرسان الهيكل يجمعون من الآخرين الضرائب التى كانوا هم أنفسهم يعفون من

دفعها، ويحفظونها فى لندن نيابة عن الملك. وهذه يمكن أن تكون مبالغ كبيرة حقا من المال - فى ١٢٣٨ على سبيل المثال، بلغت ضريبة الثلاثين لنوتينجهام وبريستول معا (واحد على ثلاثين من منقولات المواطنين) ٤٢٨٨ جنيهاً. وبالمثل، فإن فرسان الهيكل بما لديهم من قوافل جاهزة مسلحة فى النقل البرى والبحرى عادة ما يعهد إليهم بالأموال الملكية التى ترسل إلى الخارج. ليست الأموال الملكية فحسب، وإنما الرسائل الملكية أيضا؛ إذ تحدثت السجلات الإنجليزية مرارا عن فرسان هيكل يقوم بدور المبعوثين أو سفراء الملك. كما كانوا سياسيين عاملين: إذ كان معلم الهيكل فى إنجلترا يشترك فى البرلمان، ويعمل كمستشار للملك - وفى إحدى أشهر المناسبات وأقلها نجاحا، حاول ريتشارد من هيستينز المعلم فى إنجلترا، فى (١٢٦٧) أن يعقد صلحا بين هنرى الثانى وذلك الأسقف المثير للاضطراب توماس بكت. وكانت جلسات البرلمان بالفعل تنعقد فى الهيكل الجديد، كما كانت تسمى الكنيسة الدائرية ومبنييها الملحقين. كما انعقدت هناك مجالس الكنيسة، بالإضافة إلى اجتماعات سياسية أقل رسمية؛ ففى ١٢٦٠ التقى هناك سيمون دى مرت وكبار بارونات المملك لمناقشة الإجراءات التى يجب اتخاذها ضد سوء حكم هنرى الثالث. وكما حدث فى أثناء حكم ستيفن، ساعد فرسان الهيكل الإنجليز الجانبين.

امتدت ممتلكات الجماعة فى أوربا من تيمبلينو، على شواطئ لسان كينمار فى جنوب غرب أيرلاندا، إلى إقطاعية تسمى سينت مارتين فى مكان ما أما فى كرواتيا أو سلوفينيا. وفى المجر، حين انبهر بيلا الثالث بأنشطة فرسان الهيكل فى أثناء حجه إلى الأراضى المقدسة، وضع أساس فروعهم فى شرق أوربا؛ وأعطى هو وبيلا الرابع التبرعات القياسية من الأراضى والمبانى فى جيجنا ودوبيتشا وباناب، باستثناء الأسماء لم يبق سوى القليل من السجلات. وفى الولايات التى تضم ألمانيا الآن، من الطبيعى أن يكون الفرسان التيوتونيك (الجيرمانيون) وهى جماعة عسكرية تأسست عام ١١٩٨ محاكاة لفرسان الهيكل، أكثر شعبية؛ ومع ذلك، كان لفرسان الهيكل ممتلكات واسعة هناك أيضا، على الأخص فى مينز، وويرمز، وترير، وبرلين، حيث

كانت هناك كنيسة على موقعهم فى تيمبلهوف حتى عام ١٩٤٤، وبعض الممتلكات الألمانية تم اكتسابه قبل ذلك: مثل سوبلينجبورج، شرق هنوفر، فى ١١٣٠، وميتز (التى، لم تكن حينئذ تابعة لفرنسا، مع أنها تقع على بعد مائة وعشرين ميلاً شمال تروا) يقال إنه قد تم التبرع بها عام ١١٢٣ - قبل الاعتراف بالجماعة بخمس سنوات.

وإذا ما انتقلنا جنوبا، سوف ندهش حين نجد أن وجود فرسان الهيكل كان أكثر ضعفا من وجودهم فى إنجلترا البعيدة. من المؤكد أن روما كان بها إقطاعيات وكروم، وكذلك أنيا ونبولى، ولتشا، وبينيفينتو، وبارى، وتارانتو، وبيترى، وبيروجيا، وفيرونا وميلانو، وبولونيا؛ ولكن كان هناك أيضًا عدد كبير من الأساقفة المترددين فى الإقلال من صلاحيتهم، فكانت سيطرة فرسان الهيكل النسبية فى شبه الجزيرة التى أسماها البابوات الوطن كانت أقل مما يمكن أن نتوقعه. بل أن دار فرسان الهيكل والحديقة فى أناجنى لم يتم التبرع بهما حتى ٢٠ يولية عام ١٢٩٦، حين وهبهما البابا بونيفاس الثامن؛ وكان السبب الذى ذكره تبريرا لذلك هو أن الجماعة لم تكن لديها أراض فى الجزء المتجه إلى البحر فى كامبانيا على الإطلاق.

وعلى بعد ما يقرب من أربعين ميلا شمال غرب روما، بالقرب من مدينة توسكانيا الصغيرة، توجد بقايا اثنين من المقار الصغيرة: سان سافينو، وكاستيلارالدو. وفى الحالتين، لم يكن أى من المبنيين يزيد طوله على مائة قدم تقريبا - لا يكاد يكون شيئا فى بلاد تعج بالسكان - وكان مستواهما طبق الأصل للكثير من قواعد فرسان الهيكل فى إيطاليا. وترك لصقلية أمر تقديم التركز الحقيقى للممتلكات للجماعة فى هذا الجزء من العالم: فعلى الرغم من حجم الجزيرة الصغير، امتلكوا أجزاء فى ميسينا وترابانى، وسيراكيوز، وبوتيرا، ولينتينى، وبليرمو، بالإضافة إلى مجمعات كبيرة من الإقطاعيات حول سفح أتنا.

لقد كانت مكانة الجماعة الاقتصادية والقانونية مشابهة فى كل بلد، مع وجود ميثاق عام مشترك فى كل مكان. ولم تسر الحياة على أسس أكثر تعقيدا وعالمية سوى فى العواصم الكبرى، مثل لندن، وباريس، وروما؛ ففى هذه المدن كانت الأسبقية

للتعاملات المالية، حيث كان الإخوان يقبلون الحسابات الجارية، وحسابات الإيداع، وإيداع المجوهرات، والأشياء القيمة، ووثائق اللقب، وتقديم القروض، والمقدمات، والعمل كوكلاء للنقل الآمن لهذه الأشياء. وقد اقترض البابا إلكسندر الثالث ١٥٠ جنيهًا من الجماعة، وطلب منه أن يرد ١٥٨، وحسب مصطلح فرسان الهيكل لا يعد هذا الفرق فوائد؛ ذلك أن تقاضى فوائد على قرض من شأنه أن يجعل منهم مذنبين بارتكاب خطيئة الربا. وبدلا من ذلك مثل هذه المبالغ كانت تحسب كمصاريف للوقت، والجهد والمخاطرة التى ينطوى عليها ذلك - وهى مغالطة مما يميزهم وهى شديدة الدقة على فهم وتقبل معظم الناس، وهى التى أكسبت الجماعة الكثير من المال والكثير من الأعداء.

أما خارج العواصم، بما يتمتعون به من تعاملاتهم الحاذقة الناجحة المجربة فى أسواق المال الناشئة، كان كل رائد أو قائد يستغل الأراضى المخصصة له بالطريقة المناسبة، من فلاحة، وصلاة، وصنع الخمور، والخبز، والغزل، والحفظ فى الأوعية؛ فى الحياة فى المقار الريفية مشابهة فى كل مكان، فالمستأجر المعتدل كانت تحكمه مقتضيات الموسم وتقويم الكنيسة، مع فروق جوهرية قليلة فى اسكتلندا، وأيرلاندا، ودالماتيا، أو إنجلترا الريفية.

لكن اسكتلندا لها وضع محير، مربك ذلك أنه فى الأيام الرهيبة الأخيرة لم يتم القبض إلا على اثنين من فرسان الهيكل هناك، كانت البلاد تحتوى على قدر كبير من ممتلكات فرسان الهيكل. إذ إنه حول إبردين وحدها، كان صليبهم على دور وكنائس فى توريف، وتوليتش، وميريكوتلر، وأبوين، وكينكوزى. وفى إبردين نفسها كانت لهم كنيسة خاصة، سجلت عام ١٩٠٧ على أنها "تقع بين دانسينج ماستر بيكوك كلوز وجاردينرز لين"؛ وجنوب المدينة عند كتلر، كانت لهم إقطاعية لا تقل عن ثمانية آلاف من الإيكرات.

من الواضح أنه كان هناك أكثر من رجلين لإدارة هذا كله؛ لكنَّ أحدا لا يدرى ماذا جرى لهؤلاء الرجال. هناك أقوال عن فرسان هيكل فارين ومقار سرية فى

الجزر الخارجية؛ غير أن هذه خيالات ولدت بعد قمع الجماعة بقرون؛ ولا توجد حقائق تقوم عليها.

وتاريخ فرسان الهيكل فى أيرلاندا مشابه، من حيث كونه مزيجًا مختلطًا من التراث فى الأقاويل نمت فيها أفعال وأماكن نسبت إلى الجماعة فى أثناء الحكى، مخلوطة بذكريات مضطربة للإسبتاليين، ومخلوطة بطائفة من الأساطير والحكايات الشعبية. إذ لا يبدو أن الجماعة كان لها أى وجود هناك حتى بعد أن فتح هنرى الثانى شرق أيرلندا وهو الذى منح الجماعة أراضى جزئيا للتعويض عن عدم ظهوره فى الأراضى المقدسة. وأعطاهم طواحين فى ويكسفورد، وبالقرب من ووترفورد، بالإضافة إلى كنيسة وعشر قطع أراضٍ محروثة عند كلونتارف؛ ومن هذه البدايات، توالت الهبات والمشتروات المعتادة، حتى أنه فى وقت القمع الذى حدث لهم، كانت الجماعة تمتلك أراضى فى مقاطعات كارلو، ودبلين، وكيلدير، وكيكينى، وليمريك، ولوث، وميث، وسليجو، وتيبارى، وويكلى أيضًا، وكانت معظمها من الأراضى الزراعية الضعيفة التى توجد فى أنحاء بريطانيا. (الأرض المحروثة عبارة عن أرض يمكن أن يحرثها محراث واحد وثمان من الثيران فى عام، أى القدر الكافى لإعاشة فلاح وزوجته وأسرته. من الواضح أن هذا يمكن أن يكون قدرًا متغيرًا اعتمادا على جودة الأرض، والثيران، والحارث، لكنها يمكن أن تكون دائما قطعة كبيرة من الأرض).

على الرغم من أن إخوان الهيكل فى أيرلندا جميعا أصلا من عائلات ساكسونية نورمندية، فإن الإخوان الرقباء كانوا من أصل أيرلاندى - أناس أمثال تاثوج أودفجير، وجيمز بانبيكر، وكينيدى أوكيناج، وويليام بوى أوموليران. هؤلاء الرجال جميعا يظهرون فى قائمة الجمعية الأيرلندية، وأمثال هؤلاء الرجال من الممكن أنهم كانوا بين من ماتوا من أجل المسيح فى الأراضى المقدسة.

وفى أيرلندا، أولئك الذين لم يكونوا أعضاء فى الجماعة كثيرا ما كانوا يفعلون ما يفعله نظراؤهم فى إنجلترا، ويضعون صليب فرسان الهيكل بشكل غير شرعى على بيوتهم كى يتهربوا من الضرائب والجمارك. وقد بلغ انتشار هذه الطريقة على جانبى

البحر الأيرلندى حدا جعل هنرى الثالث يضطر بالتحديد إلى منعها. ولكن ربما كان أكثر الأجزاء لفتا للانتباه فى العلاقة مع أيرلندا هى: النقود الأيرلندية التى ذهبت لبناء الهيكل الجديد فى لندن، والمعلم الأيرلندى الذى مات هناك.

فى عام ١٢٤٣، أمر هنرى الثالث وزير خزانته الأيرلندى أن يدفع ٥٠٠ مارك لروجر لى وأليس، معلم الهيكل فى إيرلاندا، للمساعدة فى تشييد الهيكل الجديد. وتم تسلم المال وتسليمه، وأقيم البناء. وإحدى الحجرات هناك هى عبارة عن زنزانة صغيرة موحشة قدمان ونصف فى أربعة ونصف قدم - أصغر من أن يرقد المرء فيها - وهى تطل على جسم الكنيسة. ويمكنك أن ترى من نوافذها الضيقة الضئيلة وتسمع جماعة المصلين - وهم، بالطبع، يمكنهم أن يسمعوك ويروك، - ولكن ما إن تحبس فى تلك الحجرة، فلا مجال للخروج. لقد كانت زنزانة للندم، لعقاب الإخوان العصاة. ولا بد أنها كانت فريدة الأثر، لأن الأخ المدان كان يعزل، ولكن لا يبعد، عن مركز دينه أى المناولة التى حجب عنها تحدث بشكل مثير للرغبة لشدة قربها - ويمكن للمتناولين المميزين أن يشعروا بما يعانى من عذاب. وفى هذه الزنزانة فى عام ١٣٠١ معلم أيرلندا آنذاك وولتر لى باتشلر، مات جوعا، وهو قادر حتى آخر لحظة أن يستمع إلى المزامير التى كان يترنم بها إخوانه فى أسفل. وكانت جريمته التى مات بسببها وهو محروم من الكنيسة هى نقل ملكية أرض، إذ لا أحد يمكنه انتهاك الميثاق وينجو من العقاب للهيكل دون تصريح. وكانت دور الهيكل فى كل مكان يستخدمها المسافرون كنزل يجذبهم إليها ما تتسم به من أمان لا مثيل له؛ فكان إخوان الهيكل الجديد فى لندن مضيفين لعلية الناس. إذ كان يقيم هناك الملوك والأساقفة وممثلو البابا والدبلوماسيون جميعا أحيانا لسنوات متصلة. ولكن على الرغم من مكانة فرسان الهيكل فى البلاد، فإنهم كانوا ينظرون إلى إنجلترا على أنها مصنع كبير، ومصدر وفير للربح، لكنه فى مكان غير ملائم مطلقا لتقود الجماعة فى الغرب. وكانوا يحتفظون بهذا الشرف لفرنسا.

وعلى الساحل الشرقى لفرنسا، فى وسط خليج بيسكى، يقع ميناء لأروشيل القديم. وهناك طريقان للاقتراب من الميناء من البحر: الطريق الشمالى، من وإلى بريتانى، ويسمى مضيق بريتون. والطريق الجنوبى بين هيدر وليديرون، واسمه أقل وضوحا: هو مضيق أنطاكيا. ومثله مثل إيج - مورت، (المياه الميتة) على الساحل الفرنسى فى البحر المتوسط، يعد مضيق أنطاكيا صدى لأفخر الأيام وأكثرها أملا فى الحروب الصليبية؛ ذلك أنه تحت قيادة فرسان الهيكل، أصبحت لأروشيل نقطة رئيسية للبدء فى الحروب الصليبية. واعتادت السفن الإنجليزية فى طريقها إلى الشرق، أن تحضر إلى هناك للتزود بالطعام والمياه العذبة؛ وتسافر السفن الفرنسية إلى البرتغال وإسبانيا وإفريقيا وقبرص وفلسطين. وكانت أولى ممتلكات فرسان الهيكل هناك دارا فى الميناء، وطاحونة خارجه، كل منهما تم الحصول عليه فى عام ١١٣٩ كهبة من لويس الشاب وزوجته أليانور. وفى خلال بضعة عقود استقرت الجماعة بقوة فى الإقليم، إذ كانت أراضيها تشكل هلالين مركزين على الميناء، الذى زاده نفوذا بدوره. ذلك أن قيادة لأروشيل سيطرت عليه بأكمله؛ أما اليوم، فباستثناء بضعة شوارع تحمل أسماء لفرسان الهيكل، لا توجد سوى ثلاثة أشياء تبين أن فرسان الهيكل كانوا موجودين. فتحت الفندق الذى نشأ من حطام القيادة يقع قبو بسيط، حيث كان فرسان الهيكل يخزنون الحبوب، أو ربما الأسلحة. ولكى يدخل المرء الفندق، يمر بطريق مسقوف بانحناء؛ وتحت ذلك الانحناء نفسه، منذ سبعمائة أو ثمانمائة سنة، كان الفرسان الذين يرتدون العباءات البيضاء، والرقباء بأرديتهم البنية يدخلون فناءهم. وفى الفناء، فى أحد الأركان هناك درع منحوت فى الحجر، إنه درع به صليب به ثمان زوايا: إنه بوسينت، علم فرسان الهيكل.

وهو شاهد قبر صغير حاد. فحتى فى باريس، حيث توجد الدار الرئيسية للجماعة فى أوربا وحيث يمكن للمرء أن يدرس اليوم مئات من الوثائق الأصلية المتعلقة بفرسان الهيكل - حتى فى باريس، لا يكاد يعثر على أى أثر. ولكى يرى المرء الآثار الأكثر استدعاء، أى الأماكن التى تستحضر الحياة اليومية للإخوان فى أوربا، كأوضح ما يكون، عليه أن يغادر المراكز الرئيسية ويبحث فى أماكن أخرى. ومع ذلك، حتى يفعل

ذلك، فهناك حاجة إلى بعض العناية. وتوجد فى جنوب فرنسا بعض أفضل منازل فرسان الهيكل الريفية الكبرى التسعة ذائعة السيط. فحين يتجه المرء فى ذلك الطريق من باريس، يمكن أن يمر بدول، وهناك يتعثر فى مطعم يبدو جدا أنه ينتمى للعصور الوسطى يسمى باسم الجماعة. وهو يقع فى قبو حجرى مثير للمهابة، بسقفه المنحنى المدعم بأعمدة كبيرة. ويرجع تاريخه إلى فترة فرسان الهيكل، والطعام هناك جيد؛ وللأسف، فإن الاسم زائف تماما. ومع ذلك، فإن المنطقة ذات مغزى فى تاريخ الهيكل: فعلى بعد بضعة كيلومترات جنوب شرق المدينة يوجد نجع تيمبلدبلفاننس، حيث ما زالت توجد إحدى أقدم القيادات، وهى بها سكان، ويرجع تاريخها إلى ١١٣٤؛ وفى جنوب غرب المدينة، على ضفاف نهر دوب، يوجد نجع آخر صغير يسمى مولى. وهناك، حوالى عام ١٢٤٤، ولد صبى هو جاك دى مولى، الذى أصبح آخر معلمى فرسان الهيكل.

وفى أعماق الجنوب، يوجد كنز اليوم الخاص بفرسان الهيكل. فهناك لابارجمون، على الطريق من أفينيون إلى إيكس، الذى كان ذات يوم قيادة كانت وظيفتها زراعة العنب، والتى ما تزال تنتج نبيذا أحمر لذيذ الطعم، يتم تسويقه بحس تجارى سليم غالٍ، تحت علامة صليب فرسان الهيكل. وتوجد جرو وريشوفان، وسانت أولالى، ولا كوفرتفواراد؛ كل منها مختلف وكل منها يضيء جانبا مختلفا من حياة فرسان الهيكل.

وسانت أولالى وكورتفواراد شقيقتان، تم تأسيسهما فى ١١٥١ و ١١٨١ كل على حدة. وتقعان فى قلب لانجدوك، إلى الشرق من مدينة روكفور الأكثر شهرة. ولا يفصل الحصنان سوى عشرين كيلومتراً، ولكن من الصعب أن يكون هناك أى اختلاف آخر فى موقعيهما: تقع سانت أولالى فى أعماق وادٍ طويلٍ عريض خصيب، فى حين تقوم كورتواراد فى صحراء من الصخور والعشب الصغير الجاف. الأولى تحيط بها الحقول، وجدول ماء، والمروج الخضراء؛ أما الثانية فليس بها سوى برك من الندى. لكن فرسان الهيكل كانوا قادرين على استخدام المكانين أفضل استخدام، ويزرعون الطعام للبشر والخيول حول سانت أولالى، ويربون الأغنام فى كورتواراد؛ وكلا المكانين

تماماً كما كانا أيام فرسان الهيكل. وكورتواراد تعد بصفة خاصة جوهرة، إنها مدينة من مدن العصور الوسطى احتفظ بها تماما. وهى عبارة عن خمسين أو ستين منزلا متلاصقة معا مع سلالم خارجية تؤدى إلى طوابقها العليا؛ وأزقة لا تصل إلى اتساع الشوارع؛ وسور به خمسة أبراج، تحيط بها وتحميها؛ وبالقرب منها، هناك الكنيسة والقلعة.

بعد الدهشة الأولى التى تشعر بها عند وجود مكان قام كاملا من العصور الوسطى، فإن أول ما يصدمك فى لاكوفرتواراد هو مدى صغر حجمها. فهى بالكاد تسمى قرية اليوم. وفى ذلك الحين، كانت مدينة. والقلعة - وهذه الكلمة تستحضر صورة بناء ضخم فخم؛ ولكن مع أن جدرانها سميكة بالتأكيد، فإن قلعة فرسان الهيكل فى كوفرتواراد ليست أكبر كثيرا من أى منزل حديث. إن العظمة، بالطبع، شىء نسبى، فإذا ما قورنت القلعة بالمساكن الصغيرة التى تكون المدينة الصغيرة، فهى تعد فخمة. غير أن المرء يفهم فجاة وبوضوح، كم هو عدد الأفكار الحديثة عن قوة العصور الوسطى فى حاجة إلى مراجعة نحو التواضع. ذلك أن كل ما كان مطلوبا كى يغطى بضعة مئات من الرعاة هو بناء حجرى متوسط الحجم؛ ولكن فى تلك الأيام، كان ذلك قوة.

وسانت أولالى مشابهة، فهى عبارة عن مجموعة من المنازل الصغيرة داخل أربعة أسوار قوية، تحصنها الأبراج ومن خلفها كنيسة الهيكل والقيادة. وهى مرة أخرى تبدو صورة مستوطنة مصغرة. ويصدق الشىء نفسه على ريشفانش، التى تقع على بعد خمسة وستين كيلومتراً من أفينيون؛ ولكن بينما توحى لا كورفتواراد ولا سانت أولالى شعورا معينا بالخفة والرقة - أى جو رعوى على الرغم من التحصينات - فإن ريشيرانش قوية صلبة عبارة عن بناء مربع الشكل فى سهل كئيب، يتسم بالغبار والقذارة والفقر.

ربما كان أغرب ما فى هذه الأماكن المحتفظ بها هو أن الانطباع الذى تعطيه دقيق من الناحية التاريخية؛ كانت ريشيران أولى الثلاثة، تم اكتسابها وتحصينها عام

١١٣٦ فشيدت بوصفها بياناً عن النية المتعمدة، قصد منها التأثير بقوة فرسان الهيكل العسكرية فى السكان المحليين، فى حين تظل أساساً بؤرة لمجتمع زراعى. أما لاسانت ولاكورتواراد التى جاءتا بعد ذلك بجيل وجيلين، للترويج للجماعة، فلم تكونا فى حاجة إلى تحصينات فى البداية. إذ كانتا مراكز زراعة بالمعنى البسيط النقى، وبنيتا كما يمكن أن تبنى الأديرة، بكنيسة، وقاعة طعام، وعنبر للنوم، وإسطبلات وما إلى ذلك. فكانتا مسالمتين، لا تهددان ولا تتعرضان للتهديد. والأسوار والأبراج حول المدينتين لم تكن موجودة قط أيام فرسان الهيكل؛ إذ لم تكن لهما ضرورة. ولكن بعد تدمير الجماعة، استولى الإسبتاليون على دورها، وبنوا الأسوار كما يشرح أهل لاسانت "لكى يحموا أنفسهم من فرسان الهيكل".

على النقيض من هذه القيادات، تقف قلعة جرو بذاتها، من جميع النواحى. أما الثلاثة الأخريات، فكانت نواة إدارية محلية، مدن منخفضة مرتبطة ارتباطا حميما بحياة الشعب العادى. تقف على قمة جبل على بعد خمسين كيلومتراً شمال شرق بروفانس. وهى أكبر قلاع فرسان الهيكل التى توجد فى أوربا. وهى تبين مباشرة دون مواربة جوانب الجماعة الأكثر ندرة فى الغرب منها فى الشرق: القوة العسكرية البحتة - والوحدة العميقة. ذلك أن الكثير من آلاف المنازل الأخرى الأقل، لا يديرها سوى الرقباء الذين يرتدون الملابس البنية.

أما قلعة جرو، تلك المتكبرة البعيدة القوية المعزولة، فهى المكان الذى يرى فيه دائما الفرسان بالعباءات البيضاء، ويقولون فى صلاتهم: "حتى نهاية حياتنا، وحتى نهاية جماعتنا، ما شاء الله لها أن تكون".

الجزء الخامس

مؤامرة واعتقال ١٣٠٣-١٣٠٧

الفصل الثالث عشر

فيليب الأشقر

فرنسا وإسبانيا ١٣٠٣-١٣٠٦

دعنى، فأبيدهم.

سفر التسمية، الإصحاح التاسع الآية ١٤

انتهى عصر الحروب الصليبية الكبرى. ولن يكون هناك أبداً "ممر عام" للأوربيين إلى الأراضى المقدسة، حيث يقاتلون من أجل المسيح. ذلك أن هزائم المسيحيين فى عام ١٢٩١ كانت حاسمة - ليس فى حد ذاتها وإنما بوصفها جزءاً من نمط التغيير. وكانت أوربا فى بداية القرن الرابع عشر شديدة الاختلاف عن أوربا البابا إيربان والقديس بيرنار، منذ مائتى عام. وكان الإقطاع يفسح ببطء وعلى مضض الطريق للنزعة القومية، وكانت العصور الوسطى تفسح الطريق للنزعة الإنسانية. وكانت الحروب الصليبية تناقش، لكنها لم تكن تتم؛ إذ كانت المسيحية المتشددة ما زالت على شفاه الناس، ولكن - مع بعض الاستثناءات المهمة - لم تعد فى قلوبهم. وفى هذا العالم المتغير، كان وجود الجماعات العسكرية فى طريقه إلى أن تكون شيئا شاذا. فبما أنها لم تعد تفى بوظيفتها الأولى، "الدفاع عن الأراضى المقدسة" فقد بدا للكثيرين أن فرسان الهيكل لم يعودوا يمتلكون السبب أو الحق فى الوجود.

وكانت مملكة فرنسا فى مقدمة التغيرات، وكان على رأس المملكة رجل واحد يمكن اعتباره شعار التغيير. ففى عام ١٣٠٢، كان فيليب الرابع الملقب بـ "الأشقر" يبلغ

خمساً وثلاثين سنة - فهو ما يزال شابا، فى ذروة الحياة، لكنه مع ذلك قديم فى الملك، لأنه كان قد توج الملك الحادى عشر من أسرة كابيت الفرنسية وهو بعد فى السابعة عشرة.

وفى عام ١٣٠٣، كان قد حكم بوصفه ملكًا لأكثر من نصف عمره، وأصبح ينظر إلى مملكته بنوع من الرضى الصارم، ذلك أنه، إن لم يكن محبوبا، فقد كان مرهوب الجانب، - ليس فقط فى مملكته، وإنما فيما وراء حدودها، فى جيين وفلاندر، وإنجلترا، وإسبانيا، وإيطاليا. وكان يحكم مساحة أوسع وأكثر تجانسًا من تلك التى حكمها أى من أجداده من أسرة كابيت، ذلك أنه بالنسبة لمعظمهم، كان الحكم المباشر قاصرا على جزء من فرنسا، - باريس ومحيطها المباشر. وهذه لا تكاد تكون مملكة بأى حال؛ ولكن بعد ثلاثة قرون وأكثر من حكم هذه الأسرة، نمت المملكة كى تضم نورماندى، وأنجو، ومين، وتورين، وبرى، وبواتيى، واوفيرن، وتولوز، وشامبانى، ونافار. وكان فيليب يعد نفسه مستحقا للوراثة: فقبض على الحكم بيد من حديد.

وكان الملوك من أسرة كابيت على مدى ثلاثمائة سنة ينمون بعناية الاعتقاد بأن ملكهم بأمر إلهى. وكانت حفلات تتويجهم تتبع المراسم اتباعا دقيقا، أى أنها كانت مناسبات شبه دينية، تبارك فيها الكنيسة الحاكم الجديد ويدهن بالزيت المقدس، - وهو زيت تحكى الأساطير أنه جلب من السماء بواسطة حمامة، ولا ينقص أبدا. وحين يتوج الملك، يصبح نصف إله، أى كائن مستثناء من الأخلاقيات العادية؛ ويشاع أن لمَستة منه من شأنها علاج الأمراض. وكان لويس التاسع، قد ذهب بهذا الاعتقاد إلى أقصى حد، إذ جمع بين السلطة والتقوى، وبذلك وضع الأساس للحكم الدينى السياسى، فى أمة يسود فيها قانون الله، ولا يفسره وينفذه سوى الملك وحده. فكلمة الملك، هى أيضا كلمة الرب، وهى مطلقة من الناحية الروحية والدنيوية.

وقبل فيليب دوره قبولا تامًا - سواء عن اعتقاد صادق، أو منفعة سياسية، أو كليهما معا، من المستحيل القول بأنه يفترض أنه كان يعلم؛ لكن هذا الرجل كان أعظم لغز فى تاريخ فرسان الهيكل. إذ إنه لم يكشف قط عن أفكاره أو مشاعره أو

دوافعه للعمل لأى مخلوق. ذلك أنه إذا فعل ذلك فسيكون هذا غير متسق، سياسيًا وروحيا، وفيليب كان متسقا بشكل قاس. فشيد حول نفسه دائرة من البرود والصمت، لم يتغلغل منها أى أحد ممن يعرفونه؛ وكتب عنه أحد معاصريه "هو ليس بإنسان ولا بحيوان؛ إنه تمثال". ويصعب تحسين هذا الوصف؛ حتى اليوم تظل شخصيته بعيدة، يصعب الوصول إليها. أفعاله فقط هى الشيء الواضح الذى لا لبس فيه. ومن هذه الأفعال، ومن القليل من التعليقات المعاصرة له والتى ليست بالمدائح ولا هى بالهجاء، يمكن للمرء تكوين صورة عن فيليب الإنسان، والتمثال الجميل.

من المؤكد أنه كان جميلا، بل كان جماله استثنائيا؛ كان الجميع متفقين على ذلك. ومن الواضح أنه كان رجلاً ذكيا يتمتع بالعزيمة، ولا بد أنه كان مخلصا فى معتقداته، لأن أفعاله باعتباره نصف إله، وملكًا بالكامل، كان وراءها منطق رهيب. وكان يملك، فوق ذلك، فهما غريزيًا لعلم النفس، ومنذ بداية حكمه أحاط نفسه بمجموعة من أكثر الناس مكرًا فى فرنسا. ومن خلال هؤلاء أى وزرائه، حكم مملكته كعنكبوت فى وسط نسيجه.

لم يكن الحكم المطلق ممكنا بالنسبة له: ذلك أن الناس العاديين والنبلاء والذين لم تكن لهم ألقاب، ما يزالون يفكرون بالمنطق الإقطاعى، ولم يكن جهاز الحكم المطلق قد أنشئ بعد؛ لكن فيليب كان ينشئه، وكان حاكمًا مطلقًا صرفا بقدر ما كان ذلك ممكنا، يطور طريقة فى الحكم على النقيض من الاتفاق الإقطاعى. ذلك أن إخفاءه لذاته وافتقاره الظاهر للإنسانية، ربما كانت حيلة متعمدة. إذ إن فيليب كان يؤكد على الجانب الكهنوتى للملك، عن طريق عدم الكشف عن الرضا أو الحنق الشخصى. وكلما كان مظهره صلبا، كلما سهل عليه خداع مناصريه وأعدائه على حد سواء. وكلما قل فهمهم لأفكاره، كلما زاد خوفهم؛ وكلما زاد خوفهم سهل حكمهم.

لكن ميراث فيليب لم يكن فقط من صنع الحكم الدينى السياسى. فإذا كان الرب يحكم من خلال ملك فرنسا، فذلك فى هذا العالم وليس فى العالم الآخر؛ وفى هذا العالم يجب دائما تذكر الثراء المادى غير النظيف. وكان ميراث فيليب الدنيوى

يتألف من الحروب والديون – الحروب ضد إنجلترا فى البحر وفى جيين، التى كان الإنجليز يستحوزون عليها، وضد فلاندر التى كان يشتهيها ملوك أسرة كابيت؛ والدين لكل من يقرض. وكان فرسان الهيكل فى مقدمة قائمة دائنى الملك، لكنهم لم يكونوا وحدهم؛ فاليهود واللمبارديون، والمهرة أيضا فى أمور المال، كانوا يضمنون فواتير الملك.

وكانت الحاجة إلى المال جزءًا من الدافع للحرب. ذلك أن القروض، وهى عادة بفوائد بشكل أو آخر، كان لا بد من دفعها أحيانا؛ والنظام الإقطاعى الذى لا يوجد به مادة عن ضريبة الدخل والعائد الذى يمكن التنبؤ به تنبؤًا تقريبيًا، كان يعتمد إلى حد كبير على الضرائب المتقطعة، لأغراض محددة، كانت الحرب أوضحها وأيسرها على الفهم. لكن القتال كان يكلف دائمًا أكثر من المتوقع، ليس فالأموال فحسب وإنما فى الأرواح. فكانت الاستدانة تزداد بدلا من أن تنقص، بكل سهولة، حتى مع الحملة الناجحة. وكان من الفظاظة أن تضطر أن تقاتل الآخرين كى تسحب الأموال من شعبك، كما كان شيئًا غير مؤكد وغير كفء، وفيليب كان يكره انعدام الكفاءة. وكانت لدى فرنسا نفس أنواع الضرائب التى كانت موجودة فى إنجلترا فى ذلك الوقت، والتى كان معظم الناس يعتبرونها غير عادلة أو متكافئة أصلا. وفيليب الذى كان يتطلع حوله بحثا عن المال، أحيى بعض الأفكار القديمة، وأدخل بعض الأفكار الجديدة: القروض الإجبارية، وبيع حقوق النبلاء، ورخص التصدير، وضرائب على الأعمال الخاصة، وضريبة مبيعات عامة على كل ما يباع أو يشترى. وهذه الضريبة الأخيرة كانت هى الأسوأ بالنسبة للناس العاديين لكونها غير مرتبطة بضريبة الدخل؛ ولكن لم تكن هى ولا غيرها من وسائل جمع المال الموجودة أصلا، أكثر من مجرد سد مؤقت للاحتياجات. وفى السنوات الأولى من حكمه، التسعينات من القرن الثالث عشر، وجد فيليب حلين جديدين حاسمين: تخفيض قيمة العملة، والضغط على المجموعات الغنية غير القوية. فتم تخفيض قيمة عملة المملكة مرة تلو مرة، مما جعلها تفقد ثلث قيمتها فى عشر سنوات، وضربت ضرائب خاصة على اليهود، واللمبارديين –

والكنيسة. وكان رجال الدين المعفون تقليديا من ضريبة الدنيويين أو العلمانيين، يدفعون ضرائب للبابوية للمساعدة فى دفع نفقات الحروب الصليبية، وكانت السلطات الدنيوية هى التى تجمعها.

وما حدث ببساطة هو أن فيليب استمر فى جمع هذه الضرائب، ولكن دون إذن بابوى. وكانت أراضى الكنيسة تشكل نحو ثلث المملكة، وكل عامين أو نحو ذلك، كان فيليب يحول عشر إيجارات رجال الدين، ودخولهم إلى خزائنه. وكان يريد: مصدرا لعائد منتظم كبير بقدر معقول. ونجحت خططه لفترة ما، وكان من الممكن أن تستمر فى النجاح. إذ لا أحد سوى الأشخاص الذين يعنيهم الأمر يمكن أن يعترض على تجريد المرابين من ممتلكاتهم. غير أن تجريد الكنيسة من ممتلكاتها أمر مختلف، لكن فيليب الذى كان يعتقد أنه ملك كاهن، ويطمع فى البابوية كان له معارض لا يتزحزح: هو البابا بونيفاس الذى كانت إرادته صلبة مثل إرادة فيليب، وكان حلمه مطابقًا لحلمه، وهو توحيد السلطة الروحية والزمنية فى شخص واحد.

لم تكن أوربا لتتسع لمثل هذين الرجلين؛ فتحاربا لمدة تسع سنوات، "أكثر الملوك مسيحية" وكاهن المسيح. من الناحية الاسمية كان الصراع بينهما حول إساءة ملكية دخل الكنيسة؛ أما من الناحية الفعلية فكانت حربا - حتى الموت إذا ما اقتضت الحاجة من أجل السيادة فى أوربا. فى عام ١٢٩٦ صدر مرسوم بابوى يحظر فرض الضرائب على رجال الدين؛ فرد فيليب بفرض حظر على تصدير سبائك الذهب أو الفضة من فرنسا، ومنع بذلك وصول الصدقات الفرنسية إلى روما. وفى عام ١٣٠٠، عام اليوبيل البابوى، قام بونيفاس باستعراض فى روما كإمبراطور، وقد حمل سيفين أمامه، يشيران إلى ادعائه بالسلطة على جميع الناس، الأحياء منهم والأموات. ولم يبد فيليب أى رد فعل، بالنظر أو اللفظ؛ ولكن فى عام ١٣٠١ قبض رجاله على أسقف باميى، المندوب البابوى فى فرنسا، واتهم بالخيانة، والابتداع، وبيع المناصب الدينية، والسحر وممارسة الجنس. وكانت جرائم الأسقف الحقيقية هى صداقته الشخصية لبونيفاس وتشبيه فيليب بالبومة. إذ ينقل عنه قوله: "ملك فرنسا أكثر وسامة من أى إنسان،

فى الدنيا، ولا يعرف سوى الحملقة فى الرجال". وهذه ملحوظة غير موفقة، لأن تلك النظرة المتحجرة تخفى عقلا لا يرحم.

فثار بونيفاس بإصدر مرسومين، أحدهما يستنكر عملية إلقاء القبض، والثانى يلغى جميع امتيازات وحقوق فيليب فى السنوات الخمس السابقة. فكان تحرك فيليب التالى غير مسبوق: فى إبريل عام ١٣٠٢ دعا إلى اجتماع للطبقات الثلاث، النبلاء ورجال الدين، والعوام. ولم يكن العوام يدعون أبدا للمشاركة؛ ولكن لم تكن أى من هذه الطبقات الثلاث موجودة لإبداء النصيحة. لقد كان هدف فيليب هو أن يضمن أن فرنسا كلها تتحدث بصوت واحد - هو صوته. ولم يكن أمام الاجتماع بديل حقيقى. وتم إحراق مرسوم الاستنكار علنًا، ورفضت الأمة الفرنسية، كرجل واحد، جميع ادعاءات البابا - واعترضت على حق بونيفاس فى أن يكون هو البابا. "مقدس واحد" أعلن بونيفاس - لم توجد ولا يمكن أن توجد سوى كنيسة واحدة مقدسة لا يمكن انتهاكها. وللكنيسة رأس واحد؛ فهى ليست وحشًا برأسين؛ رأسها هو المسيح، وحاكمها هو كاهنه، البابا؛ وجميع الملوك فى وضع أدنى بالنسبة لأسقف روما.

إنها كلمات، كلمات؛ فى إمكان فيليب الرد عليها بيسر، وبهدوء وبرود وثقة فى حقه الإلهى فى العرش. واستخدمت الطريقة التى استخدمت ضد أسقف باميى مرة أخرى، وفى مارس ١٣٠٣ وجهت طبقات فرنسا الثلاث تسعا وعشرين اتهامًا ضد بونيفاس تتهمه، بين أشياء أخرى، باللواط، والسحر، والابتداع، والمتاجرة فى المناصب الدينية والتجديف.

ودون المزيد من الجلبة، استخدم بونيفاس سلاحه الأخير، وحرم فيليب من الكنيسة - وهى حركة لا معنى لها، إذ يمكنه أن يثق فى أن فيليب سوف يتجاهلها، وعلى أى حال، فإن البابا كان قد أعلن فى إحدى المرات أن الرجل الفرنسى ليست لديه روح. والفرنسيون، بالطبع، يرون غير ذلك، وحين سمعوا فى صيف ١٣٠٣ أن البابا يعد لحرمان الأمة الفرنسية برمتها من الكنيسة بالإضافة إلى الملك، حدث فزع وحنق.

وكان من المقرر أن ينشر المرسوم فى ٨ سبتمبر. فعجل هذا النبأ بأن يتصرف فيليب بسرعة؛ إذ كان عليه أن يتصرف بسرعة وحسم كى يمنع قيام ثورة.

المسافة من باريس إلى روما هى نحو ثمانمائة من الأميال. وعلى بعد سبعة وثلاثين ميلاً جنوب شرق روما تقع مدينة إنيي. وفى بداية سبتمبر ١٣٠٣، كان البابا بونيفاس يقيم هناك؛ ومن هناك فى ٨ سبتمبر كان يعتزم نشر مرسومه التاريخى ضد فرنسا. وحسب عادته، استيقظ مبكرا فى الصباح فى يوم سبعة وذهب كى يصلى فى كنيسته الخاصة قبل طلوع الفجر - وبينما كان يصلى داهمته قوة من الجنود الفرنسيين، وأسرته. لم يكن من المتصور أو المتخيل أو المعقول، اختطاف بابا وفوق ذلك، عمل هذا باسم الدفاع عن البابوية. لكن فيليب الذى كان يعتقد أن العرش الفرنسى أكثر قداسة من الكرسى البابوى أمكنه أن يفكر فى ذلك، ويضعه موضع التنفيذ. فلا البعد ولا القداسة أمكنهما حماية البابا بونيفاس؛ وبسبب إيمانه العميق بالسلطة البابوية لم يعرف إلا بعد فوات الأوان القوة الكاملة لقناعة فيليب الشخصية. ففيليب الذى استثنى عن الناس العاديين، والذى يحكم برحمة الرب، باعتباره تجسيد القانون على الأرض، والمفسر الوحيد للقانون السماوى، لم تكن به حاجة إلى مبادئ أو ضمير. وكانت نيته هى إحضار بونيفاس إلى فرنسا بالقوة، ومحاكمته هناك على جرائمه. هذا الجزء من الخطة فشل، لأن أهل إنيي أنقذوا البابا؛ لكن السن كان إلى جانب فيليب بالإضافة إلى الخيال غير المقيد. ذلك أن بونيفاس كان يبلغ من العمر ستاً وثمانين سنة. لذا كانت صدمة سجنه المثيرة أكبر مما يجب؛ فمات بعد ذلك بشهر. لقد كانت هذه العملية نموذجاً لشخصية فيليب - كانت عملية سرية، وجسورة، وجيدة التخطيط، وتم تنفيذها. وكانت تتسم بالكفاءة، وغير متوقعة ومرعبة. مثل هذا الرجل يمكنه فعل أى شىء، على ما يبدو؛ ولكن حتى فيليب، نصف الإله الملكى، لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا دونما دعم من رجال من طراز مشابه - رجال لا شك فى ولائهم ويتمتعون بأقصى درجات الجسارة؛ رجال يتنفسون التآمر، والعنف المقنن، وتضخيم الذات. لقد كان هؤلاء هم وزراء الملك، ووكلاؤه وألفاؤه؛ وعلى رأسهم قائد الهجوم فى إنيي، وهو شرير لامع الذكاء، يدعى ويليام دى نوجارى.

لقد شكل فيليب ودى نوجارى شراكة كاملة تقريبا من السلطة والتفكير. وكان دى نوجارى يكبر الملك بسنوات قليلة، وقد عملا معا على مدى عشرين سنة؛ لكن لا يمكن أن يكون هناك اختلاف فى الأصول كما كان بينهما. فقد انحدر دى نوجارى من أصول تنتمى للطبقة المتوسطة؛ إذ كان، والده تاجرا فى تولوز، وأخذت العائلة اسمها أو أعطته لقطعة أرض صغيرة كانوا يملكونها جنوب شرق المدينة. وما زالت قرية نوجارى موجودة مع أن العائلة فنيت فى نهاية القرن الرابع عشر.

لقد كان صعود ويليام دى نوجارى للسلطة وسوء الصيت جزءًا آخر من التغيرات التى تكتسح أوربا فى ذلك الوقت. إذ كان لا بد من تحويل التغيرات فى العادات القديمة إلى قانون؛ والمحامون باعتبارهم الوحيدين الذين يمكنهم أن يزعموا لأنهم يفهمون التطورات الجديدة المعقدة، صاروا طبقة قوية؛ وكان دى نوجارى محاميًا يتمتع بقدرات بارزة. وفى الثمانينيات من القرن الثالث عشر كان مستشارا قانونيا لملك مايوركا، وأستاذا للقانون فى جامعة مونبليى؛ وفى أوائل التسعينيات من القرن الثالث عشر، انضم إلى الخدمة القانونية لدى فيليب؛ وفى عام ١٢٩٩ صار من النبلاء، وفى عام ١٣٠٢ نصب "محامى المملكة الأول". وهو الذى أصدر الاتهامات الأولى العلنية ضد بونيفاس؛ وهو الذى قاد الحملة الوطنية لتلطيخ السمعة، وأشرف على الاختطاف. ذلك أنه لم يكن يساوم فى الولاء أو الكراهية. ولاقى ولاؤه للملك خير الجزاء - ففى نهاية حياته، امتلك، ذلك الذى كان ابنا لتاجر بسيط، أربعمائة ميل مربع من فرنسا، وكانت لديه السلطة المباشرة على حياة وموت ما يزيد على عشرة آلاف من الأشخاص؛ وكانت كراهيته للبابوية وكل ما تمثله على أسس قوية، لأن والديه مثل معظم أهل تولوز من الكتاريين، وتم إحراقهم أحياء تحت إشراف فرسان الهيكل، باعتبارهِم مبتدعين.

هذا المصير البشع، الذى واجهه والدا نوجارى قد يكون ببساطة تعسًا. وثمة كثير من الأدلة التى تبين أن فرسان الهيكل عملوا مع الدومينيكان، الذين كانوا مسئولين عن اجتثاث الابتداع. لذا لا بد أن فرسان الهيكل كانوا على ألفة بإدارة خشب شبح

الأجساد، وقطع أصابع الإبهام، والدفن فى الحفر بالإضافة إلى التعليق والتقييد وربما مارسوها؛ وقد كافأ الدومينيكان تعاونهم عن طريق تشجيع المسيحيين الطيبين على ترك الأموال والممتلكات للجماعة حين يكتبون وصياتهم. ولكن هناك أيضا أدلة ثابتة أيضًا توحى بأن فرسان الهيكل كانوا يتعاونون فقط حين يكون الثمن صحيحًا، لأنهم كثيرا ما كانوا يعيقون ويعرقلون محاكم تفتيش المبتدعين الذين يتصادف أنهم من مستأجريهم. (كانت هذه الإعاقة مصدرا كافيا للإزعاج من وجهة النظر الرسمية، بالنسبة لإيجاد جماعة جديدة تماما: هى فروسية عقيدة يسوع المسيح. كان هدفها الوحيد هو اجتثاث الابتداع - وهى نوع من شرطة الفكر الدينى - وتتعدى على حقوق فرسان الهيكل، وتضايق الآخرين، لذا كانت مجموعة موضع كراهية شديدة من الناس حتى أنها حلت بعد إنشائها بأقل من أربعين سنة).

ولكن لا يوجد ما يشير إلى أن آل نوجارى كانوا مستأجرين لدى فرسان الهيكل. فلو أنهم كانوا كذلك، لحماهم الإخوان؛ حينئذ كان من الممكن أن يتغير مصير الجماعة نفسها.

فى تلك الأثناء لم تنته المؤامرة ضد البابوية بموت بونيفاس - بل ازدادت قوة. ذلك أن البابا الجديد، البابا بينيديكت الحادى عشر الذى وضع فى نفس القالب الذى وضع فيه بونيفاس، رجل صارم، وعازم على الحفاظ على كرسيه البابوى. ومما زاد النار اشتعالا أن فيليب أمر بمحاكمة لبونيفاس بعد وفاته. لو أن مثل هذا الشىء قد حدث لتسبب فى سابقة مرعبة، وبينيديكت، الذى أرغم على الدخول فى محنة، حاول الوصول إلى حل وسط عن طريق إلغاء حرمان فيليب من الكنيسة. فى أثناء ذلك أظهر دى نوجارى ولاءه للملك بطريقة ملفتة وذلك بأن قبل المسئولية الكاملة عن الهجوم فى أنانيى. فانسحب انتباه بينيديكت عن الملك، وأصدر تنديدا شديدا بدى نوجارى وشركائه فى الجريمة. وتم حرمان دى نوجارى من الكنيسة؛ ودون تعقل أذاع بينيديكت أن دى نوجارى لن تكون لديه فرصة للاستئناف قبل الإعلان الرسمى بعد ذلك ببضعة أسابيع. ولم يأت إعلان أبدا؛ لأن البابا بينيديكت مات فجأة جراء مرض مجهول

مصحوبا بآلام داخلية ممضة. فأصدر دى نوجارى نشرات دعائية تعبر عن الفرحة للعدالة التى حكم بها الله أعلى الأحبار الخبثاء؛ ولم يتم إثبات الاشتباه فى السم. لقد مات البابا بينيديكت فى ٧ يولية ١٣٠٤، بالضبط بعد شهر من تنديده بدى نوجارى. ولم تدم بابويته أكثر من ثمانية أشهر ونصف؛ ومر ستة عشر شهرا قبل تنصيب بابا جديد. ولم يكن التأخير من صنع فيليب، لكنه لاءمه خير ما تكون الملاءمة: وفى النهاية لم يعمل إلا لصالحه، وفى تلك الأثناء كانت لديه أمور أخرى ليفكر فيها.

فزوجته البالغة من العمر إحدى وعشرين سنة، جان ملكة فرنسا ونافار توفيت عام ١٣٠٥، وكان فيليب آنذاك يبلغ السابعة والثلاثين وكان رد فعله لهذه الخسارة هو رد الفعل نفسه الذى كان يصدر عن الكثير من الأرامل فى زمنه والقرن وثلاثة أرباع القرن الماضى: إذ قدم طلبا لعضوية إخوان الهيكل. وليس هذا فحسب، ولكنه اقترح التنازل عن العرش لصالح ابنه. كان من الممكن أن يبدو من الطبيعى أن يقبل فرسان الهيكل مثل هذا الرجل القوى بين صفوفهم؛ لكنهم رفضوه. وكانت سرية الجماعة ما تزال سائدة، فلم يعرف السبب أحد حتى فيليب نفسه. ربما رأى فرسان الهيكل طلبه على أنه مجرد انحراف تلا وفاة زوجته؛ أو ربما أحسوا أن هذا الرجل القوى كان يريد من خلالهم ليس التواضع وإنما قوة أكبر. ذلك أنه، على الرغم من أن فيليب قد يكون قد أحب جان حبا كبيرا فإنه ليس بالرجل الذى يتصرف طبقا لانفعاله؛ بل كان دائما لديه سبب، وكثيرا ما تكون لديه عدة أسباب لكل فعل؛ وبما أنه كان يتخطى مجرد المعارك المحلية والدخول فى خصومات مع البابوات فلا بد أن لديه خطة يعد تعاون فرسان الهيكل فيها جوهريا. فقبل ذلك بثمانية عشر عاما، فى ١٢٨٧، جاء إسبانى اسمه رامون لول إلى باريس وأتيح له لقاء خاص بالملك الشاب. وكان لول فى منتصف الخمسينيات من عمره، ويشتهر كصوفى فى بلدته مايوركا، وفى بر أرجون. وفى أوائل حياته كان جنديا، وأحد رجال البلاط وشاعراً وموسيقياً - رجلاً دنيوياً بمعنى الكلمة، وهو شاعرى وعاطفى ومندفع، هو متزوج، ولكن لا حصر لعشيقاته، وهو محب، ويقبل على كل ما تهب الحياة له. لقد نشأ فى مايوركا - أكثر

الجزر المسيحية إسلامًا - فكان مسيحيا بالاسم حتى الثلاثين من عمره، حين حولته تجربة دينية عميقة إلى أن صار أحد أنشط المسيحيين فى زمانه. وبعد ذلك يبدو تصرفه غريبًا على شخص متحول - إذ أنفق تسع سنوات فى تعلم اللغة العربية. لكن ذلك كان من أجل هدف عظيم؛ ذلك أنه إذا ما قدر أن حدثت حرب صليبية أخرى كان لول يعتقد أنها يجب أن تكون حربًا صليبيًا تبشيرية. لم تكن هذه فكرة جديدة، لكنها لم تلق قط استقبالا متحمسا. وكان لول يأمل أنه فى باريس ومع فيليب فى أن يجد الدعم الذى كان يريده.

على الرغم من أن هذه الفترة، أى الانتقال من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر يمكن النظر إليها بوضوح الآن باعتبارها نهاية الحروب الصليبية الكبرى لم يكن هذا واضحا بالنسبة للناس الذين كانوا يعيشون فى ذاك الزمان. إذ لم تتغير الاتجاهات بين ليلة وضحاها؛ فبعد قرنين من الوجود الغربى فى الأراضى المقدسة، كان مثل هذا الوجود يبدو سليمًا وطبيعيًا. وكان من افتراضات الحياة الأساسية أن الأراضى المقدسة سوف تسترد يوما ما؛ ولم يكن السؤال متى يتم ذلك، وإنما كيف. وبما أن الطريقة العسكرية البحتة فشلت، بدا أنه من المحتمل أن مبدأ الحرب المقدسة كان خطأ، ولم ينل سوى عدم رضى الرب؛ لذا يجب أن تكون الحرب الصليبية النهائية إغراء للروح، حرب صليبية تبشيرية، وفى حالة عدم نجاح التبشير يساندها فرسان الجماعتين العسكريتين. لكن التنافس بين فرسان الهيكل والإسبتاليين كان فاضحا، وأوجه الشبه بين التنظيمين أوحت بأنه يمكن تحقيق اقتصاد كبير فى الوقت والمال إذا ما توحدت الجماعتان.

عند هذه النقطة بدأ فيليب يهتم اهتمامًا حقيقيًا. وليس هناك ما يدعو للشك فى تقواه؛ فإقامة مملكة الله على الأرض كانت أمله الثابت الأكيد. وكان فهمه للكيفية التى يتحقق بها،هذا هو سبب معظم صراعاته - ذلك أن كل شىء فى وراثته وتربيته حمله على أن يعتقد أنه هو - وهو وحده - يمكنه حكم "السماء على الأرض". وخطة لول

المطورة التى نشرت عام ١٣٠٥ شرحت الإطار الذى يمكن تحقيق هذا من خلاله.

لقد كانت النقاط الرئيسية التى جذبت فيليب هى: أولا، يجب أن تصبح الجماعتان العسكريتان جماعة واحدة؛ ثانيا، يجب أن يكون معلم الجماعة الجديدة المشتركة ملكا أو ابن ملك؛ ثالثا، يجب أن يكون منصب المعلم وراثيا؛ رابعًا، يجب أن يتخذ المعلم سكنا فى القدس فى أسرع وقت ممكن، وأن يتوج ملكا على القدس. وأخيرا، - ثمة نقطة بسيطة، لكنها نقطة جاذبة ملموسة - يجب أن يحمل الملك المعلم لقب الملك المحارب.

بدت الخطة مفصلة على مقاس فيليب، على الرغم من أن لول قد يكون قد وضعها مع ملكه، ملك أرجون جيمز الثانى، وفى ذهنه، حرب صليبية إسبانية بهدف أكثر تحديدا. غير أن فيليب تولى الفكرة، واعتبرها فكرته؛ فإذا نجحت سوف تعطيه كل ما كان يريد - الوصول إلى مدد منتظم للمال منتظم غير محدود نسبيا؛ والحكم المباشر على أراضٍ فى كل جزء من أجزاء أوربا، وما وراءها؛ ومجد دائم لآل كابى، والرعاية والراحة الروحية والزمنية لكل البلاد المسيحية. وأضاف فيليب إلى ذلك اللمعان الزاهى الفخم، فى هذه الفكرة، نقطتين تضمنان تحكمه الشخصى التام: جميع الدخول الكنسية يجب تثبيتها، وأى فائض يجب أن يذهب ومباشرة إلى "الملك المحارب"، للمساعدة فى إعادة غزو الأراضى المقدسة؛ وفى الانتخابات البابوية يجب أن يكون "للملك المحارب" أربعة أصوات.

كانت الخطوة الأولى فى تحقيق هذا التخطيط غير العادى هى توحيد الجماعتين، ولهذا حاول فيليب أن ينضم إلى فرسان الهيكل؛ وكان ينوى أن يكون معلما بالطريق المعهود، ومن هذا الموقع يقوم بتنظيم الاتحاد، وكل ما يلى ذلك. وربما اعتقد أن قبوله فى الجماعة سيكون مسألة شكلية، ولا بد أنه صدم وغضب لرفض الجماعة المختصر لمفاتحته. ولم يبد ما يدل على ما أحس به، كالعهد به. إذ كان هناك طريق آخر مفتوح أمامه - أنه طريق طويل معقد منحرف، لكنه طريق لا يمكن أن يرفضه حتى فرسان الهيكل العنيدون المتصلبون. لقد كان سيدهم الوحيد على الأرض هو البابا؛ فإذا

أمرهم بتغيير رأيهم، فسوف يضطرون إلى ذلك. ولكن حتى الآن، لم يكن هناك خليفة لبينيديكت. لذا أصبح فيليب فجأة مهتما بالصراعات الانتخابية في روما.

كانت الكردينالية منقسمة إلى قسمين، جانب يؤيد ذكرى بونيفاس، والآخر - المتأثر بالنفوذ الفرنسي - يستمر في اقتراح مرشحين يحاكمون بونيفاس بعد الوفاة. ولم ينته هذا الطريق المسدود إلى أن قدم أنصار بونيفاس رئيس أساقفة بوردو، بيرتران دى جو. ولم يكن لينتخب، لولا دعم الكرادلة الذين تتحكم فيهم فرنسا، وبدا اقتراح اسمه بلا جدوى، لأنه كان إلى جانب بونيفاس قبل يوم الاختطاف. ولكن حين سأل الفصيل الفرنسي فيليب عن رأيه، أعلن تحبيذه له مما أثار دهشتهم. وأخذ الانتخاب مساره؛ وفي ١٤ نوفمبر ١٢٠٥، في ليون، أصبح بيرتران البابا كليمينت الخامس.

لقد كان الملك فيليب يعرف بالضبط ما كان يفعل بتأييده لترشيح دى جو؛ ذلك أنه كان يعرف الرجل معرفة جيدة. فرئيس الأساقفة كان رجلا ضعيفا جشعًا، مغرما بالتشريف، ويكره تحمل المسئولية؛ وقد فاز برئاسة الأسقفية عن طريق نفوذ العائلة لأن عمه كان أسقفا، وأخوه رئيسا للأساقفة. فإذا ما سلمنا أنه كان مقبولا من جانب أنصار بونيفاس، فإن انتخابه كان بيد فيليب، وبعد أن تم ببعض السنوات، ظهرت حكاية عن وجود اتفاق سرى بين الملك ورئيس الأساقفة.

كانت القصة، أنه في المكان السرى الملائم لما يمكن أن يقع، في دير مهدم في وسط إحدى الغابات، التقى الملك مع كليمينت الخامس القادم وحدهم ذات ليلة مظلمة. ووعد الملك بأن يجعل من دى جو بابا بناء على ستة شروط، ذكر له منها خمسة آنذاك، مبقيا الشرط السادس حتى بعد الانتخاب. فإذاً قبل رئيس الأساقفة، عليه أن يقسم بالصدق على خبز التناول، وأن يقدم ثلاثة من أقاربه باعتبارهم رهائن. كانت الشروط الخمسة الأولى أن يتم التصالح بين التاج الفرنسي والبابوية؛ ويجب فك المختطفين في أنانيى؛ ويجب السماح لفيليب بفرض ضرائب على رجال الدين

الفرنسيين؛ ويجب عودة الكرادلة الذين عزلهم بونيفاس؛ ويجب محو مراسيم بونيفاس، ويجب التنديد به. وحسب القصة قبل دى جو جميع الشروط الخمسة فى التو واللحظة. أما الشرط السادس الذى لم يعلمه إلا بعد حين، فهو وجوب حل جماعة الهيكل.

مما يثير الحزن أن القصة ليست سوى قصة. ذلك أن فيليب وكليمينت لم يلتقيا قبل انتخاب البابا، وأن بعض الشروط ومنها شرط المصالحة قد تمت بالفعل. ومع ذلك، من المحتمل أن يكون اتفاق من هذا النوع قد عقد، لكنه ليس بين الرجلين شخصيا ولكن من خلال قنواتهما الدبلوماسية؛ وفى كل الحالات، فى إمكان فيليب أن يثق مع رجل مثل بيرتران دى جو فى منصب البابا، من أن سلطة البابوية سوف تتناقص حتى تصير لا شىء. وبعد أن انتهى تتويج كليمينت بعد الظهيرة ١٤ نوفمبر ١٢٠٥، ركب البابا الجديد فى موكب فى شوارع ليون، يقود جواده الدوق جون من بريتانى، وأخو الملك، الأمير شارل من فالوا. وكان الملك فيليب يركب خلفه مباشرة، وفى اللحظة التى يلجم فيها جواده، رأى الجدران بجانبه تتشقق وتنهار. وتحت الحجارة المتساقطة جرح جون جرحا مميتًا؛ وأصيب الأمير شارل إصابة بليغة، وسقط كليمينت من فوق جواده. أما الملك فلم يصبه أذى، وكما فعل الكثيرون، قد يكون قد رأى الحادثة على أنها نذير شؤم بعهد البابا. وكانت تخطيطه الكبير يبدأ بداية جيدة.

فى أثناء ذلك، على أى حال استمرت مشكلة المال اليومية تنغص حياته. ذلك أن تكرار تخفيض قيمة العملة أفاد التاج كدائن، لكنه عمل ضد التاج كجامع للضرائب. وفى يونيه ١٢٠٦، أعلن فيليب ببرود أنه قرر الرجوع إلى القيمة الفعلية للعملة وأن يسرى مفعول ذلك القرار من ٨ سبتمبر. بمعنى عملى، بالنسبة للناس العاديين، كان معنى هذا أن الأسعار سوف تصبح ثلاثة أضعاف بين ليلة وضحاها. أما بالنسبة لفيليب، فكان معنى هذا أن يفر فجأة فيليب إنقاذا لحياته من الدهماء الذين يقومون بأعمال الشغب فى كل أنحاء باريس؛ ولأول مرة، يخطئ فى حساب سلطة الكهنوت الملكى، ويدفع بالناس أكثر مما ينبغى وأسرع مما ينبغى. ولمدة ثلاثة أيام وبينما كان

المواطنون يعدمون دون محاكمة، وأعمال الشغب يتم قمعها بالقوة، التجأ فيليب إلى هيكل باريس، وهناك توفر لديه الوقت كى يدرس الرجال الذين رفضوا انضمامه إلى جماعتهم. كثيرا ما كان يقيم هناك هو وبلاطه من قبل، لكن هذا لم يحدث قط فى مثل هذه الظروف المذلة. كان المجمع يغطى خمسة عشر فدانا وكان محاطا بالكامل بسور يبلغ ارتفاعه ثمانى عشرة قدما؛ ولم يكن للسور سوى بوابة واحدة، كان يحميها جسر جرار فوق خندق دائرى جاف. وكان "البرج العظيم" الذى يبلغ ارتفاعه مائة وستين قدما، يلقى بظله على باريس؛ وكانت المبانى تكفى لإسكان ثلاثمائة من الفرسان مع خدمهم وجيادهم. وبينما كانت أعمال الشغب تشتعل فى الخارج، كانت الحياة فى داخل الجدران من الممكن أن تستمر نسبيا بلا إزعاج. وحين أعيد السلام أمكن لفيليب أن يعود من أمنه المستعار، ولا بد أنه فكر كثيرا فى هذه القلعة الحصن وجميع شقيقاتها الآتى تعد بالمئات فى أنحاء المملكة، التى لم يكن فى وسع أحد أن يدخلها، حتى دون إذن.

تخفيض العملة، رفع قيمة العملة، قروض إجبارية، وفرض الضرائب - لا شيء من هذا بدا أنه ينجح لفترة طويلة. فكان من الضرورى القيام بإجراء جديد مؤقت. وفى ٢١ يونيه ١٢٠٦ أعطى الملك تفويضًا سريًا ملكيًا لمحاميه، ويليام دى نوجارى، المحارب القديم فى أنانيى. وتم إرسال نسخ من هذا الأمر إلى جميع الأساقفة، والبارونات، والمسئولين الملكيين فى المملكة، تناشدهم الطاعة المطلقة والصمت التام. وبعد ذلك بشهر تماما، وفى ٢١ يولية، تم القبض على كل يهودى فى فرنسا، وتمت مصادرت جميع أموالهم وبضائعهم من أجل التاج. لقد كانت هذه العملية سريعة وكفأة وغير متوقعة وناجعة بالكامل فى طول البلاد وعرضها - كان الملك والمحامى يصلان بطريقتهما إلى حد الكمال. تقريبا فى نفس الوّقت الذى كان فيليب يعطى نوجارى تفويضه، كتب البابا كليمينت رسالة إلى معلم الإسبتاليين وإلى جاك دى مولى، معلم الهيكل. ذلك أن الحبر متبلد الذهن كتب لهما باعتباره سيدهم الأعلى، يأمرهم بالحضور إلى أوربا لأننا "نرغب فى استشارتكما بخصوص حرب صليبية

بالتعاون مع ملكى أرمينيا وقبرص، باعتباركما فى أفضل وضع يمكنكما من أن تقدما لنا أفضل نصيحة فى هذا الموضوع، فأنتما أكثر من غيركما، بعد بلاط روما، لا بد أنكما مهتمان بالمشروع".

وبعد هذه الأحداث بوقت قصير، تم قبول اثنى عشر أخًا جديدًا فى جماعة الهيكل، واحد فى كل مقر، من المقار الاثنى عشر المتناثرة عبر فرنسا. كان كل منهم وكيلا للملك فيليب. وفى الوقت المناسب، رد معلما الجماعتين على سيدهما، البابا. فعبر معلم الإسبتاليين عن أسفه لعدم قدرته على إطاعة الأمر بالحضور إلى أوربا؛ إذ إن جماعته بصدد الانتقال إلى رودس، وهو لا يمكنه أن يبرح مكانه. أما جاك دى مولى، فلم يكن لديه ما يضغط عليه فيمنعه؛ واعتزم أن يصل فى وقت مبكر فى العام الجديد.

وبدأ كليمينت، وفيليب، ونوجارى استعداداتهم لاستقباله - البابا الضعيف الهزيل، والملك الذى لا يرحم، والمحامى الذى لا يعرف المبادئ، وبين ذكرياته حرائق المبتدعين، انتظر الثالوث غير المقدس ضيفهم.

الفصل الرابع عشر

احتفال الغدر

فرنسا ١٣٠٧

أما أنتم فملفقو كذب

سفر أيوب، الإصحاح الثالث عشر، الآية ٤

ولد جاك دى مولى، المعلم الثالث والعشرون والأخير لجماعة فرسان هيكل سليمان، قرابة عام ١٢٤٤ فى فرانش - كونت، الجزء الشرقى من فرنسا. وقُبِلَ فى جماعة الهيكل عام ١٢٦٥، ولما كان فارسا مدربًا، فقد تم إرساله، بسرعة إلى الأراضى المقدسة. وما إن وصل إلى هناك، حتى وجد الكثير مما يستوجب انتقاده فى الطريقة التى تدار بها الجماعة؛ ذلك أنه كان شابا مستقيما نشطا، وكان يفهم دور فرسان الهيكل على أبسط المستويات: كان يشعر أن مهمتهم هى مقاتلة المسلمين، ولم يكن ليقبل بأقل من ذلك، شأنه شأن الكثيرين من القادمين الجدد إلى الشرق. فبدا له المعلم فى ذلك الوقت، ويليام دى بوجى، بسياساته المسالمة، جبانا فى أفضل الحالات وبدا له فى أسوأ الحالات خائنا لمبدأ الإخوان. ولما كان دى مولى متصلب العقيدة وصارم الشخصية، فقد عبر عن معارضته بصراحة، وحرية، وكرر ذلك كثيرا. ذلك أن سلبية دى بوجى أصابته بالاشمئزاز، وجعل الناس يعلمون أنه إذا كان فى وضع يسمح له بذلك، - فسوف يصلح الجماعة، ولو من أجل سلامتها. ولقد قضى عشرين عاما فى بلاد ما وراء البحر، وهى العشرون سنة الأخيرة فى حياة المملكة. وفى عام

١٢٨٥، كان فى عكا، ومن المحتمل أن يكون قد شارك فى الدفاع الأخير غير المجدى وإن كان بطوليا عن المدينة عام ١٢٩١؛ وقد يكون من بين من اتهموا دى بوجى بالجبن فى اللحظات الأخيرة من حياته، على الرغم من هزيمة المسيحيين. ولا بد أن تلك الفترة الأخيرة كانت شديدة الإرضاء بالنسبة لدى مولى؛ إذ كان بها عمل أكثر مما يكفى، وموت معلم كان يزدريه، وبذلك ذهبت عشرون سنة من الإحباط إلى غياهب النسيان. ويرجع جزء من الإحباط إلى أنه، تحت قيادة دى بوجى، لم يتول أى منصب قيادى فى الجماعة - ربما بسبب تعليقاته الصريحة. غير أنه كان لديه طموح كامن بين حديثه عن الإصلاح؛ وبعد وقت قصير من وفاة خليفة دى بوجى، تيبالد جودان، فى ١٦ إبريل عام ١٢٩٣، انتصرت شخصيته القوية أخيراً. فبعد عكا، جاء الترقى سريعًا إلى ذى الخبرة. فى ذلك الوقت، كان مولى قد قضى ثمانى وعشرين سنة كأحد فرسان الهيكل؛ وكان يتكلم بقناعة وبإقناع للإخوان. فى ذلك العام اختاروه معلما لهم. وصار من الممكن أن تتحول الإصلاحات إلى واقع. وبعد أن تم انتخابه فى قبرص، بدأ عمله كمعلم برحلة فورا إلى الغرب، باحثًا من جديد عن دعم عملى من البابا، وملوك أوربا. فزار إسبانيا، وفرنسا وإيطاليا، وإنجلترا؛ واستغرقت رحلته ثلاث سنوات. فى أثناء ذلك الوقت دعى إلى ثلاثة اجتماعات عامة. - فى مونبليى فى خريف عام ١٢٩٣. وفى باريس، فى شتاء ١٢٩٥- يف؛ وفى أرييس، فى خريف ١٢٩٦، والتقى بجيمز الثالث، ملك أرجون، وشارل الثانى، ملك نابولى، وإدوارد الأول، ملك إنجلترا؛ وفى ديسمبر عام ١٢٩٤ ساعد فى انتخاب بونيفاس الثامن كبابا. لكن هذه الاتصالات والجهود لم تسفر عن شىء. إذ لم يكن جيمز مهتما إلا بحرب صليبية إسبانية؛ وكان شارل منكبا على فتح صقلية؛ وكان إدوارد فى حرب ضد فيليب ملك فرنسا؛ أما بونيفاس، فبدلا من أن يقدم المال للجماعة، طلب إتاوة كى تساعده على مكائده فى إيطاليا.

وحين عاد دى مولى إلى قبرص خائب الرجاء، وجد إخوانه يعانون المتاعب هناك؛ ذلك أن الأراضى التى كانوا يستولون عليها والتى امتلكوها فى وقت من الأوقات ملكية تامة، لم تعد تكفى احتياجاتهم - لكن الملك هنرى، وهو من نسل جى دى لوزينيان -

منعهم من امتلاك المزيد، سواء على سبيل الهبة أو عن طريق الشراء. فالجزيرة لا يمكنها أن تكون أبدا قاعدة كافية لجماعة عسكرية وملك جنبا إلى جنب. ولقد أدرك الإسبتاليون هذه الحقيقة بسرعة، وبدءوا فى فتح رودس؛ لكن دى مولى كان ما يزال يعتقد أن مستقبل جماعته يكمن فى الأراضى المقدسة. وقرر أن يبقى فرسان الهيكل فى قبرص إلى أن يستعيدوا جزءًا ما من الأرض الأصلية.

وتم وضع خطوط علاقة عمل مع هنرى، واحتفل هو وفرسان الهيكل فى قبرص بعام ١٣٠٠ بشن غارات على الخطوط الساحلية السورية والمصرية. وحسب تقدير دى مولى، لم تكن هذه الغارات أكثر من الواجب الذى يجب أن يقوم به فرسان الهيكل؛ غير أن الغارات كانت فاشلة بشكل هزلى. ففرسان الهيكل ليسوا بشرا متفوقين على سائر البشر. ودون مساعدة من الغرب، أصبح مذهب الحرب بلا هوادة مذهبا عبثيا؛ ومع ذلك استمر المعلم الجديد فى سياسته العدوانية. لكنها كانت موجهة فقط ضد المسلمين فى الأراضى المقدسة. ذلك أنه فى أواخر عام ١٣٠٢، قاتلت حامية رواد صغيرة معركة بحرية ضد أسطول من أساطيل المسلمين. وهزم فرسان الهيكل هزيمة ساحقة. وبعد ذلك فر الناجون بسرعة إلى قبرص؛ وكانت هذه المعركة هى آخر عمل حربى يقوم به فرسان الهيكل.

فى أثناء ذلك بحث فرسان الهيكل دون جدوى عن الإصلاحات التى توقعوها. أما الإسبتاليون، الذين كانت منظمتهم صعبة الإدارة بسبب حجمها مثلهم مثل فرسان الهيكل، فقد عرفوا الطريق إلى البقاء: كل ما كانوا يحتاجونه هو تغيير فى التركيب أو الهيكل، مصحوبا باستمرارية فى الوظيفة. ذلك أنه بعد ضياع الأراضى المقدسة، كان على الجماعتين العسكريتين كى يدعوا الحق فى الوجود، أن يبرروا أطرهم الداخلية المربكة، وأن يستمروا فى نفس الوقت فى القيام بدورهم التقليدى الذى أقسموا على القيام به وهو قتال الكفار. لم يكونوا ليفكروا فى الأمر بهذه الطريقة، غير أن الإسبتاليين فهموا المسار الضرورى وعملوا بناء عليه؛ كانت جماعتهم منقسمة إلى ثلاث أمم أو لغات، كل منها كانت لها مسئوليات محددة، وبعد فتح رودس، جزيرتهم

الجديدة ومركزهم، أصبحوا نوعًا من الشرطة البحرية الجديدة، إذ إنهم حافظوا على ممرات البحر المتوسط البحرية خالية من القراصنة المسلمين. وجعلت التقسيمات الهيكلية جماعتهم ككل أكثر مرونة، وأقل ثقلا؛ وكانت بؤرة العمل هى الاحتفاظ بالماضى والحاضر.

قصارى القول إن الإسبتاليين حدثوا جماعتهم؛ وتغيروا كى يفوا باحتياجات عالم متغير. أما فرسان الهيكل فلم يفعلوا ذلك. وكانت "الإصلاحات" الوحيدة التى أدخلها دى مولى هى أن يذكر إخوانه فى كل اجتماع عام بما أقسموه من إيمان بالطاعة التامة له وأن يحضهم على الاقتصاد كلما كان ذلك ممكنا. وتحت قيادته، اتبع فرسان الهيكل طريقة مغايرة تماما لما اتبعه الإسبتاليون: وأصبح تركيب أو بنية أكثر صرامة وأكثر ارتباكا من أى وقت مضى، ومع ازدهار عملياتهم البنكية، بدا أنهم ينسون مهنتهم الأصلية.

إن الفرق المثير بين كلمات دى مولى كفارس عادى وأفعاله كمعلم يرجع إلى سبب بسيط وإنسانى: هو أنه لم يكن يتمتع بذكاء خاص. وقد نبعت الانتقادات التى كان يوجهها فى شبابه وحين كان فى منتصف العمر من الافتقار إلى الخيال، وضيق فى الشخصية منعه من تفهم المشكلات التى كان يواجهها معلمه. وحين أصبح هو نفسه معلما، اكتشف بعد فوات الأوان كيف أنه من الأسهل توجيه النقد عن التصرف بشكل بناء. والآن بدأ يقول علنا إن دى بوجى الذى كان يمقت سلوكه، لم يكن فى وسعه أن يفعل أفضل مما فعل فى ظل هذه الظروف. لكن فهمه لخمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين سنة سبقت، لم يساعده على تناول المشكلات الجدية تناولا فعالا، بل أنه فعل العكس. ذلك أن قدرته على التفهم التخيلى تناقصت بدلا من أن تتزايد، لأنه تقدم فى السن، وتسامحه وأسلوبه المباشر كشاب قد تصلبا واستحالا إلى محافظة وتعصب.

كان هذا إذن، هو الرجل الذى استدعاه البابا كليمينت الخامس إلى أوربا عام ١٣٠٦: رجل مسن قديم الطراز، قضى كل حياته كإنسان بالغ فى الخدمة

العسكرية؛ رجل يملك أفكارا بسيطة، وضيق الأفق، يعجز تقريبا عن التفكير المعقد الراقى؛ رجل لم ير حاجة كبيرة إلى تغيير التنظيم الذى يقوده، وإصلاحاته محدودة عند اقتصادات الطعام، والطلب الانضباطى للطاعة. وحين وصل جاك دى مولى إلى أوربا فى أواخر ١٣٠٦ أو أوائل ١٣٠٧ لم يكن بالتأكيد يعتبر أن ثمة شيئا ما خطأ فى الجماعة التى يتحكم فيها أو فى الطريقة التى يتحكم بها. وكان ذهنه منشغلا بالمشكلات التى كان إخوانه يواجهونها فى وسط وشرق البحر المتوسط - ووضعهم غير المرضى فى قبرص، والصعوبات التى يواجهونها مع الفينيسيين والجنويين المحاربين، والاستحالة الظاهرة فى استعادة أى جزء من الأراضى المقدسة. ولم يستطع إيجاد أى طريقة للالتفاف على هذه المتاعب، ولكن كانت لديه عدة معتقدات ثابتة - وهى، أن أى شىء تفعله الجماعة ككل صحيح؛ وأنه، بشكل ما، إن عاجلا أو آجلا، سوف يعودون إلى الأراضى المقدسة، وأنه حتى ذلك الحين يجب أن يستمروا كما هم. ولم يدر فى خلده أن من هم خارج الجماعة ربما يعتقدون أن فرسان الهيكل فقدوا الاتجاه. ومن الممكن أن يرفض بشدة أن جماعته قد نسيت فن الحرب، ولا تتكون إلا من ماليين طفيليين؛ وإذا ما ذكره أحد بموعظة المسيح على الجبل - لا تجعل لنفسك كنوزا على الأرض حيث يفسدها السوس والصدأ، وحيث يسرقها اللصوص، لم يكن ليرى أى مغزى شخصى فى النص على الإطلاق.

كانت التعليمات لدى مولى هى أن يحضر إلى أوربا دون إعلان شخصيته وبحاشية تتكون من أقل عدد ممكن. ولم يعط سببا لذلك؛ ربما اعتقد كليمينت أنه لو علم أحد جيوش المسلمين أن معلم الهيكل غائب، عن قبرص قد يتجرؤ بالهجوم على الجزيرة. أما دى مولى فكان يفكر على نحو مغاير. لذا حين وصل إلى فرنسا، أحضر معه ستين فارسا وكمية هائلة من الذهب والحلى. فأصبح موكب المحاربين الملتحين، ودروعهم مغطاة بالعباءة البيضاء والصليب الأحمر على الفور معروفا للجميع، وبدا أن وضوحه كان مقصودا، وهو استعراض واع لقوة الجماعة المعروفة، وثرائهم المجهول.

لقد كان كليمينت فى بواتيى. ودى مولى الذى كان واثقا من أن يستقبله البابا استقبالا جيدا، ذهب إلى باريس أولا، علما منه بأن دعم الملك سيكون جوهريا إذا كان للحرب الصليبية المقترحة أن تحدث. وبعد أن أمن الفرسان والكنوز فى هيكل باريس، تقدم نحو البلاط الملكى. ومن المحتمل أن تكون هذه هى أول مرة يلتقى فيها المعلم والملك، ولكن كانت لدى كل من الرجلين فكرة واضحة عن الآخر. ذلك أنه منذ سنوات، من المحتمل أن يكون دى مولى قد التقى بالقديس لويس جد الملك، الذى لم يعرفه فيليب نفسه. والآن فى ربيع ١٣٠٧ حين كان دى مولى يجلس أمام الملك الشاب الوسيم، لا بد أنه ذهل من أوجه الشبه العائلية الظاهرة، من حيث جمال وورع آل كابى من الملوك؛ وربما يكون قد غرق فى بعض الذكريات، وهو يتحدث بمعرفة وفيرة عن عصره ومكانته وخبرته عن الأيام الخوالى – ربما مع مقارنة غير حكيمة مع الحاضر.

وكان يعرف افتقار الملك المستمر للمال وعلى الرغم من ذلك، يحتفظ بهذا الحجم من البلاط؛ لا بد أنه تذكر كيف أقام فيليب وحاشيته فى هيكل باريس منذ خمس سنوات، واستهلكوا فى تسعة أيام ثمانمائة وستة أرطال من الخبز وألفين وسبع وسبعين لترًا من النبيذ – بالنسبة للمعلم المقتر، مثل هذا الاستهلاك وحين لا يمكن ضبط الدفاتر، يبدو شديد الإسراف. وكان من الممكن أيضًا أن يعرف مدى الكفاءة القاسية التى يمكن أن يكون فيليب عليها – ذلك أن اليهود كانوا قد طردوا قبل ذلك ببضعة أشهر – ولكن لا يبدو أن هذا الجانب الأساسى من شخصية فيليب كان يعنيه على الإطلاق.

وقد استقبل فيليب بدوره الفارس المسن بالتكريم اللائق بأمير ذى سيادة. ذلك أنه يعلم أن دى مولى من حيث المولد ومن حيث عضويته للهيكل، ليس تابعا له. كما كان يعلم أن دى مولى يقف فى طريق تنفيذ جميع خططه، ولا توجد طريقة قانونية لكبح الرجل العجوز. كما كان على وعى بالدور الذى لعبه دى مولى فى انتخاب البابا بونيفاس الثامن، وأن أموال الهيكل ساعدت الإنجليز والفلمنكيين تماما كما ساعدت الفرنسيين. ولا بد أنه أدرك بسرعة أنه رجل شديد السذاجة على الرغم من سنه

وخبرته، يقبل كل شيء على ظاهره. وحين استفسر عن أحوال الجماعة في الوقت الحاضر، سأل عما إذا كان كل شيء كما يجب أن يكون؛ وأقر دي مولي بهدوء أنها ليست كذلك. وقال في اعترافه إن عدة إخوان كشفوا عن أخطاء في السلوك، وعن لحظات قصروا فيها في اتباع الميثاق. ولم يكن هذا الاعتراف أكثر من التعليق الأسيف لرجل منضبط قديم يتناول انضباط يقصر عن الكمال؛ غير أن فيليب وجد أن هذا الاعتراف له أهمية كبيرة.

وكان لدى دي مولي وفيليب معرفة مشتركة تجلت في رامون لول، الصوفي الإسباني. ذلك أنه كان قد زار قبرص عام ١٣٠٢، ومنذ ذلك الوقت نشر كتابه الذي تحدث فيه عن خطط لحرب صليبية للتبشير تحت قيادة "الملك المحارب". ومن الممكن أنه في هذا اللقاء الأول، أن يكون الملك والمعلم تحدثا عن هذه المقترحات؛ وربما عُرِضَ على دي مولي كتاب جديد، عنوانه "بخصوص استرداد الأراضي المقدسة". كتبه بيير دي بوا، وهو عضو غير رسمي في فريق المحامين العاملين لدى فيليب، وزميل لويليام دي نوجاري. وقد اتخذ من اقتراح لول نقطة انطلاق، وتوسع في التفاصيل، وبعضها واقعي والبعض الآخر طوبائي مثالي من أجل حرب صليبية. لكن القصد الحقيقي منه كان يكمن تحت هذا الغطاء، وهو ليس أقل من هيمنة لآل كبي على العالم. كان من الممكن أن يكون ذلك واضحا حتى لدى مولي؛ ومع ذلك، إذا رأى الكتاب في ذلك الوقت، فلم يحمله على محمل الجد مطلقا. وانتهت المقابلة على نحو مرض لكلا الرجلين. ذلك أن فيليب علم معظم ما كان يريد معرفته، وانتقل دي مولي جنوبا إلى بواتيي، وهو يعتقد أنه لا يوجد ما يعكر صفو العلاقة الطيبة بين الهيكل والملك. وأن هذه العلاقات كانت طيبة لأكثر من قرن - من ١١٩٠ إلى ١٢٩٦ - إذ إن الخزانة الملكية الفرنسية كانت تقبع في هيكل باريس، وحين نقل فيليب خزانة الدولة إلى قصر اللوفر الخاص به، ترك أموال بيته في أيدي فرسان الهيكل. وتمتع الإخوان بالإعفاء تقريبا من كل قيد قانوني، وحتى عام ١٣٠٤ كان فيليب قد ثبت جميع حقوقهم، وأضاف إلى هذا التثبيت الوعد بأن "القضاء الدنيوي العلماني لن يحتجز منقولات الجماعة ولن تبدد ممتلكاتهم غير المنقولة أو تدمر".

وثمة رجل واحد له دور مركزى فى الحفاظ على هذه العلاقات الجيدة: هو الأخ هيو دى بيرو، الذى كان فى عام ١٣٠٧ أمين خزانة الهيكل، والذى عينه فيليب متلقيًا ووصيًا على العوائد الملكية. ودى بيرو هذا الذى كان يتمتع بعلاقة حميمة مع البلاط الفرنسى، كان فى وقت من الأوقات يصبو إلى أن يكون معلما للهيكل. وحين تم تخطيه لصالح دى مولى، اعتقد أن دى مولى لم يفز بالانتخاب إلا عن طريق الدسائس. وكان الرجلان من نفس السن تقريبا، وكانا متصلبين كل على طريقته. ومنذ خيبة الرجاء التى لحقت بيرو، كان فى الظاهر يطيع دى مولى؛ لكنه سرا كان يمثل القانون بالنسبة له. وفى ١٠ أغسطس ١٣٠٢ وقع على اتفاقية خاصة مع فيليب، اتفاقية تتعلق بالدفاع المتبادل والتأييد فى جميع الأوقات، على الأخص فى المعركة ضد البابا بونيفاس الثامن - البابا الذى ساعد دى مولى على انتخابه، والذى كان فيليب يلاحقه حتى ما وراء القبر.

ودون أن يعلم بذلك، وصل دى مولى إلى بواتيى فى نهاية مايو. وبدأ البابا الجديد خليفة غير ملهم وغير مرض بعد بونيفاس وبينيديكت اللذين كانا ينفثان النار. لقد تدرب كليمينت فى القانون الكنسى والقانون الرومانى وقبل انتخابه لتولى البابوية كان دبلوماسيا بابويا. ذلك أنه رجل اعتاد على الحلول الوسط، وهذا بالنسبة لدى مولى يعد علامة على الضعف، والتذبذب؛ وحين التقى المعلم بسيده الجديد لأول مرة، كان كليمينت رجلا قلقا خائفا. فعلى مدى تسعة عشر شهرا من بابويته كان قد خضع مرة تلو مرة لضغوط فيليب. فلقد برأ الملك من خطيئة ابتزاز المال من الكنييسة؛ وأعاد الكرادلة الذين فصلهم بونيفاس؛ ونصب عشرة كرادلة جدد، تسعة منهم فرنسيين؛ ومنع الفلمنكيين من التمرد ضد فيليب؛ ووافق على ألا يلزم فيليب أو أى من نسله بقسم لحرب صليبية إذا ما تطلبت سلامة المملكة ذلك. ولم يكن هناك سوى أمرين قاوم فيهما فيليب: تبرئة دى نوجارى، ومحاكمة بونيفاس بعد وفاته.

وإذا كان فيليب لم يصر على هاتين النقطتين، فما ذاك إلا لأنه كان يركز طاقاته فى أمر آخر.

قبل ذلك ببضعة أسابيع حدث لقاء عاصف بين كليمينت وفيليب، أبلغ فيه الملك البابا الذى عقدت الدهشة لسانه عن سلسلة طويلة من الاتهامات البشعة فى حق جماعة الهيكل - وهى اتهامات زعم فيليب أنها مقدمة من شهود يعتمد عليهم، والتى، إذا صحت، تكون تهديدا لأوربا كلها، وتهديدا لوجود الكنيسة ذاته. وحتى إن لم تكن صحيحة، فهى شديدة الخطورة حتى أن فيليب يعتقد أنها تستحق تحقيقا كاملا. ومثل هذا التحقيق لا يمكن أن يجرى إلا براعية بابوية، بما أن فرسان الهيكل مسئولون أمام البابا فقط، وفيليب طلب أن يأذن كليمينت بتحقيق أو استقصاء كامل. أما كليمينت فلم يكن راغبا فى أن يذعن، جزئيا لأنه لم يستطع أن يحمل نفسه على تصديق مزاعم فيليب. ذلك أنها كانت شديدة الخيال حتى أنه لم يبد أمامه سوى تفسيرين ممكنين: أما أن فرسان الهيكل كانوا جزءًا من الخيانة الكبرى للمسيح منذ قبلة يهوذا، أو أن فيليب المهووس بعرشه "الذى منحه الرب" على وشك الجنون. وفى كلتا الحالتين، إذا ما استسلم كليمينت للملك الظالم، ستكون العواقب مرعبة. وإذا ثبتت التهم، سوف يوضع الخاتم على سلطة فيليب باعتباره "أكثر الملوك مسيحية" والمدافع عن الكنيسة. ولكن إذا برئ الفرسان المقدسون، فماذا بعد؟ سيكون هذا الانتصار انتصارا لهم وليس للكنيسة؛ وبجيوشهم المدربة ومعاقلهم الموجودة فى كل مكان، يمكنهم بسهولة شن حرب انتقامية والسخرية من الملك الفرنسى: ويعلم كليمينت أن فيليب إذا ما وضع فى الزاوية، يمكنه أن يقاتل بشراسة الفأر ومكر الثعلب.

لم ير كليمينت سبيلا لتحاشى وقوع الكارثة؛ وبالنسبة له شخصيا، فإن المحنة أكثر شدة وبترا. فمهما بلغ من كراهيته حاليا لفيليب، فهو مدين للملك بعرشه البابوى؛ وإذا ما خذل فيليب أو انهزم، وإذا ما رفض كليمينت هذه المزاعم باعتبارها هراء، فيمكن إفراغ هذا العرش بنفس المهارة التى تم ملؤه بها. الخطف، السم؛ كانت ذكريات سلفيه تسيطر على عقله.

ورفض أن يعطى الملك إجابة محددة على الفور، واحتاج ذلك منه قدرًا كبيرا من الشجاعة، وقرر الانتظار إلى أن يتشاور مع معلم الهيكل بشكل شخصى. ومن الممكن

أن فيليب لم يتوقع أكثر من ذلك فى هذه المرحلة؛ فهو يعرف حجم كليمينت. وكان لديه هو ومحاموه عمل يجب إتمامه، لذا عاد إلى باريس، واستقبل جاك دى مولى بالفخامة والمراسم دون أية إيماءة تنم عن الشك.

حين رأى كليمينت دى مولى فى بواتيى، لا بد أنه كان مهتزا أكثر من ذى قبل، لأن المعلم بدا راضيا وسعيدا بوجوده فى فرنسا، على عكس تذمره المعتاد. فقد جاء مستعدا بأجوبة عن الأسئلة المتعلقة بتوحيد الجماعتين، وشن حرب صليبية ذات أهداف محدودة؛ غير أن كليمينت لم يكن فى حالة مزاجية تسمح له بأن يستمع إليها فى ذلك الحين. وأخبر المعلم بكل ما حدث. فشعر دى مولى بالغضب والإهانة. حتى أقل الأشياء التى زعمها فيليب لم تكن حقيقية، وهى أن نقل الكنز من قبرص يشير إلى أن الجماعة على وشك التخلى عن الشرق كلية والعمل فى أوربا فقط. ومع ذلك، فإن حنق دى مولى لم تكن له فائدة للبابا مع أنه أمر يلقى الترحيب. وما لم يسحب فيليب ادعاءاته، سيكون لا بد من فعل شىء ما؛ لذا عزم كليمينت على الانتظار مرة أخرى، وهو لديه أمل واهن فى أن التأخير ودعمه الصريح للجماعة قد يقنعا فيليب بتغيير رأيه. وعاد دى مولى إلى باريس دون أن يقدم أجوبته وهو يشعر بالحيرة أكثر من شعوره بالخوف، وهناك عقد اجتماعًا عامًا. عقد هذا الاجتماع فى ٢٤ يولية؛ وكان سريا، كالمعتاد، ولا يوجد تقرير عما قيل أثناءه. ولكن بعد ذلك بوقت قصير، تم إرسال منشور إلى جميع المقار فى فرنسا، تتكرر فيه القطعة الموجودة فى ميثاق فرسان الهيكل التى تمنع أى أخ من التحدث عن طقوس وممارسات الجماعة مع أى شخص خارجها؛ وفى قرابة نفس التوقيت، سمع الأخ هيو دى بيرو، ذلك الشخص الزميل للبلاط الملكى يقول إن أى فارس من فرسان الهيكل لديه سبب يدفعه إلى ترك الجماعة، عليه أن يفعل ذلك بسرعة، لأن مصيبة مخيفة على وشك الوقوع.

عاد دى مولى من باريس إلى بواتيى مرة أخرى، وبدا عليه أنه متأكد من أن إنكاره غير الحاذق المباشر كان كافيا لتبديد أية شكوك. وفى هذه المرة قدم للبابا مذكرتين. كانت الأولى رفضًا مقتضبًا لفكرة دخول حرب صليبية مع القبارصة

والأرمن – إذ ليس فى وسع القبارصة سوى تقديم جيش صغير، والأرمن لا يعول عليهم. وفوق ذلك، فبعد محاولاته الشخصية فى الحروب المحلية، يرى أن الحرب الصليبية المحدودة لن تكون لها فرصة فى النجاح الدائم؛ وأن الاندفاعة الكبيرة هى الطريقة الوحيدة لاسترداد الأراضى المقدسة، وفى المناخ الحاضر للسياسة فى الرأى الأوربى، من غير المحتمل أن يتحقق ذلك فى المستقبل القريب.

أما المذكرة الثانية، فقد تناولت مسألة توحيد الجماعتين. وكان يشعر بأن هذا غير مرغوب فيه تماما مثل القيام بهجوم محدود، واستفاض فى شرح أسبابه. وتذكر أول مرة قدم فيها هذا الاقتراح، فى عام ١٢٤٧، وذكر كيف أن رفضه كان حينئذ يرجع إلى معارضة ملك إسبانيا. وقال إنه، الآن، لا يرى سوى نقطتين فى صالحه: من المؤكد أنه يمكن تفعيل الاقتصادات ذات الوزن، وأن الجماعة المندمجة يمكن أن تكون قوية جدا حتى أنها تستطيع مقاومة أى تدخل علمانى أيا كان. ومع ذلك، فإن النقاط التى لا تحبذ الاتحاد عديدة جدا. كان هناك جانب روحى؛ إذ لا يكون من الصواب إجبار رجل اختار طريقة معينة فى الحياة أن يتخلى عنها من أجل طريقة أخرى. وهناك الجانب الإنسانى؛ وقال من المعروف أن فرسان الهيكل أكثر شجاعة، من الإسبتاليين، وإذا أجبرت الجماعتان على الاتحاد، من السهل أن يبدآ فى قتال بعضهما بعضا، غيرة منهما على سمعتهما. وهناك الجانب الإدارى؛ لأن الاتحاد سوف يعنى ملء المناصب الرسمية مرتين، وسأل كيف يقرر أى الرجلين سوف يبقى، وأيهما تخفض درجته؟ وكان مضمون ما يقوله أنه، شخصيًا، من المؤكد أنه لن يتخلى عن منصبه عن طيب خاطر. ثم هناك مشكلة ازدواج الملكية؛ لأنه إذا كانت للجماعتين دور فى مدينة واحدة، سيكون على شخص ما أن يقرر إن كان أحد الدور أو دار آخر سوف يتم إغلاقه، أو إذا كان سيتم الاحتفاظ بالاثنين. لقدٌ كانت مثل هذه التغييرات البالغة القوة بعيدة عن فهم الرجل العجوز. ومن الواضح والطبيعى أنه كان ضدها منذ البداية، ولا يبدو أنه فكر مليا فى صياغة مذكرته؛ ذلك إننا إذا سلمنا بأن جميع تعليقاته كانت دقيقة فى حدودها، فليس من الحكمة الإقرار بأن جند المسيح

يمكن أن يكونوا من التفاهة بحيث يقتل بعضهم بعضا غيرة منهم على إمارات الشرف الدنيوى، أو أنه هو نفسه متكبر للغاية حتى أنه لا يقبل التخلى عن مكانته لشخص آخر. لكن الجواب قد أعطى، وقبله كليمينت؛ وبعد ذلك بقليل، تم إرسال نسخ من المذكرة إلى الملك فيليب.

كان كل شىء هادئًا لبضعة أسابيع. وكان كليمينت يصد مطالبات فيليب المستمرة من أجل إجراء تحقيق؛ وفى ٢ أغسطس، وردا على طلب من فرسان الهيكل الإنجليز، أرسل مرسوما بابويا إلى إدوارد الأول، يعفيهم فيه من عشور فرضها الملك الإنجليزى. وليس هذا فحسب، بل أن كليمينت أشار إلى فرسان الهيكل بإنهم "أبناؤه الأعز" ووصفهم بأنهم فرسان المسيح الشجعان، إنهم رجال اعتادوا على تحمل كل خطر دفاعًا عن الأماكن المقدسة فى البلاد المسيحية.

كان رأيه واضحًا، وكان يمكنه الاستمرار فى استراتيجية المقاومة السلبية، إلى أن يجبر فيليب على التغير بطريقة أو أخرى - وكان ذلك ممكنا لولا أن دى مولى قام بالتحرك التالى.

إن إحساس الشخص بأنه يقع تحت شك خفى، فى حين لم يقل أو يفعل أى شىء صريح، كان أكثر من تحمل المعلم. فقام بزيارة أخرى للبابا، وفى ٢٤ أغسطس كتب كليمينت رسالة تعسة إلى الملك فيليب. إذ إن جاك دى مولى قد نال ما يكفيه من الأكاذيب المهموسة والافتراءات؛ وإذا كانت هناك اتهامات ضد جماعته، فيجب أن تقال فى العلن. وهذا السلوك السرى الخفى لا يطاق. ذلك أن دى مولى كان على ثقة من أن أية اتهامات لا أساس لها، ويمكن إثبات خطئها، وتتم تبرئة الجماعة؛ فطلب تحقيقا رسميا. إذ قال كليمينت للملك "هناك الكثير مما يبدو مستحيلا، حتى إننا لا نصدقه". لكنه وعد فى البدء بإجراء تحقيق.

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع بالضبط، فى ١٤ سبتمبر، كان فيليب فى دير موبويسوين بالقرب من بونتواز، على بعد بضعة كيلومترات شمال باريس. ومن هناك أصدر

تفويضا إلى جميع نظار الأراضى التابعين له، وحكام الأقاليم، والمندوبين وغيرهم من المسئولين، فى أنحاء المملكة. وتم وضع الخاتم على التفويض، وحمل تعليمات بألا يتم فتحه حتى ليلة ١٢ أكتوبر. وفى ٢٣ سبتمبر، بعد صدور التفويض بتسعة أيام، أعطى فيليب لدى نوجارى منصبا جديدا. كان ما يزال محامى المملكة الأول؛ لكنه كان ما يزال محروما من الكنيسة. والآن أصبح أيضا مستشار فرنسا؛ وحارس خاتم الملك - إنه شخص مبعد عن الكنيسة يحتل أعلى منصب فى المملكة، يلى الملك من حيث السلطة. وفى أوائل أكتوبر، توفيت زوجة أخ الملك فيليب، كترين دى فالوا. وتمت جنازتها، وهى مناسبة تخص الدولة، فى ١٢ أكتوبر، منح معلم الهيكل الشرف الرمزى بأن يكون أحد حاملى كفنها؛ وعند الفجر فى اليوم التالى - الجمعة ١٣ أكتوبر - قام رجال الملك بالقبض عليه وجميع فرسان الهيكل الآخرين [الخمسة آلاف] فى طول فرنسا وعرضها.

الجزء السادس

المحاكمات ١٣٠٧-١٣١٤

الفصل الخامس عشر

ابتداع البراءة

فرنسا، ١٤ أكتوبر ١٣٠٧، ٧ أبريل ١٣١٠

لسانك يخترع المفاسد؛ كموسى مسنونة يعمل بالغش.

مزمور ٥٢، ٢

في بداية القرن الرابع عشر كانت جامعة باريس شهيرة في أنحاء أوربا بوصفها مركزًا للعلم والجدال العميق، وكانت مكانا يتم فيه تحليل مسائل اللاهوت والسياسة والقانون والإجابة عنها - ولم يكن ذلك بطريقة نظرية، وإنما بتطبيقات عملية في حياة الناس اليومية.

وكان الملوك ورجال الدولة والكنيسة يذهبون إلى هناك لطلب المشورة في أمور بالغة الأهمية. وكان الأكاديميون يعطون تفسيراتهم لكلمات الكتاب المقدس، وآراءهم في مشكلات الدولة أو الدبلوماسية، ودعمهم للقوانين الجديدة إذا رأوا أنها صحيحة. ودون هذا الدعم لم تكن لتشريعات الدولة أو الكنيسة أي فرصة في القبول أو البقاء. ولهذا السبب، ففي يوم السبت ١٤ أكتوبر ١٣٠٧، استدعى ويليام دي نوجاري كبار أعضاء الجامعة إلى اجتماع في حجرة الاجتماعات في كتدرائية نوتر دام. تم اختيار الموقع اختيارا جيدا، بحيث يعطي تأكيدا على الطبيعة المقدسة للحديث الذي أعده؛ لأن غرض دي نوجاري أمام هؤلاء العلماء والمختصين في الشئون الدينية والدنيوية، هو

الإعلان عن أن جماعة فرسان الهيكل جميعا من المبتدعين، والفاسدين. ذلك أن القبض على فرسان الهيكل فى الليلة السابقة أحدث صدمة ودهشة لدى الجميع فى فرنسا. وصارت العملية كلها تقريبًا دون خدش؛ ومن بين خمسة آلاف من فرسان الهيكل، لم يتمكن سوى عشرين تقريبا من تجنب الاعتقال. ووضع كل من ألقى القبض عليه فى حجز انفرادى؛ ولم يكونوا قادرين على الاتصال بإخوانهم أو أصدقائهم أو أقاربهم أو أى شخص من ذلك العالم الذى انتشلوا منه. إذ إن السرية كانت تامة؛ وجرى العمل فى نفس الوقت فى أنحاء المملكة. ولا بد أن دى نوجارى كان يشعر بالاعتزاز والرضا عن كفاءة قدرته التنظيمية. أما بالنسبة لغيره فقد كانت مبهرة على نحو يثير الرعب. إذ يصعب تحدى مثل هذا العمل الكبير الرهيب من حيث مهارته، خاصة كحقيقة مؤكدة؛ ولكن ما لم يتم فعل شىء آخر، فإن دى نوجارى والملك فيليب كانا يعلمان أن الانتقاد سرعان ما يحدث حين يذوى أثر الصدمة، سيما وأن فرسان الهيكل من رجال الكنيسة. والاعتقال بهذه الطريقة يعد تناقضًا مباشرة لكل حق من حقوق الحصانة الكنسية؛ فكانت مهمة دى نوجارى هى إثبات أنهم لا يستحقون هذا الحق أو أى حق غيره.

حين كان يقف أمام تجمع الأكاديميين، لم تكن لديه أية توجسات؛ فبعد أن أثار الفزع فى قلوبهم، كان على ثقة من أنه سوف يستطيع التغرير بعقولهم، لأنه كان بارعا فى استخدام اللغة. وهو الذى كتب تفويض موبويسون، مع أن فيليب هو من وقعه؛ وكل كلمة فى هذا التفويض قصد منها وضع فرسان الهيكل فى وضع لا يستحقون معه أى تعاطف إنساني من الناحية الروحية أو الأخلاقية.

كانت بداية التفويض تقول: "بفضل تقارير عدة أشخاص جديرين بالثقة وصل إلى أسماعنا، شىء بشع، شىء يثير الأسى، شىء يثير الرعب عند التفكير فيه، والرهبة عند سماعه إنها جريمة مقيتة، وشر شنيع، وعمل بشع، وعار يثير الاشمئزاز، شىء لا يكاد أن يكون إنسانيًا، بل هو غريب عن البشرية جميعا، دهمنا بعنف، وجعلنا نرتعد رعبا".

بالنسبة للبسطاء، من أمثال حكام الأقاليم، ونظار الزراعة، في المملكة، وهم يقرءون مثل هذا النص في الساعات المظلمة من صباح اليوم الثالث عشر لا بد أن ذلك بدا نذيرا بقضاء إلهي، وكشف رهيب لخطايا خفية. ولم يتناول الأمر أشباحا أو عفاريت، أو كوابيس تخيف الأطفال، بل تناول أناسا يعرفونهم، أناسا في قريتهم أو مدينتهم؛ لذا حين شجعهم ضوء النهار، انطلقوا في الفجر بشجاعة وإحساس بالحق كي يلقوا القبض على جيرانهم، فرسان وخدم الهيكل، وهم مسلحون بعلمهم بأن هؤلاء الرجال قد اقترفوا أبشع الأعمال التي يمكن تخيلها في حق المسيح والرب. ولدى دخولهم الهيكل، كان كل فرد في الإخوان قد أنكر المسيح وبصق على صورته. وأخذوا يقبل بعضهم بعضا، في الفم، والسرة والأست، وانخرطوا بعد ذلك في مجون من الجنسية المثلية؛ وأخيرا انحنوا جميعا أمام صنم معبود على هيئة رأس إنسان، وعبدوه كما يعبد الإله.

لم تقع أية مقاومة حين تم القبض على فرسان الهيكل؛ كما لم تكن هناك أية مقاومة في كتدرائية نوتر دام حين كرر دي نوجاري فحوى التفويض على سامعيه من العلماء. إذ لم يكن في وسع رجال الجامعة سوى الإذعان وقبول النبأ في صمت حين أذهلتهم بشاعة الاتهامات؛ وقد أعلن دي نوجاري أن كل شيء سوف يدعم حالا بالاعترافات الصريحة والتلقائية التي يتلقاها رجاله في هذه اللحظة من أكبر المسئولين في الهيكل.

ومر أحد عشر يوما. وفي ٢٥ أكتوبر اجتمع الأكاديميون مرة أخرى، هذه المرة في القاعة الكبرى في هيكل باريس. وتم إحضار خمسة رجال من السجون في أسفل - أربعة من فرسان الهيكل، والمعلم جاك دي مولي. وتكلم دي مولي باسم الرب، نيابة عن جميع إخوانه، مستخدمًا اللغة الأم (يقصد الفرنسية وليس اللاتينية: المترجم) حتى يفهم الجميع بوضوح ما يقوله، معترفا بأن جماعته، على الرغم من أنها كانت في وقت من الأوقات نبيلة ومقدسة .... إلا أن دهاء عدو البشر، الذي يبحث دائما عن ما يستطيع أن يلتهمه، أدت به إلى أن يسقط في الضياع، حتى أنه منذ وقت طويل أنكر

من استقبلوا فى الجماعة سيدنا يسوع المسيح، فأدّينا، لدى استقبالهم، دون أن يحزنوا على فقد نفوسهم وبصقوا على الصليب مع تمثال صغير ليسوع المسيح ... ازدراء له، وارتكبوا فى الاستقبال السابق ذكره فظائع أخرى بنفس الطريقة".

وأضاف "برحمة الله، قد ظهرت هذه الأشياء فى العلن، عن طريق أكثر الملوك مسيحية الملك فيليب، وكيل النور، الذى لا يخفى عليه شيء". ورجا سامعيه بأن يتوسطوا لدى الملك والبابا كى يتم العفو عنه هو ورجاله الأشرار النادمون، من خطاياهم ويتحملوا عدالة الكنيسة.

وأحس العلماء الموجودون فى الهيكل، ثم بعد ذلك جميع الناس فى أنحاء فرنسا بالاشمئزاز والخوف، والاختناق النفسى بمجرد التفكير فى التحول الذى يجرى حولهم حين استمعوا للاعترافات وهم فى حالة من الدهشة.

وكتب دى مولى خطابا مفتوحا إلى إخوانه، وأصدر إليهم التعليمات بأن يعترفوا بجميع ممارساتهم الشريرة كما فعل هو؛ وتدفقت الاعترافات. وفى خلال أيام قليلة تم الإدلاء بثمان وثلاثين اعترافًا فى باريس وحدها، وما يربو على المائة فى الأسابيع القليلة التالية. وتكرر هذا النمط فى كل مكان، مع إقرار الفرسان، والرقباء والإخوة الخدم والكهنة بالفساد والذنب. وقام هيو دى بيرو، أمين خزانة الهيكل بالإدلاء بأكثر الاعترافات جميعًا شمولا، لأنه لم يمر فقط بالاستقبال الدنس. ولكنه هو نفسه استقبل الكثرين فى الجماعة بالطريقة نفسها؛ وأنه "رأى وأمسك وعبد وثنا" على هيئة رأس، إنه وثن جلب على فرسان الهيكل كل ما تمتعوا به من قوة دنيوية، وثراء مما جعل الأشجار تزهر وأن تكون الأرض خصبة، وتجلب الموت لأعدائهم. فكتب الملك فيليب سلسلة من الرسائل إلى ملوك البلدان المجاورة "كى يستيقظوا من أجل العقيدة" وأخطرهم بسير الأحداث. أن كل ما قيل عن فرسان الهيكل حقيقى؛ ولا بد أن يكون كذلك، لأن الناس لن يعترفوا بأشياء لم يفعلوها. ولا شك فى أنه فى نحو الشهر التالى سيتم إكمال العملية غير المستساغة وإن كانت ضرورية، ويتم التنديد بالجماعة وحلها، مما يريح جميع الأطراف المعنية - بما فى ذلك فرسان الهيكل أنفسهم، لأنهم لعنوا

أنفسهم، وهم الآن بكل تواضع يسعون إلى الندم، والعفو والصلح مع الكنيسة. ومن سوء طالع فيليب أن جيرانه من الملوك لم يصدقوا أنه يقول الحقيقة. إذ إنه قد يكون حفيد أحد القديسين، ولكن الجميع كانوا يعلمون الطريقة التى حكم بها حتى الآن - فقد حكم عن طريق الحرب، والضرائب الخشنة، وكثرة تخفيض قيمة العملة؛ وكان الاختطاف الذى وقع فى أنانيى معروفا للجميع وكذلك نفوذ فيليب فى انتخاب البابا كليمينت. باستثناء تلك العوامل، كان سبب اعتراف فرسان الهيكل المذهل واضحا؛ ذلك أن كل شخص فى البلاد المسيحية كان يعرف محاكم التفتيش، وتصادف أن كاهن الاعتراف لدى فيليب قاضى التفتيش العام فى فرنسا. ومحاكم التفتيش - أو لنذكر اسمها ولقبها الأكثر رسمية وتشخيصا، المكتب المقدس - كانت محكمة فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من أجل الكشف عن الابتداع وقمعه وعقابه، وعدم الإيمان وغير ذلك من المخالفات التى ترتكب فى حق الدين. وتم إنشاؤها كمحكمة دائمة عام ١٢٤٨ بواسطة البابا أنوسينت الرابع، وكان الدومينيكان يقومون دائما بإدارتها. وسرعان ما أعطاهم تطبيقهم القاسى لطرقها المقررة رسميا اسماً جديداً يلعب على اسمهم القديم؛ فأصبحوا يسمون "كلاب الرب" (بالترجمة اللاتنية للاسم الذى به التورية: المترجم).

لا يوجد الكثير من الابتكارات البشرية مما ينافس المأزق المزدوج التى ابتكرتها محاكم التفتيش. ذلك أن مقدمتها الأساسية هى لم يتهم أحد قط بلا ابتداع دون سبب وجيه، وكل شخص يمكنه أن يتهم كل شخص آخر بالابتداع ما عدا المبتدع المتهم، الذى لا يمكن الثقة به، سواء ثبت ابتداعه أم لم يثبت. فالمتهم مذنب حتى تثبت براءته بدلا من أن يكون بريئا حتى تثبت إدانته؛ لذا كان من النادر جدا أن تثبت براءة شخص يتهم بالابتداع. وأفضل ما يمكن أن يأمل فيه المتهم هو أن يمر بعملية الاعتراف والندم - حتى لو لم يكن لديه ما يعترف به - ويأمل فى التصالح تحت تأثير الندم. وقد يكون الندم مجرد دفع غرامة، وقد يذهب إلى حد السجن مع الالتزام بنظام غذائى عبارة عن الماء والخبز. أما المتهمون الذين يرفضون الاعتراف أو يعترفون ثم

يتراجعون فى اعترافهم، فإن الكنيسة تحرمهم، ويقدمون للسلطة الدنيوية من أجل توقيع العقاب الزمنى الدنيوى. وهذا معناه أن تصادر الدولة ممتلكاتهم؛ ويتم منع ورثتهم لجيلين من تولى المناصب العامة؛ أما هم أنفسهم فيتم إحراقهم. وإذا وأتاهم الحظ، فيتم خنقهم على العمود الخشبى؛ أو يحرقون وهم أحياء.

ومن المستحيل على أى شخص يتهم بالابتداع أن يدافع عن نفسه دفاعًا قانونيًا؛ بسبب افتراض ارتكاب الذنب؛ ذلك أن أى شخص يرتبط به أو بها يصبح تلقائيا محل شك هو أيضًا. ويكاد الدفاع الوحيد المتاح أمام المتهم هو أن يقدم قائمة بأسماء أعدائه المعروفين، أملا فى أن يتفق أحد الأسماء فى هذه القائمة مع اسم متهمه. وحتى إذا حدث ذلك، عليه مع ذلك أن يثبت براءته - أى عليه أن يعترف ويتم التصالح؛ وإن لم يعترف لأى سبب، فإن المكتب المقدس يملك السلطة فى استخدام طرق عدة لإقناعه بخطئه الذى قد لا يكون له وجود. والطرق الأكثر فظاظة كانت مختلفة. ذلك أن المتهم قد يقيد ببساطة، وتحشر قطعة من القماش فى فمه. ثم يصب الماء أما فى قطعة القماش، مما يجعلها تنتفخ، أو تصب فى فتحات أنفه. قليلا قليلا، وسوف يغرق على أرض جافة. أو يوضع فى حفرة لا تتسع إلا له بالعرض، ويترك ليجوع حتى يفهم ويقر بما ارتكب من ابتداع. وثمة طريقة أكثر تكلفة، وهى أن يوضع فى خشبة الشبح ويتم شده وشبحه إلى أن يخرج فخذاه وكتفاه من أماكنها. وقد يوضع ببساطة فى حديد، وحول رسغيه وكاحليه ورقبته القيود؛ وقد تلطخ قدماه بالدهن وتعرض لنار متوهجة؛ أو، إذا كان يتسم بالعناد، يتم وضعه فى آلة الإسقاط. كان هذا الاختراع القبيح ببساطة عبارة عن حبل وبكرة سير. وكان ذراعا الضحية توضع خلف ظهره ويقيد معصماه معا. وفى هذا الوضع، يتم رفعه إلى أعلى ارتفاع ممكن فى الهواء. ثم يتم إرخاء الحبل بحيث يسقط مندفعا نحو الأرض؛ لكن يتم إيقاف السقوط قبل أن يضرب الأرض، بحيث يقع أكبر قدر من الضغط على كتفيه وذراعيه. ويوجد تعديل اختيارى على هذا بتعليق أثقال من كاحلى المبتدع المفترض أو سرته، أو من أعضائه التناسلية إذا كان رجلا.

كانت جميع هذه الطرق وغيرها تستخدم لانتزاع اعترافات من فرسان الهيكل المسجونين فى فرنسا. ولكن لم تكن جميع أنواع التعذيب بمثل هذه الفظاظة؛ ذلك أن دى نوجارى ومعاونيه طوروا المزيد من الطرق الأكثر تعقيدا، أقرب إلى طرق التحقيق "الحديث." إذ يتعرض الضحية إلى أسئلة لا تتوقف عن طريق تتابع من الرجال المدربين على القيام بأداء هذا الفن؛ ويتم تشويه الأجوبة، ويمنع الضحية من النوم، أو التبول أو إفراغ أمعائه؛ ويتم احتجازه انفراديا ويبلَّغ بأن أى أصدقاء له تم اعتقالهم بنفس الاتهامات قد اعترفوا؛ وحين يبدى علامات على الانهيار يدخل محقق جديد، بأسلوب متعاطف ودى، ويغرى السجين بالاعتراف لمصلحته. وعن طريق التطبيق الحكيم لهذه الطرق الفنية، يمكن جعل أى شخص تقريبا يعترف بأى شىء؛ أما من يتحمل هذه الصنوف من التعذيب حتى الموت، الذى سيكون خرجه الوحيد، فهذا يندر وجوده حقا. وكانت الاعترافات يتم الحصول عليها عن طريق الإرهاب فحسب، وذلك يتم عن طريق عرض آلات التعذيب على المتهم. وقد يجبر على مشاهدة تعذيب متهم آخر؛ وإذا لم يكن ذلك كافيا، يمكن تحقيق النتيجة المرغوبة عن طريق تعذيبه تعذيبا مؤلما. وفى بعض الحالات، يعتقد أنه من غير الملائم سياسيًا أن تظهر على المسجونين جروح بادية للعيان؛ عندئذ، يتم استخدام الطرق الأكثر دهاء، فيقر الضحية، بسبب ما يتعرض إليه من ألم ويحرم من احتياجاته كمخلوق، بأى ذنب ينسب إليه، – ويصدق أنه مذنب.

إن كلمة غسيل المخ تعد من ألفاظ عصرنا؛ غير أن طرقها الفنية، والظاهرة فى حد ذاتها قديمة، وهى ابن السفاح الذى أنجبه المكتب المقدس. وهنا يكمن الفزع الأعمق من محاكم التفتيش؛ لأن من أمروا بعمل هذه الأشياء، إن لم نقل من نفذوها، قد أمروا بها باسم المسيح، وحبا فى الله، وإيمانا منهم بكل إخلاص أنهم، وحدهم، على صواب وأن أفعالهم مسيحية، وكانت من أجل صالح نفوس ضحاياهم. لقد أعلن أحد فرسان الهيكل بعد أن اعترف أن من عذبوه كانوا فى حالة من السكر التام؛ وربما يكون فى حالة جيدة، إذا كان لديهم بالإضافة إلى اعتقادهم الدينى، أية مشاعر

إنسانية على الإطلاق. كما تعد كلمات أخ آخر، فى قرابة الخمسين من عمره، مثالا على الهزيمة الروحية التامة، والذل الذى تسببه هذه التجارب فى أى شخص عادى؛ ذلك أنه قال: "آه، إن الأخطاء التى نسبت للجماعة حقيقية، وأنه (يمكن أن يعترف بذلك)، قتل الرب، إذا طلب منه ذلك". أى شىء - فقط توقفوا، ودعونى أعيش. من الجائز أن تكون الطرق التى استخدمت مع دى مولى لإقناعه بأن يدلى باعترافه الأولى من النوع الأكثر دهاء وعمقًا، لكن اعترافه لم يكن ناقصا بأى حال، وعلى ما يبدو ليس أقل إخلاصًا، بسبب هذه الطريقة. غير أن الدعم والتقبل السهل الذى توقعه فيليب من الملوك الآخرين لم يظهر. ذلك أن إجابات جيمز ملك أرجون، وإدوارد ملك إنجلترا على الرسائل التى بعث بها فيليب محفوظة؛ وكلا الملكين - وعلى الأخص جيمز، الذى تمت فى بلاده أعمال إحراق الناس وهم أحياء أو قانون العقيدة، وهو أبلغ مظهر لقسوة محاكم التفتيش - هذا الملك كان يعرف المكتب المقدس معرفة جيدة ولم يكن أى منهما يميل إلى تصديق الافتراءات التى قيلت عن فرسان الهيكل، حتى حين دعمت ظاهريا بلا اعترافات. إذ كتب إدوارد ببساطة أنه يجد أن هذه الاتهامات "أكثر مما يمكنه تصديقه" أما جيمز فبعد أن عبر عن "ليس فقط الدهشة والقلق" أضاف "أن هؤلاء الرهبان كثيرا ما قدموا خدمات عظيمة ومطلوبة لأجدادنا فى رفعة العقيدة وقمع أعداء الصليب، ولم يخشوا نزيف الدماء أو الموت، ومات منهم كثيرون ... ولأن الكنيسة لم تطلب منا ذلك، ولم نلاحظ أشياء أخرى فى هذا الشأن، فلم ولن نستطيع التحرك ضدهم".

ومع ذلك، كان فيليب لديه أمل فى خريف عام ١٣٠٧ فى إنهاء الاضطراب الذى أطلقه من عقاله. ذلك أن وزن اعترافات فرسان الهيكل أيا كانت الطريقة التى تم الحصول بها عليها، وسيل الدعاية المتدفق من قلم دى نوجارى الفصيح، كان أكبر من أن يسمح بعدم التصديق، على الأقل بالنسبة لغالبية الفرنسيين. وكل ما كان مطلوبا هو موافقة البابا وحل الجماعة رسميا. وكان من الممكن الوصول إلى نوع ما من الحل غير القائم على المبادئ لهذا الموضوع الآثم كله؛ ولكن على غير توقع مطلقا - وبكل

شجاعة - أكد فجأة البابا كليمينت على حقوقه، فى هذا الشأن. وكان رد فعله المسجل الأول هو كتابة رسالة، بتاريخ ٢٧ أكتوبر، موجهة إلى فيليب، كانت تمتلئ حنقا وتتسم بالصواب حتى أن فيليب نفسه، اضطر إلى أن يأخذها على محمل الجد. وقد بدأها كليمينت بالتأكيد على حق البابوية الأصيل فى قيادة الكنيسة والحكم عليها، وندد بتحدى فيليب المجترئ فى القبض على فرسان الهيكل. وقال، "إن هذه الأعمال مثار دهشة وألم وحزن لنا، لأنكم دائما ما وجدتم فينا إحسانًا وصلاحًا إذا ما قورنا بغيرنا من الأحبار الرومان الذين رأسوا الكنيسة الرومانية فى زمانكم". حتى فيليب نفسه اضطر إلى الاعتراف بما فى هذه الملحوظة من عدالة، ومع ذلك، "ارتكبت هذه الأفعال فى حق أشخاص وممتلكات أناس يخضعون مباشرة لكنيسة روما" وأسوأ ما فى الأمر، "بفعلك هذا، الذى لم يكن له أى داع، يرى الجميع، إهانة لنا ولكنيسة روما". ومس كليمينت الموضوع فى الصميم، بطريقة لا يمكن لأحد غيره، كبابا أن يفعلها؛ فقد فضح عدم قانونية عملية الاعتقال، وبين أنه لم ير فى تصرف فيليب هجوما على فرسان الهيكل فقط وإنما هو أيضًا على الكرسى المقدس. واتبع رسالته بمرسوم بابوى فى ٢٢ نوفمبر أمر فيه جميع ملوك البلاد المسيحية بأن يحذوا حذو فيليب ويلقوا القبض على فرسان الهيكل فى بلادهم؛ لكن هذا يتم باسم البابوية. غير أن هذا لا يعنى أن كليمينت مستعد لقبول ذنب فرسان الهيكل على أنه نتيجة مفروغ منها، لأنه إذا ما اتضح أن المقدمات ليست حقيقية، وتم اكتشاف ذلك، سيعم الفرح؛ ولهذا السبب نقترح التحقيق فى الأمر دون إبطاء".

لقد شكل هذا التدخل تحولا تامًا فى إجراءات المحاكمات. ذلك أن كليمينت وضع نفسه فى وسط القضية؛ وأى شىء يقع بعد ذلك لا بد أن يتم بالرجوع إليه. وعن طريق تحمل مسئولية المحاكمات نفسها، تمكن من تثبيت تفويضه فى التقصى، بنية جمع أدلة جوهرية - أى أدلة تقوم على مقابلات تخلو من التعذيب.

وفى ديسمبر عام ١٣٠٧ أرسل كليمينت اثنين من الكرادلة إلى باريس كى يبدأ التحقيق - وكانت بداية غير موفقة إلى حد ما، لأن الرجلين سألا قضاة التفتيش

ومستشارى الملك عن الحقيقة كما رأوها. فكانت الإجابة التى عادا بها إلى كليمينت هى أن جميع الاعترافات مقبولة وصحيحة. وعلى الفور أرسل كليمينت الكردينالين مرة أخرى إلى باريس بتعليمات محددة وهى مقابلة فرسان الهيكل أنفسهم. وفعلوا ذلك؛ ولا يمكن لتقريرهم الجديد أن يكون أكثر إثارة. ذلك أن جاك دى مولى وهيو دى بى، رو وستين فارساً غيرهم سحبوا ما أدلوا به من اعترافات.

فاحتدمت المعركة بين البابا والملك. وكان فيليب قد قطع شوطا بعيدا لا يسمح له بالانسحاب. ولم يكن ليقبل سوى النصر التام: وهو أن يعلن أن الجماعة مذنبة؛ وأن يتم حلها؛ وأن تأول إليه أراضيها وأموالها. وأى شىء أقل من ذلك لن يكون كافيا. ذلك أنه إذا ما ثبتت براءة فرسان الهيكل، سوف يسهل عليهم الانتقام. بل حتى إذا ثبت أن فرسان بعينهم مذنبون، ولكن الجماعة ككل لا غبار عليها، فهذا لن يكون كافيا؛ إذ أنه لو نجا أى فرع، عندئذ، سيكون فيليب عرضة للخطر، دائماً وأينما حل. عموما، كانت هذه هى الطريقة التى رأى بها الأمر؛ وفى هذه المرحلة، لم تكن النقود، والأراضى والحياة عرضة للخطر - بل كانت هناك المكانة أيضًا. فالكشف عن ابتداع دولى واجتثاثه سوف يضع فيليب على رأس البلدان المسيحية؛ وأى شىء آخر سوف يظهره على أنه قاطع طرق متصعب مجنون بالعظمة.

عند هذه النقطة يدخل زاحفا أحد أغرب جوانب المحاكمة. فقدرة الإنسان على خداع النفس هائلة، بل ربما تكون بلا حدود. ومن الممكن أن يكون فيليب حين أحس بأن الاقتناع الشخصى التام قد يكون الطريقة الوحيدة للتغلب على تحدى كليمينت، بدأ يقتنع بالفعل بأن فرسان الهيكل مذنبون. لقد قال إنهم مبتدعون، إذن فهم مبتدعون. إن مثل هذه الحركات البهلوانية العقلية ليست إلا شيئا عاديًا حين يتسم بها أحد قضاة محاكم التفتيش، لكنها حين تظهر بسلطة شبه دكتاتورية واعتقاد بالألوهية الشخصية فإن مزيجًا متفجراً قاتلاً مميتا يتشكل. ومن الصعوبة بمكان تنقية عقل فيليب؛ ومع ذلك، فإن أفعاله، بعد أن تراجع دى مولى عن اعترافاته، بها اتساق لا ينبع سوى عن ضمير هادئ واقتناع عاطفى قوى بأن جميع البشر كاذبون وخبساء.

فى فبراير من عام ١٣٠٨ أوقف كليمينت أعمال محاكم التفتيش فى فرنسا، مصمما على أن يتم جمع كل الأدلة، وأن تقدم وتقيم بأمانة وأنصاف. فبدأ فيليب بمساعدة عبقرية من دى موجارى مباشرة فى شن حملة دعائية ضد البابا. وفى الشهر نفسه، هرب أحد فرسان الهيكل القليلين الذين كانوا فى عهدة كليمينت من الدار التى كان محتجزا بها، معطيا عن غير قصد لرجال الدعاية فرصة مثالية. وبدأت توزع منشورات سوقية اللغة والمضمون مجهولة الأصل فى أنحاء فرنسا وتشير إلى الهرب باعتباره إقرارًا إضافيًا بالذنب، معلقة بأنه، إذا كان كليمينت لم يتمكن من الاحتفاظ بواحد من فرسان الهيكل أسيرا، فلا يجب أن يطلب التحفظ على آلاف آخرين (كما فعل)، وأخذت المنشورات توحى بأن البابا الذى يقف إلى جانب المبتدعين المعترفين ليس هو نفسه أفضل من المبتدعين. واختلط الانتقاد اللاذع لمحسوبية كليمينت المعروفة بتلميحات بأنه كان قد تلقى الرشى من فرسان الهيكل؛ وقد أعطت تعليقات حقيقية حادة قشرة من الصدق للأقوال الخيالية، وكانت كل هذه الأمور توضح بأمثلة من اقتباسات مختارة بعناية من الكتاب المقدس تؤكد على صلاح فيليب وانحطاط كليمينت.

لقد كان كليمينت عديم الحيلة فى مواجهة هذه الهجمات الخفية؛ إذ إنه كان مدربا على أن يكون محاميا، وليس كاذبا - وفى الدبلوماسية وليس فى الازدواجية. ومع ذلك فقد ثابر، مقرا عقيدته الدنيوية فى الشرعية وإيمانه الروحى بالسلطة. فواجه فيليب ذلك عن طريق تقديم سلسلة من سبعة أسئلة إلى محامى ورجال اللاهوت بجامعة باريس الذين كانوا يقعون تحت ضغط شديد، وهى أسئلة مصممة لتضخيم صحة أفعاله فى المجالين. واستغرق الأكاديميون شهرا كى يعدوا ويصيغوا ردهم؛ وحين جاء الرد لا بد أنه كان مصدر راحة فاترة لفيليب، ذلك أنه، على الرغم مما اتسم به من نبرة خانعة فإن "وكلاء الملك غير المهمين" كما أسموا أنفسهم، أخبروه بكل تواضع ولياقة (وربما خوفا على أرواحهم) بأنه لا يملك أساسًا قانونيًا أو دينيًا يستند إليه مطلقا. بل ما هو أكثر سوءًا من ذلك، أنهم أحسوا بأنه إذا ما تم حل الجماعة فلا توجد طريقة مشروعة أمام فيليب حتى يطالب بممتلكات الجماعة من سلع ومال وأراضٍ.

لم يكن ثمة شيء يجعل فيليب يلين، فاستدعى جمعية من كبار رجال الإقطاعيات. وكدأبه، لم يكن هذا هو البرلمان الديمقراطي كما يوحي اسمه، وإنما هو تنفيذ آخر للحكم الفردي المطلق. ففي أوائل مايو ١٣٠٨، تجمع نحو من ألفي ممثل عن النبلاء ورجال الدين والناس العاديين في تور، كي يصغوا على مدى أسبوع أو أكثر، إلى الخطب الحاذقة الرنانة التي كان يلقيها دي نوجاري ورهطه؛ وفي نهاية المحنة سجل الممثلون بكل آيات الطاعة موافقتهم القلبية ودعمهم لرأي فيليب بأن يموت فرسان الهيكل عقابا لهم على خطاياهم.

وحين أصبح فيليب واثقا من دعم رعاياه وهو يعلم أن كليمينت عملياً سجين في فرنسا شأنه شأن فرسان الهيكل، كما يعلم أن المشاعر نحو كليمينت عدائية، فقد سافر إلى بواتيي في نهاية مايو كي يلتقي بالبابا وجها لوجه. ولم يسافر وحده؛ بل صحبه أخوه، وأبناؤه وعدة بارونات وأساقفة وأناس عاديين بالإضافة إلى جيش صغير من الجنود، والرماة – وهذا استعراض للقوة على النقيض الواضح لعجز كليمينت أمام السلطة الزمنية. والتقى العاهل والحبر في عرض أجوف جلي الوضوح من التقدير المتبادل، وفي يوم ٢٩ جلسا معا في مجلس كنسي عام. كان هذا مجلسا من الكرادلة اجتمعوا معا للتداول في شئون الكنيسة؛ وعلى الرغم من أن كليمينت كان رئيس هذا المجلس، فإن هذا الاجتماع بالتحديد أصبح مجرد وسيلة يتم من خلالها الهجوم عليه صراحة من جانب الملك.

وكان المتحدث الرئيسي هو ويليام دي بليزان، وهو محام آخر من أتباع الملك. وسبقت حديثه صيحة المسيح يغزو، المسيح يسود، المسيح يحكم! وكانت هذه أعلى درجات استعراض القوة الإقناعية للغة الانفعالية، بادئا من أساس حقيقي غير محكم، ثم تقدم إلى وصف للانزعاج الذي أحس به الملك مما انكشف له من غدر، وتحليل للعمل الذي أجبر على القيام به على الرغم منه، ثم انتهى في خطابه إلى تهديد مباشر للبابا. لا يمكن لكاثوليكي صادق أن يأمل في أن يحبذ الابتداع عن طريق الشك في كلمة الملك؛ "ولهذا، يا أبانا المقدس، حين يطلب ملك هذه المملكة، وكبار رجال الدين بها

وباروناتها وجميع سكانها الانتهاء سريعا من هذا الموضوع، سوف يسرك القيام بذلك على وجه السرعة؛ وإلا سوف نضطر إلى التحدث بلغة أخرى إليك".

مما يثير العجب، أن كليمينت أصغى دون أى تأثر. لقد وجد هذا الرجل الخانع دائما فى مكان ما نبعا مهما من الشجاعة؛ فكان الجزء الرئيسى من رده هو أنه سوف يتخذ إجراءات ضد فرسان الهيكل "ولكن بأمانة ونضج، وليس باندفاع." فرفع دى بليزان النبابيت مرة أخرى، مشيرا إلى كليمينت على أنه متعاطف مع الهيكل، قائلا إن إبطاءه يلقى بظلال الشك على استقامة فيليب، ومرة أخرى مستعينا بأمثلة من الكتاب المقدس بين أن الملك يستطيع أن يتصرف باسمه إذا دعت الحاجة. بل أنه ألمح إلى إمكان خلع كليمينت إذا استمر فى عرقلة العدالة؛ غير أن كليمينت الذى حوله غضبه من اجتراء فيليب إلى رجل جديد، هز كتفيه بفتور وكرر قوله بأن القانون سوف يأخذ مجراه.

وفيليب، الملك، نصف الإله، كان يخشى القانون. وكان دائمًا يسعى حثيثا إلى إيجاد أساس قانونى نظرى يبرر به أفعاله. وعرف الآن أنه لا يملك هذا الأساس. ولم يكن هناك أى تأثير للترهيب؛ لذا حاول التوفيق. وبعد أن تنازل مسلمًا فبأن الإخوان يجب أن يكونوا تحت إشراف البابا، أشار إلى أن كليمينت ليست لديه الوسائل كى يحرسهم بشكل آمن، وافق على أن يتيح لممثلى البابا سهولة الوصول إلى فرسان الهيكل، فى حين يحتفظ هو بهم فى السجن. وهذا يعنى من الناحية العملية أن سيطرته عليهم لن تكون أقل إحكامًا مما كانت حين ألقى القبض عليهم؛ لكن كليمينت قبل هذا الحل التوفيقى. وفى الوقت نفسه أرسل فيليب اثنين وسبعين من الإخوان إلى بواتيى - جميعهم من الرجال المنتقين بعناية ويمكن الاعتماد عليهم فى أن يكرروا ما فى جرائمهم من جسامة بالكامل أمام البابا نفسه. وحين سمع كليمينت الاعترافات، بدا أنه يصدقها. ربما يكون فيليب قد فكر أن كل شىء على ما يرام حتى الآن؛ ذلك أنه وفر للبابا وسيلة لحفظ ماء الوجه، وللتصرف دون أن يبدو واقعا تحت أى ضغط. لكن استجابة البابا لم تكن بأى حال استجابة رجل مقتنع ومعاد للابتداء: فبالإضافة إلى

تقصياته الأسقفية ضد فرسان الهيكل كأفراد، شكل لجنة من ثمانية للبحث فى قضية الجماعة ككل وأعلن أن قرارا سوف يصدر فى مجلس عام فى فيين فى ١ أكتوبر ١٣١٠ أى بعد عامين. فى أثناء ذلك كانت وتيرة المحاكمات بطيئة فى إنجلترا وأرجون. وبعد عدم تصديق جيمز المبدئى، قام باحتياط آخر. لو أن أى شىء سوف يحدث للجماعة، فقد صمم على عدم تسليم ممتلكاتهم، وفى ديسمبر ١٣٠٧ أرسل بجيش كى يحتل قلعة فرسان الهيكل فى بينيسكولا. وتم الاستيلاء على المبنى دون مقاومة، ولكن حينئذ كان الإخوان فى الأماكن الأخرى على أهبة الاستعداد. فقد أمرهم المفتش العام التابع لأرجون بأن يظهروا كى يجيبوا عن الاتهامات الموجهة ضدهم. ومن الطبيعى أنهم لم يظهروا؛ وبدلا من ذلك أغلقوا على أنفسهم الحصون وأعلنوا أنهم مستعدون للدفاع عن شرفهم وسمعتهم بالقوة. فتمت محاصرة الحصون واحدا واحدا وسقطت واحد واحد، عن طريق الجوع، أو فى إحدى المناسبات، عن طريق الخيانة؛ لكن أقلها صمد لمدة ثمانية أشهر، وأقواها صمد لمدة سبعة عشر شهرا، ولم يستسلم إلا فى مايو عام ١٣٠٩، حتى ذلك الوقت لم يكن تحقيق البابا قد بدأ حتى يناير ١٣١٠ ذلك أن الأسقف المسئول كان فى إنجلترا فلم يتم عمل شىء حتى ديسمبر ١٣٠٧، حين وصل المرسوم البابوى، أولويات رعوية، والذى أمر فيه إدوارد بأن يتصرف فورا. فرد إدوارد على مضض بأنه سوف يفعل ذلك، "بأسرع وأفضل طريقة"؛ لكنه أخذ ما يكفيه من وقت، ولم يبد أنه يميل إلى التعامل مع المشكلة بجدية. وتم القبض على فرسان الهيكل الإنجليز فى يناير ١٣٠٨، بعد شهر كامل تقريبا من وصول مرسوم البابا؛ والسلطات الإنجليزية، التى كان الشك ما زال يساورها، كما أنها متكاسلة وغير راغبة فى أن تقبل الأوامر من الأجانب فهمت كلمة "قبض" بطريقة متباطئة متساهلة. إذ كان من الممكن ترتيب اعتقال فرسان الهيكل بكفاءة تشبه تلك التى تعامل بها فيليب؛ لكن ما حدث أنه تم بتسامح وإلى حد ما بشكل اعتذارى. فلم يتم الاستيلاء على ممتلكات الهيكل، وسمح لمعظم الإخوان بأن يبقوا فى مقارهم. أما إذا كانوا بالفعل فى السجن، كما كان معلم الهيكل، فقد سمح لهم بالاحتفاظ بملابسهم المعتادة، وأوانيهم - وحتى أسلحتهم؛ وإن يصحبهم أخين أو ثلاثة وأن يتلقوا الأموال من أراضى الهيكل الأخرى

لتساعدهم. وفى ١٣ سبتمبر وصل إلى لندن اثنان من قضاة التفتيش الفرنسيين، وكانا على استعداد لتولى الإجراءات.

ولسوء طالعهم، فإن القانون الإنجليزى يختلف عن القانون الفرنسى، الذى أصبحت فيه محاكم التفتيش مجرد ذراع للحكومة. أما فى إنجلترا فكانت محاكم التفتيش تعد تدخلا غير مرحب به وغير مصرح به، والقانون العام ينص على أن الفكرة لا يصدقها سوى محاكم التفتيش؛ - وأن المتهم يجب أن يحاكمه محلفون يتكونون من رجال أحرار. فكان هذان الاثنان هما أول وآخر قضاة تفتيش فى إنجلترا، وذهبا فى حالة من الإحباط وخيبة الرجاء. وخلال أسبوعين فى أكتوبر ونوفمبر ١٣٠٩ قام بالتحقيق مع ٤٣ من فرسان الهيكل فى لندن مستخدمين طرق القانون العام، فلم يعترف أى من المتهمين بأى ذنب من أى نوع. وكان قصارى ما فعلوه كى يساعدوا الفرنسيين هو الموافقة على أن قليلاً من الإخوان الأكثر بساطة كانوا يعتقدون أن المعلم من صلاحياته التخليص من الخطايا، ولم يكن الحال كذلك. بالمقارنة بالأجوبة التى أعطيت فى المحاكم الفرنسية، يعد مثل هذا الاعتراف شيئا تافها؛ وحين تلقف المفتشان مسألة الاجتماعات السرية، مجادلين بأن أى شىء سرى لا بد أن يكون شرا، قال أحد الإخوان بازدراء إن السرية نتجت عن الحماقة فقط، وإن لا شىء حدث فى الاجتماعات أو حفلات الاستقبال لا يليق بأن يراه أى شخص، وأن أية اعترافات قيلت فى أى مكان آخر ما هى إلا أكاذيب. ولم تفد كثيرا تلك الشهادات التى طلبت من شهود من الخارج من مائة وخمسين شخصًا فى أنحاء الجزر البريطانية؛ ذلك أن أدلتهم كانت إما محض خيال أو تشير إلى أحداث مفترضة وقعت قبل عقود، أو إشاعة منقولة حتى الشخص الثالث أو الرابع. وفى منتصف صيف ١٣١٠، لم يكن هناك أى تقدم على الإطلاق من وجهة نظر المفتشين. إذ إنهم قالوا فى رسالة تعبر عن الشكوى إلى كبير أساقفة كنتيربرى إنهم غير قادرين على القيام بالعمل بأسلوبهم المعهود. لقد بذلوا أقصى ما فى وسعهم، لكنهم حتى لم يجدوا واحدا يمكنه إدارة عملية التعذيب؛ لذا سوف يعودون إلى بلادهم. وكان الاقتراح الوحيد الذى استطاعوا تقديمه هو أن

يتم شحن جميع فرسان الهيكل في إنجلترا عبر القنال إلى بونتيي، التي كانت أرضًا إنجليزية لكنها خاضعة للقانون الفرنسي. إذ من المؤكد أن الحقيقة سوف تخرج هناك، لأنه يمكن العثور على خبير في التعذيب دون صعوبة. إذا ما أخذت هذه الفكرة حسب ميزاتها، فهي فكرة منطقية، ولكن لم يتم متابعتها. أما في فرنسا فكان كليمينت يتزايد شعوره بالبلبلة. وفي منتصف أغسطس عام ١٣٠٨ تمكن من أن يخلص نفسه من بواتيي، وأعلن أنه سوف ينشئ محكمة بابوية جديدة دائمة في أفيون، حتى تسوى قضية فرسان الهيكل. كما احتفظ بحق الحكم على زعماء الجماعة بنفسه ولتحقيق هذا الهدف أرسل ثلاثة من الكرادلة إلى شينون، حيث يحتجز كبار المسئولين. وفي ما بين ١٧ و ٢٠ أغسطس التقى الكرادلة بمدير مقر قبرص؛ ومدير مقر نورماندي، ومدير مقر بواتيي واكيتان؛ وهيو دي بيرو، أمين خزنة الجماعة وزائرها؛ وجاك دي مولي. وقبل ذلك بتسعة أشهر، وبعد تدخل كليمينت الأول، كان جميع هؤلاء الرجال قد سحبوا اعترافاتهم السابقة. وقد لعب هذا التراجع دورا كبيرا في قرار كليمينت متابعة هذه المحاكمات من خلال القنوات القانونية السليمة؛ لكن الإخوان عن طريق سحب اعترافاتهم قد وضعوا أنفسهم في وضع غير مريح هو وضع المبتدعين المرتدين. فإذا ثبتت إدانتهم، من المؤكد أنهم سوف يحرقون أحياء؛ لذا فحين التقى الكرادلة، بالمسئولين الخمسة، عادوا جميعًا إلى اعترافاتهم الأصلية. على أحد المستويات، كان هذا موضع ترحيب، إذ إن معناه أن يتم مصالحتهم مع الكنيسة. وعلى مستوى آخر هذا أقلق كليمينت؛ إذ تم استباق شعوره الحي بالقانون، ويكون تناول فيليب الطائش للأمر بحرية قد انتصر. وعلى مستوى ثالث، أصاب هذا كليمينت بالحيرة، بكل بساطة. ربما كانت الاعترافات صحيحة، في نهاية الأمر؛ وربما كان الرجوع عن الاعترافات مجرد توجيه إهانات شريرة للملك الفرنسي. كان من الممكن أن تقل درجة ما أحس به من بلبلة لو أنه عرف أن اثنين من الكرادلة كانا متعاطفين مع فيليب، وأن ثلاثة أشخاص آخرين كانوا حاضرين في أثناء المقابلات: هم سجان فرسان الهيكل، والمحاميان، دي نوجاري، ودي بليزيان. ذلك أن الثلاثة معا تمكنوا من تحريك ولي فرسان الهيكل كما شاءوا، بمجرد وجودهم، لأن كل منهم لعب دورا مميزا في عملية

التعذيب الجسدى والعقلى المنهك البطىء. ذلك أن السجان كان هو من يحقق معهم يوميا، ويجوعهم ويسىء معاملتهم كلما أمكن ذلك؛ وكانوا يعلمون أن دى نوجارى هو المسئول عن تلطيخ سمعتهم بانتظام؛ ودى بليزيان، ربما أكثرهم شرا يبدو أنه كان محامى الشيطان، إذ يعلن صداقته لهم، ويتوسل إليهم بأن يعترفوا من أجل خاطر الراحة الأبدية لنفوسهم.

على الرغم مما أحس به كليمينت من ارتباك فإنه كان قد حدد طريقه وسوف يلتزم به. ذلك أنه اكتشف أن تفويضه البيرقراطى جعله يتمكن من الاستمرار بلا نهاية فى التذبذب والمراوغة. فعن طريق الإمعان فى عدم الكفاءة تمكن بالفعل من أن يتحاشى القيام بأى شىء لمدة عام بعد تأكيد المسئولين على اعترافاتهم. فلم تخرج رسائل بابوية حتى ٨ أغسطس ١٣٠٩ تستدعى جميع الشهود للمثول أمام اللجنة؛ ولن تفتتح اللجنة جلساتها حتى ١٢ نوفمبر. بل أكثر من ذلك، بدا أنها ستكون مجرد تمثيلية، إذ إنه من بين أعضائها الثمانية، كان هناك ستة تقريبا على صلة مباشرة بفيليب. ومع ذلك فقد قبل كليمينت ذلك؛ والسبب فى هذا بسيط. ذلك أن اهتمامه بالشرعية لم يكن قائما على رغبة فى تحقيق العدالة بقدر ما كان قائما على الرغبة فى حماية الحقوق البابوية من أن يتعدى عليها التاج الفرنسى، وهذا تمييز لم يكن فرسان الهيكل أنفسهم على وعى به، ومن الممكن أن يثبت أنه قاتل بالنسبة لهم فى النهاية. وحين افتتحت أعمال اللجنة فى ١٢ نوفمبر، بدا أن التمثيلية الموعودة على وشك التحقق. فعلى مدى الأيام الستة الأولى، لم يظهر شاهد واحد، سواء للادعاء أو الدفاع. فاضطر أعضاء اللجنة إلى التأجيل؛ وحين اجتمعوا مرة أخرى فى الثانى والعشرين، بدا أن أول شهود لفرسان الهيكل لم تكن لديهم أية فكرة عن سبب وجودهم هناك. وحين أبلغوا بالسبب كان فى مقدورهم الدفاع عن الجماعة إذا شاءوا ذلك، ولكنهم غمغموا ببساطة بأنهم أناس بسطاء ولا يعرفون كيف يفعلون ذلك. واستمرت بقية الجلسة الأولى بهذه الطريقة المؤسفة نفسها. لقد تم إحضار إجمالى ثمانية وعشرين متهما، من بينهم هيو دى بيرو، وجاك دى مولى، الذى ظهر مرتين. وقال قليل

من هؤلاء إنهم لو أوتوا المهارة لدافعوا بحرية عن الجماعة؛ غير أن أحدا منهم لم يعرض القيام بذلك، وقال أحدهم إنه راض تمام الرضى عن الدفاع الذى قدمه كليمينت وفيليب. أما الباقون فقد التمسوا العذر لأنفسهم على أساس أنهم "غير نبلاء ومغمورين" أو "فقراء وجهلة" ورفض كل من دى بيرو، ودى مولى قول أى شيء إلا فى حضور البابا، مع أن الآخرين كانوا يتوقعون منهم أن يقودوهم. إذ بدا أن دى بيرو خائف ومضطرب، وكان "شديد الدهشة" حين قرئت عليه اعترافاته السابقة. كان المقصود أن تكون الجلسات سرية، لكن بعض الناس أمكنهم الدخول فى أى مكان. فقد حضر المحامى دى بليزيان ظهور دى مولى الأول؛ وفى إحدى المراحل، طلب المعلم المساعدة من المحامى الذى قال إنه يكن احتراما كبيرا لدى مولى، "بما أنهما هما الاثنان فرسان" وحذره "بأن يحترس فى حالة التعرض للوم أو أن يضيع نفسه دون سبب". وفى ظهوره الثانى أعلن دى مولى عن إيمانه "بإله واحد، وعقيدة واحدة، وتعميد واحد، وكنيسة كثولكية واحدة". ولكن فى هذه المرة كان معه دى نوجارى، الذى كان حضوره غير قانونى تماما، والذى زعم مع ذلك، أن الجماعة عقدت معاهدات مع صلاح الدين وغيره من السلاطين وأن صلاح الدين أرجع هزيمتهم فى حطين إلى ميلهم إلى "رذيلة اللواط، ولأنهم انتهكوا عقيدتهم وقانونهم". لقد كانت هذه بداية سيئة للدفاع.

لقد بدأت جلسة اللجنة الثانية فى ٣ فبراير من ١٣١٠، ومنذ البداية، بدت تكرارا للفشل الزريع الأول. ذلك أنه لمدة يومين لم يتم إحضار أى شهود؛ ثم مثل أمام اللجنة ستة عشر من فرسان الهيكل فى ٥ فبراير، وعرض خمسة عشر منهم القيام بالدفاع. وفى أثناء الاستراحة وحين فهم الإخوان أخيرا طبيعة اللجنة وجدوا بعضًا من روحهم القديمة، وفى نهاية مارس تطوع خمسمائة وسبع وتسعين للدفاع عن الجماعة. حدث هذا على الرغم من المثل السيئ الذى ضربه دى مولى، لأنه، فى ذلك الحين، قد رفض للمرة الثالثة التحدث مع أى شخص عدا البابا. وعلى مدى الأسبوع التالى، تم اختيار أربعة من الإخوان لتمثيل الجماعة. كان منهم اثنان، هما بيير دى بولونيا، ورينو دى بروفان من الكهنة؛ أما الآخران، ويليام دى شامبونى، وبيرتراند أوند سارتيج، من

الفرسان. وكانوا جميعا أذكياء ومتعلمين؛ وقد يكون دى بولونيا قد تلقى بعض التدريب فى القانون فى جامعة بولونيا، لأن أحاديثه أمام اللجنة كانت متأثرة بنفس أسلوب البلاغة الشديدة الذى يستخدمه دى نوجارى نفسه، وقد أبرز هو ودى برفانس قدرا كبيراً من المعرفة والألفة مع أحوال أو طرق الإجراءات القانونية. لقد كانت الفصاحة والتعليم هما الشيئان اللذان يخشاهما فيليب ودى نوجاريى. ذلك أن ستار الدخان الذى شكلاه من الكلام الرنان، والخداع، والتآمر والأعمال الخفية، ومخالفة القانون، لم تكن لتصمد أمام التفحص المدقق، ويمكن فضحها جميعا إذا ما هوجمت بصراحة وبشكل قانونى وصحيح. وهذا بالتحديد ما كان ينوى فعله الأربعة الذين يمثلون الجماعة؛ وفى يوم الثلاثاء ٧ إبريل ١٣١٠، بدءوا عملهم.

الفصل السادس عشر

التضحية الجهنمية

فرنسا، ٧ إبريل ١٣١٠- ٢٩ نوفمبر ١٣١٤

سأحكم عليك ... وأجعلك دم السخط والغيرة

سفر حزقيال، الإصحاح ١٦ آية ٣٨

لقد تليت الاتهامات بالتفصيل، وكانت الاتهامات الأصلية في تفويض موبويسون هي أن فرسان الهيكل أنكروا المسيح وبصقوا على صورته، وأنهم كانوا يتبادلون القبلات المجافية للأدب وانهمكوا في علاقات من الجنسية المثلية؛ وأنهم عبدوا صنماً. حين وقف بيير دي بولونيا وإخوانه الثلاثة للدفاع عن أنفسهم وعن جماعتهم، لم يواجهوا ثلاث مجموعات من الاتهامات بل سبعًا، وضعت في مائة وسبع وعشرين مادة. وكانت المجموعات السبع هي. أولاهم، والأكثر أهمية، هي إنكار المسيح. ذلك أن فارس الهيكل الجديد لدى استقباله يجبر على إنكار إيمانه بقدسية المسيح، وأن يقبل أن المسيح ليس هو المخلص، ولكنه نبي زائف صلب بسبب خطاياه. وكان على الأخ الجديد أن يدنس الصليب، إما بالبصق أو التبول عليه، أو دهسه بالقدم. وقد نبعت جميع الاتهامات الأخرى من هذا؛ وكانت المجموعة الثانية هي أن فرسان الهيكل وثنيون. وكان وثنهم عبارة عن قطة، أو رأس ذات قوى سحرية. ويمكن للرأس أن تجيب عن الأسئلة: وهي التي زودت فرسان الهيكل بالثروة ودمرت أعداءهم؛ وكان على كل أخ أن يرتدي حبلاً حول وسطه، قد وضع حول أو في مواجهة هذا المعبود. وهكذا

يكون كل أخ مرتبطًا سحريا بالصنم يشارك فى قوته ويخضع لها. وغطت المجموعة الثالثة من الاتهامات جوانب مختلفة من عدم إيمان فرسان الهيكل. فبما أن المسيح ليس هو المسيح المنتظر، فإن التناول فى الكنيسة لا يعنى شيئا لدى فرسان الهيكل، ولم يقدس كهنتهم خبز التناول، (القربان) عند إقامة القداس؛ ولم يكن قداس فرسان الهيكل سوى احتفال سخيف. وتناولت المجموعة الرابعة التخليص من الذنوب؛ كان المعلم وغيره من الزعماء يستمعون إلى الاعترافات من الإخوان ويحلونهم منها، حتى دون التأهيل الكهنوتى كى يفعلوا ذلك. ثم تأتى أعمال الفسق داخل الجماعة، مثل القبلات على الأفواه، والسرة، والمعدة، والاست، والأرداف. والجنسية المثلية التى أمر الإخوة بقبولها. وسادسًا كانت مجموعة الاتهامات المتعلقة بالجشع؛ إذ كان هم الإخوان الأول فى جميع الأوقات، هو الإثراء المادى للجماعة، بالطرق القانونية وغير القانونية. أما المجموعة السابعة والأخيرة، فهى أن سرية الجماعة اعتبرت إجرامية ذلك أنه ليس فقط الاستقبالات والاجتماعات هى التى كانت تعقد فى حجرات محصنة، مع إغلاق وتغطية جميع الأبواب والنوافذ، ولكن أى أخ يكشف عن أسرار الهيكل كان يسجن أو يقتل.

وحين تليت هذه الاتهامات، مفصلة فى مائة وثمان وعشرين مادة، على بيير دى بولونيا كان قد قضى فى السجن سنتين ونصف، وهو يعذب ويستجوب ويجبر على الاعتراف بكل شيء. لكنه أمام أعضاء اللجنة البابوية، تكلم بتحد وعنف نيابة عن نفسه وعن جميع آلاف الإخوان من جماعته.

وقال: "كل واحد منا، يعلن أن جميع هذه الاتهامات دون أى أساس. ومن غير المعقول أن يحمل أى أحد هذه الاتهامات الفاضحة على محمل الجد. صحيح أن بعض فرسان الهيكل أقروا بها، لكن ذلك كان فقط تحت التعذيب والمعاناة... وليس مما يثير العجب أن هناك من كذبوا، بل أن الأكثر إثارة للعجب هو أن من التزموا بالصدق، كانوا يعلمون ما يعانيه من يقولون الصدق من عنْد وأخطار وتهديدات يوميا وباستمرار".

لقد كانت بداية قوية، واستمر بولونيا بنفس القوة، مازجًا البلاغة والدقة القانونية المباشرة فى مزيج واضح قدير وناجح. وأشار إلى أن كل ما يسمى اعترافات قد انتزعت بالتعذيب، وأضاف بشكل لاذع بأنه "خارج مملكة فرنسا، لن يوجد أحد فرسان الهيكل فى أنحاء العالم يقول أو ينطق بهذه الأكاذيب، ومن هنا يتضح لمن قيلت فى فرنسا: إن من تكلموا قد شهدوا حين أفسدهم الخوف، أو الصلوات، أو المال." لذا لا يجب قبول هذه الاعترافات كأدلة؛ "وحين يتم التحقيق مع أى إخوة، لا يجب أن يحضر ويسمعهم أى أحد من غير رجال الدين، أو أى شخص تكون استقامته موضع شك". بمعنى أنه لا يجب السماح للسجان ومحاميى الملك بحضور اللجنة، بما أن مجرد حضورهم يرهب الإخوان. ثم رد على النار بالنار حين هاجم من اتهموا الهيكل قائلا إنهم "مسيحيون زائفون وهم جميعا مبتدعون ومتراجعون، ومفسدون للكنيسة المقدسة والعقيدة المسيحية بأسرها". هؤلاء الناس كان دافعهم الطمع "وهم أشد ناشرى الفضائح من حيث عدم التقوى" وقد عثروا على فرسان هيكل مرتدين كفار، ودبروا وأعدوا معهم مجموعة من الأكاذيب خدعت حتى أكثر الملوك مسيحية، الملك فيليب. إذ لم يكن الأخ الجديد يقسم إلا أربعة أيمان كما قال دى بولونيا، أيمان، بالطاعة، والعفة، والفقر، والدعم المستمر للأراضى المقدسة؛ والقبلة الوحيدة التى كان يتم تبادلها "هى قبلة السلام الصادقة" - وليس أكثر من القبلة المعتادة التى يتم تبادلها بين أى سيد وتابعه. ويجب أن تحاكم اللجنة أيضًا من اتهموا الجماعة بالانحرافات الروحية والأخلاقية، ويطلب منهم تحديد أسس إتهاماتهم؛ وأثناء ذلك، يجب إعطاء ضمانات لجميع الإخوان الذين يرغبون فى الدفاع عن الجماعة بالأمان، لأنه حتى الآن فإن رجال الملك يهددونهم بالتعذيب والموت إذا ما جرءوا على إنكار ذنبهم.

يبدو أن أعضاء اللجنة قد تأثروا بما يتمتع به بيان دى بولونيا من قوة ووضوح؛ لكنهم كانوا مصرين على سماع جميع جوانب القضية قبل أن يصلوا إلى قرار. بناء على ذلك، فإن الشهود الأوائل الذين سمح لهم بالمثول أمامهم كانوا شهود الادعاء: وكانوا أربعة وعشرين رجلاً، أربعة منهم ليسوا من فرسان الهيكل. ولم يطلق على أحد

من هؤلاء الأربعة وعشرين شاهدا أنه من شهود الادعاء، لكن خمسة عشر من الفرسان العشرين كانوا من بين مجموعة الاثنين وسبعين الذين اعترفوا أمام كليمينت؛ أما الخمسة الآخرون فلم يعبروا عن أى رغبة فى الدفاع عن الجماعة؛ وكان الأربعة من غير فرسان الهيكل مرتبطين بالملك. وكان أولهم وأبرزهم بالفعل أحد محاميى الملك، وهو رجل يسمى رؤول دى بريسل؛ وهو فوق كل شيء كان يتوقع منه أن يبرز حججا دامغة تندد بفرسان الهيكل. ولكن على الرغم من أنه ألقى خطابا طويلا يقصد منه إقناع اللجنة بذنب الجماعة، فإنه لم يشتمل على أية أدلة ملموسة على الاطلاق. إذ لم يكن هناك سوى الإشاعة والتقولات؛ واعترف بأنه قبل الاعتقال لم يكن قد سمع أى شيء يسيء بوضوح إلى سمعة الجماعة. والشاهد التالى الذى دققت اللجنة فى التحقيق معه، لم يقل فى نهاية المطاف إلا أنه كان يشك فى أن الجماعة لم تكن جيدة؛ واكتفى شهود فرسان الهيكل بمجرد تكرار الاعترافات التى أدلوا بها لكليمينت، والتى رفضت اللجنة قبولها كأدلة.

بدت الأمور سيئة بالنسبة للادعاء الملكى. إذ لم يتمكن محام واحد من محاميى الملك من إظهار دليل واحد حقيقى؛ ببساطة لم يكن هناك دليل يمكن إظهاره. وأصبح من الواضح أكثر فأكثر أن قضية الملك قائمة على الرعب والبلبلة، وقد استمر فضح بيير دى بولونيا لهذا الحال بشكل مخيف لا هوادة فيه. ذلك أنه قال فى رده على شهود الادعاء، إن الاعتقالات والمحاكمة حتى الآن، كانت "متعجلة وعنيفة بلا تفحص، وعدائية، وغير عادلة، وغير قانونية بالكامل، وشديدة الإيذاء، ومليئة بالخطأ الذى لا يطاق وأقصى درجات الخبس". وحين تعمق فى وصف طرق غسيل المخ قال، إن صنوف التعذيب التى مورست على فرسان الهيكل حرمتهم من "حرية التفكير أو الرأى التى يجب أن يتمتع بها كل إنسان طيب"، إذ دونها يفقد الشخص كل "معرفة وذاكرة وفهم". وأراد أن يعرف كيف يمكن لأى أخ أن يرغب فى الانضمام فى الجماعة ويبقى فيها إذا كان بذلك يعرض نفسه للخطر الأبدى؛ وطلب نسخا مكتوبة بجميع المواد المتعلقة بالقضية، بالإضافة إلى وعد بأن جميع الاتهامات سوف تكون سرية، وأن يتم عزل الشهود الذين تكلموا عمن سوف يأتون.

وبينما كان دى بولونيا وإخوته ينسقون الدفاع، أعلن أعضاء اللجنة أنهم على استعداد للاستماع لكل من لديه شيء مفيد يود قوله، سواء لصالح الجماعة أو ضدها. فقال ما يقرب من ستمائة من فرسان الهيكل إنهم يرغبون فى التحدث، ولما ازدادت ثقتهم اتباعًا للمثال الذى ضربه دى بولونيا، فقد اتضح أن جلسات الاستماع سوف تستمر لوقت طويل. لقد كان كليمينت قد حدد موعد مجلس فيين، الذى سيصدر فيه حكمه، فى أكتوبر؛ والآن قد حل إبريل، لذا اضطر إلى تأجيل المجلس إلى عام آخر. وهكذا، ففى نهاية إبريل عام ١٣١٠، كان وضع فرسان الهيكل أفضل مما كان فى أى وقت منذ أن بدأت الاعتقالات عام ١٣٠٧، فأبلغ دى بولونيا إخوانه المسجونين أن إطلاق صراحهم وتبرئتهم التامة يمكن أن تكون مسألة وقت.

هذا ما كان يجب أن يكون. غير أن المدافعين عن الهيكل فى غمرة تفاؤلهم المفاجئ، بدأوا يقللون من شأن الملك فيليب. فبينما واصلت اللجنة البابوية تحقيقاتها فى الجماعة ككل، استمرت لجان أسقفية فى التحقيق فى الاتهامات الموجهة ضد كل فرد من فرسان الهيكل على حدة. من المفهوم ضمنا أن اللجنة البابوية أعلى من اللجان الأسقفية لكن هذا لم يذكر بوضوح؛ وما إن تعرف محامو فيليب على هذه الثغرة من الناحية القانونية، حتى تلقفوها.

وعلى بعد خمسين ميلاً جنوب شرق باريس كانت تقع بلدة أرودوسيز سان. وكانت لبعض الوقت دون رئيس للأساقفة، وكان الملك فيليب قد تمكن من أن ينتزع من كليمينت الحق فى تسمية رئيس أساقفة جديد. وقد أخذ وقتًا طويلاً فى تعيين رئيس أساقفة جديد وثبت بالنسبة له أن الانتظار كان مفيداً. وفى إبريل ١٣١٠، تم تنصيب شاب فى الثانية والعشرين من عمره رئيسًا لأساقفة سان، وهو رجل يدعى فيليب دى[1] مارينيى، الذى كان أخوه وزير مالية الملك. وكانت لرئاسة أسقفية سان سلطة على أسقفية باريس، حيث كانت تحتجز متهمى الهيكل؛ وكان رئيس الأساقفة الجديد من رجال الملك على طول الخط. لذا ففى خلال شهر من تعيينه، قام فيليب دى مارينيى بتنفيذ تعليمات الملك، ليستغل حقه القانونى فى الحكم على أفراد فرسان الهيكل، وعقد

مجلس إقليمى فى باريس بتاريخ الاثنين ١ مايو. وبشكل ما، فى آخر لحظة، سمع بهذا بيير دى بولونيا. وفى يوم الأحد ١٠ مايو، وعلى الرغم من أن اللجنة البابوية لم تكن منعقدة، بعث برجاء يائس لأعضاء اللجنة، وتوسل إليهم أن يمنعوا المجلس الإقليمى. إذ كان يخشى من صدور أسوأ حكم ممكن، فإذا ما حدث هذا، "فسوف يكون ضد الله والعدالة وسوف يقلب التحقيق بالكامل"؛ إذ إنه سوف يجعل اللجنة ونشاط أعضاء اللجنة أحمق بلا معنى. لقد فهم أعضاء اللجنة ذلك، لكن لم يكن ثمة ما يمكن أن يفعلوه؛ فقالوا لدى بولونيا "نحن نحس بحزن عميق من أجلك، لكن بما أن البابا كان قد وافق على الإجراءات أمام المجالس الإقليمية، فنحن عاجزون عن التدخل بأية طريقة".

وفى صباح الاثنين، استأنفت اللجنة جلسات الاستماع التى تعقدها. وفى الوقت نفسه، وعلى بعد أميال قليلة، افتتح رئيس الأساقفة فيليب مجلسه. وفى وقت مبكر من اليوم التالى، قوطعت اللجنة فجأة وهى تتباطأ فى طريقها المتعقل: لقد أصدر رئيس الأساقفة حكمه، وتقرر إحراق أربعة وخمسين من متهمى فرسان الهيكل وهم أحياء بعد ظهيرة ذلك اليوم. وبذل أعضاء اللجنة أقصى ما يستطيعون من جهد، ولكن دون سلطة قانونية لم يكن فى مقدورهم سوى أن يطلبوا من رئيس الأساقفة الشاب بأن يستبق حقه ويأخر القيام بأى فعل. وتم تجاهل الطلب.

وبعد ظهيرة يوم الثلاثاء شق باريس موكب من عربات نقل المحكوم عليهم بالإعدام حاملا الأربعة وخمسين من فرسان الهيكل - من فرسان، وكهنة، ورقباء، وإخوة من الخدم، جميعهم يرتدون الزى المميز لهم - ونقلوا إلى أحد الحقول خارج المدينة. وكان فى انتظارهم آلات إحراق مكدسة بالقش وأوراق الشجر والخشب. وتجمع عدد كبير من الناس للفرجة؛ إذ كانت أية عملية إعدام تشكل تسلية جيدة، وكان الجميع يعلمون أن هذا القتل الجماعى له أهمية خاصة. وحين انتهى كل شىء، كتب أحد المتجمهرين، "أنهم جميعا دون استثناء، رفضوا الاعتراف بأى من جرائمهم المزعومة، وأصروا على القول إنهم يموتون ظلما، ... مما تسبب فى إعجاب كبير واندهاش عظيم" وعلق متفرج

آخر باقتضاب قائلا إن مثل هذا الإصرار القاطع من شأنه أن يجعل الناس يعتقدون أن فرسان الهيكل يقولون الحق. عمومًا، بالنسبة للمتبقين من فرسان الهيكل كان أثر الإعدام فوريًا وحاسمًا. ذلك أن أملهم انهار ومعه دفاعهم. ولا يمكن إنقاذ أرواحهم إلا على حساب شرفهم؛ ولا يمكن إنقاذ شرفهم إلا على حساب أرواحهم. إذ لم يعد القانون يوفر الأمان. لذا ففي يوم عمليات الإحراق، رفض ثمان وثلاثون من الإخوان الاستمرار فى الدفاع عن الجماعة، قائلين إنهم يفضلون الاعتراف بأى ابتداع ويعيشون عيشة منحطة على أن يموتوا فى اللهب. وفي باريس تواصلت عمليات الإحراق؛ وقبل أن يمر وقت طويل ما يقرب من مائة وعشرين من فرسان الهيكل كانوا وقودا للنار. وحتى الموتى لم يكونوا فى مأمن - إذ استخرجت عظام الموتى من فرسان الهيكل وأحرقت علنا مع الإخوان الأحياء. ومحاكاة لرئيس الأساقفة فيليب، عقد رؤساء أساقفة ريم وروان مجالس إقليمية وأرسلوا أعدادا غير معروفة من الإخوان إلى حتفهم. ذلك أن رئيس أساقفة روان كان شابًا آخر - إذ لم يزد عمره عن الرابعة والعشرين، وكان عمه هو البابا كليمينت.

بعد تنفيذ عمليات الإعدام الأولى بستة أيام، استبق رئيس الأساقفة فيليب اللجنة البابوية مرة أخرى. ذلك أن رينو دى بروفان، القس الثانى من ممثلى الدفاع، جاء من سان، مقر رئيس الأساقفة؛ وحسب الحق المتاح لفيليب، فقد دعا دى برفان كى يحقق معه المجلس الإقليمى. وحين أصبح حتى رجال الإدارة المعينون غير آمنين أصبحت اللجنة هزلية تماما. إذ أرسل أعضاء اللجنة برسالة لبقة لفيليب، مشيرين إلى هذا الوضع. فتجالها كما فعل من قبل. وتم تكرار الرسالة، بشكل أكثر قوة، فتمت استعادة دى بروفان؛ ولكن فى نفس الوقت، اختفت آثار بيير دى بولونيا. فطلب أعضاء اللجنة أن يسمح له هو أيضًا بمعاودة الظهور؛ ولكن بدلا من ذلك، تم إرسال مجموعة من أربعة وأربعين من الإخوان إليهم، وقالوا جميعا إنهم لم يعودوا يرغبون فى الدفاع عن أنفسهم أو عن الجماعة. وفقد أعضاء اللجنة أى سيطرة على الإجراءات. فاستسلموا. وفى يوم السبت ٣٠ مايو، أجلوا أعمالهم لمدة خمسة أشهر.

فماذا حدث لفرسان الهيكل فى السجون، أو غرف التعذيب، فى باريس، فى أثناء الأشهر الخمسة تلك، هذا ما لا يعرفه أحد؛ ولكن فى يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر، حين اجتمع أعضاء اللجنة مرة أخرى، اكتشفوا انقلابا دراميًا شبه كامل لجميع تجاربهم السابقة. إذ لم يكن موجودا سوى اثنين من ممثلى الجماعة الأربعة - هما الفارسان، ذلك أن كلا الكاهنين دى بولونيا، ودى بروفان، قد اعترفوا بذنبهم فى أثناء الصيف، وحكم عليهم بالسجن الدائم. لقد سجن دى بروفان حقا فى مكان ما فى باريس، أما دى بولونيا فيقال إنه هرب. والمرء يأمل فى أن يكون ذلك صحيحًا، وأن أشجع المدافعين عن فرسان الهيكل نال حريته أخيراً؛ ولكن هناك شك فى أن سجانيه قتلوه.

ودون أخويهما المتعلمين، فقد الفارسان المدافعان الثقة وطلبا الإعفاء من مسئوليتهما التى يتعذر التعامل معها. فلم يبق أحد لتمثيل الجماعة؛ ولم يستمع أعضاء اللجنة البابوية إلى أى شىء تقريبا فى انعقاد جلستهم الشتوية ١٣١٠-١، سوى صرخات مؤلمة تثير الشفقة تدلى بالاعترافات، من أناس أذلهم الإرهاب وشدة الألم فحولهم إلى مخلوقات غير قادرة على مقاومة أو فهم الوحشية البشعة التى مارسها القائمون على الإساءة لسمعتهم ومعذبيهم. ولم يقر واحد منهم بأى اتهام، وحاول الكثيرون نقل اللوم على زعماء الجماعة؛ ولكن فيما بينهم اعترفوا بكل شىء: إنكار المسيح - نعم، لقد أعلنوا أن أمه لم تكن عذراء، وأنه نبى زائف، وليس ابن الله؛ أما تدنيس الصليب - أجل، كان عليهم أن يبصقوا عليه، ويتبولوا عليه، ويدوسوه تحت أقدامهم؛ أما عن اللواط، فذلك كان شائعًا فى الجماعة، خاصة فى الأماكن التى لا توجد بها نساء؛ والوثنية أمر مؤكد. لقد كانت الاعترافات متسقة فقط بأكثر الأشكال عمومية، وكانوا يتباينون فى التفاصيل بقدر ما كانوا يتباينون فى الأعذار؛ لكن هذه الاعترافات حين كانت تأتى مرة تلو أخرى من أناس يركعون وهم يبكون ويرتعدون، كى يقسموا بكل ما هو مقدس أن كلماتهم صادقة، لم يكن فى وسع أعضاء اللجنة سوى تصديقهم. وفى ٢٦ مايو ١٣١١، تم الاستماع لآخر الشهود: فى ذلك الوقت، كان مائتان وواحد وثلاثون رجلا قد قدموا أدلتهم، من فرسان الهيكل وغير فرسان الهيكل،

وندد الجميع بالجماعة سوى القليلين منهم، على نحو لا رجعة فيه. ومع ذلك، ففى ٥ يونية، أعطى أعضاء اللجنة حكمهم الرسمى للملك فيليب بأنه لم يتم إثبات القضية ضد فرسان الهيكل. لكنهم يعتقدون بالفعل بأن الجماعة كانت تضم بعض الممارسات غير المحافظة، التى يجب معاقبتها؛ وكان هذا يكفى تماما بالنسبة لفيليب.

ومع ذلك فإن هذه الموافقة مع التحفظ كانت غائبة فى البلدان الأخرى. ففى البرتغال ومايوركا وارجون أعلنت براءة فرسان الهيكل؛ وحين أبلغ أحد فرسان الهيكل من مايوركا أن دى مولى قدم اعترافا كاملا قال: إن المعلم "كذب ملء حلقه". على النقيض من ذلك، زعم أحد القساوسة من فرسان الهيكل الإنجليز أن دى مولى أجبره على إنكار المسيح عند استقباله؛ ولكن عدا هذا، واثنان أو ثلاثة اعترافات مندَّدة أخرى، لم يظهر أى شيء آخر أكثر قوة ضد الجماعة فى إنجلترا من اكتشاف أن بعض فرسان الهيكل الأكثر بساطة خلطوا بين العفو عن خروقات الانضباط والعفو عن الخطيئة. والشيء نفسه يصدق على اسكتلاندا وأيرلندا. وكان الرأى السائد فى الجزر البريطانية هو أن فرسان الهيكل أبرياء؛ ولكن من أجل جعل البابا سعيداً، تم التوصل إلى حل وسط. إذ أعلن فرسان الهيكل "أن سمعة الهيكل أسيئ إليها فى مواد المرسوم البابوى حتى أنهم لم يتمكنوا من تطهير أنفسهم". وبناء على ذلك، عفا عنهم كبار رجال الدين فى إنجلترا وتمت مصالحتهم مع الكنيسة.

أما فى ألمانيا وقبرص، حيث كان يوجد المقر الرئيسى للجماعة، كانت السلطات أقل دبلوماسية وبرأت الإخوان بالكامل على الفور. وقد جاءت التبرئة الألمانية بعد حادثتين مثيرتين: ففى مايو ١٣١٠، شقت مجموعة من واحد وعشرين من فرسان الهيكل طريقها إلى غرف مجلس رئيس أساقفة مينز، وكانوا مسلحين بالدروع الكاملة، ومسلحين بمعلومات بأن براءة الجماعة قد ظهرت بمعجزة فى باريس. إذ قيل إن ملابس الإخوة الذين أحرقوا هناك والصلبان الحمر لم تمسها النار المضطرمة، وشوهدت وهى تلمع وسط اللهب بضياء خارق للطبيعة. فبلغ التأثر برئيس الأساقفة حداً جعله يؤجل عقد مجلسه؛ وحين أعيد افتتاحه بعد ذلك بشهرين، دافع تسع

وأربعون شاهدا (بينهم اثنا عشر ليسوا من فرسان الهيكل) عن الجماعة بصفة عامة وعن دى مولى بصفة خاصة، قائلين إنه "كان مسيحيًا طيبا كما يمكن أن يكون أى مسيحى". غير أن التبرئة التى تلت ذلك ضايقت البابا كليمينت. ذلك أن موضوع المحاكمات كله كان قد بدأ يزحف حتى على روحه المتذبذبة. وبدأ يتمنى لو ينتهى هذا الأمر كلية، وكان يريد لهذه النهاية أن تعبر عن أكبر قدر ممكن من الاحترام لسلطته. بناء على ذلك، ألغى الحكم الألمانى مدعيا أن القرار من حقه هو وحده؛ وفى قبرص، وجد حاكم الجزيرة، الذى كان ودودا مع الجماعة ورأى أنها بريئة، قد طعن حتى الموت ذات صباح - كانت جريمة مناسبة، لأن كليمينت تمكن من إعداد إعادة للمحاكمة تغير فيها الحكم الأصلى. لم يثبت الاتهام على الجماعة بشكل فورى إلا فى نافار، ونابولى، اللتين يحكمهما تابعون يدوران فى فلك فيليب، وفى ولايات إيطاليا البابوية؛ ولم يستخدم التعذيب منذ البداية إلا فى هذه البلدان. حتى فى أغسطس ١٣١١، حيث لم يتبق على مجلس فيين سوى شهرين، كان البابا كليمينت ما زال يبعث بالأوامر إلى الأماكن التى برئ فيها فرسان الهيكل تبرئة لا جدال فيها، وكان يقول فى هذه الأوامر إن هذه التبرئة قد لا تكون صحيحة، ويجب استخدام التعذيب فى كل مكان لمعرفة الحقيقة.

لقد افتتح المجلس المسكونى فى فيين يوم السبت ١٦ أكتوبر. وكان يقصد منه تمثيل جميع البلاد المسيحية الغربية؛ وتمت دعوة أكثر من اثنى عشر ملكا وعدة مئات من كبار رجال الكنيسة، من مناطق بعيدة تضم أيرلندا، وقبرص، والمجر، والبرتغال وروسيا، والسويد. غير أنه لم يكن يتمتع بالشعبية منذ البداية، لأن الموضوعات الثلاثة التى كانت على جدول أعماله كانت مناقشة تقديم المساعدة للأراضى المقدسة، وإصلاح الكنيسة، ومحاكمات فرسان الهيكل. وكانت جميع هذه الموضوعات الثلاثة غير مستساغة وغير جذابة بالنسبة لمعظم من قدمت لهم الدعوة. لذا فى ١٦ أكتوبر لم يحضر أى ملوك، مطلقا فى فيين، وحضر أقل من ثلثى رجال الكنيسة الذين كان ينتظر حضورهم. ووجد من حضروا أن فيين مدينة صغيرة قذرة، وباردة ومزدحمة،

وفاحشة الغلاء. كما وجدوا أن كليمينت أكثر اهتماما بكثير بالتخلص من فرسان الهيكل من اهتمامه بإصلاح الكنيسة أو شن حرب صليبية. ذلك أن الموضوعين الأخيرين تم تناولهما على عجل؛ ولكن حين وصلوا إلى مشكلة فرسان الهيكل، توقف سير الجلسات تقريبا. إذ إن كليمينت كان قد استعار فكرة من الملك فيليب ملك فرنسا: بنفس الطريقة التى كانت بها الطبقات العامة أو قادتها مجرد وسيلة للحكم المطلق وليس للديمقراطية، كذلك لم يدع مجلس فيين لتقديم النصح لكليمينت بخصوص فرسان الهيكل، وإنما لقبول القرارات التى توصل إليها والموافقة عليها. لو كان كليمينت يتمتع بما تمتع به دى نوجارى من قدرة بلاغية وما تمتع به فيليب من قوة عسكرية، من المحتمل أنهم كانوا سوف يمنحونه هذا القبول وهذه الموافقة غير أن كليمينت كانت لديه خبرة فى أن يجبره غيره وليس فى أن يجبر هو أحداً ولم يكن شخصية رهيبة بالنسبة لغالبية المجلس، بل إنه هو نفسه كان قد قرر فى ذلك الوقت، أن يتم حل الجماعة، وأن تحتجز ممتلكاتها للكرسى المقدس والإخوة بها أما تتم مصالحتهم كمبتدعين نادمين ويرسلون إلى الأديرة أو يسلموا للسلطات العلمانية الدنيوية كأشخاص غير نادمين، فيسجنون أو يقتلون. إذ إن أمنيته الوحيدة القاهرة عبر السنوات الأربع السابقة كانت هى الحفاظ على السلطة البابوية، وحين جاء عام ١٣١١ كان قد تعدى مسألة الاهتمام بالتفاصيل الفنية المتعلقة بالعدالة والقانون. وكان قد جمع كميات غزيرة من "الأدلة" ضد الجماعة، وكان إلى جانبه فى المجلس عدة متحدثين أقوياء، لكن الأدلة كانت مضحكة ومنحازة، ولا تشتمل إلا على الإشاعات والثرثرة والنميمة، مع أن مؤيديه انتقدوا أى ذكر للقيام بمناقشة سليمة باعتبارها "تافهة وتصيب المرء بالغيظ" ، فإن غالبية أعضاء المجلس لم تكن مستعدة لابتلاع مسألة حل الجماعة بالوداعة التى كان البابا كليمينت يأمل فيها - خاصة وأنها قد جاءت من بلدان كان فرسان الهيكل قد برئوا فيها، كما هو الحال فى الكثير من الأمثلة.

بما أن المجلس يتعلق بهم بشكل مباشر، فقد دعى الإخوان للحضور. ولم يكن من المتوقع أن يفعل أحد منهم ذلك؛ ولم تكن الدعوة سوى إجراء لاستيفاء الشكل. ومع ذلك، فإن المقاومة داخل المجلس قويت فجأة بشكل غير متوقع فى أواخر أكتوبر - لأن مجموعة من سبعة من فرسان الهيكل ظهرت، كى تلحق بها مجموعتان فوراً . وقدم التسعة أنفسهم كمتهمين، وقالوا إن ما يقرب من ألفين من الإخوة الآخرين مطلقو الصراح، وهم على وشك الوصول. فى الواقع لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيا؛ غير أن مجرد ظهور هؤلاء التسعة، كأشباح من الأيام الخوالى، كان شوكة فى ضمير المجلس، يذكر أعضاء المجلس بأن أى حكم يتم التوصل إليه سيؤثر فى أناس حقيقيين. لقد كانت خطايا فرسان الهيكل أكثر قليلا من مجرد أقاويل؛ وموت فرسان الهيكل، فى السجون، أو حرقا فى باريس، وغيرها كان حقيقة مؤكدة.

لقد كان رد فعل كليمينت لدى المشهد المثير المتمثل فى رؤية تسعة من فرسان الهيكل أحياء طلقاء، هو حشرهم جميعا فى السجن. ثم قام بعملية تقسيم كى يسهل التحكم، وأمر أعضاء المجلس بأن يختاروا لجنة منهم إذ إن عددهم أكبر من أن يسهل التعامل معه واجتمعت اللجنة والبابا معا، للاستماع إلى تفريغ مكتوب للمحاكمات؛ ثم تم اختيار مجموعة أصغر من بين أعضاء اللجنة كى تقوم بتقييم ما استمعوا إليه. وعلى الرغم من هذا التصغير المطرد، كان كليمينت غير قادر بعد على كسب رجال الكنيسة إلى جانبه؛ إذ لم يوافق سوى أربعة على وجوب حل الجماعة دون مزيد من الإبطاء، من هؤلاء الأربعة، كان هناك واحد إيطالى، وثلاثة فرنسيون. وحل عيد الميلاد لعام ١٣١١، وولى، وجاء العام الجديد دون التوصل لأى حسم للموقف. وكتب رجل إنجليزى ملحق بديوان البابا إلى أسقف نورويتش، قائلا إن "الجزء الأكبر من رجال الدين، بل جميعهم، ما عدا خمسة أو ستة من مجلس ملك فرنسا، يقفون (نيابة عن فرسان الهيكل) ... وملك فرنسا قادم فى حالة من الغضب مع الكثير من الأتباع. ونحن خائفون من هذا، و... يؤمل أن ينقل البابا نفسه إلى مكان آخر. وكل شىء متوقف".

كان فيليب قد حزم أمره بأن القليل من الإقناع من السلطة الزمنية ضرورى، وكان يتقدم بجيش نحو فيين. وخابت الآمال فى أن ينقل البابا المجلس إلى موقع خارج مجال أو نطاق النفوذ الفرنسى، وفى ١٧ فبراير ١٣١٢، وصلت سفارة ملكية إلى فيين - سفارة تضم المحاميين، دى نوجارى ودى بليزيان، ورئيس موظفى القصر الملكى انجيران دى مارينيى، أخو رئيس أساقفة سان العنيف المقاتل.

واجتمع السفراء والبابا سرا لعدة أيام. وكان يحضر المجلس عدة ممثلين علمانيين من بلدان مختلفة، وكان الأرجونيون على وجه الخصوص متشككين بشدة فى هذه الاجتماعات السرية. وخمنوا أن السفراء الفرنسيين يجبرون كليمينت على أن يوافق على أن يتسلم الملك فيليب ممتلكات فرسان الهيكل لذا، فبعد أن غادر السفراء، بدءوا هم بدورهم الضغط من أجل مطالبات الملك جيمز. لقد استطاع كليمينت أن يضع نفسه وسط مثلث غير مريح على الإطلاق - فيليب، وجيمز، والمجلس غير المتعاون - وفى صباح ٢٠ مارس، قال إنه ما يزال غير قادر على تحديد ما إذا كانت الجماعة تبقى أو تحل. ولكن فى هذا اليوم نفسه، فى بارقة من الفهم، استضاء طريقه؛ لأن فيليب "جلاب النور" دخل فيين بجيشه. وبعد ذلك بيومين عقد البابا اجتماعا خاصاً مع أعضاء لجنة مستشاريه، وفى ٣ إبريل اجتمع المجلس المسكونى بالكامل فى حالة من التجهم والصرامة. وكانت ثلاثة عروش موجودة أمام أعضاء المجلس. على العرش الموجود فى الوسط جلس البابا، وعلى جانبيه، وفى مستوى منخفض قليلا، جلس فيليب ملك فرنسا، ولويس ملك نافار، ابن فيليب الأكبر. وكانت موعظة كليمينت جاهزة؛ ولكن قبل أن يبدأ، وقف أحد القساوسة وحذر المستمعين من رجال الكنيسة من أن أية مقاطعة سوف تعاقب بحرمان أعظم من الكنيسة، لو لم يسمح بها البابا أو يطلبها. ثم تكلم كليمينت، واستمع أعضاء المجلس المكممون إلى صوت فى الأعالى، وهم مهددون من البابا وحضور الملكين. وبدأ كليمينت كلامه، "بالنظر إلى الشك وسوء السمعة، والتلميحات العالية وغير ذلك من أشياء، نسبت للجماعة، وكذلك الاستقبال السرى والخفى للإخوة فى هذه الجماعة؛ بل فوق ذلك، بالنظر إلى الفضيحة الخطيرة التى

نتجت عن هذه الأشياء، والتى لم يبد من الممكن إيقافها ما بقيت الجماعة، والخطر الذى تتعرض له العقيدة والنفوس، والأشياء البشعة الكثيرة التى فعلها كثيرون جدا من الإخوة فى هذه الجماعة الذين انحدروا إلى خطيئة الارتداد الشريرة، وجريمة الوثنية المقيتة، وشناعة اللوطيين، ... فنحن بكل المرارة والحسرة فى القلوب، نلغى جماعة الهيكل المذكورة، ودستورها وزيها واسمها، بمرسوم دائم الصلاحية لا رجعة فيه؛ ونخضعها للحظر الدائم بموافقة المجلس المقدس، ونحظر على أى شخص حظراً جازماً أن يدخل الجماعة المذكورة فى المستقبل أو يتلقى أو يرتدى زيها أو يتصرف كواحد من فرسان الهيكل".

تمت المهمة. واكتشف كليمينت أنها بسيطة، فى نهاية الأمر. لقد نجح بالقليل من الجمل فى القليل من الدقائق حيث أخفقت جميع جيوش المسلمين. وانمحى بكلمة قرنان من الإيمان والمشاق والمعارك والشرف والغيرة والمنافسة والأمل والجهد والاعتقاد. فى صمت استمع أعضاء المجلس، وفى صمت غادروا المكان، وكما علق أحد الإنجليز، "لم يوافقوا، ولم يعترضوا بوضوح". وبعد ذلك بوقت قصير، حكم كليمينت بشأن التخلص من ممتلكات فرسان الهيكل. وقرر إنه، فيما عدا الأراضى الواقعة فى شبه جزيرة سيبيريا، التى احتجزها لنفسه، كل شىء يأول إلى الإسبتاليين، من دور وحيوانات وأسلحة. لكن هذا القرار على الرغم من أنه اتخذ بسهولة كما صدر مرسوم الحل غير أنه طبق بقدر أقل من السهولة. ذلك أن جيمز ملك أرجون، وفيليب ملك فرنسا، والمنحدرين عن فيليب، جميعا وضعوا أعينهم على الأراضى والأموال، ومرت سنوات قبل أن يتم التوزيع أخيرا. وبقيت مع ذلك مشكلة مصير فرسان الهيكل أنفسهم. وبما أنهم كانوا إلى حد كبير أقل قيمة بكثير من ممتلكاتهم بالنسبة للجميع عداهم، فلم تكن هذه مشكلة معقدة. إذ إن كليمينت احتفظ لنفسه بحق الحكم على الزعماء، ولكن جميع الإخوان الآخرين سيتم الحكم عليهم فى مجالس أسقفية إقليمية. وسوف يتلقى من اعترفوا أو من ثبتت براءتهم معاشا من ممتلكات سابقة لفرسان الهيكل، وسوف يسمح لهم بالمعيشة فى أديرة أخرى، أو فى

دور كانت مملوكة للجماعة، ولكن بأعداد صغيرة فقط؛ أما من تراجعوا فى اعترافاتهم، أو رفضوا الاعتراف على الإطلاق، سوف يعلن عن أنهم مبتدعون، وسوف يلقون المعاملة التى يستحقونها.

عند هذه النقطة، حين تكون الاختيارات واضحة لا لبس فيها، فمن المثير للدهشة، أنه، فى حين اتخذ الكثيرون من فرسان الهيكل المخرج السهل، واختاروا الاعتراف، والمصالحة والمعاش المذل، فإن الكثيرين وجدوا روحهم مرة أخرى، وقبلوا الموت حرقا. وحسب ما تروى الحكايات، فقد أدى أحد هذه الإعدامات الرهيبة مباشرة إلى موت ذلك المحامى الشرير، العبقرى الخبيث، ويليام دى نوجارى إذ إنه مات فى منتصف إبريل عام ١٣١٣؛ وقيل إنه، قبل ذلك بثمانية أيام، التقى صدفة بمجموعة من فرسان الهيكل الذين كانوا فى طريقهم كى يحرقوا. وعندما تعرفوا عليه، صاح أحدهم:

"أيها الوزير الشرير، تدبر آثار أكاذيبك وظلمك! لا يمكننا أن نشكوك إلى سيدك، لأنه مع البابا ألد أعدائنا؛ لكننا نطلب منك أن تظهر بعد ثمانية أيام من اليوم أمام محكمة قاضى الأحياء والأموات".

وأضاف الرواة الذين حكوا هذه الحكاية، ربما كى يضيفوا إليها مصداقية، أن دى نوجارى مات "دون أن يهاجمه أو يضربه أحد". ولكن سواء كانت هذه القصة صحيحة أم لم تكن كذلك، فهى تعكس نسبة لا يستهان بها من الرأى العام المعاصر. لقد شعر وولتر من هيمينبورو، الرجل الإنجليزى الذى وصف مراسم الحل، أن المجلس المسكونى "لم يكن يستحق أن يسمى مجلسًا، بما أن البابا فعل كل شىء بسلطته". وقد عبر أحد أساتذة اللاهوت بجامعة باريس عن رأيه بصراحة وعلنا عن شكوكه فى ذنب الجماعة، فى حين أن لاهوتيا فرنسيا آخر - من جماعة الدومينيكان، التى لم تهتم أبدًا بفرسان الهيكل - علق بعد مشاهدة الكثير من محاكمات الأفراد، بأن "المزيد من الإيمان يجب أن يلحق من أنكروا عن أولئك الذين اعترفوا" وفى فلورنسا قال جيوفانى فيلانى مباشرة إن المأساة كلها نشأت عن جشع الملك فيليب.

من الواضح أن فيليب قد حقق نصرا من نوع ما، لكنه عاد عليه بالقليل من الفائدة. فتنغيصه المكشوف للبابا واستبداده المتعصب أساء إلى اسمه في أنحاء أوربا؛ وأما عن حلمه في حكم إمبراطورية مسيحية باعتباره "الملك المحارب" فإن قرار كليمينت بنقل ممتلكات فرسان الهيكل للإسبتاليين قد عرقل ذلك بشكل أكثر فاعلية مما كان من الممكن أن يفعله دى مولى.

ولكن يمكن القول إن سنوات فيليب التى اتسمت بالطغيان والتعذيب آتت أكلها فى النهاية. فجاك دى مولى، المعلم نفسه، كان لا يزال على قيد الحياة فى أحد سجون باريس، فى انتظار حكم كليمينت. وكم من مرة أخر فيها البابا اتخاذ قرار، وحين كان يتصرف فى النهاية، كان يتحايل لتحاشى المسئولية الشخصية بإرسال لجنة من الكرادلة بدلا منه. وفى ١٨ مارس ١٣١٤، استدعى الكرادلة دى مولى كى يمثل أمامهم، مع ثلاثة زعماء كبار آخرين رئيس مقر أكيتان، جيفرى دى جونفيل؛ ورئيس مقر نورماندى، جيفرى دى شارنى؛ وأمين خزانة وزراء الهيكل فى فرنسا، هيو دى بيرو. وكاندى مولى يبلغ من العمر سبعين سنة، أو أكثر فى ذلك الوقت؛ وكان دى بيرو أكبر قليلا؛ وكان الرجال الأربعة جميعا قد قضوا فى السجن ست سنوات ونصف. وكان دى بيرو قد قال فى الوقت الذى تمت فيه الاعتقالات إنه على استعداد لأن يفعل أى شىء ينقذ بجلده. والآن واتته الفرصة، فاغتنمها. إذ أكد على اعتراف بالذنب المطلق، وتمت مصالحته مع الكنيسة بوصفه مبتدعًا نادمًا، وأخذ بعيدا لقضاء السجن الدائم. وحذا جيفرى دى جونفيل حذوه، وقاسمه مصيره؛ عندئذ، فهم جاك دى مولى وجيفرى دى شارنى أخيرا خيانة البابا الذى وثقا فيه، فتراجعا عن اعترافاتهما وأكدا أخيرا على براءتهما إلى الأبد، وكذلك براءة الجماعة، فسحبوا فى الأصفاد كى يلقيا موتهما الأليم البطىء. وهكذا تم تدمير جماعة الهيكل التى ماتت كما ولدت وعاشت فى الدم والغضب والتقوى. ومع ذلك لم ينته الأمر تمامًا: ذلك أن جائزة فيليب كانت ما تزال فى الطريق. حين مات دى مولى، كانت أسرة كابى قد حكمت فرنسا على مدى ثلاثة قرون وربع. أما بعد وفاته، فلم تدم أكثر من أربع عشرة سنة، وأصبح فيليب

الأشقر ونسله يعرفون "بالملوك الملاعين". ويقال إن صوت دى مولى سمع من داخل اللهب الذى قتله، وهو يلعن البابا كليمينت والملك فيليب وعائلته، ويتوسل إلى المسيح نفسه أن يثبت براءة الجماعة. إذا كان فرسان الهيكل قد أدينوا ظلما، فإن كليمينت يستدعى فى خلال أربعين يوما، وفيليب خلال سنة، أمام قضاء الله.

لقد مات كليمينت فى العشرين من إبريل، بعد موت دى مولى بثلاثة وثلاثين يوما؛ وتبعه فيليب فى ٢٩ نوفمبر. ووضعهما دانتى بكل ثبات فى كوميديا الإلهية.

وسواء قبلنا أو لم نقبل حكاية لعنة دى مولى، تبقى مسألة موتهما؛ وعلى مدى الأربعة عشر عاما التالية، مع ترنح أسرة كابى نحو نهايتها، أصبح كل من أبناء فيليب الثلاثة ملكا ومات. ثم قسمت فرنسا صراعات طاحنة؛ وبتسلسل واضح ومباشر وضوح تسلسل أسرة كابى، أدت التشنجات التى وقعت بالمملكة إلى حرب الأعوام المائة مع إنجلترا. ويمكن للمرء أن يستنتج من ذلك ما يشاء. ويجب على من يقبلون فكرة أن البابا كليمينت معصوم، أن يقبلوا أيضا أن فرسان الهيكل مبتدعون، وأنهم أدينوا عن حق؛ ولكن عندئذ يجب على المرء أن ينسى ظروف انتخاب كليمينت وشخصيته وتأثير فيليب عليه. وبنظرة مشابهة منعكسة، يمكن للمرء أن ينظر إلى فيليب باعتباره مؤسس فرنسا، وباعتباره الملك الذى وحد آلامه وشجع على تطبيق حكم القانون؛ ولكن لكى يفعل المرء ذلك عليه أن ينسى الطريقة التى لوى بها القانون، وما اتسم به حكمه من همجية. ويمكن للمرء أن ينظر إلى فرسان الهيكل باعتبارهم أبرياء هاجمهم ملك جشع، وحبر ضعيف بشكل مقيت، وأن ينظر إلى موت فيليب وكليمينت على أنه قصاص إلهى على خطاياهم؛ ولكن من الواضح أن حقيقة القصاص لهم غير قابلة للإثبات، أما بالنسبة لمسألة براءة فرسان الهيكل، أو ذنبهم، فليس فى وسع المرء إلا أن يقول بأنه يجب التحفظ مع أى من الحكمين.

وفى غياب الدليل فى هذا الاتجاه أو ذاك - وفى القرن الذى نعيش فيه، والذى شهد ستالين وهيتلر، لا يمكن أن تعد اعترافات فرسان الهيكل أدلة - فإن أى تقييم للاتهامات التى سيقت ضد الجماعة يمكن أن تصبح مجرد قائمة من الأمور

الممكنة والمحتملة. فإذا ما أخذناها تحت العناوين العريضة من جنسية مثلية وابتداع ووثنية، يمكن أن يقال إن الاتهام الأول من المحتمل جدا أن يكون حقيقيا. ففى مجتمع مغلق، كله من الذكور، من المحتم تقريبا أن تظهر الجنسية المثلية، حتى إذا كانت لتظهر فى الظروف العادية. وسوف يكون من قبيل إقحام المصداقية أن نزعم، أنه فى فترة ما يقرب من قرنين وبين عشرات الآلاف من الرجال الذين أقسموا قسم فرسان الهيكل، لا يوجد من مارسوا الجنس معا. ومع ذلك، وفى مواجهة هذا، من غير المعقول أيضا أن نزعم أن اللواط كان شائعا عامًا، أو حتى واسع الانتشار، داخل الجماعة. ذلك أن مادة فى الميثاق حددت عقوبته؛ وبما أن هذه المادة تعد إضافة حديثة، وليست جزءًا من الميثاق الأصلى، فإن هذا يوحى بأن اللواط قد ظهر وأن المعلم ومجلس الإخوة الاستشارى كان رد فعلهم قويا من حيث عدم الموافقة. ولم تنبع عدم الموافقة من كراهية الجنسية الغيرية للجنسية المثلية فحسب، وإنما من الفكر العام المعاصر، وعلى مدى الزمن الذى وجد فيه فرسان الهيكل، كان اللواط يرتبط فى الأذهان الأوربية بالابتداع، حتى أن البلغار (الذين جعلهم ارتباطهم بالكنيسة اليونانية مبتدعين) وجدوا أن اسمهم تحول إلى لوطيين. (الكلمة باللغة الإنجليزية بها شبه فى النطق: المترجم)

لقد حدث تداخل بين الابتداع والجنسية المثلية فى الاستقبال غير القانونى المزعوم للإخوة الجدد - من تبادل لقبلات بذيئة، وإنكار المسيح، وتدنيس الصليب. وهذا لا يمكن اعتباره محتملا، ولكن ينبئ السماح بإمكان حدوثه. وحتى مع ذلك، لا يمكن تفسيره بشكل قاطع على أنه تصرف معاد للمسيحية. إذ إنه فى أى شىء يتعلق بفرسان الهيكل، فإن الطبيعة الغريبة لجماعتهم المكونة كلية من الذكور والنصف روحية والنصف عسكرية يجب أن نتذكر، وكما أوحى فى ذلك الوقت، أن القبلات (إن كانت قد حدثت) قد لا تزيد على مزحة خشنة، فى حين أن الإنكار والتدنيس (لو حدثا) قد يكونا اختبارا فظا للطاعة.

وبعد الاحتمال والإمكانية يأتى الافتراض - رد يمكن العمل به على الاتهام بالوثنية. ذلك أن أكثر الجوانب إثارة فى اعترافاتهم بالوثنية هو ما أحسوا به من اضطراب تام. إذ لم يوافق واحد منهم بالتفصيل الدقيق، ولكن باستثناء واحد - هو اعتراف أخ إيطالى قال إنه يعتقد أن الجماعة في وقت من الأوقات كانت تعبد قطة غامضة - وهم يتفقون بصفة عامة على أن الوثن المفترض كان عبارة عن رأس. ولكن بعد ذلك، من الصعب العثور على أية وحدة. فالبعض قالوا إن الرأس كانت نحاسية اللون؛ وقال البعض إنها كانت عبارة عن رأس صغيرة من الذهب، شيئا أشبه بامرأة. وقال آخرون إنها كانت ذات لحية؛ وقال آخرون إن لها وجهين؛ وآخرون قالوا إن لها قدمين، إما اثنتين، أو اثنتين أمام الاثنتين الخلفيتين. وقد أعطى أحد الفرسان وصفا دقيقا للجنة البابوية حتى أن أعضاء اللجنة أمروا بعمل بحث دقيق فى هيكل باريس. فلم يتم العثور سوى على وعاء فضى للآثار الدينية على شكل رأس امرأة، تختلف اختلافا تاما عن وصف الفارس، ومن نوع يمكن أن تمتلكه أية مجموعة دينية لا شك فى استقامتها. ولا يتضح الاضطراب فى الأوصاف فحسب؛ فالكثير من الإخوان الذين قالوا إنهم يعلمون عن عبادة رأس، أو أقروا بأنهم هم أنفسهم عبدوا رأسا، بدوا فى البداية غير واثقين من أن هذه العبادة كانت ابتداعا أو ليست كذلك.

ومنذ ذلك الوقت، أعطيت لهذا السؤال إجابات لا حصر لها بدرجات متفاوتة تتسم بالرومنسية الزائفة. من بينها تلك الأفكار التى تقول بأن الرأس هى الرأس المحنطة لمؤسس الجماعة هيو دى بيان؛ أو أنها تمثيل للشيطان؛ أو رأس شيطان يدعى بافومى؛ أو رأس النبى محمد. وحتى دون هذا العبث الإضافي، فإن بافوميت هذا عبارة عن تشويه للفظ محمد، وهذا الافتراض الأخير هو أضعف الافتراضات، بما أن تصوير النبى يعد غير مقدس بالنسبة لشخص مسلم كما بالنسبة لشخص مسيحى. وتجدر ملاحظة أن المصدر الأصلى للاتهامات القائلة بأن فرسان الهيكل أصبحوا أكثر إسلاما من كونهم مسيحيين هو فريدريك الثانى؛ ويصعب اعتباره مدافعا عن المسيحية.

لقد ظهر مع ذلك حديثًا، قول أكثر معقولية يتعلق "بمعبود" فرسان الهيكل. وهو مجرد افتراض، ولكن به ميزات تفتقر إليها جميع الافتراضات الأخرى - وهى أنه بسيط؛ ويأخذ فى الحسبان جميع الحقائق المعروفة فى هذا الأمر؛ ويفسر الاضطراب الموجود فى الأوصاف والاضطراب لدى فرسان الهيكل أنفسهم. لقد وضع هذه الفكرة باقتدار وبالتفصيل أيان ويلسون فى كتابه كفن أو غطاء تورينو، وهى باختصار: كان فرسان الهيكل يمتلكون صورة رأس، وكانوا يعتقدون أن لها قوة سحرية، فاحتفظوا بها بأقصى درجات السرية والأمن. وقد آلت إليهم الصورة بعد دمار القسطنطينية وقد عرضت للعامة فى فرنسا بعد حل الهيكل. ولم تكن هناك حاجة لإلصاق أدنى ظل من الابتداع بعبادة هذه الصورة - لأنها كانت تصور رأس المسيح. بهذه الطريقة يصبح اضطراب فرسان الهيكل مفهوما: فإذا كانوا يعبدون المسيح، فلا يمكن أن يكون ذلك ابتداعًا. وكذلك يتم توضيح الاضطراب فى الوصف ببساطة. ذلك أن فرسان الهيكل حين امتلكوا مثل هذه الصورة، لا شك فى أنهم صنعوا نسخا منها على القماش أو الخشب، ومن المؤكد أن هذه النسخ تفاوتت، حسب مهارة الفنانين، والمواد المستخدمة. ومما يضيف وزنا لهذا الرأى كله أن صورة للمسيح تعرف "بالمانديلون" قد اختفت فى دمار القسطنطينية، ولم تر بعد ذلك؛ وأنه فى إنجلترا فى قرية تمبلكومب، فى دورسيت، تم العثور على صورة مرسومة لرأس المسيح، يرجع تاريخها إلى زمن فرسان الهيكل، عام ١١٥١؛ والأهم من ذلك، أن القماش المعروف اليوم بغطاء تورينو ظهر فى فرنسا بعد حل الهيكل، فى عائلة جيفرى دى شارنى، رئيس مقر الهيكل فى نورماندى والذى مات حرقًا مع جاك دى مولى.

هذا الافتراض يستحق التفحص الدقيق، لأنه يترجم جوانب معقولة من الاتهامات التى كانت حتى الآن يصعب شرحها أو حملها أصلا على محمل الجد. ومع ذلك، فإن مسألة المصداقية الجادة لا نطبق فقط على الاتهام بالوثنية، وإنما تنطبق على الاتهامات ككل. ذلك أن الملك فيليب الأشقر لم يكن له أن يحتجز خمسة آلاف رجل فى السجن، ومن المؤكد أنه لم يكن ليستطيع أن يحرق المئات منهم حتى الموت، لو لم تكن

غالبية رعاياه تصدق الحقيقة الأساسية للاتهامات، ولم توافق، على الأقل، فى ذلك الوقت على ما تلا ذلك من إعدامات. لكى يحدث رد فعل كهذا اليوم، كان من الواجب إعداد مجموعة مختلفة تماما من الاتهامات، ولكن حين كتب ويليام دى نوجارى تفويض موبويسون، كتبه وهو يعلم تمام العلم النظرة المعاصرة للانقلاب، وهى نظرة لا شك فى أنه يتفق معها. ففى بداية القرن الرابع عشر، لم يكن الانقلاب السياسى هو أسوأ أنواع الانقلاب، وإنما الانقلاب الدينى. ذلك أن قبضة الكنيسة على فكر الناس كانت قوية جدا، لكن القوة العاطفية اللاشعورية للمسيحية كانت آخذة فى الانزلاق منذ وقت طويل. ولهذا السبب نمت جماعة الهيكل بهذه السرعة: فهى كانت مقبولة على المستويات الاجتماعية والروحية والعاطفية فى آن ووقت معا. ولهذا السبب أمكن تدميرها بهذه القسوة؛ لأنه حين أُظْهِرَ الفرسان المقدسون، بما لهم من قوة وثراء وكبرياء، على أنهم جهاز منظم من المسيحيين المرتدين، تم الكشف عن شيئين: تهديد لنسيج البنية الاجتماعية، وكبش فداء يمكن لتدميره أن يحسم الصراع بين الإيمان الواعى والردة غير الواعية.

وكان هناك سبب رئيسى إضافى على صدقية الاتهامات فى ذلك الوقت، وهو ببساطة ما اتسم به فرسان الهيكل من سرية. ذلك أن الشك والخوف هما وليدا الخيال والجهل؛ ومنذ البداية، أثارت نفس السرية - تلك التى لا يمكن كشف سترها - عشرات من الظنون الخيالية، والأساطير، التى لا يمكن إثباتها أو تكذيبها باعتبارها قائمة على أحداث مجهولة. وهكذا، فإن بعض الناس يحبون أن يعتقدوا أن فريق فرسان الهيكل الأصلى بحثوا عن خزانة ألواح ميثاق العهد ووجودها؛ وأن كريستوفر كلومبوس كان من فرسان الهيكل، لأن فرسان الهيكل البرتغاليين المتبقين تم استيعابهم فى جماعة ملكية عسكرية جديدة؛ وأن المسيح نفسه كان هو المعلم الأول للجماعة؛ وأن الجماعة مستمرة سرا اليوم. وثمة معتقدان وهميان آخران، هما أن فرسان الهيكل قد أدخلوا الشطرنج والمعمار القوطى فى أوربا؛ غير أن هذين الوهمين

يمكن إثبات خطئهما بيسر، لأن المعمار القوطى كان موجودا فى إيطاليا قبل تأسيس جماعة الهيكل، أما لعب الشطرنج فكان محظورا بحكم ميثاقهم.

مما يثير الأسى أن هذه المجموعة من المخلصين الذين كافحوا كى يجمعوا بين فضيلتين متضادتين للراهب والمحارب، والذين منحوا أرواحهم عن طيب خاطر من أجل عقيدتهم، يتذكرهم الناس فى الأغلب الأعم بوصفهم مصدراً للخيال والأوهام وحكايات الجنيات. ومن الأفضل والأنسب تذكر الصورة الصادقة للفرسان، والرقباء، والإخوة الخدم المتواضعين، وهم يرتدون عباءاتهم البيضاء والبنية، وهم يحيون، ويزرعون ويتاجرون، ويقاتلون ويموتون وعلى صدورهم صليب الشهادة الأحمر، وعلى رءوسهم راية المعركة. فى أرجون، فى يناير ١٣٠٨، كتب أحد فرسان الهيكل، وهو رئيس أحد المقار للملك جيمز وقال، "يعلم الرب أنى أشفق عليك، أنت وملك فرنسا، وجميع الكاثوليك بسبب من الضرر الذى ينشأ عن هذا كله - أكثر من إشفاقى علينا، حيث إن علينا تحمل الشر".

لم يكن فرسان الهيكل ملائكة أو قديسين؛ لكنهم لم يكونوا أيضاً شياطين.

ملحق الصور

١- أعطت قلعة جبل مونتفورت، القابعة على جرف فى منتصف الطريق بين ميناء صور وبحر الجليل، فرسان الهيكل السيطرة على الجليل الأعلى.

٢- كانت تكوا، التى لا تبعد سوى بضعة أميال عن مدينة القدس الشريف، هى موقع أول اشتباك عسكرى مسجل لهم - وكانت هزيمة تركت أرض المعركة وقد تناثرت بها جثث فرسان الهيكل "إلى أبعد ما يمكن للعين أن ترى".
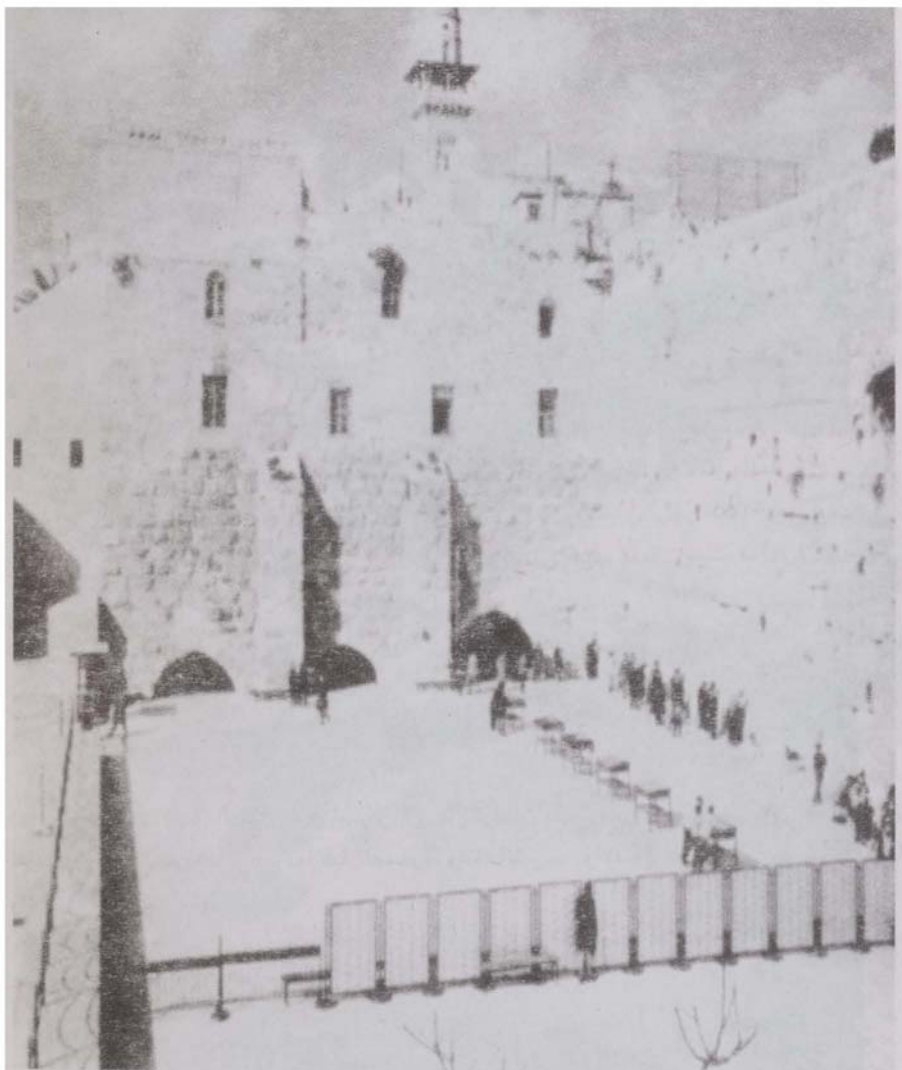
٣ - الدار الأم، إنه الهيكل فى القدس الذى نمت منه إمبراطورية الفرسان الفقراء. ولم يحص أحد عدد الأرواح التى فقدت من أجل امتلاك هذه الحجارة.
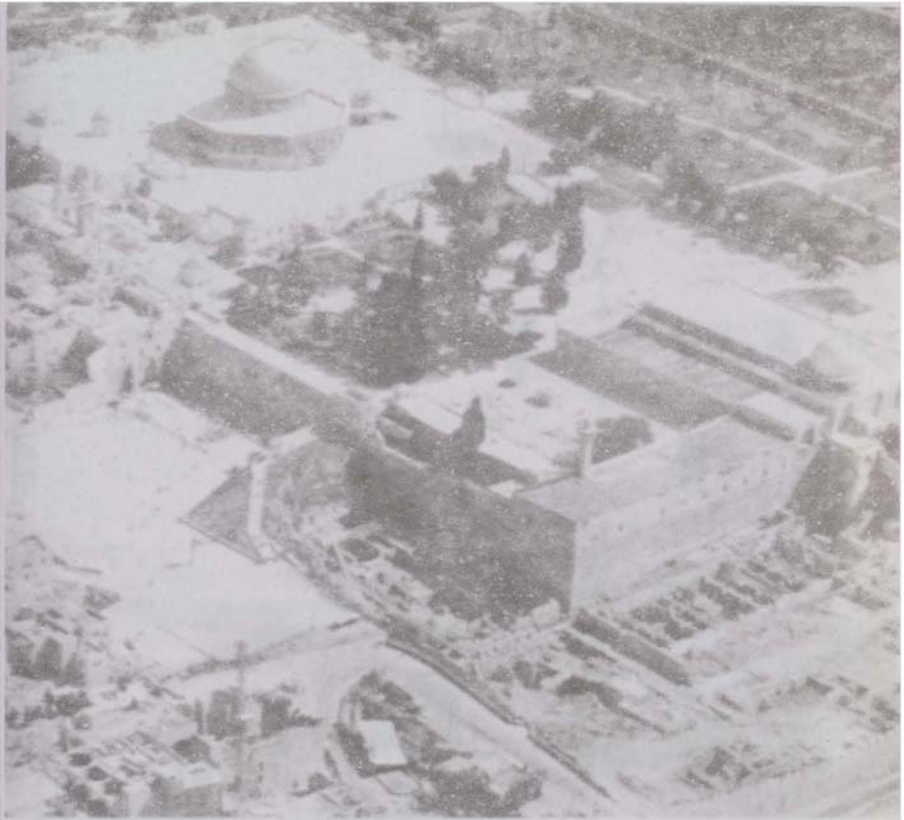
٤- مشهد لجبل الهيكل الذى لم يكن لأى من فرسان الهيكل ليراه؛ ولكن من على الأرض أمكن لفرسان الهيكل مع ذلك أن يعرفوا قبة الصخرة، وفناء التدريب، والأسوار التى كانوا يصلون داخلها، والتلال التى توجد خلفها.

٥ - العالم المصغر للجماعة، قلعة الحاج، على نتوء عتليت. على شبه الجزيرة المحصن هذا، استطاع أربعة آلاف رجل أن يعيشوا فى أمان، وما زال الدفاع البرى الرئيسى - السور الشرقى - موجودا: ارتفاعه تسعون قدماً وسمكه ست عشرة قدما.

٦ - الأسوار والخندق المنقب عنها والخاصة بقيسارية القديمة، وهى إحدى الوصلات البحرية الرئيسية فى شرايين الحياة للأراضى المقدسة، إنها الآن ميتة وجافة وخالية.
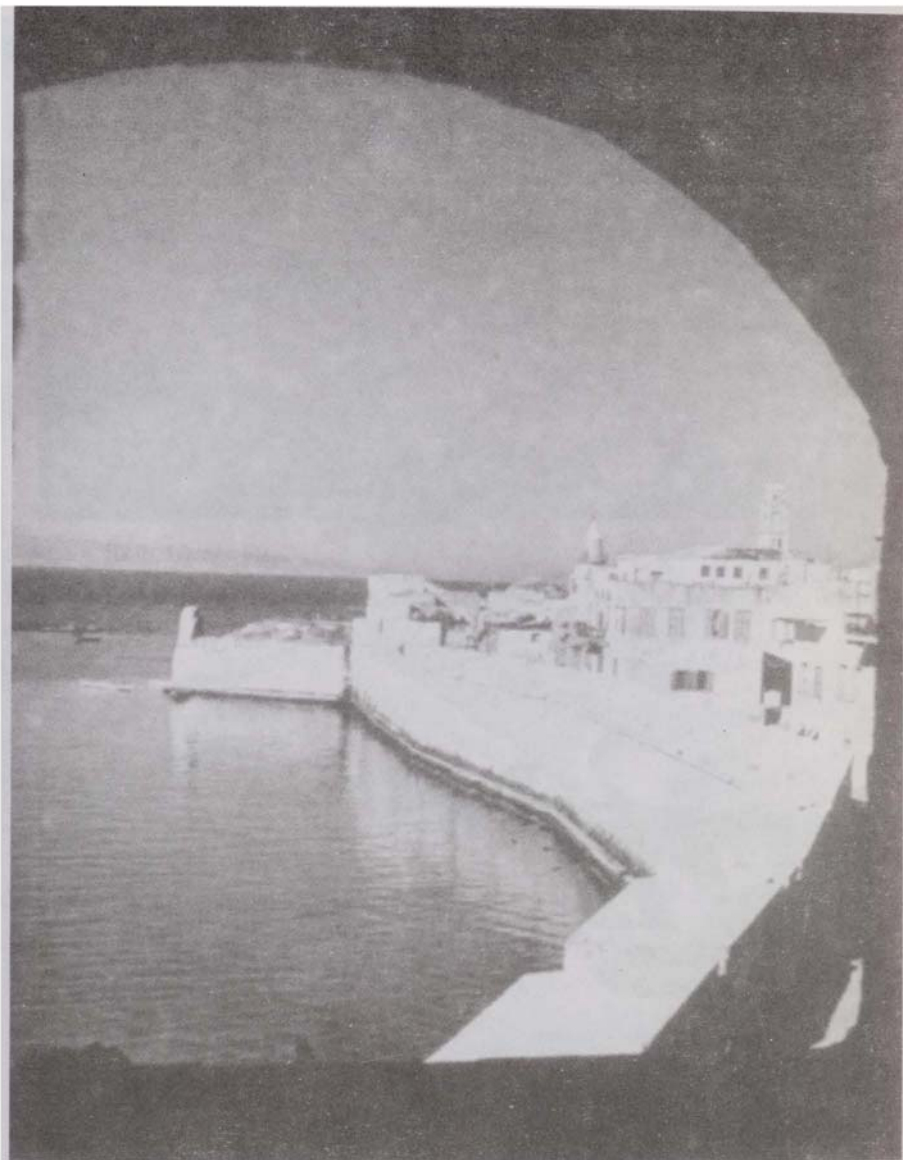
٧ – أسوار عكا البحرية. بالقرب من هذا المكان. تحمل فرسان الهيكل هزيمتهم الأخيرة. على يد المسلمين، وهم يقاتلون حتى آخر رجل.

٨ – الكتدرائية الكبرى فى فيزيلى. لقد انطلق الملك ريتشارد ملك إنجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا من هنا، لشن الحرب الصليبية الثالثة فى ٤ يولية ١١٩٠. وحين كان القديس ببرنار يعظ هنا يوم الأحد فى عيد القيامة عام ١١٤٦، اضطر إلى إلقاء موعظته فى الخلاء لأن المكان لم يتسع لمستمعيه.

٩ - بعد محاكمات دامت سبع سنوات، من التعذيب والاعترافات، وسحب الاعترافات، تم إحراق آخر معلم للهيكل جاك دى مولى، حيا مع أخيه فى الجماعة، جيفرى دى شارنى، وفيما بعد كشفت عائلة دى شارنى عن القماشة التى تعرف بغطاء أو كفن تورينو - وهى قطعة القماش التى قد تكون الكنز الحقيقى لفرسان الهيكل.
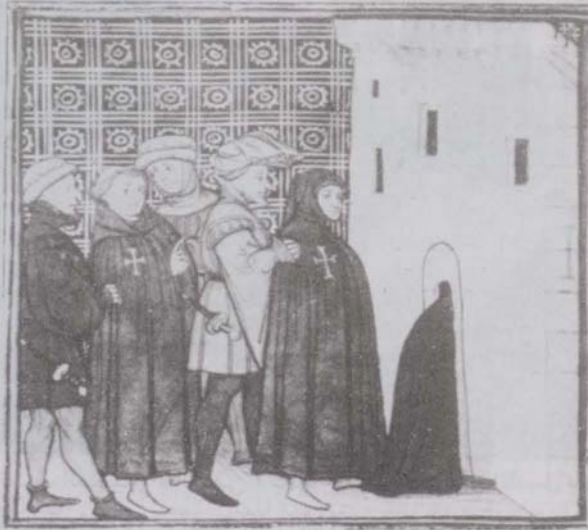
١٠ - فى هذا العام جميع فرسان الهيكل سجنوا بأمر من ملك فرنسا ... فى ١٣٠٧، تم إلقاء القبض على خمسة آلاف من فرسان الهيكل فى ليلة واحدة.

١١- قلعة جروس، فى جنوب شرق فرنسا، وهى أكبر قلعة لفرسان الهيكل موجودة فى أوربا. وقد تمت أعمال تنقيب هنا حديثًا بسبب الاعتقاد بأن كنز فرسان الهيكل يرقد مختفيًا داخل المبنى. ولم يتم العثور على أى شىء.

١٢ - قرية كورتواراد، التى لا يسهل الوصول إليها حتى فى هذه الأيام، تقع فى الصحراء القاحلة، وهى تعد مثالا رائعًا على مدينة من العصور الوسطى محفوظة بالكامل تقريبًا. والمبنى الكبير إلى اليمين هناك توجد قلعة فرسان الهكيل، وبجانبها كنيستهم. حين حكموا المدينة، كانت مكانًا واعدًا؛ وقد بنى التحصينات جميعًا الإسبتاليون، ورثة جماعة الهيكل المنحلة.
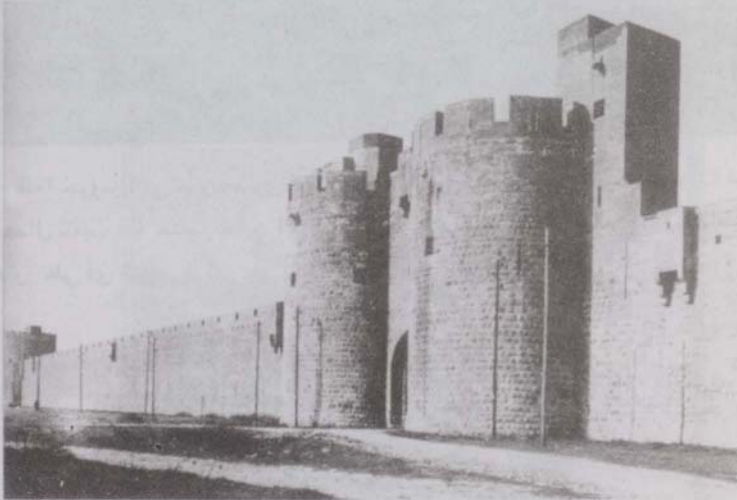
١٣ - أسوار إيج - مورت، غير المهادنة مثل مبدعها، القديس لويس، تبرز من مياه أهوار كامارانج المالحة. وإلى اليسار يوجد النهر الذى أبحر منه الملك القديس مرتين من أجل الحروب الصليبية.

١٤ - صورة رسمها متعاطف من القرن التاسع عشر لبابا من القرن الرابع عشر، ضعيف وفاسد، إنه صاحب المقداسة، كليمينت الخامس، الذى دمر جماعة الهيكل.

١٥- القديس لويس، ملك فرنسا

١٦- فيليب الأشقر، حفيد الملك القديس، يعتقد أنه قتل مع البابا الدمية التابع له، عن طريق لعنة آخر المعلمين.

١٧- الرأس المحفور فى الحجارة لأحد فرسان الهيكل فى جدران الكنيسة لهيكل لندن.

ثبت المراجع

Albon, Marquis d' *Cartulaire Général de l'Ordre du Temple, 1119?–1150.* Paris, 1913.

Albon, Marquis d' *Fascicule Complémentaire contenant la Table des Sommaires des Actes et l'Identification des Noms des Lieux.* Paris, 1922.

al-Qalanisi, Ibn *The Damascus Chronicle of the Crusades.* Tr. and ed. H. A. R. Gibb. London, 1932.

Anglo-Saxon Chronicle Tr. and ed. D. Whitelock, C. Douglas and S. Tucker. London, 1961.

Barber, M. *The Trial of the Templars.* Cambridge, 1978.

Bloch, M. *La France sous les derniers Capétiens 1223–1328.* Paris, 1958.

Boase, T. S. R. *Kingdoms and Strongholds of the Crusaders.* London, 1971.

Boussard, J. M. *Atlas historique et culturel de la France.* Paris, 1957.

Brooke, C. N. L. and Keir, G. *London 800–1216: The Shaping of a City.* London, 1975.

Broughton, B. B. *The Legends of King Richard I Coeur de Lion: A Study of Sources and Variations to the year 1600.* The Hague and Paris, 1966.

Brundage, J. A. *The Crusades – A Documentary Survey.* Milwaukee and Wisconsin, 1962.

Bulst-Thiele, M. L. *Sacrae Domus Militiae Templi Hierosolymitani Magistri – Untersuchungen zur Geschichte des Templerordens, 1118/9–1314.* Göttingen, 1974.

Burchard of Mount Sion *A Description of the Holy Land, 1280.* Tr. A. Stewart. London, 1896.

Burns, R. I. *The Crusader Kingdom of Valencia.* Cambridge, Mass., 1967.

Campbell, G. A. *The Knights Templars – Their Rise and Fall.* London, 1937.

Carrière, V. *Histoire et Cartulaire des Templiers de Provins.* Paris, 1919.

Clifford, E. R. *A Knight of Great Renown: The Life and Times of Othon de Grandson.* Chicago, 1961.

Cohn, N. *Europe's Inner Demons.* London, 1975.

Comnena, A. *Alexiad.* Tr. into French B. Leib. Paris, 1937 45.

Coulton, G. G. (Tr. and ed.) *Life in the Middle Ages.* London, 1910.

de Curzon, H. *La Règlé du Temple*. Paris, 1886.

de Curson, H. *La Maison du Temple de Paris*. Paris, 1888.

de Deuil, O. *De Profectione Ludovici VII in Orientem*. Tr. and ed. V. G. Berry. New York, 1948.

de Paris, G. *Chronique*. (Ms., 1313) Tr. into French J. A. Buchon.

Digard, G. *Philippe le Bel et le Saint Siège de 1285 à 1304*. Paris, 1936.

Dubois, P. *De Recuperatione Terrae Sanctae*. Ed. C. V. Langlois. Paris, 1891.

Duby, G. and Mandrou, R. *Histoire de la Civilisation Française*. Paris, 1958.

Duby, G. *The Chivalrous Society*. Tr. C. Postan. London, 1977.

Durrell, L. *Monsieur, or The Prince of Darkness*. London, 1974.

Ernoul *Chronique*. Tr. and ed. M. L. de Mas Latrie. Paris, 1871.

Evergates, T. *Feudal Society in the Bailliage of Troyes under the Counts of Champagne, 1152–1284*. London and Baltimore, 1975.

Farnell, I. *The Lives of the Troubadours*. London, 1896.

Favier, J. *Philippe le Bel*. Paris, 1978.

Finke, H. *Papsttum und Untergang des Templerordens*. Munster, 1907.

Forey, A. J. *The Templars in the Corona de Aragón*. London, 1973.

Fuller, T. *The History of the Holy War*. London, 1840 (first published 1639).

Gabrieli, F. *Storici Arabi delle Crociate*. Tr. E. J. Costello. Turin, 1957, London, 1969.

Gregory IV Dgha Catholicus *Elegy on the Fall of Jerusalem*. Published in *Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens*. Paris, 1869–1906.

Grousset, R. *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem*. Paris, 1934–36.

Hillgarth, J. N. A. *Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France*. Oxford, 1971.

Holtzmann, R. *Wilhelm von Nogaret, Rat und Grosssiegelbewahrer Philipps des Schönen von Frankreich*. Freiburg, 1898.

Huxley, J. *From an Antique Land*. Bath, 1972 (1st edn. 1954).

Jeune, R. P. M. *Histoire Critique et Apologétique de l'Ordre des Chevaliers du Temple de Jérusalem, dits Templiers*. Paris, 1789.

Johnston, R. C. (Ed.) *The Crusade and Death of Richard I*. Oxford, 1961.

Lacroix, P. *Military and Religious Life in the Middle Ages and the Renaissance*. New York, 1964 (1st edn. 1874).

Lameyre, A. *Guide de la France Templière*. Paris, 1975.

La Monte, J. L. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100–1291*. Cambridge, Mass., 1932.

Lane-Poole, S. *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*. London and New York, 1898.

Lees, B. A. (Ed.) *Records of the Templars in England in the Twelfth Century – The Inquest of 1185 with illustrative Charters and Documents*. London, 1935.

LeFebvre, Y. *Pierre l'Ermite et la Croisade*. Amiens, 1946.

Lizerand, G. *Clément V et Philippe le Bel*. Paris, 1910.

Lizerand, G. *Jacques de Molay*. Paris, 1913.

Lizerand, G. (Tr. and ed.) *Le Dossier de l'Affaire des Templiers*. Paris, 1923.

Luttrell, A. *Two Templar-Hospitaller Preceptories North of Tuscania*. Rome, 1971.

Madaule, J. P. *La Drame Albigeois et le Destin francais*. Paris, 1961. Tr. B. Wall as *The Albigensian Crusade – An Historical Essay*. London, 1967.

Martin, E. J. *The Templars in Yorkshire*. York, 1929–30.

Melville, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.

Michelet, J. *Procès des Templiers*. Paris, 1955.

Mountfort, G. *Portrait of a Desert: The Story of an Expedition to Jordan*. London, 1965.

Oldenbourg, Z. *St Bernard*. Paris, 1970.

Paris, M. *Chronica Majora vol IV*. Ed. H. R. Luard. London, 1877.

Parker, T. W: *The Knights Templars in England*. Tucson, 1963.

Pegues, F. J. *The Lawyers of the Last Capetians*. Princeton, 1962.

Perkins, C. *The Knights Templars in the British Isles*. London, 1910.

Pernoud, R. *Les Templiers*. Paris, 1974.

Prutz, H. *Die Geistlichen Ritterorden: Ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters*. Berlin, 1908.

Pugh, R. B. *Imprisonment in Medieval England*. Cambridge, 1968.

Richard, J. *Le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1953.

Röhricht, R. (Ed.) *Regesta Regni Hierosolymitani (MXCVII–MCCXCI)*. Innsbruck, 1893.

Runciman, S. *A History of the Crusades*. Cambridge, 1951–54.

Sandys, A. *The Financial and Administrative Importance of the London Temple in the Thirteenth Century*. Manchester, 1925.

Saunders, J. J. *Aspects of the Crusades*. Canterbury, 1962.

Schlumberger, G. *Renaud de Chatillon, Prince d'Antioch, Seigneur de la Terre d'Outre-Jourdain*. Paris, 1898.

Scott, W. *Ivanhoe*. London, 1906 (1st edn. 1819).

Schnorhali, N., Catholicus *Elegy on the Fall of Edessa*. Published in *Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens*. Paris 1869–1906.

Simon, E. *The Piebald Standard*. London, 1959.

Smail, R. C. *Crusading Warfare (1097–1193)*. Cambridge, 1956.

Thrupp, S. (Ed.) *Change in Medieval Society: Europe North of the Alps 1050–1500*. New York, 1964, London, 1965.

Thubron, C. *Mirror to Damascus*. London, 1967.

Thubron, C. *Journey into Cyprus*. London, 1975.

Treece, H. *The Crusades*. London, 1962.

Trevelyan, G. M. *A History of England*. New York, 1942.

Tritton, A. S. (Tr.) *The First and Second Crusades from an Anonymous Syriac Chronicle*. London, 1933.

Walker, A. *The Knights Templar in and around Aberdeen*. Aberdeen, 1887.

Wakefield, W. L. *Heresy, Crusade and Inquisition in Southern France 1100–1250*. London, 1974.

Williams, W. W. *St Bernard of Clairvaux*. Manchester, 1935.

Wilson, I. *The Shroud of Turin*. London, 1978.

Wood, H. *The Templars in Ireland*. Dublin, 1906–7.

Yusuf ibn Rafi ibn Tamin *Saladin; or, What Befell Sultan Yusuf (Salah Ed-din) (1137–1193 A.D.)*. Tr. C. W. Wilson. London, 1897.

Various authors *Le Siecle de Saint Louis*. Paris, 1970.

المؤلف فى سطور :

ستيفين هوارث

هو مؤرخ محترف، ومؤلف لعدة كتب. وهو ينحدر عن أسرة من المعلمين والكتاب. وقد كان كتابه الأول عن تاريخ ماسة كو ياك نور. وهو زميل فى الجمعية الملكية الجغرافية.

المترجم فى سطور :

إبراهيم محمد إبراهيم

- من مواليد أكتوبر ١٩٤٤.
- عمِل أمين مكتبة فى دار الكتب القومية منذ (١٩٧٠-١٩٧٦).
- عمل مترجمًا فى عديد من الهيئات المختلفة ودور النشر منذ (١٩٧٤ - وحتى الآن) .
- عضو اتحاد كُتَّاب مصر.

- من ترجماته :

- الصرخة الصامتة - دار الهلال (١٩٩٥).
- الجمعيات السرية - دار الشروق (١٩٩٩).
- حين تبكى الأفيال - الهيئة المصرية العامة للكتاب - (٢٠٠٠).
- المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - (٢٠٠١) .
- تاريخ مصر القديمة - شركة نهضة مصر - (٢٠٠٩).
- تاريخ الإنكا القديمة - شركة نهضة مصر - (٢٠٠٩) .

يقدم هذا الكتاب تسجيلا كاملا لأغرب ظواهر تاريخ العصور الوسطى؛ ظاهرة "جنود المسيح الفقراء"، أو "فرسان هيكل سليمان"، المعروفة باسم "فرسان الهيكل" الذين أصبحوا كنيسة داخل الكنيسة، ودولة داخل الدولة، وكانوا رجال بنوك، وتجاراً ودبلوماسيين وجامعين للضرائب. وقادوا حروباً صليبية ضد الدول الإسلامية في الشرق.

لقد اتهم "فرسان الهيكل" بالابتداع، والخيانة، واللواط وعبادة الأوثان والتجديف.

يلتزم هذا الكتاب بالحقائق التاريخية عند صعود هذه الجماعة دون تحريف أو انحياز. مع عرض للأساطير التي رويت عنهم.